



جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ

الحياة الفكرية في لواء الفرات والجزيرة

(دير الزور - الرقة - الحسكة)

منذ أواخر الحكم العثماني حتى نهاية الانتداب الفرنسي

(١٣٢٧-١٣٣٦هـ/١٩٠٩-١٩٤٦ م)

دراسة وثائقية

أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه

في التاريخ الحديث والمعاصر

إشراف

أ. د. سمر بهلوان

إعداد الطالب

رامي الضلي

للعام الدراسي
٢٠٠٩ - ٢٠١٠ م

إهداء

إلى : وطن عشت في ظله معزراً مكرّماً
سورية الحبيبة وقائدها
أساتذة عماد ثقافة وطن مقاوم
مدينة دير الزور وأهلها الكرام
المثقفين الأحرار في وطن البطولات
رفاق العلم والمعرفة والقلم
أهلي ، زوجتي ، أبنائي
إليهم جميعاً تحياتي وأشواقي

رامي الضللي

- ١٠ المقدمة واللمحة الجغرافية -
- التمهيد التاريخي: الأوضاع السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية
- ١٥ قبيل مرحلة الدراسة

الفصل الأول

الأوضاع السياسية والتنظيمات الإدارية

في لواء الفرات والجزيرة (١٩٠٩-١٩٤٦م)

- أولاً - الأوضاع السياسية والتنظيمات الإدارية في أواخر العهد العثماني
- ٢٨ (١٩٠٩ - ١٩١٨م)
- أ- النظام الإداري العثماني ٣٢
- ب- التنظيمات الإدارية العثمانية في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة السورية ... ٣٤
- ثانياً - الأوضاع السياسية والتنظيمات الإدارية في فترة الحكومة العربية
- ٤٥ (١٩١٨-١٩٢٠م)
- ١- الاحتلال البريطاني للجزيرة (١٩١٩-١٩١٩م) ٥٦
- أ - دخول الغزاة البريطانيين إلى دير الزور ٥٦
- ب- المقاومة الوطنية ضد البريطانيين وثورة رمضان شلاش أنموذجاً ٥٨

ثالثاً - الاحتلال الفرنسي لسورية والمتغيرات السياسية والإدارية

- ٦٢ (١٩٢٠-١٩٤٦م) ٦٢
- ١- الأوضاع السياسية والإدارية في العشرينيات (١٩٢٠-١٩٢٩م) ٦٦
- أ - سياسة تقسيم سورية إلى دويلات ٦٦
- ب - المفاوضات الفرنسية - السورية لحل الأزمة السياسية القائمة في سورية ٦٨
- ج- المجلس التأسيسي والدستور السوري لعام ١٩٢٨ م ٦٩
- ٢- الأوضاع السياسية والإدارية في الثلاثينيات (١٩٣٠-١٩٣٩م) ٧١
- أ - الانتخابات النيابية العامة ١٩٣١م ٧٢
- ب - المفاوضات الفرنسية - السورية ١٩٣١-١٩٣٣م ٧٣
- ج- دي مارتل ومشروع الصداقة السورية الفرنسية ١٩٣٣م ٧٥
- د - المعاهدة السورية - الفرنسية ١٩٣٦ م ٧٦
- ر - تلوؤ البرلمان الفرنسي في التصديق على معاهدة عام ١٩٣٦م ٧٨
- ز - انهيار الحكم الوطني ٧٩
- ٣- الأوضاع السياسية والإدارية في الأربعينيات ٨٢
- أ - سورية خلال الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٤م) ٨٢
- ب - تطور الأحداث السياسية في سورية ما بين عامي ١٩٤٣-١٩٤٤م ... ٨٤
- ج- انضمام سورية ولبنان إلى منظمة الأمم المتحدة (١٩٤٥-١٩٤٦م) ٨٥
- د - توقف المفاوضات السورية - الفرنسية ومعارك الاستقلال ٨٧
- ١ - العدوان الفرنسي الجديد ٨٧
- ٢ - الإنذار البريطاني ٨٨
- ٣- مجلس الأمن ومسألة الاستقلال السوري - اللبناني ٨٩
- ٤- جلاء القوات الأجنبية عن سورية ٩٠
- الخاتمة ونتائج الفصل الأول ٩٢

الفصل الثاني

الحياة الاقتصادية والاجتماعية في لواء الفرات والجزيرة (١٩٠٩ - ١٩٤٦)

٩٨	 أولاً - الحياة الاقتصادية (١٩٠٩-١٩٤٦م)
٩٨	 ١- الزراعة
٩٩	 آ- نظام ملكية الأراضي الزراعية
٩٩	 ١- الأراضي الميري (الأميرية)
١٠٠	 ٢- الأراضي المملوكة
١٠٠	 ٣- الأراضي الموقوفة
١٠١	 ٤- الأراضي الموات
١٠١	 ٥- الأراضي المتروكة
١٠٢	 ب- طرق استثمار الأراضي الزراعية
١٠٤	 ج- الأدوات المستخدمة في الزراعة
١٠٥	 د- وسائل الري
١٠٦	 هـ- المحاصيل الزراعية
١٠٧	 ٢- الصناعة والثروات الباطنية
١٠٨	 آ- الثروات الباطنية والمعدنية
١١١	 ب- الصناعة والحرف التقليدية
١١٣	 ٣- التجارة
١١٣	 ١- التجارة الداخلية
١١٣	 ٢- التجارة الخارجية
١١٤	 ٣- النقود المتداولة
١١٥	 ٤- الصادرات والواردات

١١٧	 ثانياً - الحياة الاجتماعية (١٩٠٩-١٩٤٦م)
١١٧	 ١- السكان دراسة ديموغرافية
١١٩	 آ - تقسيم السكان حسب دياناتهم
١١٩	 ١ - المسلمون
١١٩	 ٢ - المسيحيون
١٢٢	 ٣ - اليهود (الموسويون)
١٢٣	 ب - تقسيم السكان بحسب طبيعة عملهم
١٢٣	 ١ - أهل المدن (الحضر)
١٢٤	 ٢ - الفلاحون
١٢٥	 ٣ - البدو
١٢٧	 ٢- الفئات الاجتماعية
١٢٧	 ١- الفئة الحاكمة
١٢٨	 ٢- فئة الأعيان ورجال الدين
١٢٩	 ٣- فئة العامة
١٢٩	 ٤- فئة الزعر
١٣٢	 ٥- المرأة
١٣٢	 ٣- دور المساجد في الحياة الاجتماعية
١٣٣	 أ - المساجد في دير الزور
١٤٠	 ب - المساجد والجوامع في الرقة
١٤٢	 ج- المساجد والجوامع في الميادين
١٤٣	 د - المساجد والجوامع في البوكمال
١٤٤	 هـ - المساجد والجوامع في رأس العين
	 ٤- التكايا والطرق الصوفية في الفرات الأوسط والجزيرة وأثرها الاجتماعي
١٤٤	 أ - التكايا والزوايا
١٤٩	 ب - الطرق الصوفية

الخاتمة ونتائج الفصل الثاني.....	١٥٤
الصفحة	

الفصل الثالث

عوامل ومقومات الحياة الفكرية في لواء الفرات والجزيرة (١٩٠٩-١٩٤٦م)

١- العامل السياسي.....	١٥٨
٢- العامل الاقتصادي.....	١٦٩
٣- العامل الاجتماعي.....	١٨١
- دور العلماء والمفكرين.....	١٨٨
- الموروث الحضاري.....	١٩٨
٤- الحياة الثقافية (١٩٠٩-١٩٤٦م).....	٢٠١
- التعليم وأهميته في العهد العثماني.....	٢٠١
- الدراسة في هذه الكتاتيب.....	٢٠٢
ب - الكتاتيب وإدارتها وأنظمتها وأنواعها في الفرات الأوسط والجزيرة ..	٢٠٣
- الملاً والخوجة.....	٢٠٤
- النظم المرعية في الكتاتيب.....	٢٠٥
- النظم المرعية في كتاتيب الفرات الأوسط والجزيرة.....	٢٠٧
- التعاون الشعبي يمول الكتاتيب.....	٢٠٨
- أشهر معلمي الكتاتيب (ملاً خوجه).....	٢٠٩
٥- النوادي والجمعيات الثقافية والكتل السياسية.....	٢١١
أ - النادي الثقافي العربي.....	٢١١
ب - النادي الفراتي الأدبي.....	٢١٢
ج- الجمعية الثقافية.....	٢١٣
د - نادي الجراح الرياضي الثقافي.....	٢١٣
هـ - العصبة الوطنية.....	٢١٤
و - البيت الثقافي.....	٢١٤
ز - النادي الثقافي.....	٢١٥
ح - نادي الطليعة للأدب والفنون.....	٢١٦
ط - جمعية العهد الفراتية.....	٢١٦

٢١٧	ي - الكتلة الوطنية
٢١٨	- الشيوعيون
٢١٩	ل - القوميون السوريون الاجتماعيون
٢١٩	م - حركة القوميين العرب
٢١٩	ن - حركة شباب محمد
٢٢٠	س - الحزب الوطني
٢٢٠	ع - حزب الشعب
٢٢٠	- الأندية الرياضية
٢٢١	- نادي النهضة الرياضي في دير الزور
٢٢١	- نادي الفرات الرياضي
٢٢١	- نادي الكوخ (غازي)
٢٢٢	- نادي الأخوة الرياضي والثقافي
٢٢٢	- نادي البوكمال
٢٢٣	ص - الحركة الكشفية في الفرات الأوسط والجزيرة
٢٢٣	٦ - الصحف والمجلات في الفرات الأوسط والجزيرة
٢٢٤	أ - جريدة الجول
٢٢٥	ب - مجلة الفرات
٢٢٦	ج - صحيفة الفرات
٢٢٦	د - نشرة الفرات
٢٢٧	هـ - مجلة الثقافة
٢٢٧	و - مجلة صوت الفرات
٢٢٩	الخاتمة ونتائج الفصل الثالث

الفصل الرابع

انعكاسات الحياة الفكرية على الواقع السياسي في لواء الفرات والجزيرة

(١٩٢٠ - ١٩٤٦ م)

٢٣٦	أولاً : المقاومة الوطنية ضد العثمانيين (١٩٠٩-١٩١٨م)
٢٣٨	ثانياً : المقاومة الوطنية ضد الاحتلال البريطاني (١٩١٩-١٩١٩م)

٢٤١	١- ثورة رمضان الشلاش (١٩١٩)
٢٤٣	٢- صور أخرى من النضال الثوري
٢٤٤	٣- معركة النسورية عام (١٩١٩)
٢٤٦	ثالثاً : المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الفرنسي (١٩٢٠-١٩٤٦م)
٢٥٠	رابعاً: الثورات في منطقة الفرات والجزيرة (١٩٢٠-١٩٤٦م)
٢٥٣	١- ثورة خشام أو العنابزة
٢٥٥	٢- ثورة الرقة والموقف الفرنسي حيالها
٢٦٠	٣- انتفاضة الميادين
٢٦٣	٤- انتفاضة القورية
٢٦٤	٥- انتفاضة بيان دور
٢٦٤	٦- ثورة البوكمال (١٩٣٢م)
٢٦٥	خامساً: مرحلة النضال السياسي
٢٦٧	١- أحداث سنوات (١٩٣٢-١٩٣٦م)
٢٦٨	٢- أحداث سنة (١٩٣٠م)
٢٦٩	٣- عصبة العمل القومي
٢٧٠	٤- أحداث عامودا سنة (١٩٣٧م)
٢٧٢	٥- أحداث عام (١٩٣٥-١٩٣٦م)
٢٧٤	٦- دير الزور وثورة رشيد عالي الكيلاني
٢٧٥	٧- اللعبة الفرنسية الجديدة
٢٧٧	٨- ضرب عامودا بالطائرات سنة (١٩٣٧م)
٢٧٨	٩- اعتقال الشيخ دهام الهادي (١٩٤١م)
٢٧٩	١٠- ثورة المسلخة (١٩٤٢م)
٢٨٠	١١- دير الزور والنضال الوطني الفلسطيني
٢٨١	١٢- ثورة دير الزور عام (١٩٤٥م)
٢٨٧	١٣- قصف الرقة عام (١٩٤٥م)
٢٨٧	١٤- ثورة البوكمال عام (١٩٤٥م)
٢٩٢	الخاتمة ونتائج الفصل الرابع
٢٩٥	الخاتمة
٢٩٧	مصادر البحث ومراجعته
٣١٦	ملحق الوثائق والمصورات

مخطوط

وتقهي

د

مخطط البحث

- المقدمة: دوافع البحث وأهدافه.
- تمهيد تاريخي: الأوضاع السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية قبل مرحلة الدراسة.
- تمهيد جغرافي للواء الفرات الأوسط والجزيرة.
- نقد المصادر.
- الفصل الأول: الأوضاع السياسية والتنظيمات الإدارية في لواء الفرات والجزيرة (١٩٠٩-١٩٤٦م):

- أولاً- الأوضاع السياسية والتنظيمات الإدارية، في أواخر العهد العثماني (١٩٠٩-١٩١٨م).
- ثانياً- الأوضاع السياسية والتنظيمات الإدارية، خلال فترة الحكومة العربية (١٩١٨-١٩٢٠م).
- ثالثاً- الأوضاع السياسية والتنظيمات الإدارية، خلال فترة الاحتلال الفرنسي (١٩٢٠-١٩٤٦م).
- الفصل الثاني: الحياة الاقتصادية-الاجتماعية في لواء الفرات والجزيرة (١٩٠٩-١٩٤٦م):

- أولاً- الحياة الاقتصادية، في أواخر العهد العثماني (١٩٠٩-١٩١٨م).
- ثانياً- الحياة الاقتصادية، خلال فترة الحكومة العربية (١٩١٨-١٩٢٠م).
- ثالثاً- الحياة الاقتصادية، خلال فترة الاحتلال الفرنسي (١٩٢٠-١٩٤٦م).
- رابعاً- الحياة الاجتماعية، في أواخر العهد العثماني (١٩٠٩-١٩١٨م).
- خامساً- الحياة الاجتماعية، خلال فترة الحكومة العربية (١٩١٨-١٩٢٠م).
- سادساً- الحياة الاجتماعية، خلال فترة الاحتلال الفرنسي (١٩٢٠-١٩٤٦م).
- الفصل الثالث: واقع الحركة الفكرية في لواء الفرات ١٩٠٩-١٩٤٦م

- أولاً- الحركة الفكرية في بلاد الشام (مرحلة النهضة القومية العربية): (١٩٠٩-١٩٢٠م).
- ثانياً- الحركة الفكرية في لواء الفرات، في أواخر العهد العثماني (١٩٠٩-١٩١٨م).
- ثالثاً- الحركة الفكرية في لواء الفرات، خلال فترة الحكومة العربية (١٩١٨-١٩٢٠م).
- رابعاً- الحركة الفكرية في لواء الفرات، خلال فترة الاحتلال الفرنسي (١٩٢٠-١٩٤٦م).
- الفصل الرابع: انعكاسات الحركة الفكرية في رفض الاحتلال:

- أولاً- انعكاسات الحركة الفكرية، في أواخر العهد العثماني (١٩٠٩-١٩١٨م).
- ثانياً- انعكاسات الحركة الفكرية، خلال فترة الحكومة العربية (١٩١٨-١٩٢٠م).
- ثالثاً- انعكاسات الحركة الفكرية، خلال فترة الاحتلال الفرنسي (١٩٢٠-١٩٤٦م).

التمهيد

– الأوضاع التاريخية قبل عام (١٩٠٩م/١٣٢٧هـ):

مرت منطقة الفرات الأوسط والجزيرة بالعديد من المتغيرات السياسية، إذ شهدت عدة تقلبات ومتغيرات، خاصة وأن المرحلة التي عشنا بدراستها تمتد في الفترة ما بين عامي (١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م – ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م) وتعدّ من أكثر المراحل التي شهدت متغيرات سياسية وإدارية.

١- المتغيرات والأوضاع السياسية والتنظيمات الإدارية العثمانية:

إن نقطة بداية مرحلة البحث هي سنة انتهاء حكم السلطان عبد الحميد الثاني (١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م) وبالتالي فإنها تمتد على القسم الأخير للسنوات العشر من لعهد العثماني حتى نهاية وجوده في المنطقة في عام (١٣٣٦هـ / ١٩١٨م) تلاه فترة حكم محلي لزعامات شعبية في المنطقة، ومن ثم تبعها فترة الاحتلال الإنكليزي لمنطقة الفرات الأوسط والجزيرة في عام (١٣٣٧هـ / ١٩١٩م)، اغتصبتها فترة من الحكم المحلي الشعبي ثم استلام زمام السلطة من قبل الحكومة العربية أو ما يعرف بـ (الحكم الفيصلي) واستمرت حتى دخول قوات الاحتلال (١).

لقد أثرت هذه المتغيرات السياسية على الوضع الإداري في المنطقة، ولكن مع ملاحظة أن الخطوط الأساسية لتلك النظم الإدارية قد حافظت على هيكليتها التنظيمية نفسها مع تغيرات بسيطة في بعض الأحيان، ولذلك فإن دراسة تلك التطورات الإدارية والسياسية في مجملها هي مترابطة مع بعضها تلزمنا بأن نقدم دراستهما مترافقة مع بعضها بل وتفرض علينا العودة إلى تقدم تسلسل تاريخي يربط هذه الفترات مع بعضها منذ بداية مرحلة البحث أي خلال العهد العثماني وهذا يتطلب منا العودة إلى بداية دخول المنطقة تحت السيطرة العثمانية أي مع دخول القوات العثمانية إلى بلاد الشام بعد معركة مرج دابق (٩٢٢هـ / ١٥١٦م) والتي على إثرها أخذت مناطق بلاد الشام تدخل تحت طاعة النفوذ العثماني معلنة ولائها بما في ذلك منطقة الفرات الأوسط والجزيرة والتي أقر أمراء تلك المنطقة بتبعيةهم للسيادة العثمانية وكان ذلك في عام (٩٢٣هـ / ١٥١٧م) ^(١)، ولذلك أبقى العثمانيون الأوضاع في المنطقة على ما هي عليه من سيطرة لأمراء القبائل العربية المحلية وزعمائها، اعترافاً منهم بولائهم للدولة العثمانية ^(٢).

(١) ابن طولون ، شمس الدين محمد : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان [تاريخ مصر والشام] ، تحقيق : محمد مصطفى ، ج ٢ ، د ، ن ، ١٩٦٤م ، ج ٢ ، ص ٤ – ٢٥ .

(٢) رافق ؛ عبد الكريم : بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت (١٥١٦ – ١٧٩٨م) ، دمشق ، وزارة الثقافة ، ط ٢ ، ١٩٦٨م ، ص ٦٠ .

ومع هذا المتغير السياسي لابد من تعديلات إدارية، إذ قامت الدولة العثمانية بتقسيم إداري جديد لمنطقة الفرات الأوسط والجزيرة وأطلقت على المنطقة تسمية (بكربكية ^(٣) الرقة ^(٤)) أو الرها (أورفة ^(٥)) وهي تقسم إلى ستة ألوية:

- ١- لواء سروج
- ٢- لواء بني ربيعة
- ٣- لواء بيره جك
- ٤- لواء الرقة
- ٥- لواء رهبة أو رحبة ^(٦)
- ٦- لواء حماسة ^(٧)

لقد شملت أراضي إيالة الرقة كامل منطقة الفرات الأوسط والجزيرة حتى أنها وصلت في حدودها مع ولايتي الموصل وبغداد شرقاً وبادية الشام جنوباً وولاية طرابلس من الغرب وولاية ديار بكر شمالاً ^(٨).

وهذا التقسيم الإداري كان قد وضعته الدولة العثمانية في عام (١٠١٥هـ / ١٦٠٦م) واستمرت فيه المنطقة على هذا الوضع لفترة طويلة حتى عام (١٢٤٧هـ / ١٨٣٢م) حين دخلت القوات المصرية بقيادة إبراهيم باشا إلى بلاد الشام وعُرفت فترة وجودهم تلك بفترة الحكم المصري واستمر لمدة تزيد عن ثماني سنوات حتى خروج تلك

^(٣) بكربكية : مستمدة من بكربكي ، كلمة تعني (بيك البكوات) ، وقد اعتمدتها المنظومة العسكرية العثمانية، وقد كانت تعادل في النظام المملوكي أتابك العسكر ، ثم منحها العثمانيون لأول مرة إلى (حاكم الأيالة) ، فصار هذا يعني الأمير المشرف على مجموعة من البيكوات ومفردها (بيك) ، وهو ما يقابلها بالعربية أمير اللواء ، انظر : الصديق ؛ محمد بن أبي سرور : المنح الرحمانية في الدولة العثمانية ، تحقيق : ليلى صباغ ، دمشق ، دار البشائر ، ط ١ ، ١٩٩٥م ، ص ٧ .

^(٤) أهملت الرقة في العهد العثماني حتى صارت بلدة صغيرة معظمها خراب ، حتى أن الوالي العثماني لم يسكن فيها ، بل بقي في أورفة وكان يرسل للرقة موظفاً يتسلم الخراج ، وقد حملت اسم الولاية لموقعها المتوسط في الولاية ، انظر : فرا ؛ صونيا - دوهوفل ؛ لوك : الرقة وأبعادها الاجتماعية ، ترجمة عبد الرحمن حميدة ، دمشق ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ط ١ ، ١٩٨٨م ، ص ١٨ - ٢٧ .

^(٥) طربين ؛ أحمد : الوحدة العربية في تاريخ المشرق المعاصر (١٨٠٠ - ١٩٥٨م) ، دمشق ، منشورات جامعة دمشق ، ١٩٧٠م ، ص ٦٣٨ - ٦٣٩ .

^(٦) الرحبة : قلعة بناها مالك بن طوق التغلبي أحد ولاة الدولة العباسية في عهد المأمون ، وهي تقع على نهر الفرات قرب بلدة الميادين وتبعد عن دير الزور ٤٥ كم ، وقد اقترن اسم دير الزور بها خلال الفترات الأولى في العهد العثماني ، ذلك أنها المكان الأكثر شهرة في المنطقة آنذاك وهي الرحبة ، أما رهبة فهي في اللفظ التركي ، انظر : قاموس المنجد في اللغة والأعلام ، بيروت ، دار الشرق ، ط ٣٦ ، ١٩٩٧م ، ص ٥١٥ ، وانظر : عامر ، محمود : اللغة العثمانية القديمة والحديثة ، دمشق ، جامعة دمشق ، ط ١ ، ٢٠٠٢ / ٢٠٠٣م ، ص ١٩ .

^(٧) الحصري ؛ ساطع : البلاد العربية والدولة العثمانية ، القاهرة ، معهد الدراسات العربية العالية ، ط ١ ، ١٩٥٧م ، ص ١٣٢ - ١٣٣ ، وانظر : علوان ؛ إبراهيم : بطولات على ضفاف الفرات سورية (١٥١٦ - ١٩٤٥م) بيروت ، دار الفكر اللبناني ، ط ١ ، ١٩٩٢م ، ص ٩ .

^(٨) سامي ؛ شمس الدين : قاموس الأعلام ، استانبول ، مطبعة مهران ، ط ١ ، ١٣١١هـ ، (ترجمت هذه الصفحات من قبل أ . د . محمود عامر) ، مج ٤ ، ص ٢٤٢٧ .

القوات في عام (١٢٥٥هـ / ١٨٤٠م)^(٩)، وقد لاقت الحكومة المصرية في بداية دخولها ترحيباً شعبياً من الأهالي في المنطقة ولكن نتج عن هذا المتغير السياسي تبدلات إدارية على منطقة الفرات الأوسط والجزيرة، إذ جعلتها الحكومة المصرية تتبع إلى لواء حمّاه^(١٠)، ومن ثم قامت بإرسال قوة عسكرية يرأسها حاكم لمنطقة الفرات الأوسط والجزيرة قصر إقامته في ديران وقد سمى القائد العسكري (معجون آغا) حاكماً عسكرياً عليها^(١١).

وبتحليل سريع لذلك التعديل الإداري نجد دوافع عديدة له لعل أبرزها هي تمردات البدو في بلاد الشام، سواء في بادية الشام أم الجزيرة، ضد قوات إبراهيم باشا حتى أنهم قد فرضوا الأتاوات على المسافرين وعلى القوافل التجارية في البادية ونتج عنه اضطراب أمني وبالتالي فإن هذا قد هدد الوضع الأمني للوجود المصري في المنطقة، ولذلك فقد سارعت الإدارة المصرية إلى محاولة توطين القبائل البدوية في قرى جديدة ، وذلك في محاولة للتخفيف من هجماتهم وتحقيق الاستقرار لهم^(١٢).

لقد كانت منطقة الفرات الأوسط والجزيرة كغيرها من مناطق بلاد الشام التي ثارت على الحكم المصري عندما لم تحقق لها القوات المصرية آمال وأحلام الشعب العربي، ولذلك ثار أبناءها ضد قوات إبراهيم باشا واستمرت المقاومة حتى خروج القوات المصرية وانسحابها من المنطقة في عام (١٢٥٥هـ / ١٨٤٠م)^(١٣).

نستنتج مما سبق من خلال تحليل لطريقة تعامل أبناء منطقة الفرات الأوسط والجزيرة مع القوات المصرية في أول دخولها وطريقة خروجها نلاحظ فارقاً في التعامل، وهذا إن دل على شيء فهو يدل على بوادر واضحة للشعور القومي العربي والترابط لدى أبنائها وتقديمه على روابط أخرى وخير دليل على هذا كما أسلفت فقد سجلوا موقفاً رائعاً باستقبالهم القوات المصرية عند دخولها كونهم كانوا يمتنون النفس بخلاص عربي يساعدهم على التحرر من السيطرة العثمانية (التركية)؛ وعندما اصطدموا بالواقع تحركوا برد فعلي عكسي بصورة جماعية فكانت بادرة واضحة لتحرك الشعور القومي، إذ تحركت بلاد الشام بشتى مناطقها للمشاركة في الثورة ضد إبراهيم باشا^(١٤)، ومن هنا برزت أهمية فترة الحكم المصري في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة كما في مختلف أنحاء بلاد الشام رغم قصر مدتها، إذ كانت دليلاً واضحاً على صدق الشعور القومي عند العرب في بلاد الشام عامة، ولذلك فقد تنبّهت

(٩) البرجاوي ؛ سعيد : الإمبراطورية العثمانية تاريخها السياسي والعسكري ، بيروت ، الأهلية للنشر ، ط ١ ، ١٩٩٣م ، ص ٢٢٣ .

(١٠) عين على منطقة الفرات الأوسط والجزيرة فور دخول القوات المصرية حاكماً عسكرياً مصرياً يدعى (قفطان) لمدة وجيزة قبل ، تصل حملة عسكرية كبيرة ويستبدل ، انظر : عياش ؛ عبد القادر : دير الزور حاضرة وادي الفرات ، مجلة العمران ، العدد ٣٩ + ٤٠ ، ص ٢٣ .

(١١) العرفي ؛ بسام : دير الزور لؤلؤة الفرات ، دمشق ، دار حطين ، ط ١ ، ١٩٩٩م ، ص ٣٧ .

(١٢) طرين ؛ أحمد : تاريخ المشرق العربي المعاصر ، دمشق ، جامعة دمشق ، ١٩٩٢م ، ط ٤ ، ص ٣٤٧ .

(١٣) عياش ؛ عبد القادر : حضارة وادي الفرات ، إعداد : وليد مشوح ، دمشق ، مطبعة الأهالي ، ط ٢ ، ١٩٩٩م ، ص ١٥١ .

(١٤) نجاح ؛ محمد : الحركة القومية في سورية من خلال تنظيماتها السياسية ، ج ٢ ، دمشق ، دار البعث ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ص ٣١ .

الدول الكبرى (وخاصة بريطانيا وفرنسا) إلى أهمية الشعور القومي العربي، فسارعت نحو البدء بتحريك العرب ضد العثمانيين في محاولة منها لاستغلال ذلك في المراحل التالية^(١٥).

بعد عودة بلاد الشام إلى التبعية العثمانية قامت فوراً بتقسيمها إلى ثلاث ولايات أساسية هي:

١- ولاية سورية (الشام)

٢- ولاية طرابلس

٣- ولاية حلب

وقد وضعت منطقة الفرات الأوسط والجزيرة ضمن المناطق التابعة إدارياً إلى ولاية حلب^(١٦)، بل وعرفت نتيجة لذلك حسب التقسيمات الإدارية العثمانية تحت اسم (ولاية حلب والركة)^(١٧).

ولعل أبرز الأحداث السياسية خلال هذه الفترة هي تلك الحملة العسكرية العثمانية بقيادة عمر باشا^(١٨)، والتي قصدت منطقة الفرات الأوسط والجزيرة بغية توطيد الأمن فيها نتيجة لتمردات عشائر البدو، وذلك في عام (١٨٥٥ م / ١٢٧٥ هـ)^(١٩).

لقد أحل هذا الأمر بتوازن القوى في المنطقة على طول الفرات الأوسط وفي الجزيرة وبادية الشام، إذ استقرت هذه الحملة في المركز الأهم في هذه المنطقة وقصته المتصرفية وهي مدينة دير الزور التي تحولت إلى مراكز لمتصرفية مستقلة ممثلة مرتبطة بشكل مباشر بالآستانة وأطلق عليها اسم (متصرفية زور) وأراضيها تمتد على منطقة الفرات الأوسط والجزيرة وبادية الشام^(٢٠)، فكان هذا تحولاً هاماً في تاريخ هذه المنطقة، إذ منحها أهمية خاصة لكونها كانت من قبل تتميز بصعوبة خضوعها للحكم العثماني بل قلما استطاعت الدولة العثمانية طوال وجودها السابق أن تحكم قبضتها بالشكل الصحيح على منطقة الفرات الأوسط والجزيرة والبادية، وذلك لأسباب كثيرة لعل أبرزها هي غلبة طابع العشائرية والبداءة التي تميزت به العديد من مناطق المتصرفية^(٢١)، فكثيراً ما كانت عشائر المنطقة والبدو يفرضون سيطرتهم في مناطق إقامتهم وهم أصحاب القرار بل ويفرضون الأناتوات على الطرق وعلى قوافل

(١٥) عياش ؛ عبد القادر : حضارة وادي الفرات ، ص ١٥١ ، وانظر : نجاح ؛ محمد : الحركة القومية في سورية ، ص ٣١ .

(١٦) بازيلى ؛ قسطنطين : سورية ولبنان تحت الحكم العثماني من الناحيتين السياسية والإدارية ، ترجمة : سيد جابر ، بيروت ، دار الحداثة ، ط ١ ، ١٩٨٨ م ، ص ٥٠ .

(١٧) وثائق الأوامر السلطانية حلب ، سجل رقم ٥٧ ، رقم الوثيقة ٩٦ ، عام (١٢٦٨ هـ / ١٨٤٨ م) ، ص ٤٣ .

(١٨) عمر باشا : أحد غلمان الدفشمرة (ضريبة الدم) وهو من أصل كرواتي ، وقد دار قتال عنيف بين حملته والأهالي ، وانتهى بالصلح ودفع الفدية ، وساق عدداً من أنبائها للخدمة في الجيش العثماني يساوي عدد جنودها الذين قتلوا وهم ١٦ جندياً ، انظر : عياش ؛ عبد القادر : حضارة وادي الفرات ، ص ١٥٠ - ١٥١ .

(١٩) طرين ؛ أحمد : تاريخ المشرق العربي المعاصر ، ص ٣٤٧ .

(٢٠) الغزي ؛ كامل : نهر الذهب في تاريخ حلب ، ج ٣ ، حلب ، منشورات دار القلم العربي ، ط ٢ ، ١٩٩١ م ، ج ١ ، ص ٤٦٠ .

(٢١) وثائق الأوامر السلطانية حلب ، سجل رقم ٦٢ ، دون رقم الوثيقة ، عام (١٢٧٩ هـ / ١٨٥٩ م) .

التجار والمسافرين^(٢٢)، حتى على الدولة العثمانية، ففي مواسم الحج كانت الدولة العثمانية ترسل مع أمراء محمل الحج تلك الأتاوات إلى زعماء القبائل البدوية بما يسمى (الصره) لتأمين سلامة الطريق للحجيج^(٢٣).

كذلك اضطرت الدولة العثمانية في أحيان أخرى إلى استخدام الشدة والقوة، فقد أرسلت حملة عسكرية إلى المنطقة^(٢٤)، بقيادة ثريا باشا وذلك في عام (١٢٨٣هـ / ١٨٦٤م)^(٢٥)، وذلك لتأديب بعض العشائر والقبائل البدوية المتمردة ضد السلطة^(٢٦).

لقد شهدت المنطقة في الفترة الممتدة ما بين عامي (١٢٨٣هـ / ١٨٦٤م) حتى (١٢٩٩هـ / ١٨٨١م) أي العام الذي سُميت في المنطقة بـ(المتصرفية)، وقد شهدت هذه الحقبة تقلبات التسمية الرسمية لمنطقة الفرات الأوسط والجزيرة تغيرت خلالها التسمية ما بين قائم مقامية الزور، أو لواء الزور، وكذلك تقلب وضعها الإداري كلواء يتبع لولاية حلب أو كمتصرفية تتبع إلى الأستانة مباشرة ولذلك سوف نذكر تلك التبدلات بشكل سريع. في عام (١٢٨٤هـ / ١٨٦٥م) حولت المنطقة إدارياً إلى قائم مقامية الزور وأعيد ارتباطها بولاية حلب وعين عليها عثمان بك قائم مقام^(٢٧).

وفي عام (١٢٨٧هـ / ١٨٦٩م) صارت المنطقة لواء ولكن استمر يتبع لولاية حلب^(٢٨) وعين عليها المتصرف أرسلان باشا^(٢٩).

(22) العيساوي ؛ شارل : التاريخ الاقتصادي للهلال الخصيب (١٨٠٠ - ١٩١٤ م) ، ترجمة : رؤوف عباس حامد .

(23) رافق ؛ عبد الكريم : قافلة الحج الشامي وأهميتها في العهد العثماني ، دمشق ، مجلة الدراسات التاريخية بجامعة دمشق ، العدد ٦ ، تشرين الأول ، ١٩٨١م ، ص .

(24) الطباخ ؛ محمد راغب : أعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء ، ج ٧ ، حلب ، دار القلم العربي ، ط ٢ ، ١٩٩١م ، ج ١ ، ص ٤٦٠ .

(25) ثريا باشا : هو ابن عثمان باشا الكرجي الأصل ، ولد بالأستانة عام (١٢٤١هـ / ١٨٢٤م) ، عين بعد أن أتم تحصيله العلمي في غرفة ضبط الديوان الهمايوني في الباب العلي ، ثم عين رئيساً للكتاب في سفارة باريس ، وفي عام (١٢٧٥هـ / ١٨٥٥م) حاز على رتبة البكركي ، ثم عين متصرفاً للقدس الشريف في عام (١٢٩٥هـ / ١٨٧٤م) حيث نقل إلى سيواس ، وتوفي فيها عام (١٢٩٦هـ / ١٨٧٥م) ، انظر : وثائق الأوامر السلطانية حلب ، السجل ٦٢ ، دون رقم الوثيقة ، عام (١٢٧٩هـ / ١٨٥٩م) ص ٥٧ .

(26) الطباخ ؛ محمد راغب : أعلام النبلاء ، ج ٧ ، ص ٣٥٦ - ٣٥٧ .

(27) حقق عثمان بك إنجازات عمرانية مهمة، وكان من أبرزها مباشرته ببناء السراي الحكومية في محلة عبد العزيز بدير الزور، وثكنة عسكرية في الجهة الجنوبية الشرقية من أطراف المدينة، وياشر ببناء السوق الميري (ويعرف اليوم بالسوق المقي) ، واستقدم بعض أصحاب المهن (كالبنايين ، والتجارين إلخ) ، وكذلك سعى لنشر الأمن وخاصة على طرق المتصرفية ، انظر : وثائق الأوامر سالنامه ولاية حلب (١٢٨٤هـ / ١٨٦٥م) ، ص ٥١ .

(28) سالنامه ولاية حلب (١٢٨٧هـ / ١٨٦٩م) ، ص ٦٦ .

(29) عين أرسلان باشا متصرفاً للمنطقة وكان يحمل طوخين برتبة بكركي ، ونلاحظ في عهده وللمرة الأولى بتاريخ منطقة الفرات الأوسط والجزيرة تنظيمًا إداريًا واضح المعالم ، حيث تعتبر فترته الانطلاقة لتنظيم إداري

في عام (١٢٨٩هـ / ١٨٧١م) تحولت المنطقة إلى متصرفية مستقلة مرتبطة بالآستانة^(٣٠) وأطلق عليها اسم (متصرفية الزور)، وعيّن عليها المتصرف عمر باشا^(٣١).

في عام (١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م) أعادتها الدولة العثمانية تتبع لولاية حلب ولكن أبقتها لواء^(٣٢) وعيّنت عليها المتصرف حسين باشا^(٣٣).

في عام (١٢٩٩هـ / ١٨٨١م) صدرت الأوامر السلطانية بجعل منطقة الفرات الأوسط والجزيرة متصرفية مستقلة ممتازة مرتبطة بالآستانة مباشرة^(٣٤)، وعيّن عليها متصرفاً حسن تحسين باشا^(٣٥)، وبقيت متصرفية مستقلة منذ ذلك التاريخ وحتى انتهاء فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني عام (١٩٠٩م/١٣٢٧هـ) وهي المرحلة التي يبدأ بها بحثنا.

الأوضاع الاقتصادية:

وإنشاء العديد من الدوائر الإدارية الحكومية وكذلك تأسيس مجلس إدارة اللواء ومجلس تميز اللواء ومجالس إدارة الأفضية ، وأجريت الانتخابات لاختيار أعضاء لهذه المجالس ، اتصف بشخصيته الحازمة والشدة ، وكان يحمل رتبة (روم إيلي) ، انظر : سالنامه ولاية حلب (١٢٨٧هـ / ١٨٦٩م) ، ص ٦٦ - ٦٧ .

(٣٠) سالنامه ولاية حلب (١٢٨٩هـ / ١٨٧١م) ، ص ٦٠ .

(٣١) يعدّ عمر باشا أحد غلمان الدفشمرة ، وهو كرواتي الأصل ، عين متصرفاً لدير الزور (أي منطقة الفرات الأوسط والجزيرة) ، وقد كان برتبة فريق عندما تولى مهامه وأعطى صلاحيات واسعة لضبط المنطقة ، تركّز اهتمامه بالجانب العسكري والإداري ، انظر : سالنامه ولاية حلب (١٢٨٩هـ / ١٨٧١م) ، ص ٦٠ .

(٣٢) سالنامه ولاية حلب (١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م) ، ص ٩٩ .

(٣٣) اتصف حسين باشا بن رشدي باشا بذكاء سياسي ، فكان يحاول كسب ود الناس مع شيء من الحزم ، وهو قوي الشخصية ، ذكي ، لبق الكلام ، كريم ، وعُرف عنه ميوله نحو العرب ، على الرغم من كونه تركي الأصل ، أمضى معظم حياته في حلب حيث كان يسكن في محلة باب النصر ، عزل عن دير الزور في عام (١٢٩٩هـ / ١٨٨١م) ، انظر : سالنامه ولاية حلب عام (١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م) ، ص ٩٩ ، وانظر : وثائق الأوامر السلطانية حلب ، سجل ٦٧ ، وثيقة رقم ٢٥٠ ، عام (١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م) ن ص ٢١٩ .

(٣٤) سالنامه ولاية حلب عام (١٢٩٩هـ / ١٨٨١م) ص ٨٤ .

(٣٥) كان حسن تحسين باشا برتبة بكالربكي عندما عين متصرفاً على الفرات الأوسط والجزيرة (متصرفية دير الزور) ، وفي عهده أظهر اهتماماً أكبر بدير الزور من قبل الدولة العثمانية ، ونلاحظ هذا من خلال ربطها المباشر بالعاصمة ، عمل على التوسع في التنظيمات الإدارية وخاصة من خلال المجالس المحلية ، وإحداث بعض الإدارات في المتصرفية ، وإحداث محكمة تجارية لأول مرة في دير الزور والمنطقة ، إضافة إلى التنظيم الدقيق لإدارة كل قضاء ومختلف الدوائر الحديثة والمحكمة وإعداد الموظفين الإداريين في مركز المتصرفية وفي كل قضاء من قائم مقام إلى المفتي والكتاب ... إلخ ، وقد شهدت المنطقة في عصره تطوراً جديداً في التنظيم الإداري والسياسي ، انظر : سالنامه ولاية حلب عام (١٢٩٩هـ / ١٨٨١م) ، ص ٨٤ - ٨٦ .

أما على الجانب الاقتصادي لمنطقة الفرات الأوسط والجزيرة خلال العصر الحديث، فإنه لازالت الدراسات التاريخية الاقتصادية للمنطقة في بداياتها وهي متأثرة بعدة عوامل منها ما هو سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي أو إقليمي...

ومع ذلك فإنه يمكن استخلاص حقيقة الأوضاع الاقتصادية للمنطقة وخاصة منذ منتصف القرن التاسع عشر، وحتى بداية الفترة الخاصة ببحثنا.

أو لعل أهم ما يميز هذه الفترة هي قدرة المنطقة على الخروج من حالة العزلة التي كانت تعانيها قبل منتصف القرن التاسع عشر لأسباب كثيرة أبرزها سوء الأوضاع الأمنية وصعوبة طرق المواصلات نتيجة تعرضها لغزوات البدو بين الحين والآخر ونهب المحاصيل الزراعية من الفلاحين في القرى وسلب المدن وحالة التنافس القبلي والتأثرات العشائرية... وبالتالي فقد أثر كل ذلك في الأوضاع الاقتصادية بمنطقة الفرات الأوسط والجزيرة وجعلها تنغلق على نفسها مما سبب لها عزلة اقتصادية أدت إلى تلكو نشاطها الاقتصادي، إذا ما قورن بالأوضاع الاقتصادية العامة في بلاد الشام لكونها جزء هام منها، إذ تشكل الزاوية الشمالية الشرقية لبلاد الشام من جهة، وتختلف إذا ما قيس بالثورة الاقتصادية التي كانت تشهدها أوروبا خلال المرحلة الزمنية نفسها، إذ بقي الاقتصاد في منطقة بلاد الشام محافظاً على فعالياته وتقاليده السابقة، بل ومحمداً فيها، فهو غير متفاعل مع حركة ومتطلبات السوق الخارجية، بل وهي سوق مستهلكة مقيدة بحاجة الاستهلاك المحلي.

كما أن الفرد العامل في مختلف الميادين الاقتصادية (زراعة - صناعة - تجارة) لم يخرج عن عقليته السابقة البسيطة القانعة بالقليل، أو التي تبحث عن الصفقات الاقتصادية الكبيرة، وذلك يرجع إلى عوامل اجتماعية نفسية عديدة، أهمها تأصل العادات والتقاليد القديمة التي ورثوها من أسلافهم في مجال عملهم مما حال دون الرغبة في التغيير، وولد ضعف المبادرة الفردية.

وكذلك اعتمد الاقتصاد في منطقة الفرات والجزيرة بل وبلاد الشام عامة في العصر الحديث على الزراعة والرعي بالدرجة الأولى، تليها التجارة، وأخيراً الصناعة أو الحرف اليدوية.

كما تأثر الاقتصاد في بلاد الشام والعربي عامة بشكل سلب في التطورات التي طرأت على الاقتصاد الأوروبي في العصر الحديث، وعلى رأسها اكتشاف القارة الأمريكية والتوصل إلى طرق تجارية جديدة لا تمر بالوطن العربي، وتدفق الذهب والفضة وما رافقه من ارتفاع في الأسعار، ونمو في الصناعة والتجارة الأوربيين والارتقاء بتقنيتهما، ووفرة الإنتاج والسعي لإنشاء مستعمرات لتخدم مصالحها الاقتصادية وتكون أسواقاً لتصريف بضائعها.

ولعبت التذبذبات المناخية، وخاصة الجفاف، دورها في تخلف الاقتصاد ليس في منطقة الفرات والجزيرة وبلاد الشام فحسب بل في حركة الاقتصاد العربي عامة، كما تأثر بانتشار الأوبئة وموجات الجراد.

وأثرت الاضطرابات الداخلية في الأوضاع الاقتصادية، من تمرد البدو وغاراتهم، والثورات، والحروب الأهلية، وما يتبعها من نهب وسلب وابتزاز واكتساح للأرض الزراعية، ومهاجمة أسواق المدن... الخ.

هذه لمحة عامة عن الأوضاع الاقتصادية في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة السورية وبلاد الشام في العصر الحديث ولا حظنا أن كل الأمور التي كانت بمجملها مؤثرات سلبية أسهمت في تكوين الحياة الاقتصادية وما فيها من منعكسات أثرت على واقعها.

بعد دراسة السمات العامة للاقتصاد تلك ننتقل إلى دراسة السمات الخاصة لكل واحد من جوانب الاقتصاد في المنطقة خلال العصر الحديث والذي سبق مرحلة بحثنا هذا.

أولاً: الزراعة والرعي:

بقيت الأوضاع الزراعية خلال العصر الحديث في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة كما في بلاد الشام والبلاد العربية التي خضعت للسيطرة العثمانية، كما هي دون أن يطرأ عليها متغيرات كبيرة، وذلك لأنه لم يوجد لها العثمانيون، وإنما تلقوها من سابقهم، وحافظوا عليها مع تعديلات بسيطة، تتلاءم مع نظمهم الخاصة، ولعل أهم ما يميز تلك الأوضاع أنهم لم يغيروا توزيع الأرض على السكان، وليس هناك دراسة متكاملة عن (ملكية الأرض) في جميع أرجاء البلاد العربية في العصر الحديث، على الرغم من الاختلافات المحلية بين منطقة وأخرى، إلا أن تلك الملكية تتركز في خطوطها العامة إلى أسس تشريعية إسلامية واحدة، وبموجب تلك الأسس فإن الأرض في البلاد العربية كانت موزعة، وفق الآتي:

١- أرض مُلك: وهي ملك خالص لأصحابها، ويدفعون عنها (حسب الشرع)، ضريبة العشر ويتصرفون بها وفقاً للملكيتهم.^(٣٦)

٢- أرض ميري: وهي الأرض التي تُنظر إليها عند الفتح العربي الإسلامي على أنها غنيمة حرب للمسلمين، ولما كان أمير المؤمنين هو الذي يمثل الجماعة الإسلامية، فقد أطلق عليها اسم (الأرض الأميرية)، وحُرِّفت مع الزمن فصارت (أرض الميري).

وقد أعطي حق التمتع بها لواضع اليد الأول عليها، مقابل ضريبة معينة، أطلق عليها اسم (الخراج)، ومن هنا نشأ على هذه الأرض حق مزدوج: (حق الرقبة) ويعود للسلطان كونه يمثل الدولة، (وحق التمتع أو التصرف) الذي ترك للمستثمر، ولقد تحولت مع الزمن (أرض التصرف) إلى أشبه بأرض الملك، ولا سيما أن المستثمر يملك حق التصرف الكامل بالأرض من استثمار أو إيجار أو بيع أو رهن... الخ.^(٣٧)

٣- أرض الوقف: وهي الأرض التي أوقفها أهلها في سبيل البر، ليشكل مورداً ينفق من على مؤسسات ذات نفع عام كـ (المساجد، والمدارس، والمستشفيات، والزوايا) ومطابخ الفقراء... الخ، والوقف يعني منح ملك (أرض، أو بيت، أو طاحونة، أو دكان،..) والوقف له ثلاثة أنواع، وفق مايلي:

أ- وقف خيري: أي ما تمّ وقفه على بعض الجهات الخيرية من قبل أفراد أو مؤسسات دون شرط.

ب- وقف ذري (أهلي): أي ما تمّ وقفه على الذرية من أولاد وأحفاد.

ج- وقف مختلط: ويتم حسب وصية صاحب الوقف بأن يصبح الوقف الذري وفقاً خيرياً بعد انقراض ذرية الواقف.

وقد لجأ إلى الوقف الذري والمختلط الكثير من ملاكي الأراضي وإقطاعيها، ليتهربوا من تطبيق قانون الإرث على أرضهم بعد وفاتهم، أو ليتخلصوا من مصادرات الدولة، لكون الأرض الوقف لا تُصادر، فالمالك يجعل أرضه أو أملاكه وفقاً لصالح هذا العمل الخيري أو ذاك، شريطة ألاّ ينفذ هذا إلاّ بعد زوال هذا الفرع أو ذاك من ورثته.

(36) المر، عيبس: أحكام الأراضي المتبعة في البلاد العربية المنفصلة عن السلطنة العثمانية، القدس، مطبعة بيت

المقدس، ط ١، ١٩٢٣م، ص ٧

(37) رافق، عبد الكريم: الفئات الاجتماعية وملكية الأرض في بلاد الشام في الربع الأخير من القرن التاسع عشر،

دمشق، مجلة دراسات تاريخية، العددان (٣٥-٣٦)، آذار وحزيران، عام ١٩٩٠م، ص ١١٦.

٤- أرض الموات: وتعدّ جزءاً من الأراضي الأميرية (الميري)، ولكنها لا تُزرع أو غير صالحة للزراعة، وقد يُعطى من يقوم باستصلاحها حق ملكيتها، أو حق الترفّهُ بها بعد أن يعمل بها بضع سنين. وكانت توجد في لواء الفرات والجزيرة الكثير من الأراضي ذات المساحات الواسعة جداً من أرض الموات، وخاصة في البادية، وهي لأثباع بحكم القانون.^(٣٨)

٥- الأرض المتروكة (المشاع): وهي أرض أميرية (ميري) في الأصل، وإنّما لم يعط حق التصرف فيها لفرد، وإنّما لسكان قرية بمجموعها أو جماعة معينة، ويدخل ضمنها المراعي، إذ تنتقل القبائل البدوية والمساحات العامة، وأماكن دراسة الحبوب، فهي أرض بور، وبسبب اتساع مساحتها فإنّهُ لا قيمة لها، وقد عُرف هذا النوع في بلاد الشام بـ(الأرض المشاع)، وهذا النوع من الأراضي لا يجوز تملكه لكونه أرض مخصصة للجميع، ويعدّ أي إجراء لتملكها بعد غير صحيح وباطلاً.^(٣٩)

وفي إطار أنواع الأراضي تلك، كان (الفلاحون)، إمّا ملاكين وهم قلة ضئيلة جداً، أو عاملين على الأرض الأميرية، أي لهم حق التصرف، أو مستأجرين لأرض ملك أو أرض تصرف، ويضاف لذلك الضرائب والرسوم التي كان يدفعها الفلاح، وهي كثيرة، وتختلف من بقعة لأخرى، إلّا أنّه يمكن تصنيفها في مجموعتين:

- الضرائب المفروضة على الأرض، والأساسي منها (العُشر) و(الخراج).
- والضرائب الشخصية المفروضة على الفلاح نفسه، وهي تختلف بحسب كونه متزوجاً أو عازباً (متجرداً)، أو مسلماً أو مسيحياً.
- ويضاف إلى تلك الضرائب الرئيسية عدة رسوم على الكروم وبساتين الأشجار المثمرة، وعلى الطواحين، والمستنقعات... وغيرها كثير.

يضاف إلى ذلك كله (أرض المراعي) التي كانت تقيم عليها القبائل الرّحل أثناء الشتاء أو الصيف، فإنّه كان على تلك القبائل مبدئياً أن تدفع عنها ضريبة (حق المرعى)، وضريبة الأغنام أو الحيوانات الأخرى التي ترعاها. فالفلاحون في البلاد العربية التي كانت خاضعة للدولة العثمانية في العصر الحديث، بصفة عامة، كانوا يعملون على الأرض، وكأنهم أجراء، ليسلّوا رمقهم ورمق أسرهم، بل أنهم كانوا لا يملكون حريتهم كاملة.^(٤٠)

وبعد ارتفاع قيمة الأراضي الزراعية، ونتيجة لازدياد أهمية الأراضي وتجارة المزروعات منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فقد تم في نهاية القرن تحديد أسعار الأراضي حسب خصوبتها، وذلك وفق ما يلي:

- أ. أراضٍ لا تسقى، قيمة الدونم الواحد «٧٥ قرشاً».
- ب. أراضٍ تسقى وهي متوسطة الخصوبة، قيمة الدونم الواحد «١٧٥ قرشاً».

(38) عيساوي، شارل: التاريخ الاقتصادي للهِلال الخصيب (١٨٠٠-١٩١٤م)، ترجمة: رؤوف عباس حامد، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ١٩٩٠م، ص١١٧.

(39) حمادة، سعيد: النظام الاقتصادي في سورية وفلسطين، بيروت، المطبعة الأمريكية، ط١، ١٩٣٦م، ص٥٤.

(40) حنا، عبدالله: القوانين النازمة للزراعة، مجلة دراسات تاريخية، العددان (٤٣-٤٤) أيلول وكانون الأول، دمشق، ١٩٩٢، ص٢٤٧.

ج. أراضٍ تسقى وهي خصبة، قيمة الدونم الواحد «٣٥٠ قرشاً»^(٤١).

ولذلك سارع أصحاب النفوذ من كبار الموظفين والعسكريين والمرايين وبعض شيوخ العشائر إلى اتباع أساليب وطرق ملتوية ومتعددة لتسجيل أكبر قدر من الأراضي لهم، ويجدر بنا التعرف على أبرز هذه الأساليب وفق ما يلي:

— استغل بعض الأثرياء ووجهاء المدينة حاجة الفلاح إلى استئانة بعض المال، وذلك بسبب الضرائب التي أرهاقته^(٤٢)، فكان هؤلاء المرايون يقرضون الفلاح مبلغاً معيناً من المال بفائدة كبيرة تتراوح ما بين «٥٠ — ٦٠%»^(٤٣) وهي النسبة التي كان يتم التعامل بها في دير الزور، مع العلم بأنه قد تم إحداث البنك الزراعي في المتصرفية عام «١٣٠٨هـ / ١٨٩٠م»^(٤٤) وكان يحقق الهدف من إنشائه وذلك بتزويد الفلاح المحتاج بقروض ذات فائدة بسيطة مقدارها «٢/١ %» على العشر الذي تستوفيه من الحاصلات الزراعية^(٤٥).

وقد أقبل الفلاحون على هذا المصرف، ولكن ثمة عوائق كثيرة منعت الفلاح من الاستفادة منه، فنذكر منها مثلاً طول المدة التي يحتاجها الفلاح لمتابعة طلب القرض فقد يحتاج لأكثر من شهر، إضافة إلى ما يترتب عليه من رشوة الموظفين حتى لا يعاقب طلبه، وبذلك فهو يخسر المال والوقت من أجل الحصول على القرض من المصرف الزراعي^(٤٦)، إضافة إلى أن الفائدة منه كانت محدودة لأن رأسماله كان قليلاً وضعيفاً^(٤٧).

وفي حال عدم قدرة الفلاح على سداد قرض البنك فإنه يخسر أرضه وتباع عن طريق المجلس البلدي بالمرزاد العلني، وفي حال عجزه عن تسديد دين المراي فإنّه يخسر أرضه أيضاً، وفي الحالتين سوف تنتقل ملكية

(41) Cuient, vitul. Syrie, Liban et pelestiene. Paris Leroux 1894. pp334 – 335.

(42) ديفد دين: الإصلاح الإسلامي، ص ٢٢.

(43) كان بعض المرايين يقرضون الفلاح مبالغ لمدة سنة بكفالة حاصلاتهم الزراعية مستعملين الحيلة التالية: (إذا أراد الفلاح استئانة ١٥ مجيدي مثلاً، فيبيعونه بمطلبه ثوباً خاماً مثلاً قيمته تعادل ٢٠ مجيدياً، فيبيعونه للفلاح بمبلغ ٣٥ مجيدياً ويسجلونه ديناً عليه، فيأخذ الفلاح الثوب ويبيعه لنفسه التاجر أو لتاجر آخر بنفس سعره الحقيقي أي ٢٠ مجيدياً ليأخذها ويسدددها عند الموسم ٣٥ مجيدياً. انظر: الجزائر؛ وجيه: سنح دير الزور، ص ٣٣.

(44) سالنامه الدولة العثمانية، (١٣٠٨هـ / ١٨٩٠م)، ص ٩٧٢.

(45) عوض؛ عبد العزيز: الإدارة العثمانية في ولاية سورية، ص ٢٤٣.

(46) اليسوعي؛ شارل: التاريخ الاقتصادي للهِلال الخصيب، ص ١٣٥.

(47) كرد علي؛ محمد: خطط الشام، ج ٣، ص ٢١٧.

أرضه إلى أحد المرايين أو الوجهاء^(٤٨)، وذلك لأن السيطرة الفعلية على المجلس تعود لكبار المزارعين ووجهاء البلد^(٤٩).

ونتيجة لهذه الديون والفوائد الفاحشة لكبار المرايين انتقلت ملكية الكثير من أراضي الفلاحين لهم، وصار الفلاح يعمل كأجير في الأرض لدى المراي، وقد وجدت أعداد كبيرة من الأراضي قد انتقلت ملكيتها من الفلاحين إلى بعض المرايين من أبناء المدينة^(٥٠).

والأساليب التي انتقلت فيها ملكية الأراضي إلى زعماء العشائر المحلية في دير الزور ومشايخ القرى هي جهل الفلاحين في المنطقة آنذاك عندما استحدثت إدارة الدفتر الخاقاني في المتصرفية في عام (١٢٩٥هـ / ١٨٧٧م)^(٥١)، ومن ثم شرعت الدولة العثمانية بتسجيل الأملاك لأصحابها وإعطائهم سندات طابو(قوجان)، فكان الفلاحون — وخاصة في القرى القريبة من مركز المتصرفية — يخافون من تسجيل أراضيهم، ضناً منهم بأن ذلك سوف يزيد من الضرائب المفروضة عليهم، فكانوا يقومون بتسجيلها باسم أحد كبار الملاكين الموجودين في المدينة أو زعيم العشيرة أو شيخ أو مختار القرية، وذلك للتهرب من الضريبة المفروضة على الأرض^(٥٢).

ومن الطرق التي ساعدت على تجمع مساحات كبيرة من الأراضي بيد وجهاء وأعيان المتصرفية وخاصة في ريفها وأصحاب السلطة الحاكمة في دير الزور، قد جاءت بعد تشكيل لجان لتحديد الملكية، بعد إصدار الدولة العثمانية قوانين ملكية الأراضي^(٥٣)، إذ قامت هذه اللجان بتحديد الملكية لأي أرض، وذلك باعتماد القرية التي تقع فيها الأرض ودون إجراء مسح دقيق لحدودها الطبوغرافية، وهذا يتم بتأثير أصحاب السلطة والوجهاء^(٥٤)، لكي يتسنى لهم تسجيل أكبر قدر من الأراضي التي يرغبون بها، فتصبح ملكاً لهم، مستغلين نفوذهم وبعضهم الآخر بالرشوة لتلك اللجان.

ومن الأساليب الأخرى لانتقال ملكية الأراضي، جاءت بعد أن أوكلت الدولة العثمانية إلى إدارة النفوس مهمة تقديم دفاتر خاصة بالشبان الموجودين في المتصرفية لسوقهم إلى الخدمة الإلزامية «الجنديّة»^(٥٥)،

(48) حمادة؛ سعيد: النظام الاقتصادي في سورية، ص ٦٢.

(49) طعمة؛ رامز: ملكية الأرض والسلطة السياسية في دمشق (٨٥٨ إلى عام ١٩٥٨م)، مجلة الدراسات التاريخية العددان (٤٣ و ٤٤)، أيلول، وكانون الأول، دمشق، ١٩٩٢، ص ٢٦٤.

(50) سبق ذكرهم في الفصل الاجتماعي ولا حاجة لتكرار ذلك.

(51) سالنامه ولاية حلب عام (١٢٩٥هـ / ١٨٧٧م)، ص ١٠٠.

(52) بونيه؛ أودلف: الدولة والنظم الاقتصادية في الشرق الأوسط، ترجمة: راشد البرادي، القاهرة، المكتبة العربية، ط ١، ١٩٥٠م، ص ١٩٨. وانظر: حنا؛ عبد الله: القوانين النازمة للزراعة، ص ٢٤٠.

(53) الحسني؛ علي: تاريخ سورية الاقتصادي، دمشق، مطبعة بدائع الفنون، ط ١، ١٩٢٥م، ص ٢٣٤.

(54) طعمة؛ رامز: ملكية الأرض والسلطة السياسية في دمشق (١٨٥٨ — ١٩٥٨م)، ص ٢٦٣.

(55) جلاد؛ فيليب: القاموس العام للإدارة والقضاء، مج ٢، ص ١٧٨.

ولهذا فقد بادر بعض الفلاحين إلى التخلي عن أراضيهم لبعض الوجهاء والأعيان وكبار الموظفين، للتخلص من تسجيل نفوسهم في هذه الإدارة^(٥٦)، ذلك لأن غايتهم هي الإخبار عن الشبان المؤهلين لسن الجندية. وبسبب ضغط المرائين على الفلاحين، صار بعضهم يلجأ للهرب من أصحاب السلطة، فباعوا لهم أراضيهم بأرخص الأثمان^(٥٧)، وذلك لحمايتهم من ظلم المرائين والضرائب والحكام. كذلك إذا ارتكب أحد الفلاحين جريمة قتل فإنه قد يضطر للهرب وترك أرضه خوفاً من الثأر أو فرض دية ثقيلة عليه^(٥٨)، فيرحل ويترك أرضه أمام أعين كبار ملاكي الأراضي والمرائين وأصحاب النفوذ، فتكون فرصة لهم للسيطرة على هذه الأرض.

هذا وهنالك أساليب وطرق متعددة ساعدت على تجمع مساحات واسعة من الأراضي الزراعية بيد المرائين وأصحاب النفوذ في المتصرفية وكبار الموظفين، وتسجيلها ملكاً لهم متبعين هذه الأساليب الملتوية فصاروا من كبار ملاكي الأراضي في دير الزور وريفها ولا يزال بعضها ملكاً لأحفادهم إلى اليوم، وقد سبق أن ذكرت أشهر هذه العائلات^(٥٩).

ثانياً- الصناعة والحرف اليدوية:

شهدت بلاد الشام والبلاد العربية عامة تراجعاً في ميدان صناعتها وحرفها اليدوية، وقد عانت منطقة الفرات الأوسط والجزيرة من ذلك. والتراجع والتدهور الذي عانت منه ظهر أثره واضحاً خلال القرن التاسع عشر، وهذا يعود لأسباب كثيرة أهمها:

١- الدولة العثمانية التي قامت بشكل مباشر أو غير مباشر بجذب أمهر وأفضل الصناع من المدن العربية إلى عاصمتها الآستانة. ومن المعروف أن الصناعة كانت تنتقل آنذاك في نطاق الأسرة الواحدة على الأغلب، وبالتالي فإن هذا التركيب الوراثي للصناعة يسهل القضاء عليها فيما إذا انتقلت الأسرة من مكان إقامتها أو انقرضت.

٢- القيود المفروضة على الصناعة من قبل الدولة ومن قبل النقابات، فالدولة حددت امتياز احترافها، ووضعت حداً أعلى لسعر البضائع المنتجة، وراقبت الأسعار. وبذلك أضعفت الانطلاقة الضرورية، وجاءت النقابات فكانت قيداً قوياً هي الأخرى.

٣- التطورات الاقتصادية الكبرى التي شهدتها أوروبا في العصور الحديثة، من نمو للرأسمالية التجارية، والكشوف الجغرافية، وتغير طرق التجارة العالمية، وتطور صناعي، وسياسة اقتصادية، والانقلاب الصناعي الذي بدأ منذ أواخر القرن الثامن عشر.

بعد استعراض أهم الأسباب التي أدت إلى ضعف الصناعة وتراجعها، لابد من دراسة لواقع الصناعة والحرف اليدوية في تلك المرحلة التي سبقت فترة دراستنا هذه، ونرجع فيها منذ القرن التاسع عشر.

(56) كرد علي؛ محمد: خطط الشام، ج ٤، ص ١٣٥.

(57) كان بعض الفلاحين يبيعون أراضيهم بأرخص الأثمان مثل قفة لبن، أو عباءة، أو بعض أثواب الخام. انظر

حناء؛ عبد الله: ملامح من تاريخ الفلاحين، ج ٣، ص ٣٢.

(58) كرد علي؛ محمد: خطط الشام، ج ٤، ص ١٣٥.

(59) للمزيد ارجع إلى الفصل الاجتماعي، أو فقرة نظام ملكية الأراضي الزراعية في هذا الفصل نفسه.

لقد عانت المنطقة والبلاد العربية التي خضعت للسيطرة العثمانية عامة إلى تدهور في أوضاع الصناعة نتيجة للأسباب المذكورة آنفاً، إذ إن معظم البلاد العربية بعيدة عن العاصمة (الآستانة) التي استقر فيها غالبية المهرة من الصناع. فكان هذا عاملاً هاماً في ضعف معظم الصناعات والحرف اليدوية. كما أن مختلف الصناعات التي كانت تعيش في إطار ما يسمى بـ(الأصناف)، فالصانع مهما كانت مهنته يعدّ عضواً في طائفة صناعته، فهو يعيش في نطاق جماعة لها تقاليدھا وعاداتھا ومبادئھا، لا يمكنه أن يعيش بفرديته وطموحه الذاتي.

كما كان في كل طائفة مبتدئون، وصناع، ومعلمون، ولھا (شيخھا)، الذي يُنتخب من قبل معلمي الصنعة ممن عُرف بحسن الأخلاق والمهارة في أصول الصنعة. ولكل صنعة (شاويش) منتخب أيضاً، وهو رسول (شيخ الحرفة) أي أمين السر، وقد كانت مختلف نقابات الحرف مرتبطة ببعضھا، وعلى رأسھا (شيخ المشايخ).^(٦٠)

وقد كان يجتاز مرتبة التمرين بنجاح يصبح معلماً، ومن حق المعلمين فقط فتح حوانيت خاصة بهم، وعدد الحوانيت لكل طائفة محدود بدقة، وهذا ما أعاق التوسع الصناعي الكمي، إذ كان امتياز ممارسة الصنعة نوعاً من (الملكية) يمكن أن يورث إلى أولاد المعلم بعد وفاته، أو يمكن أن يُؤجر أو يُباع، ولا يمكن الحصول على امتياز حديد من السلطات إلا إذا دفع المعلم للخزينة مالاً مقدماً، وإذا امتلك الأدوات الضرورية ووسائل الإنتاج التي تحتاجها صنعتھ.

ولم يكن احتراف المهنة امتيازاً محتكراً من فئة صناعية معينة فحسب، وإنما كانت الأعمال التي يسمح لأعضاء النقابة القيام بها محدودة أيضاً ومقيدة، فالمصنوعات نفسها تتكرر دون تجديد أو ابتكار، إذ وضعت النقابة شروطاً معينة يجب أن تتوافر في أي نوع من أنواع المصنوعات، دون أن تقوم بتطور وتغير تلك الشروط بحيث تتلاءم مع التطورات العالمية المواكبة، ومما زاد في ذلك الدولة نفسها التي دعمت النقابات في ذلك المبدأ بعدم السماح بإجراء أي تغيير في شكل البضاعة المصنوعة، كما منعت أي صانع من صنع أي شيء غير مرخص.

إن تلك الأوضاع للصناعة كانت بمثابة قيود جمّدت الصناعة في قالبها القديم ومنعتها من عنصر التجديد، وقتلت في نفوس الصناع روح التطوير، فتراجع مستواها الكيفي، وقلّ الراغبون بها، ولم تستطع مواكبة الانقلاب الآلي في أوروبا منذ أواخر القرن الثامن عشر، فزاد هذا من ضعف الصناعة العربية عامة.

ومما زاد في حالة التدهور للصناعة أن طوائف الصناعات (النقابات) قد تغيرت بنيتها الفنية، نتيجة لتغير تركيبتها الاجتماعية، إذ دخلت الأوجاقات المحلية (الانكشارية) في مختلف الحرف، ومن ثم النقابات، حتى أنهم كانوا من المحتكرين، وتألّفت تلك الطوائف في معظمها من الجنود وأبناء الجنود، وظهر أثر ذلك جلياً منذ مطلع القرن التاسع عشر، مما حول نزاعات تلك الطوائف والحرف إلى صراعات مسلّحة، فكانت عاملاً أسهم في إضعاف الصناعات نفسها محلياً.

هذه الأوضاع فسحت المجال لمنافسة البضائع المصنّعة أوروبياً، فأخذت بذلك الصناعة الأوربية تنافس الصناعة العربية، ورغم ذلك فإن الدولة العثمانية لم تعمل على حماية الصناعات العربية من المنافسة الأوربية، ولو بفرض

(60) (القدس، إلياس بن عبده بك: نبذة تاريخية عن الحرف الدمشقية، بحث علمي قدم للمجمع العلمي الشرقي

في ليدن، تقديم كارلوثند برج، دمشق، ط ١، ١٨٨٣م، ص ١٤.

رسوم جمركية مرتفعة (الاقتصاد الماركنتيلي)^(٦١)، بل على العكس، سهّلت دخول التجارة الأوروبية، ومنحت امتيازات ساعدت على إغراق الأسواق العربية بالمصنوعات الأوروبية.

ونتيجة لذلك فقد حلّ الضعف والركود للصناعة، ليس في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة وبلاد الشام فحسب، بل على الصناعة العربية عامة، وأصبح صنّاعها أنفسهم يلتفتون إلى الصناعة الأوروبية، ويهملون صناعتهم المحلية الجامدة، بل وتحولّ بعض الصنّاع إلى مروجين للبضائع المستوردة.

ومن الصناعات المحلية التي اشتهرت بها منطقة الفرات الأوسط والجزيرة، الصناعات النسيجية، وخاصة القطنية والصوفية، وهي تقسم إلى شقين: (الغزل) و(النسيج)، وأهم أنواع منتجاتها التي عرفت في المنطقة نذكر منها: البُسْط والحُصْران وصناعة الخيام (من الوبر) وبعض أنواع المناديل، والأغطية، والعباءات... الخ.^(٦٢)

كما اشتهرت منطقة الفرات والجزيرة وبلاد الشام ببعض الصناعات الجلدية، مثل (صناعة الأحذية والنعال)، وصناعة السروج ودلاء الماء، وعباءات الفرو (الفروات) والأحزمة الجلدية... الخ.

أما الصناعات الغذائية، فكانت تنتشر في مختلف مناطق الفرات والجزيرة، وذلك للحاجة اليومية لها، وأهمّها صناعة الألبان ومشتقاتها، وخاصة اللبن والسمن العربي والزبدة... وكذلك صناعة الخبز والمعجنات والحلويات، وعصر الزيوت، وخاصة السمسم...

كما تعددت الصناعات المتزلية التي أكثر ما ترتبط بجوانب عديدة من الحرف، ولعل أبرز الصناعات المتزلية التي عرفت في المنطقة (النجارة، الحدادة، النحاسية، الصياغة، الخياطة... وغيرها).

وأهم المدن التي ظهرت فيها صناعات وحرف يدوية في منطقة الفرات والجزيرة السورية: قصبه المنطقة، وهي دير الزور، ثم الرقة، ورأس العين، والعشارة، والبوكمال.

ثالثاً- التجارة:

إن موقع الوطن العربي الاستراتيجي جعل منه ببقاعه كلّها مركزاً تجارياً هاماً على مرّ العصور، وذلك لتوسطه العالم القديم، ونتيجة لمرور طرق التبادل التجاري الكبرى فيه.

إن الأوضاع التجارية مرتبطة بالواقع السياسي، ويلاحظ منذ أواخر القرن الثامن عشر ضعف الدولة العثمانية، وأن الدول الأوروبية التي كانت قد دخلت الاقتصاد العربي العثماني بجاليات محدودة العدد قبل القرن الثامن عشر، إلّا أنّها مالبت أن تحولت في القرن التاسع عشر ومابعد إلى قوى طامعة في السيطرة على الوطن العربي، كلاً حسب مناطق وجودها ورغبتها الاستعمارية.^(٦٣)

فالتجارة الخارجية شهدت ركوداً في مجال التصدير للبضائع المحلية إلى الخارج، بل كانت أسواق المنطقة وبلاد الشام والبلاد العربية عامة سوقاً لتصريف البضائع الأجنبية خلال القرن التاسع عشر، وتفاقت سيطرة التجار

(61) أي حماية البضائع المحلية من منافسة البضائع القادمة من الأسواق الخارجية، وذلك بفرض رسوم جمركية عالية على البضائع التي تدخل إلى الأسواق المحلية للدولة قادمة من الخارج.

(62) (الغزي، كامل: نهر الذهب في تاريخ حلب، ٣ أجزاء، حلب، دار القلم العربي، ط٢، ١٩٩١م، ج١، ص٤٦٦.

(63) (صباغ، ليلى: تاريخ العرب الحديث والمعاصر، دمشق، مطبعة دار الكتاب، الطبعة الثالثة، ١٩٩١م، ص١٨٢-١٨٣.

الأوربيين على المراكز التجارية الهامة في الوطن العربي، ولم يبق يصدّر إلى الأسواق الخارجية سوى المواد الخام، كالقطن والحرير والصوف والكتان...^(٦٤)

أما التجارة الداخلية فقد تأثرت بالتجارة الخارجية التي قبض على ناصيتها التجار الأوربيون، ومن تعاون وعمل معهم من سكان البلاد، لذا فإنها خضعت لتذبذبات تلك التجارة الداخلية لأسباب عدة أهمها:

- تحكّم الأوربيين في بعض سلعها، وفي النقد المتداول.
- عدم استتباب الأمن في المناطق الداخلية كلها من البلاد العربية خلال القرن التاسع عشر، وخاصة في مناطق البادية والصحراء، والتي غالباً ماسيطر عليها البدو، وفرضوا الأتاوات على التجار مقابل مرور بضائعهم بأمان.
- فقر السواد الأعظم من الشعب.
- كثرة الضرائب المفروضة على كل سلعة.

أما أهم البضائع المتبادلة داخلياً فكانت المنتوجات الغذائية الخاصة بكل إقليم من المناطق المجاورة لمنطقة الفرات الأوسط والجزيرة وبالعكس، وبعض المواد المصنّعة محلياً لدى بعض الأقاليم والولايات العربية المجاورة، مثل: حلب ودمشق والموصل وبيروه حك وبغداد، نتيجة لقربها واتصالها مع منطقة الفرات والجزيرة.

الأوضاع الاجتماعية:

لم يغير الاحتلال العثماني للبلاد العربية من التركيب الاجتماعي العربي وأساسه الحضارية، بل لم تجرّب الدولة العثمانية حتى القرن التاسع عشر أن تفرض (تركيتها) بالقوة على المجتمع العربي، بل تركته يعيش في أطره الاجتماعية السابقة، وعلى الرغم من اتخاذه اللغة التركية لغة رسمية للدولة، إلا أنها لم تحارب اللغة العربية ومدارسها في مختلف البلاد العربية، واستمر ذلك حتى القرن التاسع عشر.

لقد ظهرت في التركيبة الاجتماعية للبلاد العربية فئة جديدة أطلق عليها في بلاد الشام اسم (البرلية)^(٦٥)، والتي نتجت عن تزاوج الانكشارية مع السكان الأصليين، لقد لعبت هذه الفئة دوراً هاماً في السياسة المحلية، وفي الحياة الاقتصادية، إذ عملت في الصناعة والتجارة، وبالتالي فقد انتقلت عبرها تأثيرات عديدة إلى المجتمع العربي المحلي تتعلق بالعادات والتقاليد التركية، وخاصة المشاهدة للعادات العربية، التي جذورها مستمدة من الدين الإسلامي.

ونتيجة للسياسة الاجتماعية للدولة العثمانية في القرن التاسع عشر فقد تعددت الطبقات في المجتمع المحلي، إمّا حسب الطوائف والملل الدينية، إذ دعم العثمانيون انقسام المجتمع على أساس الدين، وتنظيمه تنظيمًا مللياً، وكذلك ظهر تقسيم آخر للمجتمع العربي المحلي، يقوم حسب طبيعة الاستقرار السكاني والأعمال التي يمارسونها، وهذه دراسة لواقع طبقات المجتمع في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة، كجزء من المجتمع في بلاد الشام والوطن العربي خلال القرن التاسع عشر، وذلك عشية المرحلة التي عينا بدراستها، وهي نفسها تلك الطبقات الاجتماعية التي تكوّن منها المجتمع في بلاد الشام والبلاد العربية التي كانت تحت السيطرة العثمانية، ويمكن تصنيفها بحسب تقسيمات السكان وفق مايلي:

١- تقسيم السكان بحسب مذاهبهم:

أ- المسلمون: وهم يشكّلون الغالبية العظمى في المنطقة من المجتمع العربي، وبعضهم ينتمي إلى المذهب الشافعي، إلا أن الأكثرية ينتمي إلى المذهب الحنفي، وذلك لكونه المذهب الرسمي للدولة العثمانية، أما بالنسبة للفرق الإسلامية الأخرى، فإنه لم توجد أية مذاهب غيرها كان يدين بها أبناء منطقة الفرات الأوسط والجزيرة. كما كان هنالك عدد من الطرق الصوفية التي انتشرت في المنطقة، وهي (الرفاعية، والقادرية، والنقشبندية) وقد شكّل المسلمون الأغلبية الساحقة، إذ وصلت نسبتهم إلى نحو ٩٦٪^(٦٦) وذلك في أواخر القرن التاسع عشر، من خلال إحصاء عام ١٨٩٥م/١٣١٣هـ.

ب- المسيحيون: وهم من المسيحيين الذين هاجروا إلى مناطق متعددة من الوطن العربي، وخاصة إلى بلاد الشام، فمنهم من وصل إلى منطقة الفرات والجزيرة واستقر فيها، وذلك إما لأسباب سياسية أجبرتهم على الهجرة، وخاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. أو أسباب اجتماعية، أو اقتصادية. وهم بدورهم ينقسمون إلى طائفتين رئيسيتين، هما: (الأرمن، والسريان).

أما بالنسبة للتعامل معهم من قبل الدولة العثمانية، فإنه على الرغم من النظرة الضمنية التي ربما كان السلاطين العثمانيون ينظرونها للمسيحيين، كحلفاء طبيعيين للقوى الأوروبية، فإن هؤلاء المسيحيين لم يخرجوا عن معاملة

(65) صباغ، ليلي: تاريخ العرب الحديث، ص ١٩١.

(66) سامي، شمس الدين: قاموس الأعلام، ٨ مجلدات، استبول مطبعة مهران، ط ١، ١٣١١هـ، مج ٤، ص ٢٤٢٧.

المسلمين المتسامحة لهم، بل كان تسامحهم مع مسيحيي الولايات العربية، أكبر من تسامحهم مع مسيحيي الأفلاق والبلقان، إذ حافظت الدولة على أملاكهم، وحرية عبادتهم، وكنائسهم، وأتاحت لهم حرية العمل، ودخلوا النقابات، بل أنهم تفوقوا في ميدان التجارة الخارجية على العرب المسلمين، وذلك لاتصالهم مع الأوربيين، فتكونت منهم طبقة برجوازية غنية، ومارسوا مختلف أنواع العمل.

إلا أن أهم الانتكاسات التي تعرض لها المسيحيون الوافدون إلى البلاد العربية كانت في وصول أعداد من المسيحيين إلى منطقة الفرات الأوسط والجزيرة في بلاد الشام بهجرات قسرية، بدأت في أواخر القرن التاسع عشر، فوصل بعضهم إلى المنطقة بالقوة وأُجبروا على الإقامة فيها.^{٦٧}

ج- اليهود: بدأت موجات متتالية في القرن التاسع عشر من هجرات اليهود تصل إلى البلاد العربية خلال العهد العثماني، ومنها من وفد إلى بلاد الشام واستقرّ في أنحاء متعددة منها، فكان بعضهم قد سكن في منطقة الفرات والجزيرة.

لقد عُومل اليهود بإحسان من قبل الدولة العثمانية، إذا ما قُورن ذلك مع معاملة غيرها من الأمم لليهود آنذاك، ولذلك فقد هاجرت أعداد كبيرة منهم إلى مختلف أنحاء الدولة العثمانية، ومنها البلاد العربية. لقد عملوا بأنواع متعددة من الأعمال والحرف، كالتجارة والصناعة، والطب، والشعوذة...، بل وتقرّبوا إلى الجاليات الأوربية، وحصلوا على رعاية وحماية من بعضها، كما عملوا كعادتهم بالربا الفاحش، وقرض الأموال بفوائد كبيرة، حتى للسلطان العثماني نفسه، فكانوا أشبه مايكون بمصارف متقلّة، لذلك فإن هذا الازدهار المادّي لليهود لفت أنظار العرب، وجاء تسرّب أفكار الغرب إلى المنطقة في وقت متقارب من هذا مما أدّى إلى ظهور تيارات فكرية وقومية بينهم، وقد كان اليهود قلة في المنطقة، حتى أنه لم تتجاوز أعدادهم نسبة تقل عن (١%) خلال القرن التاسع عشر، إذ جاءت معظم موجات هجرات اليهود من أوروبا الشرقية، ثم مالبت أن زادت أعدادهم وخاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.^(٦٨)

٢- تقسيم السكان حسب طبيعة عملهم ومكان إقامتهم:

أ- البدو: وهم الأقوام التي تعيش في البادية، ولهم صفات معينة، نتيجة لظروف حياتهم الخاصة، وقد وسمتهم البادية بطابعها وسماتها الخاصة، ومعظم البدو في البلاد العربية، خاصة في بلاد الشام، تنحدر أصولهم من قبائل عربية، وقد حدثت بين هذه القبائل حروب طويلة الأمد، أدّت إلى تحركات متعددة لهذا القبائل، لقد لعب البدو دوراً هاماً في الحالة الأمنية، ليس في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة فحسب، بل في كل بلاد الشام والمنطقة العربية، وسيطروا على الطرق وأثروا في الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، مما انعكس على الحياة الفكرية خلال القرن التاسع عشر، وتركت أثرها الواضح على المنطقة.^(٦٩)

(67) (بلنت، آن: قبائل بدو الفرات عام ١٨٧٨م، ترجمة أسعد الفارس ونضال خضور، دمشق، دار الملاح، ط١، ١٩٩١م، ص١٠٨.

(68) (نعيمة، يوسف: يهود دمشق، دمشق، دار المعرفة، ط٢، ١٩٩٤م، ص٤٧٨.

(69) (مشاركة، زهير: الحياة الاجتماعية عند البدو في الوطن العربي، دمشق، دار طلاس، ط١، ١٩٨٨م، ص٢٦-٢٩.

ب- **الفلاحون (أهل القرى):** أي سكان الأرياف في البلاد العربية، ممن كانوا يشتغلون بشكل رئيسي بفلاحة الأرض وزراعتها، وتربية بعض الحيوانات. لقد كانوا يعيشون حياة عشائرية نتيجة لأوضاعهم خلال القرن التاسع عشر، سواء أكانت لأوضاعهم الاجتماعية المتردية، أم انعدام الأمن، وتدهور أحوالهم الاقتصادية، من فقر وجهل، وقسوة الظروف الطبيعية... وغيرها من المشاكل العامة التي عانى منها الفلاحون في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة ومختلف البلاد العربية. وتعود أصول هؤلاء الفلاحين إلى قبائل عربية موجودة في المنطقة.

ج- **الحضر (أهل المدن):** ونقصد بهم سكان المراكز الحضرية من مراكز مدن، وأقضية، ونواحي، كانت موجودة في المنطقة خلال القرن التاسع عشر، وهم ذوو أصول عربية اختلط بهم عدد من الوافدين الذين وصلوا كمهاجرين من مناطق عربية أخرى، أو بلاد مجاورة، أو من المسيحيين واليهود الذين جاءوا مهاجرين إلى المنطقة، أو بعض الأسر غير العربية التي وصلت إلى مراكز المدن بقصد العمل، وبذلك فإن حال الحضر في بلاد الشام كما هو الحال في باقي البلاد العربية. وقد مارس هؤلاء أعمالاً صناعية وحرفية وإدارية...

٣- الطبقات الاجتماعية بحسب السلطة السياسية والاجتماعية:

ظهر التمايز واضحاً في مجتمع الفرات الأوسط والجزيرة وبلاد الشام والبلاد العربية عامة نتيجة للسياسة الاجتماعية التي اتبعتها الدولة العثمانية تجاه الشعب العربي، إذ تألف المجتمع من ثلاث طبقات، اثنتان منها رئيسيتان متنافرتان متباعدتان هما الطبقة الحاكمة وطبقة العامة، وتتوسط بينهما طبقة الأعيان ورجال الدين، وفق مايلي:

أ- الطبقة الحاكمة:

تشكلت هذه الطبقة من الجهاز الحاكم في المنطقة خلال القرن التاسع عشر، والتي ضمت المتصرف على رأس هذه الطبقة الأرستقراطية، وكبار الموظفين الإداريين، ورؤساء الجهاز العسكري في المنطقة، وبالتالي فقد ضمت هذه الطبقة القيادة الإدارية والعسكرية أي الحكم المدني والعسكري. لقد تألفت الطبقة الحاكمة في المنطقة من المتصرف، ثم النائب (القاضي)، والمحاسب، ومدير التحريات، والبكباشي، أي أركان المتصرفية، ورئيس الجهاز العسكري.

كان لهذه الطبقات امتيازاتها، فهي الطبقة الإقطاعية التي تعيش على مايقدمها لها الشعب من إنتاج أرضه وكده، وهي لاتتخرج وقد جمعت في يدها قوة الحرب والحكم من استغلال الرعية لتحقيق مآربها ومكاسبها حتى وإن كان بأساليب البطش، فالهدف الرئيسي والهم المنشود لأفراد هذه الطبقة هو الحصول على المال والجاه والرفاهية. ولما كانت تشعر هذه الطبقة دائماً بأنها مهددة بالعزل من قبل السلطان أو السلطة الحاكمة في الآستانة، فإنها كانت تلجأ إلى جمع أكبر كمية من المال في أقصر وقت دون النظر إلى تدمير الرعية أو ضيق الحال على العامة، لذلك فهي لم تكن تحاول إجراء أي تعديل في الأوضاع القائمة خشية أن يؤدي هذا التغير إلى ازدياد سوء الحال، كما أن غالبيتها العظمى لم تحاول أن تحتك مع طبقة العامة لكي تتعرف على همومها وشكاويها.

وإذا كانت في بدايات الدولة العثمانية تصل عناصر هذه الطبقة معتمدة على كفايتها الحربية، إلا أن الأوضاع قد تغيرت خلال القرن التاسع عشر، إذ أخذت المناصب تشرى وتباع، وتفشت الرشوة بشكل علني، فوصل إلى الحكم والسلطة كل طامع به ودافع لثمنه.^(٧٠)

(70) غراية؛ عبدالكريم : مقدمة في تاريخ العرب الحديث (١٥٠٠-١٩١٨م)، ج٢، دمشق، منشورات جامعة

ب- طبقة الأعيان وعلماء الدين:

وهي تلك الطبقة التي كانت في المجتمع العربي خلال العهد العثماني في القرن التاسع عشر، تعمل على التقريب بين الطبقة الحاكمة، والشعب المحكوم، رغم التباعد بين تلك الطبقتين، إذ سعت إلى ربط الجماعات المختلفة في إطار المجتمع العربي، من تجار، وصناع، وكبار المزارعين.

وهذه الطبقة هي ما يمكن أن نطلق عليها اسم طبقة الرابطة أو المؤسسة الدينية، فالدين الإسلامي كان في الواقع هو الرابطة الوحيدة التي يمكن من خلالها أن تجمع العربي إلى جانب العنصر التركي وتشعره بشيء من التقارب العاطفي، وتدع الفلاح أو الصانع أو غيره يعمل للسلطان بهدوء وصمت.

ضمت هذه الطبقة فئة رجال الدين (العلماء) وهي الفئة المتفككة في الدين والمتبحرة بالعلم، وحرصت على الدفاع عن الدين الإسلامي وأصالته، كما لعبت دور الرقيب على السلطة الإدارية الحاكمة وبالوقت نفسه تتفرغ لأمر العقيدة والشرع والحفاظ على تقاليد المجتمع معتمدة في قوتها على احترام الجماعة الإسلامية لها.

لقد أيدت الحكومة العثمانية هذه الطبقة وشجعت تلك المؤسسة الدينية بنشاطاتها الدينية، وبنيت المساجد والتكايا والمدارس وأوقفت عليها أوقاف شاسعة، وامتعت أفرادها بامتيازات عدة منها، إعفاؤهم من الضرائب والمصادرات، كما أنها أوجدت في نفس الوقت نوعاً من الرقابة على هذه المؤسسة بأن جعلت بعض أفرادها موظفين لديها بأعمال إدارية أو تتعلق بالشرع مثل القاضي، والمحتسب، والمفتي، وأئمة المساجد والخطباء... الخ^(٧١)

كانت طبقة الأعيان وعلماء الدين تتمتع بحريتها، التي اختلف مداها من منطقة لأخرى في البلاد العربية، وهي طبقة معتلة بين الرعية والطبقة الحاكمة، عملت في كثير من الفترات على الدفاع عن حقوق الجماعة الإسلامية ضد طغيان الحكام واستبدادهم، لكن انشغال معظم أفراد هذه الطبقة مع الزمن، بالنواحي الإدارية، والتصاق بعضهم بالسلطة الحاكمة، أدى إلى حرمان المجتمع العربي من ديناميكية في استغلال تلك القوى التي يتمتع بها المجتمع المحلي والعربي عامة نحو التطور ومواكبة عصرهم وبالتالي أدى إلى ضعف المجتمع العربي وركوده بل وتأخره.

كما ضمت هذه الطبقة فئة الرجال من أهل الذمة، إذ كان يمثل المسيحيين (بطاركتهم) ويمثل اليهود (حاخاماتهم)، والدولة العثمانية خلال القرن التاسع عشر كانت تتصل بمؤلاء لتأمين علاقاتها مع رعاياها الذميين، إذ كان يوجد لأهل الذمة تنظيم دقيق، فقد أطلق على كل جماعة من أهل الذمة لقب (ملة)، والموظف المسؤول أمام الدولة على إدارة شؤونها يدعى (ملة باشي).

ج- طبقة العامة:

تمثل الشريحة الأكبر من المجتمع العربي خلال القرن التاسع تحت ظل الدولة العثمانية، وهي تضم ما تبقى من عامة الشعب، ممن لا يعملون أو من الذين يمارسون مهناً مختلفة، تنقسم إلى فئات بحسب طبيعة كل فئة منها، وهم في أغلبهم من الفلاحين وصغار التجار والحرفيين، ومن أهل الذمة سواء اليهود أو المسيحيين، وبعض الأقليات التي وفدت إلى الوطن العربي قادمة من مناطق أخرى استقرت في المنطقة كالتركماني والشركس، والأكراد...

(71) المحافظة؛ علي: الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة (١٧٩٨-١٩١٤م)، بيروت، مطبعة الأهلية

وهذه الطبقة هي التي تقوم على أداء الأعمال الرئيسة والصعبة والإنتاجية في المجتمع، وبالتالي فإنها تقوم على خدمة الطبقة الحاكمة التي تستغلها بطرق وصور عدة، وخاصة بما يتعلق بالفلاحين وأراضيهم.^(٧٢)

لقد ظهر واضحاً انقسام المجتمع العربي إلى تلك الطبقات الثلاث، وكانت الهوة واضحة بين الطبقة الحاكمة والحكومة، إذ كانت الطبقة المتوسطة (الأعيان ورجال الدين) تلعب دور التقريب بين تلك الطبقتين من خلالها، فهي صلة الوصل بينهما.

أما الأحوال الاجتماعية الأخرى، وبخاصة المرأة، فيمكن القول بأنها كانت تعيش بصفة عامة حياة البيت، في إطار الأسرة، منعزلة إلى حد كبير عن الأجواء الخارجية العامة التي يعيشها الرجل، ولا يوجد هنالك فرق جوهري في هذا بين المرأة المسلمة أو غير المسلمة.

ولكن ذلك الأمر لا يمنع من القول بظهور بعض النساء العربيات الشاعرات، والعالمات، وبعضهن من أُنثى في مجال السياسة، كما أن المرأة في الريف كانت تساعد الرجل في أعمال الزراعة، وكانت المرأة في الريف لا تضع الحجاب إلا على رأسها، كما كانت النساء الريفيات يعملن في غزل القطن والصوف، والمرأة في المدينة تعمل في مجال الخياطة والنسيج والتطريز، وغيرها من الأعمال بما يتناسب وواقع المدينة. أما المرأة البدوية فهي تساعد زوجها في كل أعماله من رعي وتربية حيوان وتصنيع مشتقات الألبان لبيعها في المدينة.

وكان للأسرة العربية أفراحها واحتفالاتها المتشابهة في معظم الأقطار العربية، مع بعض الاختلافات المحلية، حسب طبيعة كل منطقة وإقليم، كاحتفالها بزواج أبنائها، وخاصة الذكور منهم، وولادة الأطفال، ويحتفل المسلمون دون المسيحيين بختان الذكور من الأطفال، وكذلك في ختم الأولاد للقرآن الكريم (سواء بعد الانتهاء من تلاوته أو حفظ بعضه)، والاحتفال بالعودة من الحج، ويكون الاحتفال ببعض هذه المناسبات بإقامة الزينة، والطبل، والزمير، والغناء، والرقص والدبكة، وتوليم الولائم، وتوزيع الحلويات، ودعوة الأهل والأحباء، ولبس الملابس الزاهية والفاخرة، وإنشاد الأناشيد الدينية في بعض الأحيان.^(٧٣)

إضافة إلى تلك الاحتفالات الأسرية، هنالك الاحتفالات بالأعياد الدينية العامة، كعيد الفطر، والأضحى، وعيد المولد النبوي عند المسلمين، وعيد الميلاد والفصح عند المسيحيين، كما أن هنالك احتفالات خاصة لليهود بمناسبة الأعياد الخاصة بهم، إذ تحتفل فيها الأسر اليهودية بمجتمعة دون سواها.^(٧٤)

وأخيراً نقول إنه على الرغم من الانقسام الطائفي في بعض أجزاء الوطن العربي، ومن التباين الحضري (حضر وبدو) فإن المجتمع العربي هو مجتمع موحد، والعامل الرئيس في بث روح الوحدة بين أطرافه، كوحدة الخلية الأولى التي تركب وجوده، وهي الأسرة العربية والتي بتركيبها العام، وحياتها، وأكثر عاداتها، وروابط أفرادها لا تختلف مع اختلاف الطبقات، والطوائف، والأقطار، فهي ذاتها، حتى عند أهل الذمة الذين اندمجوا في المجتمع العربي، وإذا ظهرت فروق ما، فهي فروق سطحية تمس مظاهر الحياة الخارجية، وليس أسسها.

(72) عوض، عبد العزيز: نظام ملكية الأرض في بلاد الشام، وآثاره الاقتصادية والاجتماعية،

(١٨٣٩م/١٩١٤م)، مجلة دراسات تاريخية، دمشق، العددان (٣٥-٣٦)، آذار وحزيران ١٩٩٠م، ص ٥١.

(73) كرد علي، محمد: خطط الشام، ٦ أجزاء، بيروت، دار العلم للملايين، ط ٢، ١٩٦٩م، ج ٦، ص ٢٨٥.

(74) نعيمة، يوسف: يهود دمشق، ص ٣٦-٣٨.

الحياة الفكرية:

تعدّ الحياة الفكرية نتاجاً لإبداعات جوانب مختلفة من التاريخ الإنساني، سواء من الناحية السياسية، أم الإدارية، أم الاقتصادية، أم الاجتماعية...، وعندما جاء القرن التاسع عشر كانت البلدان العربية القابعة تحت سيطرة الدولة العثمانية تعاني حالة من الجمود والتخلف الفكري، لعبت عوامل عدة دوراً هاماً في تجميد الحياة الفكرية ضمن أطرها السابقة، دون تطور يواكب واقع عصرها، وأهم تلك العوامل، هي: الفقر الاقتصادي العام، واضطراب الأوضاع السياسية في المنطقة العربية، وعدم تشجيع الدولة للابتكارات الأدبية والعلمية...

ورغم ذلك فإنه لا يمكننا أن نستنتج أن العثمانيين قد فرضوا قيوداً كبيرة على الفكر والتعليم في البلاد العربية، أو أغلقوا مدارس العلم، أو كانوا حاجزاً منيعاً في وجه الابتكار والتأليف، بل إنهم في الواقع تركوا أنماط الحياة الفكرية تأخذ مجراها السابق، وأبقوا للمدارس أوقافها، بل وزادوا عليها الأوقاف الوفيرة، كما شيّدوا المدارس والجوامع، وعيّنوا الخطباء والمدرّسين...، إذاً فالتقليد والحفاظة للذات عاشهما المجتمع العربي خلال هذه الفترة كان بإرادته نوعاً ما، والسبب في ذلك أنه كان يتطلع إلى الماضي أكثر مما يتطلع إلى الحاضر، ولهذا فقد كان من الطبيعي أن تغلب على إنتاجه الفكري سمة التقليد لذلك الماضي، بعيدة عن تطلعات الحاضر والتفكير بثورة فكرية تحلّص المجتمع العربي من الاحتلال العثماني.

ففي مجال التعليم الذي يعدّ أحد مظاهر الحياة الفكرية كان في القرن التاسع عشر الحال كما كان عليه في السابق تعليمًا دينيًا بالدرجة الأولى، وخاصة في النصف الأول من هذا القرن، فقد كان يتم إمّا في البيت على يد شيخ أو الأب ليقوم بهذا الأمر، أو يتم في الكتاتيب (دور القرآن)، وخلال هذه المرحلة كان الطفل يتعلم القرآن الكريم وأصول الدين والشريعة الإسلامية، وقواعد اللغة العربية، بطريقة الاستذكار والحفظ.

وإذا ما انقطع الطالب عن التعليم بعد هذه المرحلة والتحق بصناعة ما أو في تجارة، فإنه كان يكمل ثقافته العامة عبر (الصف)، الذي ينتسب إليه، أو بمعنى آخر النقابة التي ينتمي إليها. أمّا المرحلة التالية من التعليم فكانت تجري في المساجد والجوامع.^(٧٥)

وتختلف تلك المساجد والجوامع في أهميتها وحجمها بحسب الأوقاف التي تنفق عليها، والقيمة العلمية لأساتذتها، وعراقتها، ففي بلاد الشام كانت مرحلة التعليم هذه منتشرة في أماكن كثيرة، ولكن أهم مركزين فيها، هما دمشق وحلب، وقد ظهرت في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة مساجد وجوامع قامت بهذا الدور، ولكن كانت قليلة العدد، والأهم أنها ظهرت في فترة متأخرة من القرن التاسع عشر، وتوزعت في دير الزور، والرقبة، ورأس العين، كما أنها كانت أقل أهمية وشهرة ومكانة من مدارس دمشق وحلب، وذلك لحداثتها.

ومن كان يرغب متابعة تعليمه بمرحلة أخرى بمثابة التعليم العالي، فإنه يتوجه إلى الجامع (الأزهر) في مصر، والذي كان يعدّ أغنى المساجد في البلاد العربية بأوقافه، إذ كان يضم طلاباً أكثر من القاهرة، ومن مصر عامة، ومن مختلف الأقاليم العربية والإسلامية الأخرى، ولشهرة الأزهر تلك فإن المدارس والمساجد الأخرى غدت تابعة له، وتأخذ مشايخها من الأزهر.

كما وُجد في القرن التاسع عشر، إضافة إلى تلك المساجد والجوامع، مدارس تلقّن أصول الطرق الصوفية في مختلف أنحاء البلاد العربية، وكان لها أوقافها الواسعة، وأطلق على بعضها اسم (خانقاه)، أي دار الصوفية (التكايا)،

كما وأُطلق على بعضها الآخر اسم (الربط) أو (الزوايا).^(٧٦) وقد كان لكل واحدة منها شيخها المتفقه عليه في أصول طريقته الصوفية، وتعاليمها، وحوله عدد كبير من (المريدين)، كما كان يفد إلى هذه التكايا والزوايا عدد ضخم من الصنّاع، يأخذون منها العلم الديني، وأصول التصوّف، وذلك لكي يكملون ثقافتهم، وليسّدوا شعوراً من الفراغ لديهم.

أما التيارات الفكرية التي كانت تشهدها البلاد العربية خلال القرن التاسع عشر فإنها جاءت في مرحلة أُطلق عليها تسمية (اليقظة العربية)، والتي من خلالها أخذ المجتمع العربي يصحو من خموله، وقد استطاع أن يثبت وجوده، لكنه لم يستطع النجاح، إذ انتهت المرحلة بزوال السيطرة العثمانية عن البلاد العربية، ليحل مكانها الاستعمار الغربي، ولذلك فقد تمثّلت اليقظة العربية خلال تلك المرحلة في مظهرين كبيرين رئيسين، هما:

المظهر الأول (المظهر الفكري):

تجلى في كتابات وأفكار العلماء والأدباء الذين ظهوروا خلال القرن التاسع عشر، وهو كثير الاتجاهات، إلا أنه موحد في نقاط أساسية، وهي: (الدعوة لنهوض المجتمع العربي، وتصوير سوء أحواله)، ويمكن تمييز تيارات فكرية رئيسية أربعة، من خلال ذلك التطور الفكري للمرحلة تلك، وهي التيارات التالية:

أ- التيار الأول:

ويدعو للعودة إلى الأصول الفكرية العربية الأولى، وهو تيار بعث وإحياء لمقومات الدين الإسلامي الأولى، وكان بمثابة ردّ فعل لحركة (التصوف الشعبي) في تأملاتها الفكرية للدين، والتي أدخلت عليه البدع، وحرّفت مضموناته العميقة، وبعد امتداداً لحركة (ابن تيمية) العالم الحنبلي، وقد تشعّب عن هذا التيار فرعان:

- فرع الحركات، وأُطلق عليه صفة السلفية، مثل الحركة الوهابية في شبه الجزيرة العربية، والسنوسية في شمال أفريقيا، والمهدية في السودان.
- فرع ينادي بضرورة إحياء الدين الإسلامي، ودعم الخلافة الإسلامية (حركة المجددين في الإسلام) أمثال: جمال الدين الأفغاني، محمد عبده.

ب- التيار الثاني:

تيار نصف علماني، وهو مزيج بين العلمانية والدين، وهو لا يتخذ طابع الشمول للعالم الإسلامي، ولا حتى للعالم العربي، بل ذو طابع محلي، وأُطلق عليه اسم (التيار القومي المحلي)، وظهر كردة فعل للغزو الاستعماري الأوروبي على بعض الأقطار العربية منذ أواخر القرن الثامن عشر، وقد جرّب هذا التيار أن يربط نفسه مع التيار الإسلامي التقدمي، أو مايسمّى بـ(تيار الجامعة الإسلامية).^(٧٧)

ج- التيار الثالث:

وهو تيار علماني لا ينظر إلى الدين أساساً للنهوض بالمجتمع، وهو ينقسم إلى فرعين وفق الآتي:

(76) (المحافظة، علي: الاتجاهات الفكرية، ص ١٨.

(77) بني مرجة، موفق: صحوة الرجل المريض (السلطان عبد الحميد الثاني والخلافة الإسلامية)، الكويت، مطابع

دار الكويت للصحافة، ط ١، ١٩٨٤م، ص ٨٥.

● فرع لتيار علماني يساري واشتراكي، يقول بمفهوم وطن يعيش فيه أهله متساوين أمام القانون، دون فروق دينية أو مستويات طبقية، ومن ممثلي هذا التيار (فرنسيس حوَّاش، شبلي شميل).

● فرع لتيار القومية العربية، وينادي بمفكره بأن النهضة العربية لا تتم إلا بتكتل العرب ووحدهم، دون النظر إلى دياناتهم، وبرزوا كأمة عربية واحدة، لها تاريخها، ولغتها، وحضارتها المشتركة، وقد تمثل هذا التيار في بلاد الشام والعراق في القرن التاسع عشر، وتعدّ نزعة القومية العربية ليست جديدة، فالعرب على طول العصور يعتزون بعروبتهم، ويفخرون بها، وقد كانت بلاد الشام من أول المناادين بالقومية العربية، وخاصة المسيحيين، وهذا يعود للأسباب التالية:

١- المدارس التبشيرية في بلاد الشام، والتي حرصت على تعليم اللغة العربية، وترسيخ مفهوم قومي بأن للعرب حضارة قبل الإسلام، والمسيحيون أسهموا في بناء الحضارة العربية والإسلامية.^(٧٨)

٢- أن كثيراً من المسيحيين في المدن الشامية الكبرى نتيجة تعاملهم التجاري مع الجاليات الأوروبية، فقد أخذت ترى بأنه لا بد أن يكون لها يد في الحكم تحت ظل الدولة العثمانية الإسلامية.

٣- ارتباط المسلمين بمفهوم الخلافة الإسلامية، مما جعلهم يترددون كثيراً قبل الدعوة صراحة إلى استقلال الولايات العربية عن الدولة العثمانية، والانضمام إلى التيار القومي العربي. ومن رواد هذا التيار (إبراهيم اليازجي، وبطرس البستاني، ونجيب عزوري، وأعضاء الجمعية العلمية السورية). ويعدّ عبد الرحمن الكواكبي من أوائل المفكرين في مجال السياسة والدين الذين عملوا على إيجاد توفيق بين مفهوم القومية العربية والجامعة الإسلامية، وتعدّ الصحافة إحدى أهم الوسائل التي أسهمت في نشر أفكار تلك التيارات التي تحدثنا عنها بين الشعب، وتعميم الثقافة، وإيقاظ الفكر العربي.

المظهر الثاني (مظهر تحركات ثورية سياسية):

تعددت أشكال التحركات الثورية العربية خلال القرن التاسع عشر، فمنها ماهو ذو طابع فردي، أو شعبي محلي، أو شعبي عربي ضد الحكم العثماني من جهة، وضد الاستعمار الغربي، من هذه التحركات الثورية العربية نذكر: الثورة السعودية في نجد، وثورة ضاهر العمر في بلاد الشام، وثورة القاهرة الأولى والثانية في مصر، وثورة عبد القادر الجزائري، والمهدية في السودان، والسنوسية في ليبيا، وثورة عراي...^(٧٩)

(78) المحافضة، علي: الاتجاهات الفكرية، ص ٢٥-٢٧.

(79) طربين، أحمد: الوحدة العربية في تاريخ المشرق المعاصر، ١٨٠٠-١٩٥٨م، دمشق، جامعة دمشق، ط ١،

١٩٧٦م، ص ١٦٢-١٦٨.

ولعلّ أهم ما يميز فترة اليقظة العربية تلك منذ القرن التاسع عشر، وحتى انتهاء الاحتلال العثماني للبلاد العربية، أنّها انتهت، وقد رمى الاستعمار الأوروبي العربي بثقله وقواته على جميع الأقطار العربية متخذاً صوراً عدة، مثل انتداب، أو استعمار، أو حماية، إلّا أنّ النتيجة واحدة هي احتلال ساد مكان الاحتلال العثماني. وأخيراً، بعد هذه الإطالة السريعة على الأوضاع العامة في المنطقة وفي البلاد العربية، من الجوانب السياسية أو التنظيمات الإدارية، والاقتصادية، والاجتماعية، والفكرية، خلال المرحلة التي سبقت فترة دراستنا (خلال القرن التاسع عشر)، لاحظنا أنّ القسم الأكبر من هذه البلاد عاش أوضاعاً متذبذبة، تراوحت بين بعض الاستقرار والهدوء والبناء، وبين الكثير من الاضطرابات والتدهور.

لقد ارتبط هذا التذبذب وحالة عدم الاستقرار إلى حدّ كبير بمدى قوة الدولة العثمانية، وقوة الشخصيات القابضة على السلطة المركزية في الآستانة، وعلى رأسها السلطان، فإن البلاد العربية كانت تتمتع ببعض الأمن والاستقرار، ولما ضعفت الدولة ولاحقتها الهزائم العسكرية في حروبها مع الدول الأوروبية، وتفكك نظام مؤسستها العامة، تراخت قبضتها على ولاياتها وألويتها، فانبثقت قوى مختلفة من تلك الولايات، وهي قوى متفرقة لا تخضع لسلطة واحدة في تنظيمها الأساسي، وقد تُرك لها بعض حرية التصرف الذاتي، سواء أكانت من طرف الولاية، أم القوى الإقطاعية العثمانية، أم المحلية، أم العسكرية، أم حتى فئة العلماء، ودخلت في دوامة من الصراعات فيما بينها، فانعكست نتائجها قهراً وابتزازاً، وتردياً في الأحوال الاقتصادية، واضطراباً اجتماعياً، وجموداً فكرياً على الأهالي.

لقد خضعت تلك الأوضاع والمتغيرات لشخصيات القابضين على السلطة المحلية، ومدى نجاحهم أو إخفاقهم في إدارتهم، وفي تجميع بقية القوى المحلية، وفي مدى تفكيرهم بمصالحهم الشخصية، أو مصلحة المجتمع، إلّا أنّ الحكم العثماني التركي، والاضطرابات تلك التي عانتها البلاد العربية، قد تركت اقتصادها في تلكو، ومجتمعها في فقر نسبي، ورغم ذلك لم تستطع تفكيك المجتمع العربي من الداخل، بل زادتة تماسكاً، وتمكّن هذا المجتمع من أن يجوّل بعض القوى العثمانية التركية إلى قوى محلية تمتاز به تدريجياً، وتنبّئ مصالحة كما حدث سابقاً لبعض الانكشافية، والتي أفرزت قوى محلية أكثرها غير عربي الأصالة، ولها مصالحها الشخصية، إلّا أنّها تكلمت العربية، وأخذت العادات والتقاليد العربية المحلية، وسعى بعضها لموافقة مصالحه إلى حدّ ما مع مصالح المجتمع العربي.

إذاً فالمجتمع العربي بواقعه آنذاك نجح رغم تجمّده على تراثه، في إبعاد النفوذ العثماني من التغلغل إلى بنيته الاجتماعية العربية الأصيلة، وواقعه الفكري، مع بعض التغيرات الطفيفة التي مسّت المظهر الخارجي (السطح)، ولم تدخل إلى الأعماق.

ولكن المجتمع العربي إذا كان قد تمّ له ذلك تجاه الدولة العثمانية التي اعتمدت قواعد الحضارة العربية الإسلامية أسساً لها، فإن صراعه مع القوى الأوروبية الغربية في المرحلة التي تلي، والمرحلة التي مع الدولة العثمانية نفسها، والتي غيرت أسلوبها في معاملته هذه المرّة بشكل جلي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، إلّا أنّ هذا التحدي الجديد والقاسي قد أيقظ المجتمع العربي من واقعه التقليدي وفجّر قواه الكامنة، فسعى للخروج من حركته البطيئة في مواكبة متغيرات عصره، بأن بدأ تحويل أنظاره وجهوده وفكره، بدلاً من الاقتداء في الماضي فقط إلى تغيير الحاضر، ورسم صورة جديدة للمستقبل، فكانت النهضة واليقظة العربية.

– الموقع والحدود والتسمية للواء الفرات الأوسط والجزيرة:

تقع منطقة الفرات الأوسط والجزيرة السورية في الجزء الآسيوي من الوطن العربي، في الجهة الشمالية الشرقية من بلاد الشام، ويخترقها نهر الفرات من الجهة الشمالية الغربية (قادمًا من تركيا)، ثم يخرج النهر من الجهة الجنوبية الشرقية للمنطقة^(٨٠).

شملت الأراضي التابعة للواء الفرات الأوسط والجزيرة على مساحة واسعة، إذ بلغت المساحة العامة حوالي (١٠٠,٠٠٠ كم^٢)، وهي على امتداد ما بين خطي طول (١٥° و ٣٥° — ٢٥° و ٣٩°) شرق غرينتش، وبين خطي عرض (٣٤° — ١٠° و ٣٧°) شمالي خط الاستواء على ارتفاع (٢٢٥ م) عن سطح البحر، ذلك الامتداد الواسع جعل حدودها طويلة، إذ يحدها من الشمال (لواء ماردين) التابع لولاية ديار بكر، ومع (لواء أورفة) التابع لولاية حلب، شرقاً حدودها مع ولايتي الموصل (من الشمال الشرقي) ومع ولاية بغداد (من الجنوب الشرقي)؛ أما حدودها الجنوبية فمفتوحة على بادية الشام وتشمل البادية التدمرية ضمن أراضيها وحدودها مع بادية ولاية سورية^(٨١)؛ وأخيراً من الجهة الغربية فحدودها مع ولاية سورية من الجهة الجنوبية الغربية مع حماه وحمص، مع ولاية حلب (من الجهة الشمالية الغربية)^(٨٢).

أهم المناطق الجغرافية التابعة للواء الفرات يمكن تقسيمها بشكل عام إلى ثلاثة أجزاء؛ وهي:

الجزء الأول: في الشمال وهو منطقة سهول واسعة وخصبة تسمى (الجزيرة)، وذلك لأنها محصورة بين نهري دجلة والفرات، وهي مقسومة إلى جزأين (شمالي) يدعى الجزيرة العليا، و(جنوبي) يدعى الجزيرة السفلى أو بادية الجزيرة^(٨٣).

الجزء الثاني: هو منطقة وادي الفرات والتي تشمل السهول النهرية مع الأراضي التي تحيط بضفتيه جانباً، يبعد يتراوح ما بين (٥-٦ كم) على كل جانب، وهي مسيطرة للنهر عند دخوله أراضي المتصرفية شمالاً، حتى خروجه منها متجمعاً نحو الجنوب الشرقي ليدخل الأراضي التابعة لولاية بغداد، فيكون بذلك قد قطع مسافة (٢٨٠ كم) في لواء الفرات.

الجزء الثالث: القسم الجنوبي وهو منطقة بادية الشام وتدعى (الشامية)، وهي منطقة سهول قليلة الخصوبة، نادرة الأمطار، تربتها رملية تدعى (الحماد) وتمتد من أطراف وادي الفرات شمالاً وصولاً إلى أراضي البادية التابعة لولاية سورية^(٨٤).

(١) موسى؛ علي: محافظة دير الزور دراسة طبيعية — تاريخية — بشرية — اقتصادية، دمشق، وزارة الثقافة، ط١، ١٩٩٣، ص ٣٤٨ — ٣٤٩.

(٢) سامي؛ شمس الدين: قاموس الأعلام، مطبعة مهران، ط١، ١٣١١هـ، مج٤، ص ٢٤٢٧.

(٣) توفيق؛ علي: ممالك عثمانية جغرافيا، استانبول، مطبعة قصبار، ط١، ١٣١٥هـ، ص ٣١٢.

(83) Velod (ch): Regime des terres et structures Agraires en Jezireh. Syrienne durant la premiere Moitie du vingtieme siecle, Maison de L'orient, terroirs et societes au Maghreb et au Moyen orient, Monde Arabe, N2. Lyon, (1984), P.162 – 163.

(٢) سامي؛ شمس الدين: قاموس الأعلام، مج٤، ص ٢٤٢٧ — ٢٤٢٨.

ومن المظاهر التضريبية الأخرى الجبال الموجودة في المتصرفية، وهي جبال سنجار، وطوال العبا وكوكب، وعبد العزيز في منطقة (الجزيرة)^(٨٥)، سلسلة الجبال التدمرية، وجبل البلعاس والبشري وهي في منطقة بادية الشام (الشامية) والتي توجد فيها واحتان هما (السحنة وتدمر)^(٨٦).

أنهار اللواء كثيرة وأهمها على الإطلاق نهر الفرات الذي وهب الحياة للمنطقة، أما نهر دجلة فيمر محاذياً لأراضي لواء الفرات والجزيرة من الزاوية الشمالية الشرقية ويشكل حداً فاصلاً لها مع ولاية الموصل^(٨٧)، النهر الثالث الخابور وهو أحد روافد الفرات، منابعه شمال اللواء ويتشكل من عدة أنهار صغيرة تنبع من (لواء ماردين) وهي أنهار جرجب الصغير، وجرجب الكبير، وعرادة الصغير، وعرادة الكبير، والزرقان، وجعجع، ويبلغ طوله في أراضي المتصرفية حوالي (٣١٠ كم)^(٨٨).

كما يوجد في اللواء عدد كبير من الأودية السيلية في الجزيرة والشامية تنحدر معظمها باتجاه وادي الفرات مثل وادي الملح، وادي السحل، وادي الخضرة، وادي الصواب... الخ. وبما أن دير الزور هي قصبه لواء الفرات والجزيرة السورية، لذلك أطلق على اللواء اسم متصرفية دير الزور، لا بد لنا من التعرّيج على التسمية ونعرض لأهم الدراسات والآراء التي قيلت فيها.

فقد تعددت آراء الباحثين حول تسمية دير الزور وفي مجال تحديد تاريخها ومصدر تسميتها، فكان كل واحد منهم قد أدلى برأيه وفسر ذلك حسب وجهة نظره وحسب ما استطاع أن يصل إليه من بحث، فمنهم من فسرها جغرافياً، وآخر أعطاها بعداً تاريخياً، وفريق ثالث حللها لغوياً.

فقال مجموعة من الباحثين بالتفسير التاريخي، وذكروا أنها جاءت من اسم قديم لدير الزور، فعبد القادر عياش^(٨٩) يرى أنها جاءت من تسمية قديمة لها هي (دير بصير)، أما ريتير ومولر^(٩٠) فيقولان إنها استمدت تسميتها

(3) Velod (ch): Regime des terres et structures Agraires en Jezireh. Syrienne, P.163.
(86) Burckhardt (L): travels in Syria and the Holy land. Main. Frankfort 1-2, (1822), P.667 – 668.

(١) الجزائر؛ وجيه: المعلومات الزراعية والاقتصادية والإدارية عن سنح دير الزور ١٩٢٢، تحقيق: عبد القادر عياش، دير الزور، مطبعة الفرات، ط١، ١٩٧٠، ص ١٠.

(2) Boghossian (R): La Haute Djezireh. Preface: M. Pierre Fromont, (O) de l'Academie d'Agriculture de France, 1959, P.23-25.

(٣) عبد القادر عياش: باحث سوري ولد في دير الزور عام (١٩١١م)، حصل على إجازة بالحقوق من جامعة دمشق اهتم بالبحث في التاريخ والعادات والتقاليد، له مؤلفات كثيرة تتجاوز (١٢٠) كتاب أشهرها: معجم المؤلفين السوريين حضارة وادي الفرات... الخ، انظر: عياش، عبد القادر: معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٩٨٥م، ص ٣٧٥.

(٤) ريتير ومولر: باحثين في مجال الجغرافية والآثار وهما: دافيد مولر (١٨٤٩ – ١٩١٢م) مستشرق نمساوي في مجال الآثار وله مؤلفات عدة منها باللغة العربية مثل «ضفة جزيرة العرب»... الخ، أما الثاني فهو كارل ريتير

من مدينة (يرتة)، وأيدهما فليشر وهرتزفلد^(٩١) بهذا، ولكن عارضاهما بأنها هي مدينة (جديرتة) الآرامية، على حين يرى الأب توتل بأنها نسبة لوجود (دير) قديم فيها قبل الإسلام لوجود موطن مسيحي في المنطقة آنذاك، ولكن مون مارسيه يرى بأن اسمها قد استمدته من مدينة (أزورا) القديمة، والتي موقعها يتطابق مع موقع دير الزور^(٩٢).

أمّا من تبين التفسير الجغرافي فقد أرجعه تاريخياً إلى وصف بعض الجغرافيين القدماء فاعتمد بعضهم على أنها هي نفسها بلدة (دير الرمان) التي ذكرها ياقوت الحموي ثم حولت إلى دير الزور، والبعض الآخر يرى أنها هي مدينة (إدارة) وقد ألحق بها تسمية زور فصارت فيما بعد دير الزور، وآخرون قالوا بأن الموقع الجغرافي وتحديد زاوية سمّتها (مُزَوَّر) فهو مائل نحو الشمال الشرقي وليس إلى الشمال تماماً، وقسم من الباحثين قالوا بأنه يكثّر ازورار نهر الفرات عند مدينة دير الزور بدليل كثرة الأكواع النهرية ومن الازورار استمدت تسميتها.

أصحاب التفسير اللغوي قسموا التسمية إلى شقين الأول (دير) والثاني (زور)، فبعضهم أخذ بتفسير (دير) بأنها مفرد الدارات في الرمل حسب ما جاء في اللسان، أما في القاموس المحيط فإن كلمة (دير) تدل على مكان عبادة الرهبان^(٩٣)، مستندين في الأول على طبيعة تربة المنطقة وفي الثاني على أن المنطقة ذات وجود مسيحي قبل انتشار الإسلام^(٩٤).

قسم من الباحثين يرى بأنها لفظة محرفة من (درته) المستمدة من مدينة (جديرتة) الآرامية ويستندون في ذلك على موقعها الذي ينطبق على مدينة دير الزور^(٩٥).

وقسم آخر يرى بأنها مستمدة من تسمية محلية لأبناء القرى والبدو حول مدينة دير الزور، إذ يطلقون كلمة (ديرة). بمعنى (المكان) فيسمون مثلاً: (ديرة دمشق، ديرة الزور... الخ).

أما تسمية (زور) فهي حسب اللسان والمحيط تعني الصدر، ويؤيد ذلك بعض الباحثين معتمدين على موقع دير الزور في صدر الفرات أي على الفرات الأوسط.

(١٧٧٩ — ١٨٥٩م) جغرافي ألماني له مؤلفات عدة مثل الجغرافية العالمية وفيها خص سوريا ولبنان بمجلدين، انظر: الأب توتل: المنجد في الآداب والعلوم، بيروت، ١٩٥٦م، ص ٢٢٩.

(١) فليشر: (١٨٠١ — ١٨٨٨م)، أما هرتز فيلد (١٨٧٦ — ١٩٤٨م) وهو أرنست هرتزفلد، أحد علماء الآثار الإسلامية، عين أستاذاً للجغرافية التاريخية بجامعة بغداد، كما نقب في مدينة حلب، انظر: حسني، حسن: رسالة دكتوراه بعنوان: «محمد رئيس رمضان الخالدي، حياته وآثاره»، بإشراف: سعيد بستاني، بيروت، جامعة القديس يوسف، ١٩٦٧م، ص ١٤.

(٢) الفتيح؛ عبد الكريم: مدخل إلى تاريخ مدينة دير الزور، الندوة الدولية لتاريخ دير الزور وآثارها، دمشق، وزارة الثقافة، المديرية العامة للآثار والمتاحف، عام ١٩٨٣م، ص ١٠٩.

(٣) الفيروز آبادي؛ محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ٥، ١٩٩٦م، ص ٥٠٦.

(٤) امتدت على الفرات الأوسط أرض بكر بن وائل وأرض بني تميم، انظر: شوحان؛ أحمد: تاريخ دير الزور، دمشق، مطبعة الفوال، ط ١، ١٩٨٩م، ص ١٦.

(٥) حسني؛ حسن: محمد رئيس «حياته وآثاره»، ص ١٧.

على حين فسره آخرون بأنه زور القوم أي سيدهم وزعيمهم، ولكون دير الزور هي المدينة التي حكمت منطقة الفرات الأوسط فاستمدت التسمية منها^(٩٦).

والبعض يرى بأن (زور) قد جاءت من التسمية المحلية التي أطلقها القبائل البدوية عليها، عندما وصلت المنطقة على القسم الأوسط لنهر الفرات^(٩٧).

وأخيراً بعد هذا العرض لما قُدم حول تسمية دير الزور فإننا نقول إن التحليل المنطقي لكل واحد منها مع الانتباه إلى النقاط التي تتقاطع فيها تلك الآراء أو التي تختلف فيها نرى بأن دير الزور قد استمدت اسمها بفعل عدة أسباب تشترك فيها عدة جوانب تاريخية وجغرافية ولغوية، فهي محرفة من (درته) المستمدة من (جديرتة) الآرامية، إذ ينطبق موقعها على موقع مدينة دير الزور ورغم انقطاع التسمية لفترة زمنية، ثم عودة ذكرها مرة أخرى محرفة لتصبح (دير) ثم انتشرت في المناطق المجاورة حتى عُرف أبنائها باسم الديرين.

إن الآراء سابقة الذكر حول تاريخ تسمية دير الزور معظمها يتقاطع في نقطة وهي أن التسمية حديثة ظهرت في القرن التاسع عشر الميلادي، ولكن من الملاحظ اعتمادها على التفسير اللغوي لمعنى دير الزور محاولين تقديم ربط تاريخي أو جغرافي له دون الاعتماد على البحث العلمي، فمنهم من قال أنها دير الرمان وآخر سماها دير بصير، والبعض دير الختليف أو أنها لفظة من القبائل البدوية... الخ.

ولكن أقول بأن تسمية دير الزور موجودة قبل هذا التاريخ، وربما لم تكن بذات الأهمية التي هي عليها في القرن التاسع عشر ولذلك لم تبرز تسميتها، ولكن هي موجودة بالاسم نفسه منذ القرن الأول الهجري، السابع الميلادي.

لقد وردت (دير الزور) في موضعين من كتاب معجم البلدان — لياقوت الحموي — الأول يقدم فيه ضبطاً لغوياً للاسم، فيقول: «دير الزور: بتقديم الزاي وسكون الواو وراء مضبوط» ثم يذكر بأن شريح بن عامر قد مر بها في عام ٤١هـ حين بعث به عمر بن الخطاب رضي الله عنه^(٩٨). ثم يذكرها في موضع ثانٍ ويقدم فيه معنى الزور وتحديد موقعها فيقول: (والزور هو الميل والاعوجاج، والزور أيضاً الصدر، والزور بفتح الزاي موضع بين أرض بكر وأرض بني تميم)^(٩٩)، وهذا التحديد ينطبق تماماً على موقع دير الزور الحالي.

ثم بالنظر إلى التاريخ الذي ذكره لياقوت الحموي في الموضع الأول لدير زور عام ٤١هـ/ أي في القرن الأول الهجري فهذا دليل على وجود التسمية في ذلك الوقت.

ولو أخذنا بالحسبان تاريخ وفاة لياقوت الحموي في عام ٦٢٦هـ/ نجد أن التسمية كانت موجودة قبل هذا التاريخ واستمرت في القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، وهذه أدلة جغرافية وتاريخية.

(١) صليبي؛ عمر: لواء الزور «إدارياً وسياسياً»، دمشق، دار العلم، ط ١، ١٩٩٧، ص ١٦. وانظر: الفتيح؛ عبد الكريم: مدخل إلى تاريخ مدينة دير الزور، ص ١٠٧-١٠٩.

(٢) حسني؛ حسن: محمد الخالدي «حياته وآثاره»، ص ١٩.

(١) الحموي؛ لياقوت: معجم البلدان، تحقيق: فريد الجندي، ج ٥، بيروت، دار الكتب العالمية، ج ٥، ص ١٥٧.

(٢) الحموي؛ لياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٥١٣.

ثم استمرت تسمية دير الزور في القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي، وهذه أدلة أخرى على ذلك من كتب الأدب، إذ ورد ذكر أكثر من شخص هم أعلام عاشوا في حلب ولكن أصلهم يعود لدير الزور فارتبط اسمهم بلقب (الديري) نسبة إلى دير الزور آنذاك، وربطاً مع موقعها الحالي، نذكر منهم بعض من ورد ذكره في كتاب شذرات الذهب، إذ يعرف ابن فلاح الحنبلي بأحد القضاة، فيقول: «علاء الدين العشاري»^(١٠٠) نسبة إلى العشارة بلدة قريبة من الدير، توفي عام ٩٣٢هـ^(١٠١)، وذكر أيضاً «شمس الدين بن محمد الديري الأصل، توفي في عام ٩٤٠هـ»^(١٠٢) وفي ذلك تحديد واضح لنسبتهم التي تعود إلى دير الزور تحديداً والتي بدأت تظهر أهميتها منذ القرن السادس عشر للميلاد وصارت البلدة الأكثر شهرة في الفرات الأوسط وهذه أدلة أخرى تاريخية على استمرار تسميتها، ففي أول تشكيلات إدارية عثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني (٩٢٦ ت ٩٧٤هـ / ١٥٢٠ ت ١٥٦٦م) يظهر اسم دير الزور مرتبطاً بقلعة الرحبة— وذلك لشهرتها في العصر العباسي فسميت (لواء دير رحبة أو رهبة)^(١٠٣) واستمر ذلك في القرن السابع عشر أيضاً^(١٠٤).

وكذلك تأتي زيارات العديد من الرحالة الأجانب الذين زاروا دير الزور وذكروها في رحلاتهم من القرن السادس عشر حتى التاسع عشر باسمها نفسه دير الزور^(١٠٥).

وبعد كل ما قدمناه من أدلة بحث علمي تؤكد على وجود اسم دير الزور منذ القرن الأول الهجري السابع الميلادي، أما بالنسبة لسبب التسمية ومن أين اشتقت، وذلك من خلال ما تقدم وبعبداً عن أي تعصب، نقول:

إن التسمية للدير مشتقة من وجود دير مسيحي فيها، وهذه عدة أدلة على ذلك، أولها وجود آثار ذلك الدير قرب دير الزور القديمة (دير العتيق) وهو ذلك المعبد الذي يعود إلى فترة ما قبل الإسلام، إذ كان يؤم المنطقة قبائل عربية تدين بالمسيحية ولم تكن وثنية ومنها بنو تغلب، وبعض من بني بكر وتميم، وفي ذلك ترابط واضح وهذا يعني أنها لفظة عربية فصيحة.

أما بالنسبة لزور أي الميل والاعوجاج وتعني أيضاً الصدر (أي الانحراف) وهو المكان كثير الزرع وهذه جميعها تتطابق مع موقع دير الزور على نهر الفرات، إذ تكثر الأكواع النهرية فيها واعوجاج النهر، وبدوره أدى هذا إلى

(٣) هو علاء الدين علي بن عبد الله العشاري، سمي بذلك نسبة إلى بلدته، شافعي المذهب، وهو القاضي المعروف بابن قطان، ولي قضاء إعزاز وسرمين، توفي في العشر الأخير من رجب سنة ٩٣٢هـ. انظر: الحنبلي؛ ابن فلاح: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٨ مج، بيروت، المكتب التجاري للنشر، [د، ت]، مج ٤، ص ١٨٤.

(٤) الحنبلي؛ ابن فلاح: شذرات الذهب، مج ٤، ص ١٨٦.

(٥) وهو شمس الدين محمد بن محمد الديري الأصل، الشافعي المذهب، إمام وعلامة وحجة، معروف بابن الخناجري، توفي في دمشق ٩٤٠هـ. انظر: الحنبلي؛ ابن فلاح: شذرات الذهب، مج ٤، ص ٢٤١.

(١) سالنامه ولاية حلب، عام (١٢٨٧هـ / ١٨٦٨م)، ص ٣٧.

(٢) الحصري؛ ساطع: البلاد العربية والدولة العثمانية، بيروت، دار العلم للملايين، ط ٢، ١٩٦٠، ص ١٣٢، ١٣٣.

(٣) ونقصد بها رحلات مثل رحلة فيلوت، وبوكهارت، والأب توتل وغيرهم، الذين زاروا دير الزور ووصفوها، انظر: عياش؛ عبد القادر: دير الزور في كتابات كتاب عرب وأجانب، دير الزور، ط ١، ١٩٦٩م، ص ١٦ — ٢٧.

انحراف موقع المدينة بشكل يساير النهر، إضافة إلى أن كثرة تفرعات النهر أدت إلى وجود كميات كبيرة من الأشجار تحيط بوادي الفرات، ومن هذه الأسباب مجتمعة جاءت التسمية زور، وهي أيضاً عربية فصيحة وليست عامية وبالتالي هي أدلة أخرى على أن الاسم دير الزور جاء قبل استخدام اللهجة المحلية في القرن التاسع عشر بل هي تسمية عربية فصيحة واسمها الصحيح هو (دير زُور)، دون أل التعريف، وتعود إلى القرن الأول الهجري السابع الميلادي.

الفصل الأول

المتغيرات السياسية والتنظيمات الإدارية في لواء الفرات والجزيرة

(١٩٠٩-١٩٤٦م / ١٣٢٧-
١٣٦٥هـ)

الفصل الأول

المتغيرات السياسية والتنظيمات الإدارية في لواء الفرات والجزيرة (١٩٠٩-١٩٤٦م/١٣٢٧-١٣٦٥هـ)

- تمهيد:

أولاً- الأوضاع السياسية والتنظيمات الإدارية في أواخر العهد العثماني (١٩٠٩-١٩١٨م)
ثانياً- الأوضاع السياسية والتنظيمات الإدارية في فترة (الحكم الفيصلي) الحكومة العربية
(١٩١٨-١٩٢٠م):

١- فترة الاحتلال الإنكليزي لمنطقة الفرات الأوسط والجزيرة (١٩١٩م/١٣٣٧هـ).

٢- ثورة رمضان الشلاش.

ثالثاً-الأوضاع السياسية والتنظيمات الإدارية في مرحلة الاحتلال الفرنسي لمنطقة الفرات
الأوسط و الجزيرة (١٩٢٠- ١٩٤٦م/١٣٣٩-١٣٦٥هـ):

١- خلال فترة العشرينيات.

٢- خلال فترة الثلاثينيات.

٣- خلال فترة الأربعينيات.

-خاتمة.

- تمهيد :

بعد الدراسة السابقة في التمهيد التاريخي لمختلف الأوضاع العامة في بلاد الشام والبلاد العربية، نأتي الآن إلى دراسة الأوضاع عينها في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة السورية. تعد منطقة الفرات الأوسط والجزيرة كغيرها من مناطق بلاد الشام التي ثارت على الحكم المصري عندما لم تحقق لها القوات المصرية آمال وأحلام الشعب العربي، ولذلك ثار أبناؤها ضد قوات إبراهيم باشا واستمرت المقاومة حتى خروج القوات المصرية وانسحابها من المنطقة في عام (١٢٥٥هـ / ١٨٤٠م)^(١٠٦)

بعد عودة بلاد الشام إلى التبعية العثمانية قامت فوراً بتقسيمها إلى ثلاث ولايات أساسية

هي :

١- ولاية سورية (الشام)

٢- ولاية طرابلس

٣- ولاية حلب

وقد وضعت منطقة الفرات الأوسط والجزيرة ضمن المناطق التابعة إدارياً إلى ولاية حلب^(١٠٧)، بل وعرفت نتيجة لذلك حسب التقسيمات الإدارية العثمانية تحت اسم (ولاية حلب والركة)^(١٠٨).

ولعل أبرز الأحداث السياسية خلال هذه الفترة هي تلك الحملة العسكرية العثمانية بقيادة عمر باشا^(١٠٩)، والتي قصدت منطقة الفرات الأوسط والجزيرة بغية توطيد الأمن فيها وذلك نتيجة لتمردات عشائر البدو، وذلك في عام (١٨٥٥م / ١٢٧٥هـ)^(١١٠).

لقد أخل هذا الأمر بتوازن القوى في المنطقة على طول الفرات الأوسط وفي الجزيرة وبادية الشام، إذ استقرت هذه الحملة في المركز الأهم في هذه المنطقة قسبة المتصرفية وهي

106 - عياش؛ عبد القادر: حضارة وادي الفرات، إعداد: وليد مشوح، دمشق، مطبعة الأهالي، ط٢، ١٩٩٩م، ص١٥١.

107 - بازيلى؛ قسطنطين: سورية ولبنان تحت الحكم العثماني من الناحيتين السياسية والإدارية، ترجمة: سيد جابر، بيروت، دار الحداثة، ط١، ١٩٨٨م، ص٥٠.

108 - وثائق الأوامر السلطانية حلب، سجل رقم ٥٧، رقم الوثيقة ٩٦، عام (١٢٦٨هـ / ١٨٤٨م)، ص٤٣.

109 - عمر باشا: أحد غلمان الدفشمة (ضريبة الدم) وهو من أصل كرواتي، وقد دار قتال عنيف بين حملته والأهالي، وانتهى بالصلح ودفع الفدية، وساق عدداً من أبنائها للخدمة في الجيش العثماني يساوي عدد جنودها الذين قتلوا وهم ١٦ جندياً، انظر: عياش؛ عبد القادر: حضارة وادي الفرات، ص ١٥٠ - ١٥١.

110 - طربين؛ أحمد: تاريخ المشرق العربي المعاصر، ص٣٤٧.

مدينة دير الزور التي تحولت إلى مراكز لمتصرفية مستقلة ممتازة مرتبطة بشكل مباشر بالآستانة وأطلق عليها اسم (متصرفية زور) وأراضيها تمتد على منطقة الفرات الأوسط والجزيرة وبادية الشام^(١١١)، فكان هذا تحولاً هاماً في تاريخ هذه المنطقة، إذ منحها أهمية خاصة لكونها كانت من قبل تتميز بصعوبة خضوعها للحكم العثماني، بل قلما استطاعت الدولة العثمانية طوال وجودها السابق أن تحكم قبضتها بالشكل الصحيح على منطقة الفرات الأوسط والجزيرة والبادية، وذلك لأسباب كثيرة لعل أبرزها هي غلبة طابع العشائرية والبدواة الذي تميزت به العديد من مناطق المتصرفية^(١١٢)، فكثيراً ما كانت عشائر المنطقة والبدو يفرضون سيطرتهم في مناطق إقامتهم وهم أصحاب القرار، بل ويفرضون الأتاوات على الطرق وعلى قوافل التجار والمسافرين^(١١٣)، حتى على الدولة العثمانية. ففي مواسم الحج كانت الدولة العثمانية ترسل مع أمراء محمل الحج تلك الأتاوات إلى زعماء القبائل البدوية ويسمى (الصرة)، لتأمين سلامة الطريق للحجيج^(١١٤).

كذلك اضطرت الدولة العثمانية في أحيان أخرى إلى استخدام الشدة والقوة، فقد أرسلت حملة عسكرية إلى المنطقة^(١١٥)، بقيادة ثريا باشا وذلك في عام (١٢٨٣هـ / ١٨٦٤م)^(١١٦)، وذلك لتأديب بعض العشائر والقبائل البدوية المتمردة ضد السلطة^(١١٧).

لقد شهدت المنطقة في الفترة الممتدة ما بين عامي (١٢٨٣هـ / ١٨٦٤م) حتى (١٢٩٩هـ / ١٨٨١م) أي العام الذي تمت فيه التسمية للمنطقة (متصرفية)، شهدت هذه الحقبة

111 - الغزي؛ كامل: نهر الذهب في تاريخ حلب، ج٣، حلب، منشورات دار القلم العربي، ط٢، ١٩٩١م، ج١، ص٤٦٠.

112 - وثائق الأوامر السلطانية حلب، سجل رقم ٦٢، دون رقم الوثيقة، عام (١٢٧٩هـ / ١٨٥٩م).

113 - العيساوي؛ شارل: التاريخ الاقتصادي للهِلال الخصيب (١٨٠٠ - ١٩١٤م)، ترجمة: رؤوف عباس حامد.

114 - رافق؛ عبد الكريم: قافلة الحج الشامي وأهميتها في العهد العثماني، دمشق، مجلة الدراسات التاريخية بجامعة دمشق، العدد ٦، تشرين الأول، ١٩٨١م، ص.

115 - الطباخ؛ محمد راغب: أعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء، ج٧، حلب، دار القلم العربي، ط٢، ١٩٩١م، ج١، ص٤٦٠.

116 - ثريا باشا: هو ابن عثمان باشا الكرجي الأصل، ولد بالآستانة عام (١٢٤١هـ / ١٨٢٤م)، عين بعد أن أتم تحصيله العلمي في غرفة ضبط الديوان الهمايوني في الباب العلي، ثم عين رئيساً للكتاب في سفارة باريس، وفي عام (١٢٧٥هـ / ١٨٥٥م) حاز على رتبة البكربكي، ثم عين متصرفاً للقدس الشريف في عام (١٢٩٥هـ / ١٨٧٤م) حيث نقل إلى سيواس، وتوفي فيها عام (١٢٩٦هـ / ١٨٧٥م)، انظر: وثائق الأوامر السلطانية حلب، السجل ٦٢، دون رقم الوثيقة، عام (١٢٧٩هـ / ١٨٥٩م) ص٥٧.

117 - الطباخ؛ محمد راغب: أعلام النبلاء، ج٧، ص٣٥٦ - ٣٥٧.

تقلبات التسمية الرسمية لمنطقة الفرات الأوسط والجزيرة، تغير خلالها التسمية ما بين قائم مقامية الزور، أو لواء الزور، وكذلك تقلب وضعها الإداري كلواء يتبع لولاية حلب أو كمتصرفية تتبع إلى الآستانة مباشرة، ولذلك سوف نذكر تلك التبدلات بشكل سريع.

في عام (١٢٨٤هـ / ١٨٦٥م) حولت المنطقة إدارياً إلى قائم مقامية الزور وأعيد ارتباطها بولاية حلب وعين عليها عثمان بك قائم مقام^(١١٨).

وفي عام (١٢٨٧هـ / ١٨٦٩م) صارت المنطقة لواء ولكن استمرت بتبعيتها لولاية حلب^(١١٩) وعين عليها المتصرف أرسلان باشا^(١٢٠).

في عام (١٢٨٩هـ / ١٨٧١م) تحولت المنطقة إلى متصرفية مستقلة مرتبطة بالآستانة^(١٢١) وأطلق عليها اسم (متصرفية الزور)، وعين عليها المتصرف عمر باشا^(١٢٢).

في عام (١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م) أعادتها الدولة العثمانية تتبع لولاية حلب ولكن أبقتها لواء^(١٢٣) وعينت عليها المتصرف حسين باشا^(١٢٤).

118 - حقق عثمان بك إنجازات عمرانية مهمة ، وكان من أبرزها مباشرته ببناء السراي الحكومية في محلة عبد العزيز بدير الزور ، وثكنة عسكرية في الجهة الجنوبية الشرقية من أطراف المدينة ، وبأشر ببناء السوق الميري (ويعرف اليوم بالسوق المقبي) ، واستقدم بعض أصحاب المهن (كالبنائين ، والنجارين إلخ) ، وكذلك سعى لنشر الأمن وخاصة على طرق المتصرفية ، انظر: وثائق الأوامر سالنامة ولاية حلب (١٢٨٤هـ / ١٨٦٥م) ، ص ٥١ .

119 - سالنامة ولاية حلب (١٢٨٧هـ / ١٨٦٩م) ، ص ٦٦ .

120 - عين أرسلان باشا متصرفاً للمنطقة وكان يحمل طوخين برتبة بكربكي ، ونلاحظ في عهده وللمرة الأولى بتاريخ منطقة الفرات الأوسط والجزيرة تنظيمًا إداريًا واضح المعالم ، حيث تعتبر فترته الانطلاقة لتنظيم إداري وإنشاء العديد من الدوائر الإدارية الحكومية وكذلك تأسيس مجلس إدارة اللواء ومجلس تميز اللواء ومجالس إدارة الأفضية ، وأجريت الانتخابات لاختيار أعضاء لهذه المجالس ، اتصف بشخصيته الحازمة والشدّة ، وكان يحمل رتبة (روم إيلي) ، انظر : سالنامة ولاية حلب (١٢٨٧هـ / ١٨٦٩م) ، ص ٦٦ - ٦٧ .

121 - سالنامة ولاية حلب (١٢٨٩هـ / ١٨٧١م) ، ص ٦٠ .

122 - يعتبر عمر باشا أحد غلمان الدفشمرة ، وهو كرواتي الأصل ، عين متصرفاً لدير الزور (أي منطقة الفرات الأوسط والجزيرة) ، وقد كان برتبة فريق عندما تولى مهامه وأعطى صلاحيات واسعة لضبط المنطقة ، تركّز اهتمامه بالجانب العسكري والإداري ، انظر : سالنامة ولاية حلب (١٢٨٩هـ / ١٨٧١م) ، ص ٦٠ .

123 - سالنامة ولاية حلب (١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م) ، ص ٩٩ .

124 - اتصف حسين باشا بن رشدي باشا بذكاء سياسي ، فكان يحاول كسب ود الناس مع شيء من الحزم ، وهو قوي الشخصية، ذكي ، لبق الكلام ، كريم ، وعُرف عنه ميوله نحو العرب ، على الرغم من كونه تركي الأصل ، أمضى معظم حياته في حلب حيث كان يسكن في محلة باب النصر ، عزل عن دير الزور في عام

في عام (١٢٩٩هـ / ١٨٨١م) صدرت الأوامر السلطانية بجعل منطقة الفرات الأوسط والجزيرة متصرفية مستقلة ممتازة مرتبطة بالأستانة مباشرة^(١٢٥)، وعين عليها متصرفاً حسن تحسين باشا^(١٢٦)، وبقيت متصرفية مستقلة منذ ذلك التاريخ وحتى خروج العثمانيين.

لأنريد الخوض طويلاً بالبحث في الجذور التي ساهمت في نهوض الحياة الفكرية في المنطقة العربية خلال العصر الحديث والمعاصر كتمهيد لمرحلة بحثنا هذا في الفترة مابين (١٩٠٩-١٩٤٦م/١٣٢٧-١٣٦٦هـ) من تاريخ سورية، إذ لم يتفق الباحثون في ترجيح عوامل على أخرى أسهمت في نهوض الحياة الفكرية والفكر القومي، وتتنوع هذه العوامل ابتداء من القرن الثامن عشر وحتى مرحلة دراستنا، وعلى رأسها تأثير الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت (١٧٩٨-١٨٠١م)، ثم توسع محمد علي من مصر إلى بلاد الشام (١٨٣٠-١٨٤٠م)، تلاها ظهور الحركة الوهابية في منتصف القرن الثامن عشر في شبه الجزيرة العربية، أو أحداث لبنان والحرب الأهلية عام (١٨٦٠م) وما نتج عنه من تدخل للقوى الخارجية. وكذلك تأثير المدارس التبشيرية المسيحية الأجنبية، والتي انتشرت في مناطق واسعة من سورية ولبنان، وأسهمت في تنمية الحياة الفكرية خلال القرن التاسع عشر، وكذلك المدارس الإسلامية في مصر وسورية، وتأثير أفكار المصلحين من المفكرين الذين برزوا خلال تلك الفترة، أمثال عبد الرحمن الكواكبي، ودعوته لخلافة عربية، وجمال الدين الأفغاني، ودعوته إلى تأسيس الجامعة الإسلامية.^(١٢٧)

(١٢٩٩هـ / ١٨٨١م) ، انظر : سالنامه ولاية حلب عام (١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م) ، ص ٩٩ ، وانظر : وثائق الأوامر السلطانية حلب ، سجل ٦٧ ، وثيقة رقم ٢٥٠ ، عام (١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م) ، ص ٢١٩ .

125 - سالنامه ولاية حلب عام (١٢٩٩هـ / ١٨٨١م) ص ٨٤ .

126 - كان حسن تحسين باشا برتبة بكربكي عندما عين متصرفاً على الفرات الأوسط والجزيرة (متصرفية دير الزور) ، وفي عهده أظهر اهتماماً أكبر بدير الزور من قبل الدولة العثمانية ، ونلاحظ هذا من خلال ربطها المباشر بالعاصمة ، عمل على التوسع في التنظيمات الإدارية وخاصة من خلال المجالس المحلية ، وإحداث بعض الإدارات في المتصرفية ، وإحداث محكمة تجارية لأول مرة في دير الزور والمنطقة ، إضافة إلى التنظيم الدقيق لإدارة كل قضاء ومختلف الدوائر المحدث والمحمكة وإعداد الموظفين الإداريين في مركز المتصرفية وفي كل قضاء من قائم مقام إلى المفتي والكاتب ... إلخ ، وقد شهدت المنطقة في عصره تطوراً جديداً في التنظيم الإداري والسياسي ، انظر : سالنامه ولاية حلب عام (١٢٩٩هـ / ١٨٨١م) ، ص ٨٤ - ٨٦ .

127 - طربين؛ أحمد: الوحدة العربية ١٩١٦-١٩٤٥م، القاهرة، جامعة الدول العربية، ط١، ١٩٥٩م، ص ١٧٦-١٧٧ .

أمّا النتيجة المشتركة لكل ماسبق هي أن تلك الأفكار أخذت تلعب دوراً سياسياً في حياة سورية والمجتمع العربي، وظهرت بشكل جلي وواضح خلال مرحلة هذا البحث، وأدت إلى ظهور جمعيات وأحزاب سرية تعمل ضد الحكم العثماني في سورية. ومن ثمّ تحولها إلى معاد لقوى الاحتلال الأوربي الفرنسي والإنكليزي.

وبذلك فقد شهدت الحياة الفكرية نهوضاً في منتصف القرن التاسع عشر، وخاصة الفكر القومي العربي، ثم زاد نشاطها بعد قيام الدستور العثماني (١٩٠٨م/١٣٢٧هـ) أي مع بدء مرحلة هذه الدراسة. وبذلك فإن الجمعيات العربية السرية والنوادي العربية^(١٢٨)، والمنظمات الأخرى ذات الأهداف القومية الصريحة والفكرية، والتي أثرت في المجال السياسي قد تأسست في الفترة التي أختص بها في هذا البحث.

ولذلك سوف نولي الجانب السياسي وما نتج عنه من متغيرات إدارية أهمية خاصة، ونفرد لها فصلاً يغطيها من جوانبها كافة.

¹²⁸ - Gooch, G.P. and temperly: British documents on the origins of war 1898-1914, vol x, London 1938.p.824.

أولاً: الأوضاع السياسية والتنظيمات الإدارية في أواخر العهد العثماني (١٩٠٩ - ١٩١٨ م/١٣٢٧-١٣٣٦هـ):

تعد دراسة تلك المرحلة التاريخية الهامة، إحدى المراحل الرئيسية في دراسة التاريخ الحديث والمعاصر، على الرغم من قصر فترتها، إذ لا تتجاوز السنوات العشر، إلا أنها كانت حافلة بالأحداث والمتغيرات السياسية، خاصة وأنه يسجل خلالها حدث عالمي شغل البشرية بأسرها، وأثر في الأوضاع السياسية، بل وأظهر خارطة سياسية جديدة لمناطق متعددة من العالم، ألا وهي الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨ م). وكذلك شهدت هذه السنوات العشر المشاكل التي سبقت تلك الحرب، وأسهمت في إشعال نارها.

لذلك سوف نتناول دراسة للأوضاع السياسية في العالم خلال تلك السنوات، والأوضاع العامة التي سبقت الحرب العالمية الأولى، والأسباب التي أدت إلى اندلاعها، ومنعكساتها على الصعد العالمية والعربية والمحلية، إذ تعد هذه الحقبة غنية بأحداثها تتطلب منا أن نخصها بالدراسة على الصعد كافة.

وبداية لابد لنا من دراسة الأوضاع الدولية، إذ للدول العظمى مصالح دائمة تؤثر في تسيير نظامها السياسي السائد فيها، وتلك المصالح مرتبطة بشروط جغرافية وديموغرافية وحاجات اقتصادية... لذلك لابد لنا من استعراض لتلك الدول العظمى في بداية القرن العشرين. وأولها ألمانية الإمبراطورية، التي كانت على درجة واسعة من النمو الاقتصادي والديموغرافي، إذ شهدت تزايداً سكانياً عالياً، ونمواً صناعياً كبيراً لم يؤثر على النهضة الزراعية التي كانت تشهدها، وبالتالي فقد كان نشاطها التجاري يحتاج إلى أسواق لتصريف منتجاتها، فأسهمت تلك الأوضاع في تضخم قوتها العسكرية والبحرية. لكن كانت تنقصها المتانة الدبلوماسية، خاصة وأنها كانت مركز محور التحالف الثلاثي مع كل من إيطاليا والنمسا.^(١٢٩)

أمّا ثاني هذه الدول فكانت انكلترا ذات القوة العظمى، وكان لها شواغل استعمارية توسعية، وتعترف بها علناً، وترجع لأسباب كثيرة، على رأسها أسباب اقتصادية، إذ كانت تخشى انكلترا، إن تركت البلاد الأخرى تضع يدها على الأراضي الاستعمارية الهامة، فتقوم بإغلاق أبواب هذه المناطق المستعمرة في وجه التجارة الإنكليزية.

كذلك كانت انكلترا بحاجة إلى نقاط استناد لأسطولها الحربي في جميع أنحاء العالم، لهذا استطاعت بفضل تفوقها البحري أن تؤمن مواصلات الإمبراطورية وسلامة جزرها. أمّا

129 - قاسمية؛ خيرية: تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، دمشق، جامعة دمشق، ط٣، ١٩٩٣م، ص ١٦٠ -

دبلوماسيةيتها فقد حاول بعض الإنكليز أن يجدوا نقطة للتقارب مع ألمانية، إذ أراد (جوزيف تشامبرلن) وزير المستعمرات أن يصل إلى تحالف مع ألمانية، إلا أنه لم ينجح فالتفت في مسعاه نحو فرنسا.

وكانت تتمتع فرنسا بمكانة سياسية عالية بين الدول العظمى، ولعل أهم شواغل السياسة الفرنسية هي سياستها الاستعمارية، خاصة داخل أوربة، إذ كانت قضية الأراس واللورين تعطى الأهمية الأولى في سياستها، بل وتقف عقبة في وجه كل تقارب فرنسي-ألماني. وكذلك كان لفرنسا سياستها التوسعية خارج أوربة، وجعلت الجمهورية الثالثة لفرنسا إمبراطورية استعمارية جديدة، وتجلّى ذلك بوضوح عند لجنة إفريقية الفرنسية، ولجنة آسيا الفرنسية. كما أعادت فرنسا تنظيم بحريتها العسكرية خلال الفترة مابين (١٩٠٥-١٩١٤م)، ودبلوماسية أبرمت حلفاً مع انكلترا، ومع روسيا أيضاً. (١٣٠)

وكانت روسيا تعدّ أكبر دولة أوربية، ولها شواغل سياسية، إذ بذلت جهودها للتوسع في وجهتين، الأولى في أوربة، بغية الوصول إلى البحر المتوسط (الحر)، وذلك يعني مشكلة المضائق (البوسفور والدردينيل)، وهذه ترتبط بالقضية البلقانية. أما الثانية فهي التوسع في الشرق الأقصى، إذ كان مجال التوسع الطبيعي لروسيا نحو آسيا. وقد أدى إلى حرب منشوريا وإخفاق الروس فيها (١٩٠٥م/١٣٢٣هـ). أما دبلوماسية فقد كان الحلف الألماني-النمساوي ومشاكلها مع انكلترا في آسيا على حدود أفغانستان، فالتفتت نحو التحالف مع فرنسا.

أما النمسا فقد كانت دولة كبرى في عام (١٩١٠م/١٣٢٨هـ)، وكانت تتمتع باقتصاد قوي، إذ تمتلك مناطق صناعية هامة في النمسا وبوهيميا واستيريا. أما شواغلها السياسية الخارجية فإنها لم تسلك سياسة توسع استعماري، إلا أنه كان لها اندفاع نحو الجنوب الشرقي، رداً على تخلص الحكومة الصربية من الوصاية النمساوية عليها (١٩٠٣م/١٣٢١هـ)، ولذلك اتجهت إلى تطويق صربيا بأحلاف مع رومانيا وبلغاريا، إيجاد أمارة ألبانيا لمنع وصول صربيا إلى البحر الأدرياتيكي. أما دبلوماسية فقد اضطرت إلى التحالف مع ألمانية وإيطاليا لتحمي ظهرها في حال وقوع حرب بينها وبين روسيا.

أما إيطاليا فإنها كانت قوة ناشئة ولها نوازع ورغبات استعمارية، إذ كان النشاط الاقتصادي الإيطالي زراعياً على الأغلب قبل عام (١٩١٤م/١٣٣٢هـ). أما شواغلها الرئيسية في سياستها الخارجية هو البحر المتوسط، لأنه المنفذ الوحيد لها. أما الشاغل الثاني فهو أوربة الوسطى، لربط الإيطاليين من رعايا الدولة النمساوية بالمملكة الإيطالية، أي

(سياسة الاسترداد الإيطالية). أما الثالث فهو التوسع الاستعماري الذي يؤمن لإيطاليا تمويلها بالمنتجات الغذائية والمواد الأولية، وأدى ذلك إلى التوسع في ليبيا، وخاضت حرب طرابلس الغرب عام (١٩١١م/١٣٣٩هـ)، على الرغم من أنها كانت دولة فتية جديدة التأسيس، وأمورها المالية ضعيفة، لكنها ربطت نفسها مع محور ثلاثي ضمها إلى جانب ألمانية والنمسا. (١٣١)

أوضحنا من خلال ما تقدم، الظروف والدول ذات التنافس الاستعماري في بداية القرن العشرين، وعرفنا الدول العظمى آنذاك، والأحوال التي كانت سائدة بينها، والتي أسهمت في تشكيل تحالفات وكتل سياسية ظهرت بشكل جلي في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م) (١٣٢) والتي كان لها أسباب بعيدة (غير مباشرة)، وأخرى مباشرة.

الأسباب غير المباشرة: جاءت في الفترة ما بين (١٩٠٤-١٩١١م)، بعد أن شهدت العلاقات الدولية هدوءاً نسبياً، نشبت أزمتان خطيرتان أدتا إلى التهديد بالحرب، وقد انفجرت هاتان الأزمتان بتمسك من دولتي الوسط (ألمانية والنمسا) اللتين أرادتا أن تفيد من ضعف روسيا بسبب الحرب الروسية-اليابانية (١٩٠٤-١٩٠٥م) وإخفاق منشوريا. وأول هاتين الأزمتين هي الأزمة المراكشية (١٩٠٤-١٩٠٥م) وما تبعها من أزمة أغادير (١٩١١م) عندما عادت ألمانية وأيقظت القضية المراكشية. (١٣٣)

أما الأزمة الثانية فهي الأزمة البلقانية (١٩١٢-١٩١٣م) عندما كانت روسيا تشجع الدول البلقانية ضد تركية، مما أيقظ التنافس بين النمسا وروسيا، خاصة وأن الحلف البلقاني الذي شكلته روسيا انحلّ في عام (١٩١٣م/١٣٢٩هـ) عندما انقضت الدول البلقانية على بعضها. ونتيجة لهاتين الأزمتين فقد حصل توتر في العلاقات الدولية عام (١٩١٣م/١٣٣١هـ)، وصارت تتسابق الدول إلى التسلح وشد أواصر الوفاق والأحلاف.

أما الأسباب المباشرة للحرب العالمية الأولى، والتي أدت إلى إشعال نارها في ٢٨/حزيران/ ١٩١٤م/١٣٣٢هـ، فهي حادثة قتل الأرشيدوق فرديناند الوارث لعرش النمسا في زيارته لمدينة سيرايفو، وكان القتل شباناً من البوسنة أتوا من بلغراد ووصلتهم الأسلحة من ترسانات صربيا. (١٣٤)

131 - قاسمية؛ خيرية: تاريخ أوروبا، ص ١٦٤-١٧١.

132 - العظمة؛ عبد العزيز: مرآة الشام (تاريخ دمشق وأهلها)، تحقيق: نجدة فتحي صفوة، دمشق، دار الفكر، ط ٢، ٢٠٠٢م، ص ٣٨٣.

133 - الصباغ؛ ليلي: تاريخ العرب الحديث، ص ٢٩٣-٢٩٤.

134 - - قاسمية؛ خيرية: تاريخ أوروبا، ص ١٨٦.

لقد أثرت الحرب العالمية الأولى على الأوضاع السياسية في مختلف مناطق العالم، وكان لها منعكساتها، ليس على الصعيد الأوروبي فحسب، بل حتى على البلاد العربية. كما أثرت على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والفكرية، وحيث أثرت سلباً على الأوضاع العامة، وأدت إلى تغيرات واضحة في مجال الخارطة السياسية، كذلك نتج عنها متغيرات إدارية بسبب تلك المتغيرات السياسية الدولية وأثرها على الساحة العربية والداخلية.

لقد تأثر العرب بالأوضاع الدولية تلك، خاصة وأنهم كانوا يشعرون بوطأة الأحكام العثمانية، وقد ألم المحافظين منهم أن تنمو السلطنة في الإصلاح نحو الاقتداء بنظم الغرب، وهو المتربص بها وبولاياتها، ومع ذلك فإن الذين كانوا يريدون الخلاص من الحكم العثماني، على الرغم من أنهم كانوا لا يزالون قلة تضم بعض المستنيرين الواعين من أهل الفكر والمعرفة، وذلك لأن فكرة (القومية) بمعناها الذي يتجاوز المذهبية والطائفية، لم تكن قد أخذت بأسباب الشيوع والانتشار بين مختلف الجماهير العربية، ولأن الروابط والعلاقات الاجتماعية بين الناس كانت تقوم على أساس التمييز بين الطوائف والمذاهب.

لقد كانت حقيقة هي مسألة تزايد التعاون بين العرب (مسلمين ومسيحيين) بعد أن كفلت قوانين التنظيمات حق المساواة لجميع الطوائف، وقد تجلّى ذلك في الميدان الفكري، كتأسيس جمعيات أدبية تكمن فيها بذور الحركة القومية العربية.

ولكن بؤادر النقمة من الحكم التركي والشكوى من صلف موظفيه واستبدادهم، كانت تظهر بين الحين والآخر، وبأشكال مختلفة، وتنظيم المسيحيين والمسلمين، ومهما يكن من أمر، فمن الجلي أن بؤادر النقمة ضد الحكم العثماني لا يمكن أن تنهض دليلاً على محاولة منظمة قام بها المسلمون العرب للانفصال عن السلطنة وإقامة دولة عربية مستقلة^(١٣٥)، لسبب بسيط، وهو أن الزعماء والقادة كانوا يدركون تماماً تصارع المطامع الدولية من حول السلطنة للسيطرة عليها واقتطاع أجزائها. كما يعدون أن أي ضعف أو وهن يصيبها، لا بد وأن تدفع الدول الغربية إلى احتلال الولايات العربية، ولا سيما أنه قد ظهر ذلك واضحاً منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والذي بلغ فيه المد الاستعماري حداً كبيراً في آسية وأفريقية، ومن هنا كان أقصى ماطلبه العرب آنذاك هو إصلاح نظم الدولة العثمانية، والقضاء على الفساد والاستبداد، وحق المساواة مع الأتراك في الحقوق والواجبات، وتوفير بعض من الحرية السياسية المدنية. وركّز المفكرون المسلمون على المطالبة بإصلاح الإدارة لضمان انبعاث الإسلام السياسي ومؤسسته، وكان من أشهرهم جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وعبد الرحمن الكواكبي، ومحمد رشيد رضا، وآخرون.

كما ظهر العديد من المفكرين العرب المسيحيين، وقاموا بنشر الأفكار القومية العربية، وأسهموا في الدفاع عنها من خلال أعمالهم ونشاطاتهم، أمثال: بطرس البستاني، وأحمد فارس الشدياق، وأديب إسحاق، ونجيب عازوري، وغيرهم.

كما ظهرت مجموعة كبيرة من المفكرين العرب الذين كان لهم فضل لا ينكر في حركة الانبعاث الأدبي والفكري، والذين برعوا سواء داخل أم خارج البلاد العربية، نذكر بعضاً منهم على سبيل المثال لا الحصر، الشيخ محمود حمزة، والشاعر والأديب إبراهيم الأحذب، والشيخ علي يوسف، وحسين بيه، وأحمد عباس الأزهرى، ومحي الدين اليافى، وجمال الدين القاسمي، وسليم البخاري، ورفيق العظم، وشكري العسلي، ومحمد كرد علي، ويعقوب صروف، والأخوين سليم وبشارة تقلا، وعبد الغني العريسي، وغيرهم كثير^(١٣٦). ولكن ما يهمننا هو دورهم جميعاً، على الرغم من تباين آرائهم، إلا أن جهودهم كانت تتضافر في تنقيف مواطنهم وتنوير أذهانهم وتهئية الجو لانتقال النهضة من مجالها الأدبي الفكري، إلى مجال الفكر القومي السياسي^(١٣٧).

أولاً- الأوضاع السياسية والإدارية في أواخر العهد العثماني (١٩٠٩-١٩١٨م/١٣٢٧-١٣٣٦هـ):

تعد تلك المرحلة نهاية لفترة الاحتلال العثماني ليس على منطقة الفرات الأوسط والجزيرة فحسب بل على سورية وبلاد الشام عامة، إذ تبدأ فترة دراستنا هذه مع نهاية حكم السلطان عبد الحميد الثاني (١٩٠٩م/١٣٢٧هـ) وتنتهي مع خروج العثمانيين من المنطقة وزوال وجودهم عام (١٩١٨م/١٣٣٧هـ).

لقد شهدت منطقة الفرات الأوسط والجزيرة خلال هذه المرحلة حالة من عدم الاستقرار نتيجة لأسباب عدة وعلى رأسها كان الوضع الدولي، إذ توجهت أنظار الدول الأوروبية الاستعمارية وعلى رأسها فرنسا وإنكلترا على المنطقة وأهميتها الإستراتيجية في حساباتهم السياسية، إضافة إلى وهن الدولة العثمانية وضعفها (الرجل المريض) مما جعلها غير قادرة على حماية ممتلكاتها عامة وليس في الولايات والمتصرفيات العربية فقط، وأدخلتهم في مجموعة من الحروب والمعارك الخاسرة ولعل أبرزها كان وضعهم في المشاركة إلى جانب القوات الألمانية في الحرب العالمية الأولى عام (١٩١٤م/١٣٣٢هـ) والتي أسفرت عن نصر

136 - سلطان؛ علي: تاريخ سورية حتى نهاية الحكم التركي (١٩٠٨-١٩١٨م)، دمشق، دار طلاس، ط٢، ١٩٩٦م، ص ٢٣-٢٥.

137 - هنيدي؛ إحسان: كفاح الشعب السوري (١٩٠٨-١٩٤٦م)، دمشق، إدارة التوجيه المعنوي، ط١، ١٩٦٢، ص ١٤٢.

الحلفاء في عام (١٩١٨م/١٣٣٧هـ)، ف خسرت الدولة العثمانية الكثير من المناطق التي كانت قد أخضعتها لسيادتها ومن ضمنها كانت متصرفية دير الزور التي امتدت أراضيها على الفرات الأوسط والجزيرة، وبالتالي فقد لعبت المتغيرات السياسية الدولية الدور الأول والرئيسي في هذه المرحلة.

وكان للأوضاع الداخلية دور في ذلك ولكن أقل أهمية لما سبق، فقد عانت المنطقة من كثرة تبدل وتغير للمتصرفين من حكامها وكان في بعض الأحيان تغيراً سريعاً لبعضهم حتى أن أحدهم لم يستمر في منصبه أكثر من بضعة أشهر، وحقيقة الأمر في ذلك يعود إلى صفة عامة في الدولة العثمانية وليس في الفرات والجزيرة متصرفية دير الزور فحسب، والتي شهدت كثرة في التغيرات بالمناصب السياسية والإدارية وحتى العسكرية، وكذلك الأمر لكبار الموظفين في الدولة، فكانت الوظائف والمناصب تشتري وتباع بسبب حالة الفساد التي آلت إليها أوضاع الدولة.

بالإضافة إلى أن الدولة كانت تخشى من حدوث تقارب بين هؤلاء المتصرفين، وسكان المناطق التي يحكمونها مما قد يساعد على تمرد هؤلاء الولادة أو المتصرفين إن فكر بذلك، لذلك كانت تسارع إلى الإكثار من التبدلات والتغيير في المناصب السياسية والإدارية.

وفيما يلي جدول للمتصرفين الذين حكموا منطقة الفرات الأوسط والجزيرة (متصرفية دير

الزور) خلال هذه الفترة:

م	اسم المتصرف	العام الذي ولي فيه	الرتبة التي يحملها	الميدالية التي يحملها
١	محمد جلال الدين بك الجبان	١٩٠٩م/١٣٢٧هـ	أولى	لياقة وافتخار
٢	محمود جمال بك	١٩١١م/١٣٢٩هـ ^(١٣٨)	متمايز	
٣	زكي بك الجركسي	١٩١٥م/١٣٣٣هـ		في زمن هجرة مذابح الأرمن للسوقيات التي وصلت إلى منطقة الفرات الأوسط والجزيرة
٤	عبد القادر بك	١٩١٦م/١٣٣٤هـ		
٥	علي سعاد بك	١٩١٧م/١٣٣٥هـ		لم يدم حكمه
٦	حلمي بك	١٩١٨م/١٣٣٦هـ		

كما شهدت هذه المنطقة، منطقة الفرات الأوسط والجزيرة، أحداثاً سياسية هامة أثرت على واقع التوزيع الديموغرافي للسكان، ألا وهي السوقيات وحالات الهجرة الجماعية الإجبارية التي وصلت إليها قادمةً من مناطق أخرى على يد قوات الاحتلال العثماني، ألا وهي الهجرات الأرمنية وفيها دار حدث سياسي هام عندما ارتكبت تلك القوات عدة مجازر متلاحقة لهؤلاء المهجرين سواء بطرق مباشرة أم غير مباشرة، منها: تجويعهم، إجبارهم على السير لمسافات طويلة وشاقة، وفي ظروف مناخية صعبة، مما أدى إلى انتشار الأمراض والأوبئة بين صفوف هؤلاء، ومنهم من ناله التعب فكان يسقط على الطريق ويتوفى، ومنهم من قتل عمداً، مما دفع أبناء الفرات والجزيرة إلى القيام بتحركات هجومية وبطولية على القوات العسكرية التي كانت ترافق بعض المجموعات من المهاجرين الأرمن واستطاعوا بعد مواجهات مسلحة تخلص عدد من هؤلاء الأرمن الذين كانوا في تلك السوقيات من الموت المحتم. وبالتالي هذا حدث سياسي آخر شهدته المنطقة ألا وهو تحرك الكفاح المسلح ضد قوات الاحتلال العثماني في أواخر عهدها ووجودها في المنطقة.

أمام هذه الأوضاع المتردية لقوات الاحتلال العثماني سواء على الصعيد الدولي أم الداخلي ووصول الأخبار بهزيمة العثمانيين أمام الجيوش العربية والأوربية وخوف المتصرف العثماني، ووصول الأخبار إلى حلمي بك (آخر متصرف عثماني حكم متصرفية دير الزور)، اضطر إلى دعوة عدد من الزعماء المحليين في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة سواء من شيوخ العشائر أم زعماء القبائل البدوية أم وجهاء بعض مراكز المدن، فعقد اجتماعاً في الربع من تشرين الثاني (١٩١٨م/١٣٣٦هـ)، ولقد حضر هذا الاجتماع عدد من الشخصيات السياسية والإدارية.^(١٣٩)

وكذلك كان مقر هذا الاجتماع في مركز المتصرفية بدير الزور بمبنى قيادة المتصرفية وأهم الحضور:

- | | |
|----------------------|--------------------------------|
| ١- المتصرف حلمي بك | (رئيس الاجتماع) |
| ٢- أحمد عاصم لاز | (نائب المتصرف والقاضي الشرعي). |
| ٣- عثمان نوري بك | (رئيس محكمة بداية الجزية) |
| ٤- الأميرال جميل بك | (قائد المنطقة عسكرياً) |
| ٥- إبراهيم أدهم بك | (قائد سلاح الفرسان الأسوارية) |
| ٦- تحسين بك | (مما سبجي المتصرفية) |
| ٧- الحاج فاضل العبود | (رئيس البلدية). |

٨- حامد بك العراقي

(قائد سلاح المشاة"البياده")

٩- محمد نوري الفتيح

(عضو مجلس المبعوثان).

١٠- عدد من زعماء القبائل البدوية وشيوخ العشائر المحلية (ممن كانوا هم في مجلس العشائر)^(١٤٠).

لقد اجتمع الزعماء المحليون في المنطقة ووجهاء مدينة دير الزور (مركز المتصرفية) مع المتصرف العثماني حلمي بك قبل خروج القوات العثمانية، وذلك بدعوة منه، إذ عقد هذا الاجتماع في دار المتصرفية بدير الزور، حضر هذا الاجتماع عدد من الشخصيات لزعماء محليين وشيوخ العشائر وكبار الشخصيات الإدارية ... إلخ^(١٤١)، لقد كان لهذا الاجتماع نتيجة هامة على منطقة الفرات الأوسط والجزيرة، إذ بين فيه المتصرف حلمي بك الأوضاع التي وصلت إليها حالة القوات العثمانية في الحرب العالمية الأولى، وخرج الجميع بنتيجة الاتفاق بينهم إلى انسحاب الحامية العثمانية مؤقتاً إلى أورفة على أن يكلف مؤقتاً رئيس البلدية (الحاج فاضل العبود) بإدارة الحكم، وقد سلمه المتصرف حلمي بك كتاباً يتضمن تكليفه رسمياً بذلك قبل يوم من انسحابهم في (٦ / ١٠ / ١٩١٨ م / ١٣٣٧ هـ)^(١٤٢) بعد انسحاب القوات العثمانية من المركز (دير الزور) وكل أراضي المتصرفية باتجاه ماردين، إذ قام المتصرف بجمع ما يستطيع من سجلات وقيود رسمية ووضعها في صناديق مرسلاً إياها إلى أورفة^(١٤٣)، وبذلك صارت الساحة السياسية والتنظيم الإداري خالية في المنطقة من أي سلطة رسمية تتولى زمام الإدارة فيها بعد انسحاب العثمانيين من منطقة الفرات والجزيرة السورية متجهة إلى ماردين، وعندما وصلت إليها القوات العثمانية المنسحبة بقيادة المتصرف حلمي بك، أعلنت الهدنة

140- الجندي؛ أدهم: صفحات منسية من بطولات أبناء دير الزور، مجلة العمران، العدد ٣٩+٤٠، ص ٩٦.

141- حضر هذا الاجتماع عدد وجهاء المنطقة وكان من بينهم قائد المنطقة (الأميرال جميل بك) ، وقائد الفرسان (إبراهيم أدهم بك) ، ورئيس البلدية (الحاج فاضل العبود) وهو أحد شيوخ عشيرة البقارة ، ومبعوث دير الزور للبرلمان (محمد نوري الفتيح) ، وقائد الموقع العسكري (حامد بك العراقي) وغيرهم... إلخ، انظر: شوحان؛ أحمد: تاريخ دير الزور، دمشق ، مطبعة الفوال، ط ١ ، ١٩٨٩ م ، ص ٧٣.

142- الجندي؛ أدهم: صفحات منسية عن بطولات أبناء دير الزور، مجلة العمران، العدد ٣٩ + ٤٠ ، ص ٩٦.

143- عند إعلان الهدنة والتي قضت ببقاء كل قوة في مكانها ، كانت القوة العسكرية العثمانية التي انسحبت من منطقة الفرات الأوسط والجزيرة قد وصلت إلى ماردين وهنا أحيل كلاً من المتصرف حلمي بك والأميرال جميل بك وإبراهيم أدهم بك إلى المحكمة العسكرية وأعدموا رمياً بالرصاص وحكم البقية من القياديين بالسجن ، انظر : شوحان ؛ أحمد : تاريخ دير الزور ، ص ٧٣ ، وانظر : الجندي ؛ أدهم : صفحات منسية ، ص ٩٦ .

والتي كانت تقضي ببقاء قوات كل دولة في مكانها، مما أثار القيادة في الآستانة على ضياع منطقة الفرات الأوسط والجزيرة السورية من أيديهم وعودتها إلى جسد الأمة العربية، ولذلك سارعت إلى تشكيل محكمة عسكرية لمحاكمة حلمي بك متصرف دير الزور وجهازه الإداري الذي شاركه القرار بالانسحاب دون إيعاز أو أمر صادر عن الآستانة، بل تصرف فردي لهؤلاء دون العودة لقيادتهم، وكانت المحكمة العسكرية التي عقدت لهم في ماردين سريعة الإجراءات واتخاذ القرار، إذ حكمت عليهم بالإعدام لكل من المتصرف حلمي بك والأميرال جميل بك قائد المنطقة، وإبراهيم أدهم بك قائد سلاح الفرسان، وقد نفذ حكم الإعدام فيهم رمياً بالرصاص في ساحة السجن بماردين، على حين حكم على بقية الجهاز الإداري بالسجن في أحكام متفاوتة وهكذا انتهى الوجود العثماني في الفرات و الجزيرة السورية وانقضى بعد مدة طويلة تزيد عن أربعمئة سنة هيمنت فيها على خيراتنا.

لقد توافقت هذه المتغيرات السياسية مع جملة من الأوضاع للتنظيمات الإدارية خلال السنوات العشر الأخيرة من الوجود العثماني في البلاد العربية، لذلك يجدر بنا أن نقدم دراسة لتلك الأوضاع الإدارية في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة السورية، محور بحثنا في تلك الفترة.

أ- لمحة عن النظام الإداري العثماني: (كتاب دير الزور ص ٢٤-٢٥)

إن الخطوط العامة للتنظيمات الإدارية العثمانية في بلاد الشام لا تختلف عن التقسيمات عند الممالك أو التقسيمات الإسلامية القديمة، فما قد سماه المسلمون الأولون «جنداً» أصبح مع تغيير بسيط «نيابة» في عهد الممالك «وإيالة» أو ولاية في العهد العثماني^(١٤٤).

لقد كانت الدولة العثمانية تقسم إلى عدة «إيالات» يديرها جميعاً رأس الدولة العثمانية، وهو السلطان، وهو صاحب اليد المطلقة فيها، وينوب عنه في كل إيالة وال عثمانى يقوم على رأس الإيالة، التي تقسم بدورها إلى عدة سناجق «ألوية» وكل سناجق يقسم إلى عدة أقضية، والقضاء إلى نواح، والناحية تتألف من عدة قرى ومزارع، وقد استمر هذا التقسيم الإداري حتى صدور «قانون نامة» أي القانون الخاص بالتنظيمات الإدارية والصادر في عام (١٢٨١هـ / ١٨٦٤م)، والذي تضمن ثمانين وسبعين مادة^(١٤٥) نصت على إعادة تنظيم

(٦٠) غراية؛ عبد الكريم: سورية في القرن التاسع عشر، ص ٤٠، ٤١.

(٦١) عوض؛ عبد العزيز: الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤ — ١٩١٤م، مصر،

دار المعارف، ط ١، ١٩٦٩م، ص ٦٧.

الولايات بحسب التنظيمات الخيرية، وأطلق مصطلح «الولاية» بدلاً من «إيالة»، حيث قسمت الدولة العثمانية إلى سبع وعشرين ولاية، بالإضافة إلى عدد من السناجق الممتازة التي لها أهمية خاصة جعلت منها سناجق مستقلة لا تتبع لأي ولاية، بل ترتبط مباشرةً بالعاصمة «الآستانة»^(١٤٦)، وأطلق عليها اسم «متصرفية»^(١٤٧)، ويقوم على رأس كل منها موظف إداري سمي بالمتصرف (Mutasarrif)^(١٤٨).

وعلى هذا قسمت الولاية والسناجق إلى عدد من الأفضية، ويترأس كل قضاء (قائمقام) وهو موظف إداري يساعده المفتي^(١٤٩)، في حين ترأس الناحية مدير الناحية الذي يتبع له مخاتير القرى والمزارع، حيث تجلى هذا التنظيم الإداري بصدور نظام إدارة الولايات العمومي في عام (١٢٨٧هـ / ١٨٧١م)، وتم بموجبه تعيين وظائف المأمورين الإجرائية، ومجالس الإدارات، وإدارة النواحي، والبلدية..... إلخ^(١٥٠).

ب- التنظيمات الإدارية العثمانية في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة السورية:

مرت التقسيمات والتنظيمات الإدارية العثمانية في منطقة الفرات والجزيرة السورية منذ أن كانت متصرفية مستقلة (١٨٨١م/ ١٢٩٩هـ) (متصرفية دير الزور) بتغيرات وتبدلات كثيرة، وذلك يعود لكثرة الأوامر الإدارية القادمة من العاصمة (الآستانة)، فتارة كان يضم إليها

(٦٢) قسمت البلاد العربية التابعة للدولة العثمانية إلى تسع ولايات، وأربع متصرفيات مستقلة ممتازة وهي: (القدس، جبل لبنان، دير الزور، بنغازي) وإيالتين ممتازتين. انظر: الحصري؛ ساطع: البلاد العربية والدولة العثمانية، القاهرة، معهد الدراسات العربية العالمية، ط ١، ١٩٥٧م، ص ١٣٨. وانظر: برو؛ توفيق: العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨ — ١٩١٤م، دمشق، دار طلاس، ط ١، ١٩٩١م، ص ٣١.

(٦٣) إسماعيل؛ حلمي محروس: تاريخ العرب الحديث من الغزو العثماني إلى نهاية الحرب العالمية الأولى، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ط ١، ١٩٩٧م، ص ٣٢.

(٦٤) صابان؛ سهيل: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مراجعة: عبد الرزاق بركات، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط ١، ٢٠٠٠م، ص ٢٠٠.

(٦٥) نوفل؛ نوفل نعمة الله: الدستور العثماني، مجلدان، بيروت، المطبعة الأدبية، ط ١، ١٣٠١هـ / ١٨٨٣م، مج ١، ص ٣٨٢.

(٦٦) نوفل؛ نوفل نعمة الله: الدستور العثماني، مج ١، ص ٣٩٦ — ٣٩٧.

أجزاء، وتفصل عنها تارة أخرى. وهذا ما سنحاول تعقبه على الرغم من قلة المعلومات التي نتحدث عن التفاصيل الإدارية للمنطقة، ولكن البحث الدؤوب والتحليل المنهجي لأهم المصادر، ساعدنا في ذلك، فقد أفدنا من السالنامات العثمانية، سواء أكانت سالنامات الدولة العثمانية العلية (العامة) أم سالنامات بعض الولايات، مثل سالنامات ولاية حلب، أو ولاية سورية، وكذلك بعض المصادر والمراجع، حتى تمكنا من الوصول إلى معلومات صحيحة وتفاصيل دقيقة لتلك التطورات الإدارية التي مرت بها منطقة الفرات والجزيرة السورية في أواخر العهد العثماني.

إن مرحلة البداية لبحثنا هي مع نهاية حكم السلطان عبد الحميد الثاني في عام (١٩٠٩م/١٣٢٧هـ)، إذ كانت حدود منطقة الفرات الأوسط والجزيرة (متصرفية دير الزور) على النحو التالي: حدودها من الشرق مع ولايتي الموصل (في الشمال الشرقي)، وولاية بغداد (في الجنوب الشرقي)، إذ يشكل قضاء عانة الحد الفاصل لها مع ولاية بغداد وتتبع لبغداد،^(١٥١) وبدءاً من نهر دجلة في أقصى الشمال الشرقي ثم منطقة سنجار، فهما الحد الفاصل لها مع ولاية الموصل. أما من الجنوب فحدودها الإدارية تمتد ضمن بادية الشام ملاصقة لحدود ولاية سورية (الشام)، إذ كانت ناحية تدمر هي آخر المراكز الإدارية التي كانت تتبع للمنطقة (متصرفية دير الزور).

ويحدها من الغرب ولاية حلب، إذ فصل عنها قضاء الرقة، وألحق بولاية حلب، فصار يشكل الحد الإداري الفاصل مع المنطقة.

على حين كانت حدودها مع ولاية ديار بكر بعد أن ألحقت منطقة (قضاء نصيبين) بلواء ماردين، فهي تشكل الحدود الشمالية لمنطقة الفرات الأوسط والجزيرة (متصرفية دير الزور). وعلى هذا الشكل استقرت حدود المنطقة مع بداية مرحلة بحثنا، ووفق الجدول التالي للتقسيمات الإدارية العثمانية قبل عام (١٩٠٩م/١٣٢٧هـ) التابعة لقصبة المتصرفية (دير الزور):

م	القضاء	الناحية	القضاء أو المركز الذي تتبع إليه الناحية
١	العشارة	تدمر	ملحقة بمركز المتصرفية (دير الزور)
٢	السبخة	كوكب	ملحقة بمركز المتصرفية (دير الزور)
٣	البصيرة	الشداة (الشداي)	ملحقة بمركز المتصرفية (دير الزور)
٤	البوكمال		
٥	رأس العين		

لكن حدث تغيير واضح على التنظيمات الإدارية العثمانية لمنطقة الفرات الأوسط والجزيرة منذ عام (١٩٠٩م/١٣٢٧هـ)، إذ تحولت كل من السبخة والبصيرة من قضاء إلى ناحية، فصارت التقسيمات الإدارية منذ هذه الفترة وفق الجدول التالي:

مركز المتصرفية	عدد القرى التابعة له	القضاء (المنطقة)	عدد القرى التابعة للقضاء	النواحي حسب ما تتبع للمركز أو القضاء	عدد القرى التابعة لكل ناحية	المجموع
دير الزور	٣٥			تدمر السبخة كوكب	٤ ١٣ ٢٠	٧٢
		عربان	١٠			
		العشارة	١٦	البصيرة	١٨	٣٤
		رأس العين	١٤			١٤
		البوكمال	١٩			١٩
مركز المتصرفية ١		عدد الأفضية ٤		النواحي ٤		القرى ١٤٩

استمرت التقسيمات الإدارية العثمانية لمنطقة الفرات والجزيرة على هذه الحال منذ عام (١٩٠٩م/١٣٢٧هـ) حتى حدث تغير آخر زاد من مساحة المنطقة، وذلك عندما قامت الدولة العثمانية بضم كل من قضاء (الرقعة وعانة) إلى متصرفية دير الزور، وذلك عام (١٩١٥م/١٣٣٣هـ)، فصارت التقسيمات الإدارية للمنطقة وفق الجدول التالي:

مركز المتصرفية	عدد القرى التابعة له	القضاء (المنطقة)	عدد القرى التابعة للقضاء	النواحي حسب ما تتبع للمركز أو القضاء	عدد القرى التابعة لكل ناحية	المجموع
دير الزور	٣٨			تدمر السبخة كوكب	٤ ١٣ ٢٠	٧٥
		الرقعة	٣٧			٣٧
		العشارة	١٦	البصيرة	١٨	٣٤
		رأس العين	١٤			١٤
		البوكمال	١٩			١٩

١٤			١٤	عانة			
القرى ١٩٣		النواحي ٤		عدد الأقضية ٦		مركز المتصرفية ١	مجموع

لقد استقرت التقسيمات الإدارية العثمانية في منطقة الفرات والجزيرة (متصرفية دير الزور) على هذه الحال حتى نهاية الحكم العثماني للمنطقة في عام (١٩١٨م/١٣٣٦هـ)، ولم تشهد أي تغيير إلا فيما بعد خلال فترة الحكومة العربية (الحكم الفيصلي)، والتي سوف نأتي على دراستها لاحقاً.

تعد هذه المرحلة من بحثنا هامة جداً بالنسبة لبلورة الفكر القومي العربي، وقد أسهم كل ماسبق في بلورتها بخطوطها الرئيسية، فالكشف على التراث العربي القديم كان حافزاً أساسياً لليقظة العربية، وقد سهل تقدم الطباعة، وانتشار مآثرها الأدبية واللغوية، وتزايد عدد القراء العرب، نتيجة اتساع حركة التعليم في المدارس النظامية، والتي غالباً ما كان يصطدم الطلاب العرب والأتراك فيها، كما ظهرت المدارس الجدية (التبشيرية) التي عرفت بالبلاد العربية، وخاصة بلاد الشام ومصر، وعادت مرة أخرى اللغة العربية، كما كانت قبل ألف سنة-أداة نقل الثقافة وواسطة العقد في التساند القومي والعلاقة المميزة للشعوب التي تستعملها، وهذا فرع من أصل الحركة القومية الوحدية التي لاهتم بالخصائص المحلية والانشغالات الإقليمية.(١٥٢)

ولذلك فقد اتخذ الفكر القومي موضوعاً واقعياً في بلاد الشام خلال هذه الفترة من بحثنا، ولم يتم ذلك إلا بسبب انتشار العلم وتفتح الوعي لدى شعب هذه المنطقة المعرضة للتيارات الغربية أكثر من بقية أجزاء الوطن العربي. وكذلك انطلقت صرخات التمرد لنبذ الخلاف وتنفيذ الإصلاح ومطالبة الترك بحقوق العرب المسلوبة.

لقد ظهرت عدة اتجاهات سياسية عربية قبل فترة دراستنا هذه، أي في المرحلة التي سبقت الانقلاب الدستوري عام (١٩٠٨م/١٣٢٦هـ) وهي خمسة اتجاهات، وفق الآتي:

- ١- تيار يسعى لإحياء الخلافة العربية لتحل محل العثمانيين.
 - ٢- تيار يطلب الحماية من دولة أوروبية.
 - ٣- الاشتراك مع الأحرار الترك للمطالبة بإجراء إصلاحات عامة تشمل الولايات العثمانية جميعها.
 - ٤- تيار يطالب بحق العرب في إصلاحات خاصة بالبلاد العربية.
 - ٥- السعي لانفصال البلاد العربية عن الدولة العثمانية لإنشاء دولة عربية موحدة.
- ومن هذه الاتجاهات نلاحظ تفرعها إلى ثلاثة تيارات رئيسية، الأول منها كان خاصاً ببعض جماعات المسلمين، والتيار الثاني يضم بعض جماعات المسيحيين، والتيارات الثلاثة الباقية كان ينتظم فيها المسلمون والمسيحيون على السواء.(١٥٣)
- هذه الاتجاهات الفكرية التي انقسم فيها المفكرون العرب، قد ذابت بعدما سيطر أنصار الاتحاد والترقي على الأمور في الدولة، وأخذوا باضطهاد القوميات الأخرى وإذابتها في ظل القومية التركية الطورانية، من خلال مظاهر عديدة أبرزها التكر للإسلام وإضعاف اللغة

152 - سلطان؛ علي: تاريخ سورية، ص ٢٢.

153 - طربين؛ أحمد: تاريخ المشرق العربي، ص ٣٩١.

العربية، وتترك العرب بالقضاء على كياناتهم القومي. مما أدى إلى نشاط الجمعيات العربية السرية والعلنية.^(١٥٤) إذ أخذت تسعى هذه الجمعيات إلى محاولة إحياء الدولة العربية، وإعادة العرب إلى مواقع السلطة.^(١٥٥)

إلا أن تلك النزعات المتطرفة التي اتبعتها جماعة الاتحاد والترقي ضد العرب لم تحل دون وقوف العرب إلى صف العثمانيين في الحرب العالمية الأولى، عندما أعلن السلطان الجهاد المقدس دفاعاً عن الدولة العثمانية راعية المسلمين، تلك الحرب التي دخلتها الدولة العثمانية إلى جانب دول الوفاق ضد دول الحلفاء، بل وقدم العرب مجموعات من قوافل الشهداء في هذه الحرب.^(١٥٦)

كما حدث تخوف من قبل العرب خشية تحولهم إلى الوقوع تحت قبضة الاستعمار الأوربي، فهذه جمعية العربية الفتاة تقرر مساندة الدولة العثمانية في هذه الحرب إذا ما توضححت مطامع الدول الأوربية تجاه العرب فإن الجمعية تعد ملزمة بالعمل على مقاومة التدخل الأجنبي والوقوف إلى جانب تركيا.^(١٥٧)

لكن لم يطل تفاؤل عناصر الدولة العثمانية بإعلان الدستور، ولا بعهد رخاء وعدل، وذلك بسبب ظهور الخلافات العنصرية بين الترك وباقي عناصر الولايات العثمانية، كالروم والعرب...

ولما كانت اللغة الرسمية هي اللغة العثمانية للتعليم والمعاملات وما إلى ذلك، فقد تضايق العرب من ذلك، خاصة وأنه كان لعناصر الدولة العثمانية الأخرى تشكيلات طائفية وامتيازات تتيح لها أن تدرس في مدارسها الخاصة وبلغتها القومية، على حين كان العرب المسلمون محرومين من ذلك، ونتيجة لذلك كان التعليم باللغة العربية من خصائص المدارس المسيحية وحدها، لذا طالب العرب بمراعاة حقوقهم القومية التي كان أهمها حق التعليم باللغة العربية.

لقد حدثت في الدولة العثمانية سلسلة أزمات سياسية اضطرت النواب العرب على التكتل والانضمام إلى المعارضة، ومن أسباب هذه الأزمات تفريط الدولة بحقوق الولايات العربية ومصالحها الأساسية، عندما تمسكت الحكومة الاتحادية بمشروع منح امتياز الملاحة النهرية

154 - هندي؛ إحسان: كفاح الشعب العربي السوري، ص ١٤.

155 - الشهاب؛ مصطفى: محاضرات في الاستعمار، جزأين، معهد الدراسات العربية، ط ١، ١٩٥٦م، ج ٢، ص ٥٠. وانظر: السمان؛ أحمد: المجتمع العربي، دمشق، دار الفكر، ط ١، ١٩٦٢م، ص ٥٣٤.

156 - المعلم؛ وليد: سورية ١٩١٦-١٩٤٦م، دمشق، دار طلاس، ط ١، ١٩٨٨م، ص ٣٧.

157 - طلاس؛ مصطفى: الثورة العربية الكبرى، دمشق، منشورات مجلة الفكر العسكري، ط ١، ١٩٧٧م، ص ١٧٠. وانظر: أنطونيوس؛ جورج: يقظة العرب، ترجمة: ناصر الأسد، بيروت، ط ١، ١٩٦٦م، ص ٢٣٦.

إلى شركة لينتس الإنكليزية، فاعترض النواب العرب على الامتياز، لأنه يزيد نفوذ الإنكليز في العراق ومنطقة الفرات الأوسط، ولأن اقتصاديات البلاد تتضرر به.

وبعد أن عجزت الدولة العثمانية عن إمكانية الدفاع عن مصالح ولاياتها التابعة لها، بل ولم تستطع حفظ (الروفلي) وهو سياج الآستانة وحصنها أمام البلقان.

كما أنه حصلت أحداث ومستجدات سياسية بدأت في عام (١٩١٥م/١٣٣٣هـ) عندما أعلنت الدولة العثمانية تعيين جمال باشا^(١٥٨) قائداً للجيش العثماني الرابع الموجود في بلاد الشام، إذ بدأ بممارسة مجموعة من الأعمال العدوانية على الشعب العربي في سورية بعد هزيمة جيشه قرب ترعة السويس، فأخذ يهدد الزعماء العرب بحجة أنهم كانوا السبب في هزيمة الجيش العثماني أمام الإنكليز، نتيجة عدم تعاونهم مع الدولة العثمانية.^(١٥٩)

ثم قام بحل كتيبة تدريب الضباط الاحتياط، ونفى جميع الضباط العرب الذين كانوا يدربون فيها إلى خارج البلاد، وذلك عندما لاحظ تزايد الحركة القومية العربية،^(١٦٠) ولهذا نفى قسماً منهم إلى منطقة الدردنيل، والقسم الآخر أبعدهم نحو الحدود الروسية إلى منطقة القفقاس، وحل بدلاً منهم مجموعة من الضباط والجنود الأتراك.^(١٦١)

إلا أن غلو جمال باشا لم يوقفه عند ذلك الحد، بل ألقى القبض على مجموعة من الزعماء العرب وقدمهم إلى الديوان العرفي في (عالية) بلبنان، موجهاً تهمة لهم، وهي التجسس على الدولة لصالح الفرنسيين. فصدر حكم الإعدام عليهم، ونفذ على أول مجموعة (قافلة الشهداء) منهم شنقاً في ٢١/آب/١٩١٥م/١٣٣٣هـ،^(١٦٢) ثم قام بإبعاد أعداد كبيرة من الأحرار العرب

158 - جمال باشا: ولد عام (١٨٧٢م)، درس وتخرج من المدرسة البحرية، كان أحد أعضاء حزب الاتحاد والترقي البارزين، إذ أسهم بشكل هام في تهيئة الانقلاب للمشروطية الثانية عام (١٩٠٨م)، عين والياً عسكرياً على أضنة في عام (١٩٠٩م)، ثم تسلم ولاية بغداد عام (١٩١٠م/١٣٢٨هـ)، ثم حاكماً على الآستانة، ثم رقي وزيراً للبحرية، ثم قائداً للجيش الرابع فنكّل بالعرب ولقب بالسفاح. هرب بعد الحرب العالمية الأولى، إلا أنه قتل على يد شاب أرمني نتيجة لما تعرض له الأرمن من وراءه (١٩٢٢م). انظر: العظمة؛ عبد العزيز: مرآة الشام (تاريخ دمشق وأهلها)، تحقيق: نجدة فتحي صفوة، دمشق، دار الفكر، ط٢، ٢٠٠٢م، ص ٣٨٣.

159 - المالكي؛ منير: من ميسلون إلى الجلاء (سيرة سياسية)، دمشق، وزارة الثقافة، ط١، ١٩٩١م، ص ٢٥-٣٠.

160 - الهندي؛ إحسان: كفاح الشعب العربي السوري، ص ١٦.

161 - - المالكي؛ منير: من ميسلون إلى الجلاء (سيرة سياسية)، ص ٣٠.

162 - الهندي؛ إحسان: كفاح الشعب العربي السوري، ص ١٦.

وطردهم من منازلهم إلى أماكن بعيدة دون عودة، أعقبها بسلسلة واسعة من الاعتقالات خلال عام (١٩١٦م/١٣٣٤هـ) بحجج وذرائع مختلفة.^(١٦٣)

لقد أصبح المفكرون العرب لا يثقوا بالدولة العثمانية في الدفاع عن بلادهم، فطالب العرب بحقوق إيجاد تشكيلات عسكرية وإدارية ذاتية، تضمن الدفاع عن البلاد تجاه أطماع الدول الأوروبية.

تنبه رجالات العرب وزعمائهم وعينوا الخطر المحيط بالدولة، وتحقق لديهم ولدى معظم ساسة الترك أن الدولة يجب أن تصبح ثنائية، أي تركية-عربية. فأنشأ الأحرار الترك جمعية الحرية والائتلاف، والتي كانت غايتها منح الولايات العثمانية استقلالاً إدارياً، وبالتالي إدارة شؤون المملكة على أساس اللامركزية. وانظم إلى الجمعية معظم مبعوثي العرب والأرمن والألبان، والقادة والضباط. وقامت هذه الجمعية بإبان الثورة الألبانية بمظاهرة ثورية في الآستانة أطاحت بحكومة الاتحاديين، وحلّ مجلس (المبعوثان)، وعينت وزارة ائتلافية. ولكن عودة الحكم إلى جمعية الاتحاد والترقي، وإطلاعها على مشروع الإصلاحات الذي وضعته الجمعية العمومية المنعقدة في بيروت بناء على طلب حكومة الائتلاف السابقة، وحلها للجمعية، كل ذلك أوقف حركات الإصلاح، فاستاء الناس في سائر الولايات العربية ومدنها. وإزاء تلك المناورات رأت بعض الجماعات أن تلجأ إلى التشكيلات السرية، ورأت جماعات أخرى أن تسعى لعقد مؤتمر عربي عام خارج البلاد العثمانية، والغاية من كل ذلك هي الدفاع عن الحقوق العربية.^(١٦٤)

لقد ظهرت الجمعيات العربية والتشكيلات السرية المناهضة، لذلك لا بد لنا من وقفة نوضح فيها تلك الجمعيات.

أهمها كانت **جمعية النهضة العربية** التي تأسست عام (١٩٠٦م/١٣٢٤هـ) على يد مجموعة من الرجال في حلقة الشيخ طاهر الجزائري، وجمال الدين القاسمي، وزملائهم، وكان محب الدين الخطيب هو الذي أسسها في الآستانة بالعام نفسه، وكانت هي المركز الرئيسي، وبعد إلغاء فرعها في الآستانة أصبح فرع دمشق هو الرئيسي، وكان رئيسها صلاح الدين القاسمي. وكانت أهدافها تتجلى في نشر اللغة العربية، ورفعة العرب ومجدهم وتعريفهم بتاريخهم ومجدهم. ويعملون سراً وعلناً.

163 - لونغريغ؛ همسلي: سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ترجمة: بيار عقل، بيروت، دار الحقيقة،

١، ١٩٧٨، ص ٦١.

164 - طربين؛ أحمد: تاريخ المشرق العربي، ص ٣٩٤-٣٩٥.

ثمّ **جمعية الإخاء العربي العثماني**، وقد أنشئت عام (١٩٠٨م/١٣٢٦هـ) بالآستانة، ويشكل السوريون فيها العدد الغالب، أمثال شاكر الأتاسي وشفيق العظم، وشكري الأيوبي، وغيرهم. وهدفها إعلاء شأن العرب ومنحهم المساواة الدستورية وإنالتهن المناصب والوظائف. (١٦٥)

تشكّلت بعدها **جمعية المنتدى الأدبي** عام (١٩٠٩م/١٣٢٧هـ) بالآستانة، ومن أشهر أعضائها الذين ساهموا في إنشائها، عبد الكريم الخليل وسيف الدين الخطيب ويوسف حيدر. لهذا أنشئت فروع لهذا المنتدى في سورية والعراق، وأصدر المنتدى مجلة تحمل اسمه، وكان يسعى المنتدى إلى تحقيق أهداف العرب القومية ضمن الدولة العثمانية. وقد أغلقه الاتحاديون في عام (١٩١٥م/١٣٣٣هـ) وأعدموا الكثير من رجاله. (١٦٦)

جمعية الجامعة العربية: أسسها الشيخ محمد رشيد رضا في عام (١٩١٠م/١٣٢٨هـ)، وهدفها إقامة حلف وتعاون ما بين أمراء الجزيرة العربية، والجمعيات العربية في سورية والعراق. (١٦٧)

الجمعية القحطانية: أسست في الآستانة عام (١٩٠٩م/١٣٢٧هـ) تعمل لصالح العرب والقومية العربية، مؤسسها، غالباً، الضابط عزيز المصري، على حين ذكر البعض أنه أحد أربعة، هم: عبد الكريم الخليل، و خليل حمادة، وعبد الحميد الزهراوي، وسليم الجزائري. وهدف هذه الجمعية هو نيل حق المساواة للعرب مع الترك في الدولة العثمانية. وقد بقيت سرية بسبب تشدداتها في انتقاء الأعضاء الموثوقين، أهملها أعضاؤها دون حل، وانضم قسم منهم إلى جمعيتي العهد والفتاة.

العربية الفتاة: وهي أهم جمعية سرية عربية، قادت الاتجاه القومي العربي حتى نهاية الحرب في سورية، أما تأسيسها فيعود لاتفاق ثلاثة طلاب هم: عوني عبد الهادي، ومحمد رستم، وأحمد قدري، وذلك في عام (١٩٠٩م/١٣٢٧هـ). رحل الثلاثة إلى باريس فنقلوا مقرها إليها، وبفضل سريتها الشديدة، ظلت مستمرة حتى بعد الحرب العالمية الأولى. (١٦٨)

جمعية العهد: تشكلت في الآستانة عام (١٩١٣م/١٣٣١هـ) ومؤسسها هو الضابط عزيز علي المصري، لكنها اقتصرت على عضوية العسكريين، وأسس لها فروع في دمشق وبيروت

165 - سلطان؛ علي: تاريخ سورية (١٩٠٨-١٩١٨م)، ص ٢٥-٢٦.

166 - دروزة؛ محمد عزة: حول الحركة العربية الحديثة، تاريخ ومذكرات وتعليقات، صيدا، ط ١، ١٩٥٠م، ص ٢٢.

167 - سعيد؛ أمين: الثورة العربية الكبرى، المجلد الأول (النضال بين العرب والترك)، القاهرة، (د.ت)، ص ٨-٩.

168 - هندي؛ إحسان: كفاح الشعب العربي السوري، ص ١٤.

والموصل وبغداد والبصرة.^(١٦٩) أمّا أهدافها فكانت الحصول على إدارة عربية محلية ولغة عربية رسمية، أي دولة عربية-تركية. وهذه كانت حال الجمعيات العربية ذات الاتجاه القومي العربي الإسلامي.^(١٧٠)

وهناك عدد آخر من الجمعيات العربية ذات الاتجاه القومي العربي (الإسلامي والمسيحي)، مثل **الجمعية العلمية السورية**،^(١٧١) ومؤسسها الفاعل هو إبراهيم اليازجي، وجمعية بيروت السرية، وحزب اللامركزية.^(١٧٢)

كما عقد خلال هذه المرحلة مؤتمر عربي بباريس برئاسة عبد الحميد الزهراوي، الذي افتتح المؤتمر واختتم جلساته بنص تضمن مجموعة من القرارات للحقوق العربية، أبرزها كان المطالبة بإنشاء إدارة لامركزية في كل ولاية عربية، واعتماد اللغة العربية في مجلس النواب العثماني...

إلا أن الدولة العثمانية لم تكثرث بادئ الأمر بالمؤتمر، لكنها أثرت أن تتصل بالزعماء العرب، فأوفدت لباريس مدحت شكري باشا، أحد أقطاب الاتحاديين، فاجتمع برجال المؤتمر ثم عاد إلى الآستانة برفقة عبد الكريم خليل رئيس المنتدى الأدبي لاستكمال المباحثات مع وزير الخارجية طلعت باشا، فاتفق الطرفان على توقيع اتفاقية لتنفيذ معظم القرارات التي خلص إليها المؤتمر. لكن الاتحاديين لم يقوموا بأية خطوة حاسمة لذلك.

وفي هذه الغمرة صار العرب يوازنون بين الحكم التركي وبين إمكانية الاتفاق مع حليف أجنبي، والثورة على الدولة العثمانية. ومهما يكن من أمر فإن المشكلة العربية ظهرت على الساحة الدولية بحركة الشريف حسين، الذي حاول من خلال إرسال ابنه فيصل إلى دمشق التوسط لدى السفاح جمال باشا للعفو والإفراج عن المعتقلين مقابل وعده بتكوين جيش عربي يسير مع الجيوش العثمانية لحملة السويس، إلا أن جمال باشا رفض ذلك، فكان هذا أحد أسباب إشعال الثورة العربية في حزيران (١٩١٦م/١٣٣٤هـ)،^(١٧٣) وذلك بعد أن أعلنت محكمة عالية إعدام القافلة الثانية من المعتقلين في ٦/أيار/١٩١٦م/١٣٣٤هـ، وضمت اثنين وعشرين آخرين من الشهداء.^(١٧٤)

169 - سلطان؛ علي: تاريخ سورية (١٩٠٨-١٩١٨م)، ص ٣٤-٣٥.

170 - هندي؛ إحسان: كفاح الشعب العربي السوري، ص ١٤.

171 - Hourani (A): Arabic thought in the liberal age 1718-1939, Oxford, 1962, p.277.

172 - مجلة المنارة، مجلد ١٦، عام (١٩١٣م/١٣٣١هـ)، ٨ آذار، ص ٢٢٩-٢٣١.

173 - لونغيريغ؛ همسلي: سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ص ٧١.

174 - الخطيب؛ محمد كامل: المؤتمر العربي الأول، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ط ٢، ١٩٩٦م، ص ٢٥-٣٥ (ملحق رقم ١).

كما اجتمع فيصل في دمشق بأقطاب جمعيتي العهد والعربية الفتاة السريتين، وفي حينها لم يكن في ذهنه إلا معلومات ضئيلة عن تنظيمات القوميين العرب في بلاد الشام، ولم يرق أي خلاف بينه وبين من اجتمع معهم في دمشق على تحديد الكيان العربي المقبل، بل أقرَّ فيصل الشروط التي أجمعوا عليها في الوحدة العربية، ذلك الأمل المنشود، وحملها إلى والده، وعلى أساسها نهضت المفاوضات بين الشريف حسين وممثلي بريطانية من أعضاء المكتب (العربي-الإنكليزي) في القاهرة وجرت المفاوضات على مدة طويلة، وكان الإنكليز خلالها يخادعون الشريف حسين، بل والعرب جميعاً، وذلك بطعنهم للعرب خلال نفس فترة المفاوضات، وذلك قبل أن يعلن الشريف حسين ثورته على الأتراك، حينها كانت إنكلترا تتفق سراً مع فرنسا على تقسيم أراضي العرب بعد انتهاء الحرب وفقاً لاتفاقية سايكس-بيكو^(١٧٥)، وكانت إنكلترا تتبع سياسة الازدواجية والخداع في سياستها الخارجية، إذ كانت تفاوض الشريف حسين على الثورة وتضمن لهم حرية العرب واستقلالهم في دولة تشمل بلاد الشام، وتتفق في الوقت نفسه مع فرنسا على تقسيم هذه البلاد بينهما من خلال اتفاقية سايكس-بيكو^(١٧٦) وتجعل فلسطين تحت إشراف دولتي وتفاوض عليها في الوقت نفسه زعماء الصهاينة لجعل فلسطين وطناً قومياً لليهود.

ففي شهر أيار عام (١٩١٦م/١٣٣٤هـ) تناقشت كل من فرنسا وإنكلترا في موضوع اقتسام تركة الدولة العثمانية (الرجل المريض)، وذلك من خلال المراسلات المتبادلة بين وزير خارجية إنكلترا (إدوارد جراي) وسفير فرنسا في لندن (المسيو بول).^(١٧٧)

ونج عن هذه المراسلات اجتماع مابين كل من السير مارك سايكس، الخبير الإنكليزي بشؤون الشرق الأوسط، وجورج بيكو، الخبير بوزارة الخارجية الفرنسية بالقاهرة، وتوصلا إلى مشروع اتفاق أطلق عليه (سايكس-بيكو) في ١٦/أيار/١٩١٦م/١٣٣٤هـ).^(١٧٨) كما صدر بعد عام وعد على لسان وزير خارجية إنكلترا بلفور في ٢/تشرين

¹⁷⁵ - لوتسكي؛ فلاديمير: الحرب الوطنية التحررية في سورية (١٩٢٥-١٩٢٧م) ترجمة: محمد ذياب، بيروت، دار الفارابي، ط١، ١٩٨٧م، ص٧٥.

¹⁷⁶ - الحكيم؛ حسن: الوثائق التاريخية المتعلقة بالقضية السورية في العهدين العربي الفيصلي والانتداب الفرنسي (١٩١٥-١٩٤٦م)، بيروت، دار صادر، ط١، ١٩٧٤م، ص٢٤. انظر: السمان؛ أحمد: المجتمع العربي، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٩٦٢م، ص١٨٧. وللمزيد والتوسع انظر: غانم؛ نائلة: اتفاقية سايكس-بيكو ومنعكساتها، دمشق، ط١، مطابع الإدارة السياسية ٢٠٠٨.

¹⁷⁷ - Omar (dj): La syrie sous le regime dumandat, tolouse, 1934, p.21-22

¹⁷⁸ - قرقوط؛ ذوقان: تطور الحركة الوطنية في سورية عام ١٩٢٠م/١٩٣٩م، دمشق، دار طلاس، ط١، ١٩٨٩م، ص٢٨.

الثاني/(١٩١٧م/١٣٣٥هـ)، فسمي وعد بلفور المشؤوم.^(١٧٩) وعلى الرغم من تلك المفاوضات والخianات التي كانت تتبعها إنكلترا ضد العرب، وعلى الرغم من كل تلك الظروف فقد قامت الثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف حسين، منطلقة من الحجاز في ٢/حزيران/١٩١٦م/١٣٣٤هـ، ثم توجهت نحو بلاد الشام، إذ أشارت القوة العربية هذه بدخول فيصل دمشق على رأس جيش عربي، وأعلن فيها قيام دولة عربية مؤقتة باسم الملك حسين، مستقلة استقلالاً مطلقاً تشمل البلاد السورية (سورية الطبيعية). على حين رزح جزء منها (فلسطين) والعراق تحت الحكم العربي الإنكليزي، ثم تابعت القوات الإنكليزية زحفها نحو المناطق الشمالية، لكنها لم تصل إلى منطقة الفرات الأوسط والجزيرة السورية مباشرة، بل كانت مجريات الأحداث تلك وأخبارها التي كانت تصل إلى المنطقة هي التي أدت إلى انسحاب القوات العثمانية منها عام (١٩١٨م/١٣٣٦هـ).

179 - وافقت الولايات المتحدة الأمريكية على وعد بلفور عبر رسالة أرسلها (ولسن) إلى الحاخام (ستفن) في عام (١٩١٨م/١٣٣٦هـ) وافق فيها الكونكرس الأمريكي عليه في حزيران (١٩٢٠م/١٣٣٨هـ) فوافق عليه مجلس النواب، وذلك تحقيقاً للمصالح الأمريكية الاستعمارية في المنطقة العربية في حال خروج الاستعمار الفرنسي أو البريطاني. للمزيد انظر: السماك، محمد: الصهيونية المسيحية، ثلاثة أجزاء، بيروت، دار النفائس، ط٢، ١٩٩٣م، ج٣، ص٥٩-٦١.

ثانياً-الأوضاع السياسية والتنظيمات الإدارية في فترة (الحكم الفيصلي) الحكومة العربية (١٩١٨-١٩٢٠م/١٣٣٦-١٣٣٨هـ):

باتت الساحة السياسية بعد انسحاب العثمانيين (١٣٣٦هـ / ١٩١٨م) في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة دون سلطة حاكمة، ولذلك فقد تسارع الزعماء المحليين ووجهاء المدن وشيوخ العشائر إلى عقد اجتماع وقعوا فيه وثيقة تقضي بتشكيل حكومة محلية تضم / ٢١ / واحد وعشرون عضواً يمثلون مختلف مناطق الفرات الأوسط والجزيرة (متصرفية الزور)، يقوم أحدهم بتولي رئاسة المجلس كل يوم بالتناوب فيما بينهم وتعدّ دار المتصرفية في دير الزور قسبة الفرات الأوسط والجزيرة مقراً يجتمعون فيه لإدارة الحكم^(١٨٠).

لقد استمرت هذه الحكومة الانتقالية قرابة الشهر حتى كان يوم انتهاء مهامها مع وصول الشريف ناصر بن عمر الأمير فيصل بن الحسين ، ولحق به مرعي باشا الملاح في (١٧ / كانون الأول / ١٩١٨م / ١٣٣٦هـ) والذي عين متصرفاً على منطقة الفرات الأوسط والجزيرة وبقي مركزها في مدينة دير الزور، إذ تولت الحكومة العربية مهام الحكم في المنطقة، وعلى فورها باشر المتصرف بحل المجلس المحلي السابق وشكل مجلساً أهلياً^(١٨١).

إلا أن هذا لم يدم سوى أيام قليلة نتيجة لدخول القوات الإنكليزية إلى دير الزور واحتلالها بمباركة من الملك فيصل.

ولعل أهم ما يميز هذه الفترة هي شدة الفوضى والاضطرابات الداخلية بين زعماء ووجهاء العشائر المحلية بين بعضها البعض وبين الزعماء المحليين والمتصرف إضافة إلى انعدام الأمن والقلق التي سادت أوساط المنطقة.

تعد هذه المرحلة هامة تاريخياً على الرغم من قصر مدتها الزمنية، إلا أنها كانت غنية بالأحداث والمتغيرات السياسية، ونقطة بدايتها بعد أن نجحت الجيوش العربية والتي قوامها مايقارب أربعة آلاف مقاتل في تجاوز القوات العثمانية في نحو خمسين معركة جرت بينهما^(١٨٢) ودخلت القوات العربية دمشق بقيادة الأمير فيصل بن الحسين، إذ استقبل بالزغاريد والهتاف أفضل استقبال، وذلك في ٣/تشرين الأول/١٩١٨م/١٣٣٦هـ.^(١٨٣)

180 - شوحان ؛ أحمد : تاريخ دير الزور ، ص ٧٧ .

181 - عياش ؛ عبد القادر : دير الزور حاضرة وادي الفرات ، ص ٢٤ .

182 - أشرفي؛ منير: تاريخ سورية السياسي، حلب، مطبعة العصر الحديث، ط١، ١٩٣٧م، ص ٢٥.

183 - المالكي؛ منير: من ميسلون إلى الجلاء (سيرة سياسية)، دمشق، وزارة الثقافة، ط١، ١٩٩١م، ص ٥٣.

اجتمع فيصل بالجنرال اللنبي فوراً في فندق فكتوريا بدمشق، إذ أبلغه اللنبي السياسة التي يجب على فيصل أن يطبقها، والتي تقضي بوضع هذه الأرض تحت إمرة القائد العام للقوات الحليفة، أي (الجنرال اللنبي) إلى أن تتم التسوية النهائية.^(١٨٤)

وتمهيداً لما كان يخطط له الحلفاء فقد قامت إدارة الأمير فيصل واللى بتقسيم سورية إلى ثلاثة أقسام تطابق مخططات الاستعمارين الإنكليزي والفرنسي، وهي على النحو الآتي:

- **المنطقة الغربية**، وتضم (جنوب صور إلى ماوراء أنطاكية وإسكندرون بما فيها لبنان واللاذقية ولواء طرابلس)، وتصبح تحت الإدارة الفرنسية.^(١٨٥)

- **المنطقة الشرقية**، وتضم (شرقي الأردن، وجبل حوران ومايوأزيها من مدن داخلية شمالاً "دمشق وحلب وحمص وحماة...")، ويتولى حكمها الأمير فيصل بن الحسين،^(١٨٦) وبما أنها منطقة عسكرية فقد عين قائد عسكري عربي يديرها وهو اللواء علي رضا الركابي، وذلك بأمر من الجنرال اللنبي الذي أوكل إلى لورانس مستشار فيصل مهمة تعيين الركابي، ويعاونه ضابطا ارتباط (إنكليزي وفرنسي) يعملان تحت إشراف الجنرال كلايتون الإنكليزي.^(١٨٧)

- **المنطقة الجنوبية**، وتضم فلسطين تحت الحكم الإنكليزي مباشرة.^(١٨٨)

لم يقبل في البداية الأمير فيصل هذا التقسيم السياسي، إلا أن اللنبي أرغمه على قبوله لكونه أحد قادة الحلفاء، وهذا مؤقتاً ريثما يصدر القرار النهائي من مؤتمر الصلح، فقبل فيصل مرغماً.^(١٨٩)

وعلى الرغم من الإرهاق الذي أصاب الجيش العربي ونقص التموين والإمدادات، فقد تابع الجيش العربي ومعه قوات إنكليزية وفرنسية زحفه نحو مناطق بلاد الشام ومدنها الباقية، فوصلت حمص في ١٥/تشرين الأول،^(١٩٠) ثم دخل القائد نوري السعيد (عراقي الأصل) مدينة حماة مع قوة مدعمة من القوات الإنكليزية، وذلك في ٢٠/تشرين

184 - لوتسكي؛ فلاديمير: الحرب الوطنية في سورية، ص ٨٠.

185 - الحكيم؛ يوسف: سورية والانتداب الفرنسي، بيروت، دار النهار، ط ٢، ١٩٨٣م، ص ٨.

186 - العظمة؛ عبد العزيز: مرآة الشام، ص ٤٤١.

187 - قاسمية؛ خيرية: الحكومة العربية في دمشق، مصر، دار المعارف، ط ١، ١٩٧١م، ص ٢٤.

188 - لوتسكي؛ فلاديمير: الحرب الوطنية في سورية، ص ٨٠.

189 - سلطان؛ علي: تاريخ سورية (١٩١٨-١٩٢٠م) حكم فيصل بن الحسين، دمشق، دار طلاس، ط ٢، ١٩٩٦م، ص ٢٧-٢٨.

190 - الرئيس؛ منير: الكتاب الذهبي، بيروت، ط ١، (د.ت)، ١٩٦٩م، ص ٩٦-٩٧.

الأول،^(١٩١) ثم تابعت القوات زحفها نحو المدن الشمالية. وفي ٢٥/تشرين الأول وصلت إلى مدينة حلب ودخلتها دون مقاومة كبيرة، إذ حدثت آخر المعارك في قرية حريتان،^(١٩٢) وهزمت فيها القوات العثمانية.^(١٩٣)

وصلت القوات العربية تساندها قوات الحلفاء (الإنكليزية والفرنسية) إلى منطقة كيليكية فأسرعت الدولة العثمانية إلى طلب الهدنة، فعقدت في جزيرة موندروس في ٣٠/تشرين الأول ١٩١٨م/١٣٣٦هـ^(١٩٤) هدنة وضعت حداً للقتال بين الطرفين، ويحتل الحلفاء كل النقاط الإستراتيجية التي يختارونها، وتسرح كل القوات التركية باستثناء القوات الضرورية لحفظ النظام.^(١٩٥)

وبتحليل سريع لتلك الأحداث يتبين أنها جاءت مطابقة لما خططت له السياسة الاستعمارية الإنكليزية والفرنسية تجاه سورية، والتي تم الاتفاق عليها بتقسيم سورية إلى ثلاث مناطق، الأولى وهي منطقة الساحل السوري، وعهدت إدارته للفرنسيين، إذ بدأت الجيوش الفرنسية منذ العاشر من تشرين الأول ١٩١٨م/١٣٣٦هـ باحتلال جميع مدن الساحل الممتدة من صور جنوباً حتى مدينة مرسين شمالاً، وقام الجنرال اللنبي بتوضيح الأمر لفصيل لأنه مؤقت لحين عقد مؤتمر الصلح، وانتهت القوات الفرنسية من احتلال جميع مدن الساحل والشريط الساحلي لسورية في ٧/كانون الثاني ١٩١٩م/١٣٣٧هـ،^(١٩٦) وترتب على هذا الأمر عدم قبول ممثلي الحكومة العربية في المنطقة الساحلية، واستبدلوهم بحكام فرنسيين، وذلك بأمر من الجنرال اللنبي.^(١٩٧)

أما المنطقة الثانية فهي المنطقة الداخلية التي تقع شرقي السواحل السورية، فقد كانت تحت قيادة الحكومة العربية يشاركها مجموعة من الضباط الإنكليز وعلى رأسهم الجنرال اللنبي.^(١٩٨)

191 - لونغريغ؛ همسلي: سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ص ٨٦.

192 - عينتابي؛ محمد وعثمان؛ نجوى: حلب في مئة عام (١٨٥٠-١٩٥٠م)، ٣ أجزاء، حلب، معهد التراث العلمي العربي، ط ١، ١٩٩٣م، ج ٣، ص ١٦٧-١٦٩.

193 - Sander (V): Five years in Turkey, London, 1927, p.317.

194 - المعلم؛ وليد: سورية ١٩١٦-١٩٤٦م، ص ٧٨.

195 - لونغريغ؛ همسلي: سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ص ٨٧.

196 - هندي؛ إحسان: كفاح الشعب العربي السوري، ص ٢٢.

197 - بيهم؛ محمد جميل: قوافل العروبة ومواكبها عبر العصور، بيروت، دار الكشاف، ط ١، ١٩٥٠م، ص ٣٥.

198 - الحكيم؛ يوسف: سورية والانتداب الفرنسي، ص ٨.

والمنطقة الثالثة وهي فلسطين قد جعلت تحت سيادة الاحتلال الإنكليزي. وعليه فإن هذا التقسيم وتلك التحركات السياسية وما ترتب عليها من تبدل في الأوضاع الإدارية، واحتلال الجيوش الفرنسية (قوات الشرق الفرنسية) للسواحل السورية، كل ذلك يعني أنها خطوات تمهيدية للشروع بتنفيذ اتفاقية سايكس-بيكو،^(١٩٩) ووعد بلفور، على الرغم من جميع محاولات الإنكليز لتهدئة الأوضاع داخل الشارع السوري لترويج فكرة إعلامية بأن هذه الإجراءات لاتعني تقسيم سورية، بل أن أمر البلاد مرتبط بما سيتوصل إليه مؤتمر الصلح.^(٢٠٠)

وفي ١٨/تشرين الثاني/١٩١٨م/١٣٣٦هـ أبحر الأمير فيصل من ميناء بيروت على متن مركب إنكليزي، ومعه وفد يرافقه، وذلك بناء على توجيهات والده الشريف حسين التي وصلته عندما كان في حلب، فغادر على إثرها لحضور المؤتمر السوري،^(٢٠١) إلا أنه عندما وصل فيصل إلى باريس وأراد حضور مؤتمر الصلح عارض رئيس الوزراء الفرنسي (كليمنصو) دخول فيصل المؤتمر ورفض قبوله لولا تدخل إنكلترا لتسوية الأمر بشرط أن يكون فيصل حاضراً في المؤتمر كممثل للحجاز فقط، وليس عن سورية، أو أي منطقة عربية أخرى،^(٢٠٢) وقد كان السبب الرئيسي لاعتراض الفرنسيين على حضور الأمير فيصل مؤتمر الصلح كونه لايجوز إغفال ماتوصلت إليه اتفاقية سايكس-بيكو، وما أعطته من حقوق للفرنسيين في سورية ولبنان، وقد تضرعت فرنسا بأنها تعد هذه البلاد جزءاً من بلاد العدو المحتلة، وليست بلاداً ذات سيادة.^(٢٠٣)

وبعد أن بدأ مؤتمر الصلح جلساته بعقد جلسة افتتاحية في ١٨/كانون الأول/١٩١٩م/١٣٣٧هـ حضر فيصل أعمال هذه الجلسة بصفته ممثلاً عن منطقة الحجاز، إذ كان يرافق فيصل (لورنس)، وقد شارك معه في التحضير للمطالب التي قدّمها الأمير فيصل في المؤتمر، والتي بيّن فيها جملة من حقوق العرب، وعلى رأسها حق تقرير المصير، مذكراً قادة الحلفاء، وخاصة الإنكليز بالإعلان الإنكليزي-الفرنسي الصادر في ٨/تشرين الثاني/١٩١٨م/١٣٣٦هـ والذي كان جواباً على مخاوف الحسين حول ماسمعه عن اتفاقية سايكس-بيكو. وكذلك ذكر بالوعود والالتزامات التي تعهدت بها إنكلترا من

199 - الجندي؛ أدهم: تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي، دمشق، مطبعة الاتحاد، ط١، ١٩٦٠م، ص ٦٥.

200 - قاسمية؛ خيرية: الحكومة العربية في دمشق، ص ٧٤-٧٦.

201 - لونغ كرك؛ هيم سيلي: سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ص ١١٣.

202 - هندي؛ إحسان: كفاح الشعب العربي السوري، ص ٢٢.

203 - المالكي؛ منير: من ميسلون إلى الجلاء، ص ٣٦.

قبل (مكماهون).^(٢٠٤) كما نوّه فيصل إلى استعدادة أن يتقبل العراق المساعدة من إنكلترا، وجبل لبنان يقبل مساعدة فرنسا،^(٢٠٥) كما تعهد باستثناء عدن عن المطالبة باستقلالها كونها قاعدة إنكليزية، وأقرّ بأن تكون فلسطين ذات نظام خاص، وهذا يعود إلى سبب إعطاء فيصل كتاب موقع من قبله إلى وايزمن (رئيس الجمعية الصهيونية) يتضمن تسهيل تعاون العرب مع اليهود، فعّد هذا الكتاب تعهداً رسمياً لإجراء وعد بلفور والبدء بتنفيذه.^(٢٠٦) أمّا بقية المناطق العربية فكان مطلب فيصل هو استقلالها.

ونتيجة لما سبق، وبعد مطالبة من الولايات المتحدة الأمريكية، وافق كل من ممثلي إنكلترا وفرنسا وإيطاليا في الجلسة المنعقدة في يوم ٣٠/كانون الثاني/١٩١٩م/١٣٣٧هـ على فصل البلاد التي كانت خاضعة للدولة العثمانية، وإجراء استفتاء شعبي لسكانها في حق تقرير مصيرها، وفي اختيار وصي ينتدب عليها إلى حين أن تصبح تلك البلاد قادرة على تدبير وإدارة شؤونها بنفسها. فشكل هذا القرار البنى الأساسية التي استندت إليها المادة ٢٢/ وهي (استحداث نظام الانتخاب في عصبة الأمم المتحدة).^(٢٠٧)

وفي ٢٥/آذار/١٩١٩م/١٣٣٧هـ اتخذ مؤتمر الصلح قراراً ببعث لجنة دولية إلى الشرق الأوسط بغية التحقيق لإجراء تصويت عام للسكان، وذلك بناء على مقترح الرئيس الأمريكي ولسن، وقد اقتصررت هذه اللجنة على عضوين أمريكيين هما (كينغ، وكرائين).^(٢٠٨)

وخلال الفترة نفسها التي كانت تجري فيها جلسات مؤتمر الصلح، كانت تعقد محادثات بين فرنسا وإنكلترا، عرفت باسم (كليمنصو) و (لويدجورج)^(٢٠٩)، وبموجبها صدر اتفاق رسمي بين الدولتين عرف بـ(اتفاق لندن) وفيه تركت فرنسا منطقة الموصل التي كانت وفق ماورد في اتفاقية سايكس-بيكو بأنها تتبع للنفوذ الفرنسي، تركتها للنفوذ الإنكليزي مقابل أن تسحب إنكلترا جيوشها من المنطقة الشرقية لسورية، لتكون محلها الجيوش الفرنسية، وفق انسحاب تدريجي للقوات الإنكليزية، ودخول تدريجي يعقبها فوراً للقوات الفرنسية، وقد وقع اتفاق لندن(كليمنصو) و (لويدجورج) في كانون الأول عام

204 - لوتسكي؛ فلاديمير: الحرب الوطنية في سورية، ص ٨٠.

205 - لونغريغ؛ همسلي: سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ص ١٤٤.

206 - العظمة؛ عبد العزيز: مرآة الشام، ص ٤٤٩.

207 - هندي؛ إحسان: كفاح الشعب العربي السوري، ص ٢٣.

208 - لوتسكي؛ فلاديمير: الحرب الوطنية في سورية، ص ٨٣.

209 - قرقوط؛ ذوقان: المشرق العرب في مواجهة الاستعمار، القاهرة، مكتبة الأنجلو الفرنسية، ط ١،

(١٩١٩م/١٣٣٧هـ)^(٢١٠)، ووصل الخبر حول الاتفاق الذي جرى (اتفاق لندن) إلى الأمير فيصل قبل رجوعه إلى سورية، فقام بإلقاء خطابه المشهور أمام حشد كبير من الناس في بيروت أوضح فيه حق العرب بنيل استقلالهم، وكان لهذا الخطاب وقع مؤثر على الشارع السوري عامة^(٢١١)، ومن ثم أعلن الأمير فيصل في ١٧/أيار/١٩١٩م/١٣٣٧هـ قرار إرسال لجنة أمريكية إلى المنطقة بصفتها لجنة دولية تقوم بإجراء استفتاء لأهالي البلاد في الحكم الذي يرغبون به بناء على مقررات مؤتمر الصلح. كما أعلن أن هذه الانتخابات سوف تجري في ثلاث ولايات في حلب ودمشق وبيروت وسنجد فلسطين لانتخاب نواب إلى المؤتمر السوري الذي سيقدر مصير البلاد بقاء هذه اللجنة (لجنة كينغ-كراين). كما دعا فيصل الشباب العربي في سورية إلى التطوع في الجيش العربي.^(٢١٢)

وبالفعل عقد المؤتمر السوري واجتمع أعضاؤه في تموز عام (١٩١٩م/١٣٣٧هـ) واتخذ مجموعة من القرارات، أبرزها:

- استقلال سورية التام ضمن إطار وحدة عربية مستقلة من دون وصاية دولية، أو من أي دولة أوروبية.
- وضحووا ثقتهم بمقررات مؤتمر الصلح ومبادئ الرئيس الأمريكي ولسن.
- اجتمع أعضاء المؤتمر على المادة ٢٢/ من ميثاق عصبة الأمم المتحدة، والتي جعلت سورية ضمن قائمة الأمم المحتاجة إلى وصاية (انتداب).
- طلبوا موافقة مؤتمر الصلح على إرسال ممثلين عنه إلى المؤتمر للدفاع عن حقوقهم.^(٢١٣)

لقد كانت هذه بعضاً من مقررات المؤتمر السوري التي مثلت رغبة الشعب السوري في مختلف المدن والمناطق والقرى، بما فيها أمنيات ورغبة أبناء منطقة الفرات الأوسط والجزيرة السورية الذين شاركوا في هذا المؤتمر بممثلين عنهم وقد أحضروا كتاباً موقعاً من عدد كبير من أبناء منطقة الفرات الأوسط والجزيرة السورية، وتم تسليمها إلى المؤتمر، وقد نقلها السيد أمين العليوي (من الحسكة)، وقام بتسليمها إلى المؤتمر الملا عيسى العزاوي، ورافقهم عدد

210 - الحكيم؛ يوسف: سورية والعهد الفيصلي، ص ٦١.

211 - افتتح الأمير فيصل خطابه بقوله: (الاستقلال يؤخذ ولا يعطى...) فكانت هذه الجملة قد لاقت صداها وشهرتها في الشارع العربي. للمزيد انظر: سعيد؛ أمين: الثورة العربية الكبرى، ص ٢٩.

212 - المالكي؛ منير: من ميسلون إلى الجلاء، ص ٢٩.

213 - الحكيم؛ يوسف: سورية والعهد الفيصلي، ص ٨٥-٨٨.

من أبناء المنطقة ممثلين عنها^(٢١٤)، فكانت آراء ومطالب أبناء الفرات والجزيرة مشابهة لرغبات الشعب السوري ولمقررات مؤتمره.

قدمت لجنة كينغ كراين تقريرها بعد أن انتهت من أعمالها، وعادت إلى بلادها التي جعلت هذا الملف طي الكتمان كونه لا يتلاءم مع ما اتفقت عليه السياسة الخارجية الأمريكية مع كل من فرنسا وإنكلترا، على الرغم من أن التقرير قدم في خريف عام (١٩١٩م/١٣٣٧هـ)، إلا أنه لم يظهر ولم يكشف إلا في عام (١٩٢٢م/١٣٤٠هـ)، وذلك بعد أن كانت كل من فرنسا وإنكلترا قد توضع قواتها في المناطق التي اقتسمت النفوذ عليها وفقاً لاتفاقيتها السرية والعلنية السابقة.^(٢١٥)

كان الشارع العربي في سورية يمّني النفس بتحقيق المطالب التي حملتها اللجنة، لكنه اصطدم ببدء زحف القوات الإنكليزية من السواحل السورية تجاه المناطق الداخلية، وبأشرت القوات الفرنسية بإرسال قوات إضافية بقيادة الجنرال غورو^(٢١٦) لاحتلال سورية.^(٢١٧) سارع فيصل إلى التواصل مع فرنسا عن طريق تدخل إنكليزي، إذ توسط (لويد جورج) في المفاوضات التي جرت ما بين (فيصل-كليمنصو)، وتوصلت المباحثات إلى اتفاقية تظهر ضعف الجانب العربي وتم التوقيع عليها في ٦/كانون الثاني/١٩٢٠م/١٣٣٨هـ، وأهم بنودها كانت:

- اعتراف فيصل بحاجة سورية إلى التنظيم والإصلاح.
- حق الحكومة الفرنسية في الأولوية التامة بالتعهدات والقروض وقيامها بمهمة تنظيم الجيش والشرطة.
- حصر تعيين المستشارين والموظفين الفنيين لتنظيم الإدارتين المدنية والعسكرية بالحكومة الفرنسية.
- تمثيل فرنسا للمصالح السورية الخارجية بمندوبيها السياسيين وقناصلها.
- جعل اللغة الفرنسية إجبارية في التدريس...^(٢١٨)

214 - نخبة من الباحثين: دير الزور ماض عريق، ص ١٢٠-١٢٢.

215 - قاسمية؛ خيرية: الحكومة العربية في دمشق، ص ١٢٠-١٢٢.

216 - عين الجنرال غورو مفوضاً سامياً لفرنسا في سورية وكليكية خلفاً لجورج بيكو، وذلك في ٨ تشرين الأول عام ١٩١٩م/١٣٣٧هـ، وقد عرف بمزاجه الحاد وشدة قسوته، إذ كان يفخر رئيس وزراء فرنسا (كليمنصو) بشخصية غورو، إذ خاطبه عندما كلفه بهذه المهمة قائلاً لغورو (ستكون الجندي الأعظم الذي سيخلق موطناً لفرنسا في الشرق). انظر: هندي؛ إحسان: معركة ميسلون، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ط ١، ١٩٦٧م، ص ٣١.

217 - لونغريغ؛ همسلي: سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ص ١٢٢.

عارض الأحرار الوطنيون فيصل الذي عاد إلى سورية يحمل معه مشروع هذا الاتفاق (فيصل-كليمنصو)، وعقد العزم على إعلان استقلال سورية الطبيعية، وتتصيب فيصل ملكاً، وعدم الاعتراف بالحكومات ذات القوة العسكرية التي تسيطر على مناطق متعددة من الوطن،^(٢١٩) بل ودعوا إلى الكفاح المسلح ضد الفرنسيين في المناطق التي كانوا قد احتلوها،^(٢٢٠) لذلك سارع الحلفاء إلى عدم الاعتراف بهذا الإعلان لاستقلال سورية معتبرين أن فيصلاً أمير من الحجاز، ولا يعدّ سوى قائداً للجيش الشمالية فقط.^(٢٢١) وتسارع الحلفاء إلى عقد مجلسهم لدراسة الأحداث في المنطقة العربية، فعقدوا المؤتمر في (سان ريمو) الإيطالية، وأهم ما أقرّوا فيه، التالي: تقسيم المنطقة إلى ثلاثة أقاليم: أ- العراق، تحت الانتداب الإنكليزي. ب- سورية، وتضم ولايتي الشام وحلب وقسم من ولاية أضنة ومتصرفية بيروت ودير الزور تحت الانتداب الفرنسي. ج- فلسطين تحت الانتداب الإنكليزي مع البدء بتأسيس وطن قومي لليهود فيها.

فكانت مقررات المؤتمر مؤثرة على البلاد العربية، وانعقد هذا المؤتمر في الفترة ما بين ١٨-٢٥ نيسان ١٩٢٠م/١٣٣٨هـ.^(٢٢٢)

وهنا سارع فيصل إلى اتخاذ بعض الإجراءات، وعلى رأسها حل وزارة الركابي المعتدلة، وفي ٧/أيار/١٩٢٠م/١٣٣٨هـ، وكلف هاشم الأتاسي بتشكيل وزارة وطنية، وقد أضافت الحكومة الجديدة قانوناً لعقد قرض وطني لجمع الأموال اللازمة لتجهيز الجيش، كما وسعت قانون التجنيد، فصار يخضع له كل أبناء الأمة.^(٢٢٣) وفي هذه المرحلة كانت الثورات في المنطقة الساحلية والشمالية الغربية تشتعل ضد قوات الاحتلال الفرنسي،^(٢٢٤) لذلك كان

218 - للمزيد حول هذه الاتفاقية، انظر: سعيد؛ أمين: الثورة العربية الكبرى، ج ٢، ص ١١٩-١٢٣. وانظر: العظمة؛ عبدالعزيز: مرآة الشام، ص ٤٦٥.

219 - هندي؛ إحسان: كفاح الشعب العربي السوري، ص ٢٨.

220 - شوكت؛ آصف: الثورات السورية في المنطقة الساحلية والشمالية الغربية (١٩١٨-١٩٢١م)، رسالة ماجستير، بإشراف: د. محمد خير فارس، عام ١٩٩٧م، غير منشورة، ص ٤١.

221 - إسماعيل؛ حكمت: نظام الانتداب الفرنسي على سورية، ص ٧١.

222 - المالكي؛ منير: من ميسلون إلى الجلاء، ص ٨٣.

223 - عين يوسف العظمة وزيراً للحربية في هذه الحكومة، فحصلت على مبلغ مليون دينار مقابل رهن مليوني دونم من أراضي الدولة في حمص وحماة وحلب للأهالي. انظر: قاسمية؛ خيرية: الحكومة العربية في دمشق، ص ١٧٩. والعظمة؛ عبد العزيز: مرآة الشام، ص ٤٧٤.

224 - وعلى رأس هذه الثورات كانت ثورة الشيخ صالح العلي في الساحل، وثورة إبراهيم هنانو في المنطقة الشمالية وكيلىكية. للمزيد انظر: وثائق وزارة الخارجية الفرنسية، مكتبة الأسد، مجلد ١٢، ص ١٠٣-١٠٥.

للمحتل من أجل توسيع سيطرته أن يخلق الحجج، فوجه الجنرال غورو إنذاراً إلى الحكومة العربية في دمشق في ١٤/تموز/١٩٢٠م/١٣٣٨هـ تضمن عدة شروط تعبر عن الرغبة الفرنسية في إكمال احتلالها وسيطرتها على سورية، وأهمها هي مطالبة الحكومة العربية بقبول الانتداب الفرنسي... (٢٢٥)

ومع أن الحكومة العربية (الفصلية) قد قبلت الإنذار الفرنسي وباشرت بالإجراءات التنفيذية له، إذ أصدر الملك فيصل أمراً بإلغاء الجيش وتسريحه في ١٨/تموز/١٩٢٠م/١٣٣٨هـ، إلا أن غورو قرر الزحف على سورية الداخلية فتحرك بقواته من لبنان باتجاه دمشق، وأمر القوات الفرنسية في الساحل بالزحف عن طريق إسكندرونة إلى حلب بقيادة الجنرال (ده لاموت)، فدخلت القوات الفرنسية إلى سورية بعد معركة ميسلون. (٢٢٦)

225 - ومن شروط إنذار غورو الأخرى: -وضع سكة حديد رياض-حلب تحت تصرف الجيش الفرنسي، - إلغاء التجنيد الإجباري-معاقبة رؤساء (العصابات) المقاومة للفرنسيين-قبول التعامل بالنقد الورقي الفرنسي بدل النقد الذهبي...للمزيد انظر: الحكيم؛ حسن: الوثائق المتعلقة بالقضية السورية، بيروت، دار صادر، ط١، ١٩٧٤م، ص ١٥٠.

226 - جرت معركة ميسلون قرب دمشق بين طرفين غير متعادلين في موازين القوى، هما الجيش الفرنسي، والجيش العربي السوري الناشئ والقليل العدد والعتاد في تموز ١٩٢٠م/١٣٣٨هـ. للمزيد انظر: الحصري؛ ساطع: يوم ميسلون، بيروت، دار الكشاف، ط١، ١٩٧٤م.

١- فترة الاحتلال الإنكليزي في الفترة ما بين:
(١١ / كانون الثاني / ١٩١٩ م / ١٣٣٧ هـ — ٢٧ /
كانون الأول / ١٩١٩ م / ١٣٣٨ هـ) :

_ دخول الاحتلال الإنكليزي إلى دير الزور:

دخلت منطقة الفرات الأوسط والجزيرة تحت سيطرة الاحتلال الإنكليزي بواسطة قوة عسكرية وجهت إليها عن طريق القوة الإنكليزية في العراق، إذ أعدت حملة عسكرية عين عليها قائداً (الميجر كاروير)^(٢٢٧)، إذ قام الإنكليز بتوجيه حملة عسكرية من قاعدتهم في بغداد نحو منطقة الفرات الأوسط والجزيرة مكونة من ثماني شاحنات كبيرة مليئة بالجنود والعتاد وأربع مصفحات تحمل جنوداً وأسلحة متنوعة تجر معها عدداً من المدافع، فاحتلت المنطقة بما فيها دير الزور التي تقابل فيها الميجر الإنكليزي كاروير مع متصرف دير الزور مدعي باشا الملاح وطلب منه تسليمه مقاليد الأمور في المدينة وتركها، وأكد له أن الحكومة الفيصلية بدمشق تقر بدخول الإنكليزي إلى دير الزور ولا تعارضه، فرفض المتصرف مدعي دخول الإنكليز وكان يشد من أزره وجهاء المدينة وأهلها، فاضطر كاروير أن يصطحب معه المتصرف إلى حلب للتأكد من صحة ذلك لدى حاكم حلب العسكري آنذاك شكري باشا الأيوبي، وفعلاً ذهبوا إلى حلب، فإذا بالأمور تتضح للملاح وتبين له أن كل ما يجري إنما هو متفق عليه، وإذا بدير الزور وقسم كبير من الفرات الأوسط و الجزيرة السفلى تقع لقمة سائغة للإنكليز. فعاد كاروير من حلب يحمل معه رسالة فيها تصريح واضح من حاكم حلب تشير إلى حكومة الملك فيصل بدمشق راضية بتسليم دير الزور للإنكليز.

لقد استطاعت الحملة أن تحتل المنطقة وتدخل إلى دير الزور قسبة المتصرفية ليستمر وجودها أقل من سنة، إذ صارت تتبع للقوة الإنكليزية في الحاکمة في بغداد وفرضوا عليها حاكماً جائراً هو (كاروير) على المنطقة، وذلك لمعرفتهم بطبيعته الدكتاتورية، إذ فرض الضرائب الباهظة على الناس، وابتكر قانوناً لحماية الحيوانات التي جعل لها كرامة فوق كرامة الإنسان، وفرض الضرائب الباهظة على الحيوانات والزرع وعلى مرور الطرقات، فعاش الناس في خنقة تعمها الفوضى، مما زاد في حقد أبناء المنطقة على الإنكليز وصار الناس ينهبون بعضهم البعض دون أن يحرك الإنكليز ساكناً.

لقد عانت المنطقة خلال الاحتلال الإنكليزي لها الولايات على يد المحتل مما دفع أبناءها إلى توحيد صفوفهم نتيجة لنمو الحس القومي والوطني التحرري لديهم والذي دفعهم إلى رد المعتدي والدفاع عن أرضهم، فقاد النضال الوطني ضد قوات الاحتلال الإنكليزي أحد أبناء

هذه المنطقة المخلصين لوطنهم، وهو (العقيد رمضان الشلاش)^(٢٢٨) الذي راسله زعماء وشيوخ الفرات الأوسط والجزيرة يطلبون منه التدخل.

٢- ثورة رمضان الشلاش:

كان الاحتلال الإنكليزي لدير الزور قاسياً، ولم يكن لرجال دير الزور من يسعفهم غير ابنهم البار العقيد رمضان الشلاش، الذي كان حاكماً لمنطقتي الخابور والرقعة.

إذ أرسل وجهاء المدينة وزعماءها رسالة سرية له يطلبون فيها أن يتدخل في شؤون دير الزور ليخلصهم من الحكم الإنكليزي، وكان بين هؤلاء الذين وقعوا هذه العريضة السادة: عياش الحاج، حسين الجاسم، الشيخ محمد سعيد العرفي، الشاعر محمد الفراتي، السيد تحسين الجوهرري، والسيد جلال السيد، والسيد سعيد السيد، والسيد ثابت عزوي وغيرهم، وطلبوا منه أن يلحق دير الزور بالحكومة العربية الهاشمية بدمشق.

وفي ١٩ تشرين الثاني ١٩١٩ تسلمت السلطات العسكرية العليا في بغداد برقية من المندوب السامي في القاهرة، تفيد أن رمضان الشلاش ترك حلب مزوداً بالتعليمات في السير إلى دير الزور، وقد وصل الرقة وشرع يتصل بالقبائل، وفي ١٠ كانون الأول ١٩١٩م سمع الكابت (كاميرا) معاون الحاكم السياسي الإنكليزي بدير الزور، أن قوة عربية تزحف من الرقة لتهاجم دير الزور، فاصطحب معه ضابط السيارات المصفحة، وذهبا للاستطلاع في طريق الرقة، وفي أثناء عودتهم علم بهم رجال العشائر من أبناء البوسرايا فأطلقوا عليهما النار، وقد استطاعا أن ينجوا بأعجوبة، فلما وصل الكابتين أبرق إلى بغداد يخبر أسياده بوجود

228 - رمضان بن شلاش بن عبد السليمان ، من عشيرة البوسرايا (عرب تقطن دير الزور) ، ولد في قرية الشميطية عام (١٨٨٢م / ١٣٠٠هـ) ، أخذ إلى المدرسة الحربية في الأستانة مع أبناء العشائر ، وتخرج منها ضابطاً ، عين قائداً لسلاح الفرسان في الحدود السورية - الحجازية ، شارك في الدفاع عن طرابلس الغرب ، ألتحق بالثورة العربية ومنح لقب باشا ، دخل دمشق مع الجيوش العربية ، عين حاكماً عسكرياً لمنطقة الرقة والخابور ، منها تقدم إلى دير الزور وحرر وادي الفرات الأوسط من الإنكليز ، كما قاد العديد من مجموعات الثوار ضد الفرنسيين في دير الزور ، ودمشق وريفها إلخ ، قبضت عليه قوات الاحتلال فأجبروه على الإقامة في دمشق وبيروت في عام (١٩٣٧م) ، ثم انتقل إلى حلب في عام (١٩٤١م) عاد ليثور في منطقة البصيرة ثم اعتقل ونفي إلى بيروت تحت الإقامة الجبرية إلى أن تم الاستقلال في عام (١٩٤٦م) عاد لدير الزور ، توفي في دمشق (٢١ / آب / ١٩٦١م) من أبرز صفاته الشخصية أنه شديد الصراحة ، حاد الطباع ، عصبي ، شديد الدفاع عن القومية العربية حتى أنه قد غلبت على حديثه القسم (بشرف العرب) ، انظر : جريدة المعرض اللبنانية : العدد ٤٦٦ ، تاريخ ٤ / شباط / ١٩٢٦ ، وانظر : سلوم ؛ شادي : رمضان الشلاش رجل من الفرات ، دمشق ، دار الطليعة الجديدة ، ط ١ ، ٢٠٠٤م ، ص ١١٢ ، كذلك قمنا بمقابلة شخصية مع أحد أحفاد رمضان الشلاش ، وهو د. أحمد الشلاش المقيم في محافظة دير الزور .

قلائق خطيرة بدير الزور، وأمر باعتقال فاضل العبود رئيس البلدية، واتخذ التدابير للمحافظة على الأمن والنظام، ثم اعتصم بالتكنة الكبرى^(٢٢٩).

وفي فجر يوم ١١ كانون الأول ١٩١٩ دخلت دير الزور قوات رمضان الشلاش ورجال قبيلة البوسرايا يعاونهم ويشد أزهرهم رجال عشائر العفادلة والولدة والسبخة وعنزة المجاورة للبوسرايا، وقد آزرهم في الدخول سكان المدينة في الوصول إلى دائرة الحكم السياسي الإنكليزي، فاستولوا على المال الموجود فيها، ونسفوا خزان البترول، ونهبوا دائرة الحكم السياسي الإنكليزي، وفتحوا السجن، وأخرجوا جميع المساجين. وفي اليوم الثاني هاجمت قوات رمضان الشلاش التكنة التي يعتصم بها الكابت كاميرا وأعوانه، واستطاعوا إسكان الرشاشات والمدافع التي نصبت فوق أسطحها، ودعي الكابت كاميرا للنزول على المدينة إلى دار حاج فاضل العبود رئيس البلدية لإجراء مفاوضات مع رجال رمضان شلاش، وكان في المجلس عدد من وجهاء المدينة الذين طلبوا من كاميرا عقد هدنة مع رمضان شلاش حالاً، وقد كان رجال الثورة من البوسرايا في حالة هياج كبير، إذ أظهروا له العداء السافر، والوطنية الوثابة، وتوعده بقتل جميع الضباط الإنكليز وموظفيهم.

وفي أثناء تلك المفاوضات أرسل الإنكليز طائرتين من مطار الحبانية، أصلتا دير الزور بنيران قنابلهما المدمرة، فأنذره رجال الثورة بوقف القصف، وعقدت هدنة بين الطرفين لمدة ٢٤ ساعة.

وبعد ظهر ١٣ كانون الأول ١٩١٩ دخل دير الزور القائد رمضان الشلاش وتوجه إلى دار الحكومة، واستدعى كاميرا لمقابلته، وفي الحال حضر كاميرا مستسلماً له، إذ أمر القائد رمضان أن يؤخذ كاميرا وجميع موظفيه كرهائن مقابل سلامة البلد من القصف البري والجوي^(٢٣٠).

وقام الإنكليز بإلقاء منشورات فوق مدينة دير الزور تتضمن نص البرقية، وتنذر العقيد الشلاش بإرسال جميع الضباط الإنكليز ومن معهم إلى البوكمال وتوعده إن لم يفعل بأقصى العقوبات، كان الشلاش يعامل أسراه الإنكليز معاملة إنسانية^(٢٣١) حسنة، وقد اعترفت (المس بل) محرقة السياسة الإنكليزية في العراق في بداية عهد الانتداب أن الشلاش عامل الإنكليز الأسرى معاملة حسنة. وقد طاش صواب الإنكليز لعمليات الشلاش الجريئة، إذ وقف وزير المستعمرات الإنكليزي ونستون تشرشل بعد احتلال رمضان الشلاش لدير الزور وطرده

²²⁹ شوحان؛ أحمد: تاريخ دير الزور، ص ٨١-٨٣.

²³⁰ سلوم؛ شادي: رمضان شلاش، ص ٧٣.

²³¹ سلوم؛ شادي: رمضان شلاش، ص ٧١-٨٠.

الإنكليز منها فقال: إن إنكلترا عدوين في الشرق: أحدهما لينين في الشمال والآخر هو رمضان الشلاش في الجنوب.

راح العقيد الشلاش يجبي الضرائب داخل حدود الاحتلال الإنكليزي، ثم أرسل إنذارات خطية إلى الحكام السياسيين الذين يحيطون بمنطقة نفوذه، كما أرسل الرسائل الحماسية التي تثير حمية شيوخ العشائر الذين يخضعون للحكم الإنكليزي، و يستنهض همهم، ويطلب منهم مناصرته لطرده الإنكليز من هذه البلاد ونبذ أعوانهم.

وأعلن الشلاش أنه يشق عصا طاعة الحكومة العربية الهاشمية بدمشق، ويتحدى الأمير فيصل، وأصرّ على انسحاب الإنكليز إلى بعد خمسين ميلاً جنوبي عانة، وكان ينوي توسيع سيطرته إلى الموصل، وراح الإنكليز يرسلون الإنذارات والاحتجاجات بواسطة منشورات ترمى من الطائرات كتهديد للثوار، ثم تقدم العقيد الشلاش بقوات فاحتل الميادين والبوكمال، وراح يتقدم ليحتل عانة لولا أن أرسل الأمير فيصل السيد الوزير مولود مخلص خصم رمضان متصرفاً لدير الزور، الذي سيطر على المدينة بواسطة ووجهائها وزعمائها، فلما عاد رمضان بقواته إلى دير الزور لم يتمكن من (٢٣٢) دخول المدينة.

بعد الهزيمة التي لحقت بالقوات الإنكليزية على يد رمضان الشلاش الذي أخرجهم عن المنطقة وتولى زمام الأمور فيها مدة شهرين تقريباً بقيت دير الزور فيها مراكز المتصرفية وقصبة اللواء الأبرز في الفرات الأوسط والجزيرة، وقد تصرف خلال هذه المدة الشلاش كحاكم مستقل، التف حوله وجهاء المراكز الحضرية وزعماء العشائر وشيوخ القبائل في المنطقة، وخلالها استطاع أن يحمي المنطقة من عودة القوات الإنكليزية، كذلك أحسن معاملة الأسرى من الجيش الإنكليزي (٢٣٣). إذ هدد الإنكليز بهم، فإذا أقدمت إنكلترا على أي عمل ضد سلامة دير الزور فإنه سوف يقوم بإعدامهم جميعاً، فلم يجد الإنكليز خلاصاً غير القبول. استمر رمضان الشلاش بحكمه حتى قامت الحكومة العربية بإرسال (مولود مخلص العراقي) ممثلاً لها كحاكم للمنطقة ومتصرفاً، وقد استغل مولود العراقي وجود الشلاش خارج دير الزور مع معظم قواته لإرجاع الإنكليز إلى حدود عانة، فقام العراقي بدخول مركز المتصرفية وسيطر عليها لصالح الحكومة العربية، إلا أن وجوده لم يدوم طويلاً، إذ تم استبداله وعين مظهر بك (٢٣٤) بدلاً منه من قبل الحكومة، ولعل أبرز ما أنجز في فترة حكم

232- الجندي؛ أهم: بطولات منسية، ص ٩٧.

233 - سلوم؛ شادي: رمضان الشلاش، ص ٧٢ - ٧٣.

234 - بل؛ جروتروود: فصول من تاريخ العراق القريب، ترجمة: جعفر الخياط، بيروت، ١٩٧٠م،

ص ٤١١، وانظر: عياش؛ عبد القادر: حضارة وادي الفرات، ص ١٥٣.

مظهر بك هي ترسيم الحدود للواء الزور من الجهة الشرقية مع الاحتلال الإنكليزي في العراق وجاء ذلك نتيجة للمواقف البطولية والجسارة لأبناء الفرات (٢٣٥) .

لقد استمرت فترة الحكم الفيصلي لمنطقة الفرات الأوسط والجزيرة حتى (٩ / تشرين الأول / ١٩٢٠م / ١٣٣٩هـ) أي قبل دخول الاحتلال الفرنسي إلى المنطقة، وبالتالي فإن تلك الفترة لم تقدم أي جديد في الجانب الإداري، بل كل ما في الأمر أن تميزت التنظيمات الإدارية بسيطرة رئيس البلدية على أمورها وهو الحاج فاضل العبود^(٢٣٦)، بل وكان لقصر الفترة زمنياً سبب في ذلك، إضافة إلى قوة الزعامات العشائرية.

235 - علوان ؛ إبراهيم : النضال القومي لدير الزور ، ٧٤ - ٧٥ .

236- فاضل العبود الحسن: أحد وجهاء دير الزور وولد فيها عام (١٨٧٢م) كان وطنياً ورجل سياسة استطاع تسيير الأمور في منطقة الفرات والجزيرة، تولى عدة مهام خلال أواخر العهد العثماني وفي فترة الاحتلال الإنكليزي والفرنسي وهي - تسلمه رئاسة بلدية دير الزور في عهد الحكم العثماني، وفي فترة الاحتلال الفرنسي.

- قام بتأسيس دولة سميت باسمه حكومة الحاج فاضل أو الدولة الفاضلية وحتى فترة الاحتلال الفرنسي.
- أصبح متصرفاً وحاكماً مدنياً على دير الزور ثلاث مرات.
- مثل دير الزور في المؤتمر السوري الأول عام ١٩٢٠م.
- شارك في تتويج الملك فيصل بن الحسين ملكاً على سورية.
- انتخب مرة ثانية في المجلس النيابي السوري عام ١٩٣٢.
- في آذار ١٩٣٦ انتقل إلى جوار ربه.

ثالثاً- المتغيرات السياسية والتنظيمات الإدارية خلال فترة الاحتلال الفرنسي: (١٣٣٩هـ / ١٩٢٠م - ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م) :

بدأت فترة الاحتلال الفرنسي لمنطقة الفرات الأوسط والجزيرة مع دخول القوات الفرنسية إلى المنطقة واحتلال مركز المتصرفية لواء دير الزور بقوة عسكرية كان على رأسها ضابط فرنسي يدعى (ترانكا) وذلك في (١٠ / تشرين الأول / ١٩٢٠ / ١٣٣٨هـ) إلا أنها باءت بالفشل وأعدت الكرة مرتين في شهري حزيران وتموز من عام (١٩٢١م / ١٣٣٩هـ)^(٢٣٧) بقوة فرنسية أكبر توجهت من حلب إلى دير الزور يقودها الكولونيل (لموان) استطاعت أن تعيد احتلال مركز المتصرفية دير الزور، ثم أعقبتها حملة ثانية بقوة كبيرة لتعزيز ودعم القوات من أجل استكمال السيطرة على كامل الفرات الأوسط والجزيرة بقيادة الكولونيل (دبيوفر)^(٢٣٨)، والتي استطاعت أن تثبت وجودها في دير الزور ثم بدأت بالتوغل والانتشار في مختلف أنحاء أراضي المتصرفية من أفضية أو نواح أو قرى في الأرياف والبادية بعد مقاومة عنيفة وبطولات أبداها أبناء كل منطقة من الفرات الأوسط والجزيرة^(٢٣٩) في الذود والدفاع عن بلدهم وأرض الوطن، حتى أن المستعمر لم ينعّم في وجوده على تلك البقعة بأي هدوء أو استقرار نتيجة لكثرة المظاهرات الشعبية والاضطرابات والثورات الوطنية والمقاومة السياسية والمسلحة، وهذه جميعاً بدورها شكلت النضال الوطني سواء السياسي أم المسلح على مختلف الصعد والفعاليات سواء السياسية أم الثقافية والاجتماعية والاقتصادية ... إلخ.

أما الجانب الإداري فقد تأثر بالأحوال السياسية لتلك الأوضاع التي سبق وأن ذكرناها من ثورات واضطرابات أدت إلى عدم مقدرة المستعمر الفرنسي على الاستقرار أو تثبيت أقدامه على أرض الوطن، فكان هذا أحد الأسباب الكثيرة التي أدت إلى انكفاء المحتل الفرنسي عن تقديم أي تعديل إداري ملحوظ في المنطقة سوى بعض التغييرات الإدارية البسيطة التي واكبت المتغيرات السياسية.

237 - الوردي ؛ علي : لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ، ج ٥ ، لندن ، دار كوفان ، [د . ت] ،

ص ١٣٠ .

238 - الضابط الفرنسي الذي عرف بصلابته وقسوته فكان قائد القوة الثالثة الداعمة.

239 - علوان ؛ إبراهيم : النضال القومي لدير الزور ، ص ٧٥ .

هدفت قوات الاحتلال من خلال التغييرات الإدارية التي أجرتها في بداية دخولها للمنطقة أن تقسم الوطن الواحد إلى أجزاء عدة، إذ أطلق على المنطقة اسم لواء الفرات والجزيرة وجعلته يتبع لدولة حلب^(٢٤٠).

كذلك حاولت فرنسا إدارياً خلق دولة داخل المنطقة بعد أن بسطت سيطرتها على المدن والأرياف، فكان لابد لها من إحكام سيطرتها على البادية أيضاً، فحاولت إنشاء دولة خاصة للبدو في الأراضي التابعة إلى متصرفية دير الزور^(٢٤١) مستخدمة عدة طرق في محاولاتها لتحقيق ذلك، نذكر منها إثارة النعرات الطائفية، وكذلك أخذت تحت بعض رؤساء القبائل البدوية على طلب تأليف حكومة بدوية منفصلة تشمل بادية الشام كاملة ومعها لواء دير الزور يكون مركزها إما مدينة دير الزور أو ناحية تدمر^(٢٤٢)، إلا أن أبناء المنطقة تنبهوا لنوايا الاستعمار بتقسيم الوطن فمكّنهم ذلك من الوقوف في مواجهة هذا المشروع لتجزئة الوطن الأم سورية وبلاد الشام.

لقد شهد لواء الفرات والجزيرة تغييرات إدارية في الفترة ما بين عامي (١٣٣٩هـ — ١٩٢١م — ١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م)، إذ جعلت تبعيتها إلى دولة حلب، وكان اللواء يتألف من عدة أقضية هي (أبو كمال، الميادين، الحسكة، الرقة، الحمدي، أما مراكز اللواء وقصبته فهو دير الزور)^(٢٤٣).

ولكن في (٢٦ / حزيران / ١٩٢٦م / ١٣٤٤هـ) ألحق لواء الفرات والجزيرة بالعاصمة دمشق، نتيجة لإعلان وحدة دولتي دمشق وحلب^(٢٤٤) من قبل المستعمر الفرنسي بعد ضغوطات وطنية متعددة. وطراً كذلك تبدل إداري جديد على المنطقة وذلك في (٣٠/أيلول/١٩٣٠م / ١٣٤٨هـ) إذ تقرر تقسم اللواء إلى شقين فأنشئ لواء الجزيرة (محافظة الجزيرة) وجعل قضاء الحسكة مقراً إدارياً له وهو يمتد على منتصف أراضي الجزيرة شمال

240 - إسماعيل ؛ حكمت : نظام الانتداب الفرنسي على سورية (١٩٢٠ - ١٩٢٨ م) ، تقديم : د. محمد خير فارس ، دمشق ، دار طلاس ، ١٥٣ - ١٥٥ .

241 - حاولت سلطة الاحتلال الفرنسي أن تقسم منطقة الفرات الأوسط والجزيرة وما يتبعها من أراضي بخلق دولة لجماعات البدو ، فأخذت تتعامل مع الأمير نوري الشعلان كقائد لهم لسلطته بينهم ، وخصص له راتباً مقابل مسؤوليته عن حفظ الأمن بين البدو وتقديم الضرائب للفرنسيين ، وربطت علاقات البدو مع سلطات الانتداب مباشرة ، وقطعت كل صلة لهم بدولة دمشق: انظر : L. colonel catroux : Le Mandat Francais en Syria , op , cit , P.211

242 - زكريا ؛ أحمد وصفي : عشائر الشام ، جزعين ، دمشق ، دار الفكر ، عام ١٩٨٣م ، ج ١ ، ص ١١٢ - ١١٣ .

243 - عياش ؛ عبد القادر : دير الزور حاضرة وادي الفرات ، ص ٢٥ .

244 - حكمت ؛ إسماعيل : نظام الانتداب الفرنسي على سورية ، ص ٧٢ - ١٧٣ .

الفرات وصولاً حتى الحدود التركية، وبالتالي اقتطعت أرض هذا اللواء الحديث من أراضي لواء الفرات والجزيرة (متصرفية دير الزور) وصارت لواءين، الأول: لواء الفرات (محافظة دير الزور لاحقاً) ومركزه ظل دير الزور وهو اللواء الأم، والثاني: هو لواء الجزيرة محافظة الجزيرة الحسكة لاحقاً^(٢٤٥) ومركز هذا اللواء هو قضاء الحسكة المحدث.

لقد تمت خلال فترة الانتداب الفرنسي بعض الإحداثيات لدوائر المنطقة سواء في اللواء الذي أحدث (لواء الجزيرة) أو حتى في اللواء الأساسي (لواء الفرات، دير الزور)، وظهرت بعض الدوائر الجديدة وعلى رأسها كان إحداث لفرع المصرف السوري اللبناني المركزي في دير الزور عام (١٩٣٠م / ١٣٤٨هـ)، وكذلك دخول شركة الكهرباء إلى دير الزور أيضاً وذلك في (١٩٣٧م / ١٣٥٦هـ)، وبناء العديد من الدور الحكومية والمشافي والمنشآت العامة^(٢٤٦).

سعت أيضاً حكومة الاحتلال إلى بسط سلطانها على الريف والمدينة فعمدت إلى ربط العشائر مباشرة بدوائر الانتداب وتكوين إدارة خاصة لذلك هي (إدارة مراقبة البدو)^(٢٤٧)، عهدوا بها إلى ضباط عسكريين يقودون جنداً خاصاً من متطوعي الأعراب، راكبي الهجن من عقيل النجديين وغيرهم، وألقوا من هؤلاء سريتين إحداها في تدمر والثانية مركزها دير الزور^(٢٤٨).

وبنظرة تحليلية سريعة نلاحظ بأنه على الرغم من تلك التطورات والأحداث الإدارية في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة، إلا أنها ليست بتلك التغيرات الإدارية الكبيرة، بل كانت

245 - نشوء وتكوين مدينة الحسكة : نتيجة للعلاقات التجارية بين دير الزور والموصل ، كانت القوافل التجارية تسلك الطريق المحاذي لنهر الفرات ثم نحو الخابور لتجتازه قاطعة منطقة الجزيرة نحو سنجار ثم إلى الموصل ، وقد كان لهذا الطريق أهمية خاصة في تنشيط منطقة الجزيرة ، نتيجة للصلات التجارية ما بين دير الزور والموصل ولأهمية هذا الطريق صارت هنالك ضرورة ملحة لإنشاء قرية جديدة الخابور لتكون نقطة استراحة لقوافل التجارة تلك ، فأنشئت قرية موقعها في الجزيرة ، فأخذت تتطور الحسكة بشكل سريع وزاد نموها السكاني بشكل سريع منذ نشوءها حيث رفدها الكثير من أبناء المناطق المجاورة لها وخاصة من دير الزور حتى صارت مركز لواء (محافظة الجزيرة) في عام (١٩٣٠م / ١٣٤٨هـ) وقد ظهرت في سجلات المحاكم الشرعية بدير الزور بـ (الحسجة) ، انظر : الجزار ؛ وجيه : سنجق دير الزور ، ص ٣٤ ، وانظر : الغزي : نهر الذهب ، ج ١ ، ص ٤٦٥ ، وانظر : وثائق المحكمة الشرعية بدير الزور ، سجل رقم ١٣٧ ، رقم الوثيقة ١٠٤ ، عام (١٩٢٤م / ١٣٤٢هـ) ، ص ٦٥ .

246 - عياش ؛ عبد القادر : حضارة وادي الفرات ، ص ١٥٦ .

247 - لونغريغ ؛ ستيفن : تاريخ سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي ، ترجمة : بيار عقيل ، بيروت ، دار الحكمة ، ط ١ ، ١٩٨٧م ، ص ١٦٢ .

248 - زكريا ؛ أحمد وصفي : عشائر الشام ، ص ١١٢ - ١١٣ .

بسيطة بالمنظور العام الذي بقيت فيه أمور التنظيم الإداري أشبه بالنمط العثماني السابق، حتى أن سلطة الاحتلال قد احتفظت بالتقسيم الإداري العثماني الذي أوجدته قوانين عامي (١٨٦٤م/١٢٨١هـ) و (١٨٦٧م/١٢٨٤هـ)^(٢٤٩)، إذ حافظ على خطوطه العريضة دون تغيير كبير في الهيكل الإداري والدوائر الحكومية، وخاصة في مجال الإدارة المحلية سوى أنه زالت الولاية (الأيالة) إذ لم يعد لها مكان بين الألوية الصغيرة وصارت التقسيمات الإدارية من الأعلى إلى الأسفل على النحول التالي: المتصرفية أو السنجق أو اللواء (محافظة) ويديره متصرف^(٢٥٠)، ثم القضاء ويديره قائم مقام، ثم الناحية أو المديرية ويديرها مدير، ثم القرية وينظم أمورها المختار^(٢٥١).

وأخيراً لابد من التنويه عن الحالة العامة التي كانت ظاهرة في الدوائر الحكومية بمنطقة الفرات الأوسط والجزيرة وهي حالة الفوضى وعدم الاستقرار والاضطراب التي كانت السمة الغالبة عليها حتى نهاية الاحتلال ومرحلة بحثنا في عام (١٩٤٦م / ١٣٦٥هـ).

١ - الأوضاع السياسية والإدارية في العشرينيات (١٩٢٠-١٩٢٩م):

بعد دخول الجنرال غورو إلى دمشق، أعلن عزل الملك فيصل وانتهاء حكمه، وطلب إليه مغادرة البلاد فوراً مع عائلته وباقي أفراد حاشيته.

ويجب أن نلفت النظر هنا إلى أن احتلال الجيش الفرنسي للأراضي السورية، وما رافق ذلك من عمليات عسكرية، وقد تمّ في وقت لمّا تكن عصبة الأمم قد أعطت لفرنسا سلطة الانتداب على سورية ولبنان، الأمر الذي حمل بعض المؤرخين على عدّ هذا الاحتلال عملاً غير مشروع في نظر القانون الدولي.

وقد تضمن صك الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان في ٢٤ تموز من عام ١٩٢٢م عهد مجلس عصبة الأمم بموجب هذا الصك، إلى فرنسا بتولي مهمة الانتداب على هذين البلدين، على أن تقوم بواجب النصح والمساعدة لسكانهما وفقاً لأحكام المادة ٢٢/ من ميثاق عصبة الأمم.

249 - نوفل ؛ نوفل نعمة الله : الدستور العثماني ، مجلدان ، بيروت ، المطبعة الأدبية ، ط ١ ، (١٨٨٣م / ١٣٠١هـ) ، مج ١ ، ص ٣٨٢ .

250 - حكمت ؛ إسماعيل : نظام الانتداب الفرنسي على سورية ، ص ١٨١ .

251 - عوض ؛ عبد العزيز : الإدارة العثمانية في ولاية سورية عام (١٨٦٤ - ١٩١٤م) ، مصر ، دار المعارف ، ط ١ ، ١٩٦٩ ، ص ٦٧ ، وانظر : إسماعيل ؛ حلمي محروس : تاريخ العرب الحديث من الغزو العثماني إلى نهاية الحرب العالمية الأولى ، الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، ط ١ ، ١٩٩٧م ، ص ٣٢ .

اتفاقية فرانكلان-بويون لعام ١٩٢١م:

كانت منطقة كيليكيا محتلة من قبل القوات الفرنسية عند انعقاد الهدنة، ولكن الموقف تغير كلياً بعد الانتصارات التي حققها القائد التركي مصطفى كمال في نهاية الحرب، فأصبح بقاء القوات الفرنسية في كيليكيا صعباً، حتى أن بعض المعارك نشبت بين القوات الفرنسية والتركية في تلك المنطقة.

ومن هنا فقد رغبت الحكومة الفرنسية في إجراء مفاوضات مع الحكومة التركية لإيجاد حل لهذه المشكلات. وقد تمت هذه المفاوضات بين يوسف كمال بك، وزير الخارجية التركي، وفرانكلان-بويون، الوزير المفوض مطلق الصلاحيات ممثلاً للحكومة الفرنسية، وانتهت في ٢٠ تشرين الأول ١٩٢١م إلى توقيع اتفاقية أنقرة المعروفة باسم اتفاقية فرانكلان-بويون (Franklin-Bouillon). وبموجب هذه الاتفاقية وافقت الحكومة الفرنسية على سحب قواتها العسكرية من كيليكيا والمناطق المجاورة لها، واكتفت بالاحتفاظ بسنق الإسكندرية على أن يتمتع السنق بنظام إداري خاص.^(٢٥٢)

سياسة تقسيم سورية إلى دويلات:

وانطلاقاً من هذه السياسة، فقد كانت باكورة أعمال الجنرال غورو هي تقسيم سورية إلى عدة دويلات، وذلك بعد أن سبق اقتسامها بين بريطانيا العظمى وفرنسا بموجب اتفاقية سان ريمو (San Remo). فقد أصدر المفوض السامي الفرنسي قرارين مؤرخين في ٣١/آب/١٩٢٠م يقضي أولها بتأسيس (دولة لبنان الكبير)، كما يقضي القرار الثاني بتأسيس دولة العلويين.

وقد ألحق بدولة لبنان الكبير كلاً من بيروت وطرابلس وصور وصيدا وسهل البقاع، بالإضافة إلى سنق لبنان، وهكذا فقد ضاعف الجنرال غورو حجم سنق لبنان كما كان معروفاً في عام ١٨٦٤م، وألحق بمنطقة مأهولة بأغلبية مارونية من السكان الذين يدينون بالولاء التقليدي لفرنسا مناطق أخرى تسكنها أغلبية مسلمة لم تكن ترغب في الالتحاق بدولة لبنان الكبير، كما أنها لم تشارك السكان المواردنة حماسهم في قبول الانتداب الفرنسي.

أمّا في باقي المناطق السورية، فقد أقامت الحكومة الفرنسية دولتين جديدتين، هما (دولة دمشق) و(دولة حلب) التي كان يتمتع سنق الاسكندرون فيها بنظام إداري خاص، ثم لم تلبث الحكومة الفرنسية أن أضافت إلى هذه الدويلات دويلة خامسة هي (دولة جبل الدروز) التي أعلن قيامها في ٤ آذار ١٩٢١م. كما قامت بضرب المقاومة الوطنية بأسلوب شديد القسوة،

مما أثار الرأي العام في العالم المتمدّن الذي استنكرها بشدة، ممّا أدى إلى استدعاء المفوض السامي الفرنسي الجنرال مارلي في ٣٠/١١/١٩٢٥م بعد عشرة أيام من انتهاء قصف العاصمة دمشق.

تعيين المسيو دي جوفنيل مفوضاً سامياً في سورية ولبنان:

على أثر الحوادث الدامية التي وقعت في سورية ما بين ١٩٢٥-١٩٢٧م، قامت الحكومة الفرنسية في ٦ تشرين الثاني ١٩٢٥ بتعيين المسيو هنري دي جوفنيل (Henri de Jouvenel) محرر جريدة (Le Matin) وعضو مجلس الشيوخ الفرنسي مفوضاً سامياً للجمهورية الفرنسية في سورية ولبنان، بدلاً من الجنرال ساراي الذي اشتهر بإجراءاته العسكرية المتشددة ضد الشعب السوري.

وبناء على ما تقدم، فقد قامت الحكومة الفرنسية بتشكيل لجنة برئاسة المسيو بول بونكو (Paul Boncour) لوضع أنظمة أساسية للبلاد المنتدب عليها.

وفي ١٩ أيار ١٩٢٦م قدمت الحكومة الفرنسية إلى المجلس التمثيلي اللبناني مشروع دستور للبنان، وقامت بممارسة ضغط شديد على أعضاء المجلس المذكور لحملهم على قبوله والتصديق عليه خلال ثمان وأربعين ساعة من تقديمه إليهم، وقد أصدر المفوض السامي قراراً بوضع هذا الدستور موضع التنفيذ في ٢٣/أيار/١٩٢٦م، وذلك على الرغم من حملة الاستنكار الشديد التي قابل بها المجلس التمثيلي اللبناني لهذا الإجراء.

أمّا في سورية، فقد أمر المفوض السامي الفرنسي الجديد المسيو هنري دي جوفنيل بإجراء انتخابات عامة لتشكيل مجلس تمثيلي من جميع المحافظات التي لم تعلن فيها الأحكام العرفية، أي باستثناء دمشق وحوارن وجبل الدروز، كما أمر بإجراء انتخابات منفصلة في دولة العلويين لانتخاب مجلس تمثيلي خاص بها.^(٢٥٣)

ولمّا لم يجد بين الزعماء السوريين من يقبل باستلام الحكم في سورية، فقد لجأ المفوض السامي الفرنسي في ٩/شباط/١٩٢٦م إلى حكومة مطيعة لأوامره، برئاسة موظف فرنسي هو المسيو بيير أليب (Pierre Alype)، كما عين الجنرال أندريه (General Andrea) حاكماً عسكرياً لدمشق، وذلك تمهيداً لإجراء انتخابات عامة في سورية ووضع دستور لها.

بيد أن هذه الإجراءات كلها لم تجد فتيلاً، إذ قرر الزعماء الوطنيون في سورية مقاطعة الانتخابات العامة تأسيساً على أن إجراءاتها في مناطق دون أخرى من الوطن السوري يعدّ إقراراً ضمناً بقبول تجزئة البلاد، ولكن المسيو دي جوفنيل أصرّ على إجراء الانتخابات

253 - Toymbee, Arnold: Survey of International Affairs (1925) Oxford university press, London, 1927, p. 160.

العامة في الميعاد، على الرغم من مقاطعة الزعماء الوطنيين لها، كما أصدر قراراً بإعلان الأحكام العرفية في محافظتي حمص وحماة لقمع الاضطرابات التي وقعت فيهما، وأخيراً فإنه أصدر أوامره باعتقال عدد كبير من الزعماء السوريين وسجنهم في قلعة جزيرة أرواد.

المفاوضات الفرنسية-السورية لحل الأزمة القائمة في سورية:

رأى المسيو هنري دي جوفنيل، المفوض السامي الفرنسي، إجراء مفاوضات مع الزعماء الوطنيين بقصد التوصل إلى حل للأزمة السياسية القائمة في البلاد، ولهذا الغرض قام بتعيين الداماد أحمد نامي، نسيب السلطان العثماني عبد المجيد، رئيساً للدولة السورية. وقد أعلن السيد أحمد نامي قبوله لهذا المنصب، وأكد أن غايته الأولى هي إجراء مفاوضات مع الحكومة الفرنسية للوصول إلى عقد معاهدة على غرار المعاهدة العراقية-البريطانية لعام ١٩٢٢م، كما أنه قام بتشكيل حكومة سورية جديدة، واختار ثلاثة من الزعماء السوريين هم السادة: فارس الخوري ولطفي الحفار وحسني البرازي للاشتراك فيها.

بيد أن جهود المسيو دي جوفنيل سرعان ما اصطدمت بمعارضة الرئيس الفرنسي بوانكاريه (R.Poincarre) لمشروع المعاهدة السورية الفرنسية المقترحة، وإزاء هذه المعارضة لم يجد المسيو دي جوفنيل حلاً سوى تقديم استقالته من منصبه كمفوض سام للجمهورية الفرنسية في سورية ولبنان وذلك في تموز ١٩٢٦م. (٢٥٤)

ولمّا وصلت أنباء الاستقالة إلى سورية، وعلم الشعب السوري برفض الحكومة الفرنسية لمشروع الاتفاق الذي توصلت إليه الحكومة السورية مع المسيو دي جوفنيل أضربت المدن السورية، وقامت المظاهرات الصاخبة في الشوارع، وتجددت الاضطرابات مختلف المناطق، وثار الشعب السوري من جديد، فقصفت مدينة دمشق للمرة الثانية جواً وبراً، وكان هذا القصف أشد هولاً وتدميراً من القصف الذي سبق حدوثه في عام ١٩٢٥م، ولكن الشعب لم يهن ولم يستسلم، بل دامت الثورة سنة أخرى.

قيام المجلس التأسيسي بوضع الدستور السوري لعام ١٩٢٨م:

لم تتمكن الحكومة الفرنسية من تنفيذ التزامها بوضع نظام أساسي للدولة السورية خلال ثلاث سنوات من تاريخ صك الانتداب على سورية ولبنان، وهذا ما دعا الحكومة الفرنسية إلى تقديم طلب تمديد هذه المهلة مرتين، إذ طلبت التمديد لأول مرة في أيلول ١٩٢٦، وللمرة الثانية في ١٢ آذار ١٩٢٧م.

وفي ٢٧/تموز ١٩٢٧م أعلن المفوض السامي الفرنسي الجديد المسيو هنري بونسو (H. Ponsot) في بيان إلى الشعب السوري بأنه يلتزم بإصدار دستور للبلاد يقوم بوضعه ممثلون منتخبون من قبل الشعب.

وقد تلقى زعماء سورية هذا البيان بكثير من الارتياح، وقاموا بعقد مؤتمر وطني في بيروت في ٢٥/تشرين الثاني/١٩٢٧م، وقرروا فيه خوض الانتخابات النيابية باسم الكتلة الوطنية.

وفي أوائل عام ١٩٢٨م، استقالت حكومة الداماد أحمد نامي، فعهد المفوض السامي الفرنسي المسيو بونسو في ١٤/شباط/١٩٢٨م إلى الشيخ تاج الدين الحسيني بتشكيل وزارة جديدة، وعهد إليها بإجراء انتخابات عامة لمجلس تأسيسي يقوم بوضع الدستور الدائم للبلاد، كما أصدر أربعة قرارات يقضى بموجبها إنهاء حالة الطوارئ في سورية، وإلغاء الرقابة على الصحف، والعفو عن الثوار، والإفراج عن المعتقلين السياسيين.

وقد جرت الانتخابات العامة في موعدها المحدد في ١٠/٢٤/نيسان/١٩٢٨م، ففاز فيها عدد كبير من أعضاء الكتلة الوطنية، وفي التاسع من حزيران ١٩٢٨ عقد المجلس التأسيسي أول اجتماعاته في دمشق، وانتخب السيد هاشم الأتاسي رئيساً له، واستمر في أعماله التحضيرية إلى أن انتهى من إعداد الدستور السوري الذي يتألف من ١١٥/مادة، وذلك في ٧/آب/١٩٢٨.

ولكن المفوض السامي الفرنسي، المسيو هنري بونسو، بادر إلى طلب إلغاء ست مواد، وهي المواد ٢و٧٣و٧٥و١٠و١١٢ من الدستور السوري لعام ١٩٢٨م الذي قام بوضعه المجلس التأسيسي بذريعة أنها لا تتفق والتزامات فرنسا كدولة مندبة.

وفي رسالة إلى المجلس التأسيسي مؤرخة في ٩/آب/١٩٢٨، أئذر المفوض السامي المجلس المذكور بأن الإبقاء على هذه المواد من شأنه أن يخلق وضعاً يشوبه التشويش، الأمر الذي يحول دون الوصول إلى النتائج العملية المأمولة.

ولكن المجلس التأسيسي رفض الرضوخ إلى الإنذار— فلجأ المفوض السامي في ١٠/آب/١٩٢٨م إلى تعليق جلسات المجلس لمدة ثلاثة أشهر، ثم لمدة ثلاثة أشهر أخرى، ولما ظل المجلس التأسيسي مصرّاً على المحافظة على نص الدستور الذي وضعه، وعدم القبول بإلغاء أية مادة منه، قام المفوض السامي الفرنسي المسيو هنري بونسو بإصدار قرار في ٥/شباط/١٩٢٩م بتعليق اجتماعات المجلس التأسيسي إلى أجل غير مسمى، ومن هنا فقد

تأزمت العلاقات بين سورية وفرنسا تأزماً شديداً، وخيّمَت على البلاد حالة من الجمود السياسي امتدت حتى ربيع عام ١٩٣٠م.^(٢٥٥)

٢ - الأوضاع السياسية والإدارية في الثلاثينيات (١٩٣٠-١٩٣٩م):

عزم المسيو هنري بونسو، المفوض السامي الفرنسي على وضع حد للأزمة الدستورية القائمة في سورية، فأصدر في ١٤/أيار/١٩٣٠م قرارين:

- القرار الأول يقضي بحل المجلس التأسيسي السوري.
- القرار الثاني يقضي بنشر دستور جديد للجمهورية السورية. وهذا القرار يتضمن تعديل المادة الثانية من الدستور الموضوع من قبل المجلس التأسيسي، بحيث تنص على مايلي: "سورية وحدة سياسية لا تتجزأ". كما يتضمن إضافة المادة ١١٦/ إلى الدستور الأصلي.

لاتطبق أحكام هذا الدستور التي من شأنها أن تمس بتعهدات فرنسا الدولية، فيما يختص بسورية أثناء مدة هذه التعهدات إلا ضمن الشروط التي تحدد في اتفاق يعقد بين الحكومتين الفرنسية والسورية.

وعليه فإن القوانين المنصوص عليها في مواد هذا الدستور، والتي يكون لتطبيقها علاقة بهذه التبعات لا يتناقش فيها ولا تنتشر وفقاً لهذا الدستور إلا تنفيذاً لهذا الاتفاق، وإن القرارات ذات الصلة التشريعية أو التنظيمية التي اتخذها ممثلو الحكومة الفرنسية لا يجوز تعديلها إلا بعد الاتفاق بين الحكومتين.

ولكن عندما قام المفوض السامي الفرنسي في ٢٢/أيار/١٩٣٠م بنشر الدستور السوري بالنصوص المعدلة مع إضافة المادة ١١٦/ إليه، قابله الشعب السوري بموجة عارمة من الاحتجاج والسخط.

وأخيراً قام المسيو بونسو، المفوض السامي الفرنسي في سورية ولبنان، في ٥/أيار/١٩٣٠م بإرسال نسخة من الدستور السوري المعدل إلى وزارة الخارجية الفرنسية، كما أرسل إليها نسخة من الدستور اللبناني، ومن النظام الأساسي لكل من سنجد الاسكندرون، ودولة جبل الدروز، ودولة العلويين، وذلك لكي تقوم بإبلاغها إلى مجلس عصبة الأمم.^(٢٥٦)

الانتخابات النيابية العامة لعام ١٩٣١م:

استمر الوضع متأزماً في سورية بعد تعديل الدستور السوري وحل المجلس التأسيسي، طوال عامي ١٩٣٠ و١٩٣١م، إلى أن عاد المسيو بونسو، المفوض السامي الفرنسي في

255 - كيالي، عبد الرحمن: المراحل، ٤ مجلدات، حلب، مطبعة الضاد، ط١، ١٩٥٩م، ج١، ص ١٠١-١١٩.

256 - لونغريغ: سورية تحت الانتداب الفرنسي، ص ١٨٥.

سورية ولبنان من إحدى إجازاته المتعددة في فرنسا، فأعلن في ١٩/تشرين الثاني/١٩٣١م عزمه على إجراء انتخابات نيابية عامة مجدداً في سورية، وأن المجلس النيابي الذي سينبثق عنها سيقوم بإجراء مفاوضات مع الحكومة الفرنسية، وذلك للوصول إلى توقيع معاهدة فرنسية-سورية على غرار المعاهدة الإنكليزية-العراقية لعام ١٩٣٠م.

وفي ٢٠/كانون الأول/١٩٣١م، تمّ إجراء الانتخابات العامة، وقد قامت السلطة الفرنسية المنتدبة ببذل جهود كبيرة وممارسة ضغوط شتىّ لحمل الناخبين على اختيار المرشحين "المعتدلين" الموالين لها، وتأمين الأكثرية لهم في المجلس النيابي المقبل. ونجم عن ذلك وقوع اضطرابات خطيرة في مدينتي دمشق وحماة، فاضطرت السلطة الفرنسية المنتدبة إلى إجراء انتخابات تكميلية في ٣٠/آذار/١٩٣٢م، بعد أن توصلت إلى إقناع الكتلة الوطنية بالاستمرار في الانتخابات. وكانت النتيجة فوز ٥٣/ نائباً من المعتدلين و١٧/ نائباً من الوطنيين، ولكن على الرغم من ذلك فقد تمكنت هذه الأقلية من النواب الوطنيين من إقناع الأكثرية من النواب المعتدلين بالتعاون معاً لتحقيق أمانى الشعب السوري في الوحدة والاستقلال.

بعد انتهاء الانتخابات العامة، شعر الوطنيون بضرورة تنظيم صفوفهم، فقاموا بعقد مؤتمر عام في حمص، إذ أقرّوا في ٤/تشرين الثاني/١٩٣٢م القانون الأساسي للكتلة الوطنية. وقد نصّت المادة الأولى من القانون الأساسي على أن الكتلة الوطنية هيئة سياسية غايتها تحرير البلاد السورية المنفصلة عن الدولة العثمانية من كل سلطة أجنبية وإيصالها إلى الاستقلال التام والسيادة الكاملة، وجمع أراضيها المجزأة في دولة ذات حكومة واحدة، وتأييد المساعي مع العمل القائم في الأقطار العربية الأخرى لتأمين الاتحاد بين هذه الأقطار. وقد انتخب المؤتمر سبعة أعضاء دائمين مدى الحياة، وهم السادة هاشم الأتاسي رئيساً، وإبراهيم هنانو زعيماً، وسعد الله الجابري نائباً للرئيس، وجميل مردم بك، وشكري القوتلي، والدكتور عبد الرحمن الكيالي، وفارس الخوري أعضاء.

المفاوضات الفرنسية-السورية خلال سني ١٩٣١-١٩٣٣:

تتفيداً لبيان المفوض السامي الفرنسي المسيو هنري بونسو الصادر في ١٩/تشرين الثاني/١٩٣١م، فقد بدأت السلطة الفرنسية بإجراء مفاوضات مع الحكومة السورية بقصد الوصول إلى عقد معاهدة بين فرنسا وسورية على غرار المعاهدة المعقودة بين بريطانيا العظمى والعراق في عام ١٩٣٠م. وآية ذلك أن الصدام الحاد بين الحركة الوطنية والسلطة الفرنسية المنتدبة قد زاد في تكاليف الحكومة الفرنسية المالية وأعبائها العسكرية، فأصبح الانتداب مغامرة باهظة بالنسبة للشعب الفرنسي، ومن هنا كان يتعين على الحكومة الفرنسية سياسة الإدارة المباشرة للأراضي المنتدب عليها، وأن تسعى لاستبدالها بمعاهدة صداقة

لتخفيض النفقات العسكرية الكبيرة التي يستلزمها جيش الاحتلال، كما تتيح لها المحافظة على مصالحها الاقتصادية والإستراتيجية في المشرق العربي.

ولتحقيق هذا الغرض كان يترتب على فرنسا أن تسير على الطريق ذاته الذي مشته عليه بريطانيا العظمى في العراق، وهذا ما اعترف به المسيو هنري بونسو، بقوله: يجب أن نسير على الخطى ذاتها التي عليها بريطانيا.

وكانت عقدة المفاوضات السورية-الفرنسية هي مشكلة الخيار بين التجزئة، فقد كانت الحكومة الفرنسية تصرّ على تجزئة البلاد السورية وتقسيمه إلى دويلات، على حين كانت الكتلة الوطنية تطالب بالوحدة السورية. وقد أشار المفوض السامي الفرنسي في خطابه أمام اللجنة الدائمة للانتداب، إذ سيكون هنالك في المستقبل القريب منطقتان في سورية: منطقة معاهدة ومنطقة انتداب. ولمواجهة هذا الموقف الفرنسي، فقد أعلن الزعماء الوطنيون في سورية عدم قبول أية معاهدة مع فرنسا قبل عودة الأجزاء المسلوكة عن الكيان السوري من قبل الحكومة الفرنسية المنتدبة. كما طالبوا الحكومة الفرنسية بالتصريح عمّا إذا كانت المفاوضات لعقد معاهدة صداقة مع سورية يعبر عن رغبة صادقة من جانب فرنسا في تحقيق المطالب الوطنية للشعب السوري أم أنه مجرد تعديل تكتيكي في الحكم.^(٢٥٧)

عهد المسيو دي مارتل ومشروع معاهدة الصداقة والتحالف مع فرنسا لعام ١٩٣٣م:

في تلك الآونة أصيب المسيو هنري بونسو بمرض عضال ووهنت صحته، فقامت الحكومة الفرنسية بتعيين الكونت دي مارتل (Comte Martel) مفوضاً سامياً للجمهورية الفرنسية في سورية ولبنان بدلاً عنه.

وفي ١٣/تشرين الأول/١٩٣٣م، وصل مارتل إلى سورية، وقد بادر بعيد وصوله بإعادة فتح باب المفاوضات مع الحكومة السورية والزعماء الوطنيين. وفي ١٤/تشرين الثاني/١٩٣٣، تقدم إلى الحكومة السورية بمشروع معاهدة صداقة وتحالف بين سورية وفرنسا، وطلب إليها دراسته والتوقيع عليه خلال ٤٨/ساعة، وقد تمّ هذا التوقيع في ١٦/تشرين الثاني/١٩٣٣م.

بيد أنه عندما نشر نص هذه المعاهدة بعد ثلاثة أيام من توقيعها من قبل الحكومة السورية، ثارت موجة من السخط الشعبي العنيف والاحتجاجات الشديدة في مختلف أرجاء البلاد السورية. ولمّا بدأ المجلس النيابي السوري في ٢١/تشرين الثاني/١٩٣٣م بمناقشة المعاهدة الفرنسية-السورية، فوجئت السلطة الفرنسية المنتدبة بمعارضة أكثرية النواب السوريين لها، سواء أكان ذلك لأنها-على خلاف المعاهدة البريطانية-العراقية لعام ١٩٣٠م-

تسوّغ بقاء القوات العسكرية الفرنسية في سورية، أم لأنها تسوّغ بقاء العلاقات الخارجية، والبرق والبريد، وإدارة الجمارك، والرسوم والضرائب في أيدي السلطة الفرنسية.

ولذا فقد كان من الطبيعي أن يرفض المجلس النيابي السوري التصديق على المعاهدة الفرنسية-السورية المعروضة عليه وذلك بأكثرية ٥٣/ صوتاً من أصل ٦٩/ صوتاً. وإزاء هذا الرفض، لجأ المفوض السامي الفرنسي إلى تعليق اجتماعات المجلس النيابي لمدة ثلاثة أيام، ثم أقدم على تعليقها لكامل مدة الدورة. ولما أصرّ المجلس النيابي على موقفه، ورفض تعديل قراره السابق، أصدر المفوض السامي الفرنسي، الكونت دي مارنل، قراراً مؤرخاً في ٢/ تشرين الثاني ١٩٣٤م يقضي بتعليق اجتماعات المجلس النيابي السوري لأجل غير مسمى. (٢٥٨)

المعاهدة السورية-الفرنسية لعام ١٩٣٦م:

بعد وفاة الزعيم الوطني إبراهيم هنانو في ٢١/ تشرين الثاني/ ١٩٣٥م أصدرت الكتلة الوطنية بياناً طالبت فيه بإعلان استقلال سورية وانتهاء الانتداب الفرنسي وتوثيق صلات التعاون مع البلاد العربية الشقيقة، وقد أعقب صدور هذا البيان إضراب شامل في ٢٢/ كانون الثاني/ ١٩٣٦م، وقد امتد هذا الإضراب من دمشق إلى سائر المدن السورية، وظل مستمراً لمدة خمسين يوماً، ولقمع هذا الإضراب، فقد قامت السلطة الفرنسية باعتقال عدد كبير من زعماء البلاد، كما قامت بإغلاق مكاتب الكتلة الوطنية بالشمع الأحمر.

وفي ٢٣/ شباط/ ١٩٣٦م تقدم الشيخ تاج الدين الحسيني باستقالة وزارته من الحكم، فقام المفوض السامي الفرنسي بتكليف السيد عطا الأيوبي، أحد رجالات دمشق المعتدلين، بتشكيل الوزارة الجديدة، فتألّفت برئاسته وعضوية كل من السادة: سعيد الغزي للعدلية، والأمير مصطفى الشهابي للمعارف، وأدمون حمصي للمالية، ومصطفى القصيري للاقتصاد الوطني.

وقد أعقب تشكيل الوزارة الجديدة دعوة المفوض السامي الفرنسي الحكومة السورية والزعماء الوطنيين للتفاوض، على أن يقوم وفد سوري رسمي بالسفر إلى باريس لتوقيع معاهدة التحالف والصداقة بين فرنسا وسورية. وفي ٢٨/ آذار/ ١٩٣٦م، سافر الوفد السوري إلى باريس، برئاسة السيد هاشم الأتاسي، رئيس الكتلة الوطنية، وعضوية كل من السادة: فارس الخوري وجميل مردم بك وسعد الله الجابري، من رجال الكتلة الوطنية، ومصطفى الشهاب وأدمون حمصي عن الحكومة السورية.

وفي بداية المفاوضات نشب خلاف في وجهات النظر بين كل من الفريقين السوري والفرنسي حول أهداف المعاهدة، وحدث في الرابع من حزيران ١٩٣٦م تغيير وزاري في فرنسا، فأصبح المسيو ليون بلوم (Leon Blum) زعيم الجبهة الشعبية اليسارية، رئيساً للوزارة في فرنسا، فأنفذ هذا التغيير الوزاري المفاوضات السورية-الفرنسية من خطر الفشل والانقطاع.

وتبعاً لذلك، فقد انطلقت المفاوضات على أساس جديد، وسويت الخلافات القائمة بين الوفدين السوري والفرنسي حول مسألة الوحدة السورية بقبول الجانب الفرنسي ضم منطقة جبل الدروز ومنطقة العلويين إلى الكيان السوري، وهكذا تمّ في التاسع من أيلول ١٩٣٦ التوقيع في مبنى وزارة الخارجية الفرنسية على معاهدة الصداقة والتحالف بين فرنسا وسورية.

وقد أثار توقيع معاهدة ١٩٣٦ موجة عارمة من الحماس والشعور بالاعتزاز الوطني، وقد تشكلت إثر ذلك منظمة (القمصان الحديدية) وهي منظمة شبه عسكرية تابعة لقيادتها للكتلة الوطنية، كما استقبل الوفد السوري العائد من باريس استقبلاً شعبياً منقطع النظير في سورية، ونصبت له أقواس النصر في كل مكان، وقد كان المأمول أن تتحسن العلاقات السورية-الفرنسية بعد التوقيع على المعاهدة، وكانت الخطوات الأولى التي اتخذتها حكومة دمشق تدل على حسن النية واستعدادها لتنفيذ التزاماتها التعاقدية مع فرنسا وتحسين علاقاتها المستقبلية معها.

وفي تشرين الثاني عام ١٩٣٦م أجريت الانتخابات العامة في سورية لتأليف المجلس النيابي، فانتهت بانتصار ساحق لمرشحي الكتلة الوطنية، وبتاريخ ٢١ كانون الأول عام ١٩٣٦م، تقدم رئيس الجمهورية محمد علي العابد باستقالته من منصبه إلى المجلس النيابي، فقبلها المجلس بالشكر والتقدير، ثم جرى الاقتراح لانتخاب رئيس جديد للجمهورية، ففاز بهذا المنصب السيد هاشم الأتاسي بأكثرية ٧٤/ صوتاً من أصل ٨٢/ صوتاً. وقد عهد الرئيس الجديد إلى السيد جميل مردم بتأليف الوزارة، فتم تشكيلها على النحو الآتي:

جميل مردم	للرئاسة ووزارة الاقتصاد الوطني
سعد الله الجابري	للدخالية والخارجية
شكري القوتلي	للمالية والدفاع الوطني
الدكتور عبد الرحمن الكيالي	للعُدلية والمعارف ^(٢٥٩)

وفي ٢٢ كانون الأول عام ١٩٣٦م، قامت الوزارة السورية الجديدة بالتوقيع في دمشق على المعاهدة السورية-الفرنسية، ثم أحييت المعاهدة إلى المجلس النيابي السوري للتصديق عليها، فتمّ ذلك بالإجماع في الجلسة التاريخية المنعقدة في ٢٦ كانون الأول عام ١٩٣٦م.

تلكؤ البرلمان الفرنسي في التصديق على معاهدة عام ١٩٣٦م:

في أواخر عام ١٩٣٨م، أصبح وضع وزارة جميل مردم ضعيفاً ومشوباً بالحرّج الشديد، وقد زاد في الطين بلة تلكؤ البرلمان الفرنسي في التصديق على المعاهدة السورية-الفرنسية على الرغم من انقضاء ثلاثة أعوام على توقيعها في عام ١٩٣٦م.

ولكن على الرغم من هذه الوعود والالتزامات المنصوص عليها في البروتوكول الذي تمّ التوقيع عليه من قبل وزير الخارجية الفرنسية المسيو جورج بونيه (Georges Bonnet) ورئيس الوزراء السوري جميل مردم، فقد ظلت المعاهدة السورية-الفرنسية لعام ١٩٣٦م قابعة في البرلمان الفرنسي بدون تصديق، وفي نهاية عام ١٩٣٨م أعلن مقرر لجنة الشؤون الخارجية في البرلمان الفرنسي المسيو هنري هاي (Henry Hays) بأن الأسس التي أقيمت عليها المعاهدة مناقضة لمصالح فرنسا، وبالتالي فإنّه يتعين على الحكومة الفرنسية إلغاء تلك المعاهدة، والعودة إلى ممارسة الحكم المباشر في سورية، ولما وجدت الحكومة الفرنسية نفسها عاجزة عن الوقوف أمام هذا التيار المعارض، أعلن المسيو بونيه أمام البرلمان الفرنسي في جلسته المنعقدة في ١٤ كانون الأول عام ١٩٣٨م بأن حكومته لا تنوي في الوقت الراهن المطالبة بالتصديق على المعاهدة السورية-الفرنسية الموقعة في ٢٢ كانون الأول من عام ١٩٣٦م، لئلا يؤدي ذلك إلى تغيير الوضع الراهن في منطقة البحر المتوسط.

وقد قبل هذا البيان في سورية بموجة عارمة من السخط والاستنكار، فقد أصبح واضحاً لدى الوطنيين السوريين بأن الحكومة الفرنسية عدلت عن سياسة الصداقة والتعاون، وعادت مجدداً إلى سياستها القديمة في الحكم المباشر، وأضحت الوعود المبذولة من قبل المسؤولين الفرنسيين عديمة القيمة والجدوى في نظر الشعب السوري.

وبتاريخ ٣١ كانون الأول من عام ١٩٣٨م، اتخذ المجلس النيابي السوري قراراً أعلن فيه تمسكه بنص المعاهدة السورية-الفرنسية التي سبق أن صادق عليها في ٢٢ كانون الأول من عام ١٩٣٦م، ولكنه رفض التصديق على التعديلات اللاحقة التي جرى التوقيع عليها من قبل السيد جميل مردم باسم الحكومة السورية، كما طلب المجلس النيابي إلى الحكومة السورية الحفاظ على حقوق البلاد وعدم التفريط بها، والمبادرة إلى القضاء على الحركات الانفصالية وأعمال التمرد على القانون والنظام التي اندلعت في منطقتي الجزيرة والعلوين.^(٢٦٠)

انهيار الحكم الوطني:

بلغ التوتر في العلاقات السورية-الفرنسية ذروته في أوائل عام ١٩٣٩م، فقد اشتد المرض بالمسيو دي مارتل، المفوض السامي الفرنسي في سورية ولبنان، وقررت الحكومة الفرنسية تعيين المسيو غابريال بيو خلفاً له.

وقد تفاقمّت الأزمة وشاعت النقمة في سائر أرجاء البلاد السورية عندئذ أمر المسيو (بيو) في شهر شباط ١٩٣٩ بتطبيق نظام الطوائف الذي كانت السلطة المنتدبة قد أصدرته في آذار ١٩٣٦، فقبل وقتذاك بحملة عنيفة من النقد والمعارضة، سواء في داخل المجلس النيابي أم في أوساط الشعب. وقد لجأت الحكومة السورية إلى إعلان وقف تنفيذه، خاصة وأنه صدر عن المفوضية الفرنسية بدون علمها أو موافقتها. ولما عاد المفوض السامي الجديد إلى الأمر بتطبيقه في سورية، وطلب إلى الحكومة السورية سحب قرارها بوقف تنفيذ النظام المذكور، لم تجد حكومة السيد جميل مردم مناصاً من تقديم استقالتها في ١٨ شباط ١٩٣٦م تعبيراً عن رفض هذا الطلب.

وقد قام رئيس الجمهورية السيد هاشم الأتاسي بتكليف السيد لطفي الحفار، أحد أعضاء الكتلة الوطنية البارزين في دمشق، بتشكيل الوزارة، فتم تأليفها في ٢٢ شباط ١٩٣٩ على الشكل الآتي: لطفي الحفار رئيساً لمجلس الوزراء ووزيراً للمعارف، مظهر رسلان وزيراً للدفاع الوطني والدفاع، فائز الخوري وزيراً للمالية والخارجية، نسيب البكر وزيراً للعدلية، وسليم جنبرت وزيراً للاقتصاد الوطني. ولكن سرعان ما تبين أن استمرارها في الحكم صعب بسبب موقف الحكومة الفرنسية السلبي.^(٢٦١)

وهكذا استمرت الأزمة الوزارية بدون أن يقبل أحد من زعماء البلاد تأليف وزارة جديدة. وفي السادس من نيسان ١٩٣٩م تمكن رئيس الجمهورية من العثور على حل مؤقت للأزمة الوزارية المستفحلة، وذلك بأن عهد إلى السيد نصوحي البخاري، وهو من رجالات دمشق المستقلين، بتأليف الوزارة. وعلى هذا فقد قام السيد البخاري بتأليف الوزارة الجديدة، محتفظاً لنفسه بوزارتي الداخلية والدفاع الوطني، واختار السيد خالد العظم وزيراً للخارجية والعدلية، والسيد حسن الحكيم وزيراً للمعارف، والسيد محمد خليل المدرس وزيراً للمالية، والسيد سليم جنبرت وزيراً للاقتصاد الوطني. وقد حاولت الوزارة الجديدة إعادة فتح باب المفاوضات مع الحكومة الفرنسية للتوصل إلى إبرام اتفاق على أساس المعاهدة الفرنسية-السورية لعام ١٩٣٦م.^(٢٦٢)

²⁶¹ - Hourani, (A): Syria and Lebanon, Oxford university press 1946, p.71-72.

²⁶² - رضا؛ علي: قصة الكفاح الوطني في سورية، ص ٤٥٤.

وتبعاً لذلك، فقد سافر المفوض السامي المسيو بيو إلى فرنسا ليعرض على حكومته الاقتراحات المقدمة من جانب حكومة السيد نصوح البخاري، ولما عاد المسيو بيو إلى سورية في ١٠ أيار ١٩٣٩م، أعلن أن فرنسا حريصة على الوصول إلى اتفاق مع سورية، غير أن الوضع الدولي يستوجب عقد اتفاق عسكري جديد، كما أنه يتعين منح الأقليات مزيداً من الحقوق والحريات.

وكان رد الفعل الذي أثاره هذا التصريح قوياً في أوساط الكتلة الوطنية التي وجدت فيه دليلاً جديداً على عزم فرنسا وتصميمها على البقاء في سورية. ومن هنا فلم يعد مجدياً الاستمرار في التفاوض مع الحكومة الفرنسية. وبناء على ذلك، فقد تقدمت حكومة السيد نصوح البخاري باستقالتها في ١٥ أيار ١٩٣٩م.

هذا وقد بلغت الأزمة أوجها في مطلع شهر تموز ١٩٣٩م، عندما أصدر المفوض السامي الفرنسي المسيو بيو قرارين منج بموجبهما كلاً من منطقتي اللاذقية وجبل الدروز مزيداً من الاستقلال الإداري، وخول المندوبين الفرنسيين صلاحية ممارسة جميع السلطات التشريعية والتنفيذية فيهما.

وفي ١٠ تموز ١٩٣٩م، أصدر المسيو بيو قراراً بتعيين مجلس للمديرين العامين برئاسة السيد بهيج الخطيب الذي عهد إليه بمديرية الداخلية، بالإضافة إلى رئاسة المجلس، كما عهد إلى السيد حسني البيطار بمديرية المالية، السيد خليل رفعت بمديرية العدل، والسيد عبد اللطيف الشطي بمديرية المعارف، والسيد يوسف عطا الله بمديرية الاقتصاد الوطني.. وقد أعطى المفوض السامي الفرنسي مجلس المديرين العامين حق إصدار القرارات التنفيذية، على أن يتم تصديقها من قبله، كما أعلن بأن هذا النظام الجديد لا ينفى مطلقاً رغبة فرنسا في الوصول إلى معاهدة جديدة مع سورية.

أثار انهيار الحكم الوطني في سورية وإخلال السلطة الفرنسية المنتدبة بالتزاماتها وعهودها المقطوعة بموجب معاهدة ١٩٣٦م شعوراً قوياً بالسخط والكرهية لفرنسا في سورية والعالم العربي. ففي عام ١٩٣٩م أصبح مركز فرنسا السياسي في الشرق الأوسط ضعيفاً وصعباً، كما أضحت سمعة فرنسا الأدبية منهارة إلى الحضيض بسبب سياستها المترددة في سورية. (٢٦٣)

وعلى ضوء هذه التجربة المرة، فإن العرب- في عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية- لم يكونوا متحمسين أبداً للانخراط في صفوف حلفائهم القدامى الذي أصبحوا حكامهم الجدد.

وكان الشعور العام لدى شعوب المشرق العربي هو النفور من الحرب وويلاتها، والتحفز لاغتنام الفرصة السانحة لتحقيق أهدافهم القومية في الاستقلال والوحدة.

وقد ظل النشاط السياسي محدوداً في سورية خلال الأشهر التسعة التي انقضت بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية، وانحصرت جهود مجلس المديرين المعيّن من قبل المفوض السامي الفرنسي في تسيير الأمور الإدارية وتأمين شؤون التموين وملاحقة المحتكرين. بيد أنه وراء هذا الهدوء السطحي، كان التذمر يشتد في أوساط الشعب السوري.^(٢٦٤)

٣- الأوضاع السياسية والإدارية في الأربعينيات:

سورية في ظل حكم فيشي (Vichy):

في غداة هزيمة فرنسا، أعلن المسيو بيو بأنه لن يكون هناك استسلام في دول المشرق، وأن الجنرال ميتلهاوزر مصمم العزم على الاستمرار في تأدية رسالة فرنسا في البلاد الخاضعة للانتداب الفرنسي، وعلى الدفاع عنها بكل قوة وشجاعة للحفاظ على كرامة فرنسا وشرف العلم مثلث الألوان.

بيد أنه لم تمض فترة طويلة على هذا الإعلان حتى حصل تغيير مفاجئ في موقف السلطات الفرنسية في سورية ولبنان، الأمر الذي أدى إلى وقف العمليات الحربية في دول المشرق. فعلى أثر وصول الجنرال ويغاند بالطائرة إلى دمشق، بناء على أوامر حكومة فيشي التي استلمت زمام الحكم في فرنسا المحتلة، أصدر الجنرال ميتلهاوزر أمراً مؤرخاً في ٢٧ حزيران ١٩٤٠م، أعلن بموجبه إنهاء حالة الحرب في المشرق ضد دول المحور.

وفي تشرين الثاني ١٩٤٠م، استدعت حكومة فيشي المسيو بيو إلى فرنسا نظراً لميوله المعروفة نحو الحلفاء، وعيّنت بدلاً منه الجنرال داننر مفوضاً سامياً في سورية ولبنان. وكان هذا الأخير قائداً عسكرياً قبل كل شيء، مستقيماً شريفاً، ولكن كانت تنقصه الخبرة السياسية، وقد انحصرت جهوده في وضع حدّ للفوضى والتذمر التي انتشرت في صفوف القوات الفرنسية المعسكرة في المشرق، كما كان بتنفيذ أوامر حكومة الماريشال بيتان الذي أصبح رئيساً للدولة الفرنسية بعد هزيمة فرنسا في الحرب العالمية الثانية.

وفي أثناء ذلك كانت الحالة العامة تزداد سوءاً في سورية، فقد منعت الاجتماعات السياسية والمظاهرات الشعبية منعاً باتاً، وأخضعت الصحافة لرقابة شديدة، وفرضت الإقامة الجبرية على عدد من الزعماء الوطنيين، ومن ثم فقد لجأت الكتلة الوطنية إلى النشرات السرية طيلة عامي ١٩٣٩ و١٩٤٠م.

264 - كيرك؛ جورج: موجز تاريخ الشرق الأوسط، ترجمة: عمر الإسكندري، مراجعة: سليم حسن، القاهرة، دار الطباعة الحديثة، ط١، ١٩٥٧م، ص٢٠٦ و٢٣٠.

ولكن في أوائل عام ١٩٤١م بدأت الإضرابات والمظاهرات الشعبية تنتشر بسبب نقص المواد الغذائية الأساسية، ثم ارتدت هذه الحركة صبغة سياسية محضة بعدما استلم الزعماء الوطنيون قيادتها، وعلى رأسهم السيد شكري القوتلي. وفي ٢٠ آذار ١٩٤١م، أصدر هذا الأخير بياناً حمل فيه على مجلس المديرين، ووصفه بأنه حكومة تابعة وخاضعة للأجنبي ومفروضة على الشعب بالقوة، وطالب بإعلان استقلال سورية فعلياً وتشكيل حكومة وطنية تمثل الشعب السوري وترعى حقوقه. وقد تلا ذلك إعلان الإضراب العام في البلاد السورية، وتجددت الاضطرابات والاصطدامات بشكل خطير في مختلف المدن والقرى السورية.^(٢٦٥)

ولم يجد الجنرال دانتر لمجابهة هذه المصاعب حلاً سوى محاولة إيجاد تسوية مع الزعماء الوطنيين، فبدأ بالتفاوض مع السيد شكري القوتلي لتشكيل حكومة جديدة تتمتع بغالبية الشعب. ولكن هذه المفاوضات لم تثمر شيئاً جراء إصرار المفاوض السوري إعلان استقلال البلاد، ومن هنا أصبح الجنرال دانتر واثقاً بأنه ما لم تقم فرنسا بتنفيذ وعودها السابقة بإعلان استقلال سورية، فإن مركزها مهدد بالضياح في المشرق العربي.

وبتاريخ ٢ نيسان من عام ١٩٤١م، أصدر الجنرال دانتر بياناً إلى الشعب السوري أعلن فيه أنه بعد أن ناقش القضية السورية مع عدد من الزعماء الوطنيين، وتنفيذاً لهذا البيان الذي يعكس مظاهر النظام الجديد في فرنسا الفيشية، فقد عين الجنرال دانتر بتاريخ ٢٠ نيسان ١٩٤١م وزارة جديدة برئاسة السيد خالد العظم، الذي احتفظ بوزارة الداخلية، والسيد صفوت قطرغاسي للعدلية، ونسيب البكري للاقتصاد الوطني، وحنين صحنوي للمالية، ومحسن البرازي للمعارف، ويلاحظ أن أعضاء هذه الوزارة كانوا من الشخصيات الحيادية التي لم يسبق لها القيام بدور هام في السياسة السورية، كما يلاحظ عدم وجود وزير للدفاع ووزير للخارجية في عداد الوزارة.

بعد فشل ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق، قررت الحكومة البريطانية وضع نهاية لحكم فيشي في سورية، وذلك خشية أن يقوم الألمان باستعمال الأراضي السورية كمركز. وفي ٨ حزيران ١٩٤١م، قامت قوات عسكرية بريطانية وحليفة بقيادة الجنرال ويلسون باجتياز حدود سورية ولبنان من الجنوب والشرق. وقد كان المأمول أن يبدي الجنرال الفرنسي دانتر مقاومة رمزية.

وقد كان تقدم قوات الحلفاء بطيئاً في سورية ولبنان إلى أن وصلت الإمدادات العسكرية من الهند عبر الخليج العربي. وفي ٢١ حزيران ١٩٤١م، استولت القوات الحليفة على دمشق بعد قتال عنيف استمر ثلاثة أيام، كما تم الاستيلاء خلال أسبوعين على باقي البلاد السورية،

وفي ٨ تموز ١٩٤١م، طلب الجنرال دانتز وقف إطلاق النار، وبعد ذلك بأربعة أيام جرى التوقيع في عكا على اتفاقية للهدنة بين القوات الحليفة. وهكذا احتل الحلفاء سورية ولبنان، وأصبح هذان البلدان العربيان خاضعين لسيطرة أجنبية جديدة.^(٢٦٦)

تطور الأحداث السياسية في سورية ما بين عامي ١٩٤٣-١٩٤٤م:

شهدت سورية، خلال عامي ١٩٤٣ و١٩٤٤م سلسلة من الأحداث الهامة في ميدان الحياة السياسية، وذلك إلى جانب المفاوضات التي قامت بين الحكومة الفرنسية والحكومة السورية بشأن استلام المصالحة المشتركة والقوات الخاصة. وكان الحدث الأول يتمثل في قيام أزمة وزارية حادة في النصف الثاني من عام ١٩٤٤، وقد انتهت هذه الأزمة باستقالة وزارة السيد سعد الله الجابري، وتكليف السيد فارس الخوري، وتألّفت رئاسته في ١٣ تشرين الأول ١٩٤٤م.

وتتمثل الحدث الثاني في دمج جبل الدروز مع جسم الجمهورية السورية الوطن الأم، وقد قام المجلس النيابي بإقرار هذا الضم بموجب قانون اتخذه بالإجماع في جلسته بتاريخ ٢٠ كانون الأول ١٩٤٤م.^(٢٦٧)

أمّا الحدث الثالث فجرى عندما عقد المجلس النيابي السوري جلسة استثنائية حضرها رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والنواب وعزموا الإخلاص للدستور عام ١٩٢٨م، وذلك بعد إسقاط المادة ١١٦/ من صلب الدستور، وهي المادة التي كانت قد ألحقت بموجب قرار من المفوض السامي الفرنسي في عام ١٩٣٠م، التي كانت تنص على أن جميع أحكام الدستور التي تمس المصالح في فرنسا والتزاماتها في عقد معاهدة بين سورية وفرنسا.

ويجدر بنا أخيراً الإشارة إلى أن مركز سورية الدولي قد تعزز باشتراكها في تأسيس جامعة الدول العربية، وذلك بتوقيع بروتوكول الإسكندرية في ٤ تشرين الأول عام ١٩٤٤م، كما تعزز موقف سورية الدولي بالاعترافات الجديدة باستقلالها، إذ قام الاتحاد السوفييتي بالاعتراف الكامل وغير المشروط بالدولة السورية بتاريخ ٢٥ تموز عام ١٩٤٤م، كما قامت الولايات المتحدة الأمريكية بإبلاغ حكومة دمشق باعترافها بها في ٧ أيلول عام ١٩٤٤م.

انضمام سورية ولبنان إلى منظمة الأمم المتحدة:

كان لتأسيس جامعة الدول العربية أثر مباشر وبعيد المدى على استقلال سورية، إذ أصبح الشعب السوري، بعد تأييد الدول العربية الأعضاء في الجامعة لنضاله الوطني، أكثر حماساً للتحرر من الاحتلال الفرنسي والخلّاص من آثاره، وأكثر عزوفاً عن توقيع أية معاهدة مع

266 - الكيالي؛ نزار: تاريخ سورية السياسي، ص ١٠٨-١٠٩.

267 - ضبوط جلسات المجلس النيابي السوري، الدورة الثالثة لعام ١٩٤٤م، ص ٤٩٣.

فرنسا تؤمن استمرار نفوذها وتحد من حقوق سيادته، وذلك ليصبح حراً من كل مغتصب أجنبي، وليسهم مع باقي الشعوب العربية الشقيقة في تنفيذ التزاماته الجديدة كدولة مساهمة، وكعضو في جامعة الدول العربية.

في أوائل عام ١٩٤٥م، إثر عودته من اجتماعات خاصة عقدت مع الرئيس الأمريكي روزفلت ورئيس الوزراء البريطاني تشرشل، أعلن السيد شكري القوتلي، رئيس الجمهورية العربية السورية، في خطاب له أمام مجلس النواب السوري، أن سورية قد وضعت جميع إمكانيات ووسائل المواصلات المتوافرة لديها تحت تصرف قوات الحلفاء منذ اندلاع الحرب العالمية الثانية، وأنها ترغب الآن في الإسهام بدور مباشر في المجهود الحربي، وأضاف الرئيس السوري إلى ذلك قوله بأن الخطوة ستحوّل سورية حق الاشتراك في مؤتمر الأمم المتحدة للسلام.^(٢٦٨)

ولاشك أن التنافس على النفوذ الذي قام بين فرنسا وبريطانيا العظمى، بعد الحرب العالمية الأولى، فقد بلغ أوجه في سني ١٩٤٣-١٩٤٥م، إذ إن الحكومة البريطانية التي كانت في السابق لاتعارض في أن يكون لفرنسا مركز خاص مماثل لمركز بريطانيا في العراق، عدلت عن رأيها القديم، وأصبحت ترى أن المصلحة البريطانية في منطقة الشرق الأوسط تقضي بوجوب انسحاب فرنسا من سورية ولبنان، وذلك لكي تظل المنطقة خاضعة للنفوذ البريطاني وحده من جهة، ومن جهة أخرى لئلا تتقلب مقاومة العرب للوسائل العنيفة التي لجأ إليها الفرنسيون في المشرق العربي إلى كره عام للدول الغربية جميعها.

وبين حرص الجنرال ديغول للحفاظ على مركز فرنسا الخاص في المشرق من جانب، وبين تمسك الجنرال سبيرز بوعده باستقلال سورية ولبنان من جانب آخر، دارت معركة من أشهر المعارك الدبلوماسية في التاريخ الحديث. وقد أشارت السيدة فينو إلى هذا الصراع بقولها: "كانت الحوادث كلها تشير إلى أن بريطانيا عازمت على إبعاد فرنسا والحلول محلها في المشرق، بدلاً من الاعتراف بمركزها التاريخي الممتاز فيه. وعلى الرغم من استقالة الجنرال سبيرز من منصبه في ٣ كانون الأول ١٩٤٤م، وتعيين المستر شون خلفاً له، فقد ظلت العلاقات متوترة أشد التوتر بين الحليفين اللدودتين.

وقد كانت الحكومتان السورية والفرنسية قد سبق لهما أن أرسلتا بتاريخ ٦ أيار ١٩٤٥م مذكرة المندوب العام الفرنسي تحتجان فيها على إنزال فوج من المشاة في بيروت في ٤ أيار ١٩٤٥م، وكان من الطبيعي أن يثير الإنزال الثاني للقوات الفرنسية مخاوف حكومتي دمشق وبيروت وشكوكهما في مقاصده، خاصة وأن عملية الإنزال الأخيرة قد تمت في الوقت ذاته

الذي قدّم فيه المندوب العام الفرنسي مقترحاته بشأن عقد معاهدة بين فرنسا ودولتي سورية ولبنان. وقد اقترح المندوب العام الفرنسي عقد ثلاث معاهدات مع كل من الدولتين: المعاهدة الأولى تمنح فرنسا حق إقامة قواعد برية وبحرية وجوية في أراضي الدولتين، أما المعاهدتان الثانية والثالثة فتتصان على ضمان المصالح الاقتصادية والثقافية الخاصة بالرعايا أو الشركات الفرنسية في دول المشرق بعد انسحاب القوات الفرنسية منها.

وقد أعلنت الحكومتان السورية واللبنانية رفضهما للمقترحات الفرنسية، وذلك في تصريح مشترك صادر في دمشق بتاريخ ١٩ أيار ١٩٤٥م، كما أعلنتا أن إنزال القوات الفرنسية في أراضيها، بدون موافقتها، يشكل خرقاً خطيراً لسيادتهما وتجاوزاً بيتاً على استلامهما، وأنهما بالتالي قررتا المثابرة في المفاوضات مع الممثلين الفرنسيين وبتخاذ جميع الإجراءات اللازمة للدفاع عن استقلالهما وسيادتهما، وأن المسؤولية عن هذا الوضع تقع بكاملها على عاتق الحكومة الفرنسية.^(٢٦٩)

انقطاع المفاوضات السورية-الفرنسية وتطور الأحداث في سورية:

على أثر انقطاع المفاوضات بين الحكومة السورية والمندوب العام الفرنسي قامت مظاهرات كبيرة في مختلف المدن والقرى السورية، وأعلن الإضراب العام في البلاد. وقد بلغ التوتر ذروته عندما أقدم عدد كبير من الجنود السوريين على ترك "القوات الخاصة" والتحقوا بقوات الجيش السوري، وذلك لئلا يشتركوا في قمع الثورات وإطلاق النار على مواطنيهم.

العدوان الفرنسي الجديد:

في يوم ٢٩ أيار ١٩٤٥م، انفجر الموقف المتأزم في سورية، عندما قامت سيارات مصفحة فرنسية بالهجوم المفاجئ على مجلس النواب السوري بدمشق واحتلال مقره، بعد قتل حراسه من رجال الشرطة والدرك في مجزرة جماعية دامية. وفي الوقت ذاته، قامت المدفعية والطائرات التابعة للقوات الفرنسية بقصف مدينة دمشق براً وجواً، فأوقعت عدداً كبيراً من الضحايا بين السكان الأبرياء، وأشعلت الحرائق في مباني المؤسسات الرسمية والأسواق التجارية، وألحقت خسائر جسيمة في مختلف الأحياء والمنازل الآمنة. وقد وقعت مصادمات مماثلة بين القوات الفرنسية والجماهير الشعبية في مدن حلب وحماة وحمص واللاذقية ودير الزور وجبل الدروز.

وعلى أثر ذلك، استدعى السيد جميل مردم، وزير الخارجية السورية كلاً من الوزيرين المفوضين للولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا العظمى، وقدم إليهما مذكرة احتجاج ضد العدوان الفرنسي، طالباً إليهما رفعها إلى حكومتيهما. وقد أبلغه الوزير المفوض البريطاني بأن

المستر تشرشل، رئيس الوزراء البريطاني، قد بعث إليه رسالة خاصة يوصي فيها الحكومة السورية بضبط النفس والتزام جانب الهدوء والاعتدال ريثما تتمكن حكومته من إعادة الوضع إلى ما كان عليه في السابق.^(٢٧٠)

كذلك فقد قامت حكومة الاتحاد السوفييتي التي بقيت حتى ذلك الوقت بعيدة عن التدخل في شؤون سورية بإرسال مذكرة إلى الدول الكبرى والدول المعنية.

بيد أن الولايات المتحدة وبريطانيا لم تكونا وقتذاك على استعداد للسماح للاتحاد السوفييتي بالتدخل في شؤون الشرق الأوسط، ومنعاً لحدوث أي تدخل من هذا النوع، فقد قررت الحكومة البريطانية، بالاتفاق مع الحكومة الأمريكية، المبادرة إلى اتخاذ إجراء حاسم في هذا الشأن، فقام رئيس الوزراء البريطاني المستر تشرشل بإرسال خطاب مؤرخ في ٣٠ أيار ١٩٤٥م إلى الجنرال ديغول والمشار إليه فيما تقدم.

الإذار البريطاني:

كان للتدخل البريطاني في النزاع القائم بين سورية وفرنسا أثر فوري حاسم. وفي الثلاثين من أيار ١٩٤٥م، أرسل الجنرال باجيت القائد العام للقوات البريطانية في الشرق الأوسط إلى الجنرال أوليفا قائد القوات الفرنسية في دمشق أوامر تتضمن مجموعة من التحذيرات.

وفي الساعة ١٤,٣٠ من اليوم الواقع في ٣١/٥/١٩٤٥م، أعلنت القيادة الفرنسية قبولها لهذه الأوامر، وقامت القوات الفرنسية، تحت حماية وإشراف الجيش البريطاني، بالانسحاب من دمشق وباقي المدن السورية، وتركت وراءها ٥٩٣/ قتيلاً، و١٩٧٣/جريحاً. وهكذا استتب الأمن والنظام في جميع المناطق السورية بعد انسحاب القوات الفرنسية إلى ثكناتها تنفيذاً لأوامر القيادة العامة البريطانية في الشرق الأوسط.

مناقشة الشكوى السورية- اللبنانية أمام مجلس الأمن:

في اجتماعه المنعقد في ١٤ شباط عام ١٩٤٥م، بدأ مجلس الأمن مناقشة الشكوى السورية- اللبنانية، وقد أعلن رئيس المجلس المستر ماكين الاسترالي في مستهل المناقشة أنه لا يرى لزوماً، في المرحلة الراهنة، للبحث فيما إذا كانت المادة ٣٢/ من ميثاق الأمم المتحدة تنطبق على القضية أم لا، فإن سورية ولبنان هما بوضوح دولتان تمس بمصالحهما أساساً خاصاً مناقشة المسألة المعروضة حالياً على المجلس.

نتائج فشل مجلس الأمن الدولي في الوصول إلى قرار بشأن المسألة السورية-اللبنانية:

لا خلاف في أن فشل مجلس الأمن الدولي في الوصول إلى قرار ملزم يقضي بانسحاب القوات الأجنبية من أراضي سورية ولبنان، على الرغم من الجهود التي بذلها عدد من أعضاء المجلس في هذا الشأن، كان يهدد ببقاء النزاع معلقاً بدون حل، لولا الإعلان الذي صدر عن مندوبي فرنسا وبريطانيا بأن حكومتيهما ستقومان طواعية بتنفيذ رغبة أكثرية الأعضاء في مجلس الأمن.

وبالفعل فقد أرسل المندوب الفرنسي خطاباً إلى رئيس مجلس الأمن مؤرخاً في ٣٠/نيسان/١٩٤٦م، يبلغه فيه أن الحكومتين الفرنسية والبريطانية قد اتخذتا بصورة مشتركة التدابير اللازمة لسحب قواتهما من الأراضي السورية في ٣٠/نيسان/١٩٤٦م. أما بالنسبة للبنان، فقد أعلنت الحكومة الفرنسية بأنها ستقوم بسحب قواتها من الأراضي اللبنانية في ٣١/آب/١٩٤٦م، وأن مجموعة صغيرة من الفنيين ستبدأ لتأمين نقل المعدات والآلات على أن يتم انسحابها قبل ٣١/كانون الأول/١٩٤٦م، علماً بأن الحكومة الفرنسية أكدت عزمها على سحب قواتها المحاربة قبل ٣٠/حزيران/١٩٤٦م، وقد ختم المندوب الفرنسي خطابه سالف الذكر مشيراً إلى المذكرات المتبادلة بين وزير الخارجية الفرنسي واللبناني في ٢٣/آذار/١٩٤٦م، ومعلنًا أن هذه النوايا الإيجابية جاءت نتيجة للمعارضات التي أوصى بها مشروع القرار الأمريكي المقدم إلى مجلس الأمن الدولي.^{٢٧١}

ومن ناحية أخرى، فقد وجه المندوب البريطاني خطاباً إلى رئيس مجلس الأمن الدولي مؤرخاً في ١/أيار/١٩٤٦م، يحيطه علماً بأنه تنفيذاً لمشروع القرار الأمريكي، فقد تمّ الاتفاق بين الحكومتين الفرنسية والبريطانية على ما يلي:

- يسحب ألف من الجنود البريطانيين وعدد مماثل من الجنود الفرنسيين من لبنان في ٣١/آذار/١٩٤٦م.

- يتم سحب باقي القوات البريطانية من لبنان في ٣٠/حزيران/١٩٤٦م، باستثناء مجموعة صغيرة من الفنيين لتصفية الأعمال.^(٢٧٢)

وقد أبلغ جدول الانسحاب هذا إلى الحكومتين السورية واللبنانية، فلم تبديا أي اعتراض عليه، كما لم تطلبا إجراء أي تعديل عليه.

²⁷¹ - Reitzel, (W): The Mediterranean-Its role in America's foreign policy yale university press, new haven, 1948.p.68.

الاحتفال بجلاء القوات الأجنبية عن سورية:

في ١٧/نيسان/١٩٤٦م، احتفلت سورية احتفالاً قومياً رائعاً بعيد جلاء القوات الأجنبية من أراضيها، وكان هذا الحدث الجليل نقطة تحول هامة في تاريخها السياسي الحديث. وقد خرجت جماهير دمشق، بقضّها وقضيضها، تهلل وتكبّر لقوات الجيش السوري وهي تسير في شوارع العاصمة، على أنغام موسيقاها العسكرية، وتسير معها مفارز من ستة جيوش عربية تمثل مصر والعراق ولبنان والأردن واليمن والمملكة العربية السعودية، وفي ذات اليوم خرجت جماهير الشعب من كل مدينة، ومن كل قرية، من مدن وقرى البلاد السورية تشارك في احتفالات شعبية وعسكرية مماثلة، وتتشد الأناشيد الوطنية بكل فخر واعتزاز، مديرة ظهرها لماضي الاحتلال البغيض، لتستقبل فجر عهد جديد مشرق بالأمان والتطلعات إلى مستقبل أفضل.

الفصل الثاني

الحياة الاقتصادية و الاجتماعية
في لواء الفرات والجزيرة

(١٩٠٩/١٩٤٦م - ١٣٢٧/١٣٦٦هـ)

مخطط الغصل الثاني

أولا - الحياة الاقتصادية في لواء الفرات الأوسط
والجزيرة (١٩٠٩ - ١٩٤٦ م / ١٣٢٧ - ١٣٦٦ هـ) :

١- الزراعة :

- أ- نظام ملكية الأراضي الزراعية .
- ب- طرق استثمار الأراضي الزراعية .
- ج - الأدوات المستخدمة في الزراعة .
- د- وسائل الري :
- هـ - المحاصيل الزراعية :

٢- الصناعة والثروات الباطنية :

- أ - الثروات الباطنية والمعدنية :
- ب - الصناعة والحرف التقليدية :

٣- التجارة :

- أ- التجارة الداخلية :
- ب- التجارة الخارجية :
- ج- النقود المتداولة :
- د- الصادرات والواردات :

ثانياً : الحياة الاجتماعية في منطقة الفرات
الأوسط والجزيرة
١- تمهيد:

١- السكان دراسة ديموغرافية :

- أ- تقسيم السكان حسب دياناتهم :
- المسلمون .
- المسيحيون .
- اليهود (الموسويون) :
- ب- تقسيم السكان بحسب طبيعة عملهم :
- أهل المدن (الحضر) .

- الفلاحون .

- البدو :

ج- الفئات الاجتماعية :

- الفئة الحاكمة :

- فئة الأعيان ورجال الدين :

- فئة العامة :

- فئة الزعران :

د - المرأة :

هـ - المساجد والجوامع :

- المساجد والجوامع في دير الزور:

- المساجد والجوامع في الرقة :

- المساجد والجوامع في الميادين:

- المساجد والجوامع في البوكمال:

- المساجد والجوامع في رأس العين:

و- التكايا والطرق الصوفية في الفرات الأوسط والجزيرة :

أ- التكايا والزوايا :

ب- الطرق الصوفية :

- الطريقة الرفاعية :

- الطريقة النقشبندية :

- الطريقة القادرية :

ثالثاً - خاتمة :

أولاً : الحياة الاقتصادية في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة في الفترة ما بين (١٩٠٩م / ١٣٢٧هـ - ١٩٤٦م / ١٣٦٥هـ) :

تمهيد :

يعد الاقتصاد شريان الحياة لدى كل المجتمعات ، وقد انقسم الاقتصاد في المنطقة عامة لبلاد الشام خلال فترة بحثنا إلى ثلاثة محاور رئيسية وهي : (الزراعة ، الصناعة والحرف اليدوية ، التجارة) ، ولعل الجانب الأهم هو الزراعة ، ذلك أنها أهم النواحي الاقتصادية وتعمل بها نسبة كبيرة من السكان حيث تتراوح ما بين (٦٠ - ٧٠ %) (٢٧٣) .

ولذلك سوف نركز على الجانب الأبرز وهو الزراعة ونوليها الاهتمام الأكبر في دراستنا هذه .

١ - الزراعة :

تتقسم الأراضي في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة إلى ثلاث مناطق ، حيث يشكل نهر الفرات حداً فاصلاً لهما ، القسم الأول : على يمين النهر ومنه تمتد نحو الجنوب متصلة ببادية الشام وتسمى (الشامية) وتعتبر الأرض المحاذية للنهر على عرض من (٥٠٠ - ٢٠٠٠ م) خصبة جداً أما ما يليها فهي ذات تربة كلسية ضعيفة ^(٢٧٤) .

أما القسم الثاني من الأراضي فيمتد من يسار النهر باتجاه الشمال ويسمى الجزيرة ، وهي أكثر خصوبة من سابقتها (الشامية) ^(٢٧٥) ، هذا وتتميز المنطقة عموماً بأراضيها ذات السهول الواسعة في منطقتي الشامية والجزيرة تتخللها بعض الكتل الجبلية القليلة مثل (جبل البشري ، وسنجر ، وعبد العزيز ، إلخ) .

أما القسم الثالث : فهو وادي الفرات الذي يفصل بين الشامية والجزيرة بعرض يتراوح ما بين (١٠٠ - ١٢ كم) وهي المناطق الأخصب على جانبي النهر ، وهو شريان الحياة الزراعية فلولا نهر الفرات لما استوطن إنسان في المنطقة حيث يمر في أراض اللواء بطول (٣٠٥ كم) ^(٢٧٦) .

أ - نظام ملكية الأراضي الزراعية :

من خلال دراسة سجلات الدفتر الخاقاني لدائرة (الطابو) بمركز لواء الفرات الأوسط والجزيرة أي في دير الزور وتحليل الوثائق الموجودة ، فإننا نلاحظ وجود عدة أنواع من ملكية الأراضي في المنطقة نستطيع أن نوجزها بأنها تتطابق مع الوقائع العامة لنظام ملكية الأراضي في بلاد الشام عامة وهي تنقسم كملكية إلى الأنواع التالية :

274 - الفارس ؛ محمد : دراسة ظاهرة الانجراف الريحي في دير الزور وأثرها في خصوبة الأتربة ، رسالة ماجستير ، بإشراف : محمد خلدون آل دردش ومحي الدين القرواني ، جامعة حلب ، كلية الزراعة الثانية في دير الزور ، غير منشورة ، ١٩٩٩م ، ص ٥ - ٦ ، وانظر : العيساوي ؛ شارل : التاريخ الاقتصادي للهلال الخصيب ، (١٨٠٠ - ١٩١٤ م) ، ترجمة : رؤوف عباس حامد ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط ١ ، ١٩٩٠م ، ص ١١٦ .

275 - موسى ؛ علي : محافظة دير الزور ، ص ٤٠ .

276 - سامي ؛ شمس الدين : قاموس الأعلام ، مج ٤ ، ص ٢٨٤ ، وانظر : الغزي ؛ نهر الذهب ، ص ٤٦١ .

- الأراضي الميري (الأميرية)

وهي الأراضي التي تمتلكها الدولة وتتم حيازتها عن طريق الدولة التي تعطي حق التصرف بها لمن تشاء إذا لم يتم استثمارها ، وإذا رغب المتصرف باسترجاعها فعليه دفع قيمتها وإلا عدت الأرض منحة فتباع علناً^(٢٧٧) .

لقد وجدت في سجلات اللواء عدداً كبيراً من قطع الأراضي التي تشكل مساحات كبيرة من نسبة الأراضي الزراعية في حيازة أهلها بشكل أصولي أو غير رسمي (أي بوضع اليد) ، وتصل نسبة الأراضي الميري في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة إلى نحو ٥٣ % أي النسبة الغالبة^(٢٧٨) .

- الأراضي المملوكة :

وهي الأراضي التي تكون ملكاً صحيحاً لصاحبها بحيث يحق له أن يتصرف بها كما يشاء ويمكنه وقفها أو بيعها أو رهنها إلخ^(٢٧٩) ، وإذا مات صاحب الملك فإنها تنتقل ملكيتها للورثة وتقسم حسب الشريعة وإذا لم يكن هنالك وريث تعود ملكية الأرض إلى الدولة^(٢٨٠) .

- الأراضي الموقوفة :

277 - رافق ؛ عبد الكريم : الفئات الاجتماعية و ملكية الأرض في بلاد الشام في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، مجلة الدراسات التاريخية ، دمشق ، العددان ٣٥ - ٣٦ ، آذار وحزيران ، ١٩٩٠ م ، ص ١١٦ ، وانظر : كرد علي ؛ محمد : خطط الشام ، ٦ أجزاء ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ط ٢ ، ج ٤ ، ص ١٩٣ .

278 - وثائق إدارة الدفتر الخاقاني بمتصرفية دير الزور ، سجل رقم (١) ، ما بين عامي (١٣١٨ - ١٣٢١ هـ) ، وانظر : وثائق إدارة الدفتر الخاقاني بمتصرفية دير الزور ، سجل رقم (٢) ، ما بين عامي (١٣٢١ - ١٣٢٤ هـ) .

279 - المر ؛ عبيس : أحكام الأراضي المتبعة في الأراضي العربية .

280 - حمادة ؛ سعيد : النظام الاقتصادي في سورية ولبنان ، بيروت ، المطبعة الأمريكية ، ط ١ ، ١٩٣٦ م ،

وانظر : وثائق إدارة الدفتر الخاقاني بمتصرفية دير الزور ، سجل رقم (١) ، (١٣١٨ - ١٣٢١ هـ) ، ص ٤٨ .

وانظر : وثائق المحكمة الشرعية بدير الزور ، سجل رقم ١٣٥ ، رقم الوثيقة ٤٢ ، عام (١٩٢٤ م / ١٣٤٢ هـ) ص ٢٦ - ٢٧ .

وهي الأراضي التي أوقفها أهلها في سبيل البر ، ومن خلال دراسة عينة من الوثائق لسجلات المحكمة الشرعية بدير الزور قسبة لواء الفرات والجزيرة والمحكمة الشرعية التي كانت تغطي كل اللواء وتنتظر بدعاويه في المرحلة الأولى لبحثنا وجدنا قلة من الأراضي الموقوفة بشكل عام في المنطقة حتى أنها لا تتجاوز نسبة ٢ - ٣ % من الأراضي المسجلة (٢٨١) ، وأراضي الوقف ثلاثة أنواع هي :

- وقف ذري (أهلي) : أي ما تم وقفه على الأولاد والأحفاد والذرية .
- وقف خيري : ما تم وقفه للجهات الخيرية ، كالمساجد والتكايا والمدارس إلخ .
- وقف مختلط : ويتم بأن يصبح الوقف ذري ثم يتحول وقفاً خيرياً بعد انقراض ذرية الواقف (٢٨٢) .

- الأراضي الموات :

وهي الأراضي الخالية من أي عمران وهي مشاع للجميع (٢٨٣) ، وتشمل الأراضي القاحلة ، والمراعي وغيرها (٢٨٤) ، ويمكن أن تتحول الأرض الموات إلى ملك خاص إذا زرعها أحدهم وأحيائها (٢٨٥) ، ووجدنا في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة مساحات واسعة من هذه الأراضي وقام بعضهم بزراعتها واستثمارها فصارت ملكاً لهم (٢٨٦) .

- الأراضي المتروكة :

281 - وثائق إدارة الدفتر الخاقاني بمتصرفية دير الزور ، سجل رقم (١) ، عام (١٣١٨ - ١٣٢١هـ -) ، وانظر وثائق إدارة الدفتر الخاقاني بمتصرفية دير الزور ، سجل رقم (٢) ، عام (١٣٢١ - ١٣٢٤هـ) .

282 - Lewis (N) : the Frontier of settlement in Syria 1800 - 1950 International Affairs, (London) vol 13, no . January , 1955 . p.79

283 - عوض ؛ عبد العزيز : نظام ملكية الأراضي في بلاد الشام ، ص ٥٤ .

284 - العيساوي ؛ شارل : التاريخ الاقتصادي للهلل الخصيب ، ص ١١٧ .

285 - المر ؛ عبيس : أحكام الأراضي المتبعة في الدولة العربية ، ص ٣٦ .

286 - وثائق إدارة الدفتر الخاقاني بمتصرفية دير الزور ، سجل رقم (٢) ، عام (١٣٢١ - ١٣٢٤هـ -) ، ص ٨٦ .

ونقصد بها الأراضي البور غير الصالحة للاستثمار وبالتالي فإنها لا قيمة لها وعرفت في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة كما في بلاد الشام بـ ((الأرض المشاع))^(٢٨٧) ، وأراضي هذا النوع هي غالباً من أراضي البادية ويعد تملكها غير صحيح وباطلاً^(٢٨٨) .

بعد هذا العرض السريع لنظام ملكية الأراضي في منطقة الفرات والجزيرة لا بد لنا من أن نعرج سريعاً على أسعار الأراضي الزراعية حسب ما كانت المخصوصية لطبيعة كل أرض وخصوبتها وفق الآتي :

- أراضي لا تستقى : متوسط قيمة الدونم الواحد ((٧٥ قرشاً)) .
- أراضي تستقى وهي متوسطة الخصوبة : متوسط قيمة الدونم الواحد ((١٧٥ قرشاً)) .
- أراضي تسقى وهي جيدة الخصوبة : متوسط قيمة الدونم الواحد ((٣٥٠ قرشاً))^(٢٨٩) .

ب- طرق استثمار الأراضي الزراعية :

تعددت طرق استثمار واستغلال الأراضي الزراعية ولكن تتطوي تحت أسلوبين رئيسيين لاستثمار الأراضي الزراعية وهي :

- الاستثمار المباشر: أي الأرض من قبل صاحبها الفلاح وعائلته بشكل مباشر ، وهي الطريقة التي كانت تستخدم في الأراضي المملوكة ذات ملكية المساحات

287 - عوض ؛ عبد العزيز : نظام ملكية الأراضي في بلاد الشام ، ص ٥٤ ، وانظر : وثائق إدارة الدفتر الخاقاني بمتصرفية دير الزور ، سجل رقم (١) ، عام (١٣٤٨ - ١٣٢١هـ) ، ص ١٠٢ .

288 - حنا ؛ عبد الله : القوانين النافذة للزراعة ، مجلة الدراسات التاريخية ، العددان (٤٣ - ٤٤) أيلول وكانون الأول ، دمشق ، ١٩٩٢م ، ص ٢٤٧ .

. 289 - Cuient, (V) : Syrie . Liban et Pelestiene . Paris Leroux 1894

الصغيرة ، والمتوسطة وإلا سوف يضطر صاحبها لاستئجار بعض العمال في مواسم الحصاد إذا كانت مساحة الأرض كبيرة (٢٩٠) .

لقد انتشر هذا النوع من الاستثمار في منطقة الفرات والجزيرة ولكن عانى خلالها الفلاح من تدني المستوى المعيشي فكان يعيش هو وأسرته بحالة سيئة وغالباً ما تراكت عليه الديون (٢٩١) .

- الاستغلال غير المباشر : ويتم الاستغلال غير المباشر للأراضي ذات المساحة الواسعة ، وبالتالي فإن مالكيها لا يستطيع أن يستثمرها بنفسه أو مع عائلته ولذلك لابد من وجود من ينوب عنه في استثمارها ، فوجدت طرق متعددة للاستثمار غير المباشر وهي :

- الإيجار : يتم باتفاق طرفين هما (صاحب الأرض والفلاح) وفق نقاط رئيسية أبرزها مدة الإيجار ، ثمن الإيجار ، نوع المحصول إلخ (٢٩٢) ، على أن يقدم الفلاح دفعة من الإيجار بما يعادل النصف أو الربع سلفاً على أن يتحمل الضرائب والخسارة (٢٩٣) .

ومن خلال دراسة عدداً من سجلات المحاكم الشرعية لمتصرفية الزور وتحليل المعلومات الواردة فيها طول الإيجار لاحظنا أن طريقة الاستئجار هي الأكثر انتشاراً وشيوعاً في منطقة الفرات والجزيرة ، ولم تكن حصراً على الرجال بل حتى النساء شاركن بها (٢٩٤) .

290 - عاشور ؛ عصام : نظام المراجعة في سورية ولبنان وفلسطين ، ترجمة : أنيس فريحة ، بيروت ، مجلة الأبحاث الأمريكية ، ط ١ ، ص ٣٢ .

291 - كرد علي ؛ محمد : خطط الشام ، ج ٤ ، ص ١٩٧ .

292 - حنا ؛ عبد الله : القضية الزراعية والحركات الفلاحية في سورية ولبنان (١٨٢٠ - ١٩٢٠) ، جزئين ، بيروت ، دار الفارابي ، عام ١٩٧٥ م ، ج ١ ، ص ١١٩ .

293 - سعيد ؛ عبد الله : تطور الملكية العقارية في جبل لبنان استناداً إلى وثائق أصلية ، بيروت ، دار المدى ، ط ١ ، ١٩٨٦ م ، ص ١٣٩ ، وانظر : حمادة ؛ سعيد : النظام الاقتصادي في سورية ، ص ٦٠ .

294 - وثائق المحكمة الشرعية في متصرفية دير الزور ، سجل رقم ١٣٥ ، رقم الوثيقة ٤٨ ، عام (١٩٢٤ م / ١٣٤٢ هـ) ، ص ٣٢ .

--طريقة الاستثمار بالمغارة : وهي شراكة بين مالك الأرض (بأرضه) والفلاح الذي يقوم بالمغارة والعناية بها (الفلاحة) ، ويتقاسم الشريكان المحصول حسب النسبة المتفق عليها ^(٢٩٥) ، وقد عرفت هذه الطريقة في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة وخاصة في محاصيل الأشجار المثمرة مثل الرمان ، المشمش ، اللوز ، إلخ ^(٢٩٦) .

- طريقة الاستغلال بالمراوعة : يقدم فيها صاحب الأرض كل ما يتعلق بعملية الزراعة من أرض وأدوات وحيوانات ، وبذار وضرائب أما الفلاح فيدفع ربع أجور عمال الحصاد ، وعند اقتسام المحصول يأخذ المالك ثلاثة أرباع (٣/٤) والربع للفلاح ^(٢٩٧) ، وقد انتشرت في المنطقة هذه الطريقة وخاصة في بادية الجزيرة ومحاصيل القمح والشعير إلخ ^(٢٩٨)

- طريقة الاستثمار بالضمان : أي شراء محصول من أرض كاملاً قبل أن تنضج وهي على الأشجار فيسمى المشتري بـ (الضمان) وهو يتكفل بأجور قطاف المحصول ^(٢٩٩) .

وتبدأ فترة الضمان مع بدء نضج المحصول ، حيث يتم بالاتفاق بين الطرفين على قيمة الضمان فيدفع الضمان قسماً من المبلغ عربوناً عن البيع ^(٣٠٠) ، وتتركز هذه

295 - صياغة ، نايف أحمد : الحياة الاقتصادية في مدينة دمشق (١٨٤٠ - ١٨٥٨ م) رسالة ماجستير بإشراف : عبد الكريم رافق ، جامعة دمشق ، عام ١٩٨٤ م ، ص ٣٤ .

296 - الغنزي : نهر الذهب ، ج ١ ، ص ٤٦٤ .

297 - السباعي ؛ بدر الدين : أضواء على الرأسمال الأجنبي في سورية (١٨٥٠ - ١٩٥٨ م) ، دمشق ، دار الجماهير ، ط ١ ، ص ٢٣١ .

298 - وثائق المحكمة الشرعية في متصرفية دير الزور ، سجل رقم ١٣٥ ، رقم الوثيقة ٤٧ ، عام (١٩٢٤ م / ١٣٤٢ هـ) ، ص ٣٠ .

299 - العظمة ؛ عبد العزيز : مرآة الشام (تاريخ دمشق وأهلها) ، تحقيق نجدة فتحي صفوة ، لندن ، دار رياض الريس للكتب والنشر ، ط ٢ ، ١٩٩٥ م ، ص ١٢٧ .

300 - القاسمي ؛ سعيد : قاموس الصناعات الشامية ، جزئين .

الطريقة في البساتين على أطراف نهر الفرات وروافده من الخابور والبليخ إلخ (٣٠١) .

- طريقة الاستثمار بالمخامسة : ويقدم فيها المالك كلاً من الأرض وسكن الفلاح والضرائب ، في حين يقدم الفلاح البذار والنفقات الأخرى ، ويقسم المحصول بأن يؤخذ منه (١٢,٥ %) والباقي يقسم (٣٠ %) للمالك ، و (٧٠ %) للفلاح ، وبذلك يحصل المالك على خمس المحصول (٣٠٢) ، وكانت معروفة في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة أكثر من غيرها.

١- طريقة المقاطعة : وفيها يستخدم المالك عدداً من الفلاحين مع أسرهم ويؤمن لهم السكن واللباس وما يكفيهم وأسرهم من القمح على أن يخصص لهم راتباً سنوياً مقطوع (٣٠٣).

تعد هذه الطريقة الأكثر شيوعاً في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة ذلك لأن الأراضي واسعة الامتداد في سهول المنطقة وهي تحتاج لأكثر من فلاح فيصعب تحديد النسبة بين كل الأطراف ، واتصفت بضعف الرواتب التي تقدم للفلاح فهي تتراوح ما بين (٢٠٠ - ٢٥٠ قرشاً) سنوياً (٣٠٤).

ج- الأدوات المستخدمة في الزراعة :

تعددت الأدوات المستخدمة في الزراعة ولكن معظمها كانت بدائية تفتقر لأي تقنية تواكب ما كان عليه التطور الزراعي في تلك الفترة ، ولعل أبرز هذه الأدوات هي (الفأس ، والمجرفة ، والمحراث ، والحيلان (أي النورج) ، والمذراة ، والمنجل (٣٠٥)

301 - وثائق المحكمة الشرعية في متصرفية دير الزور ، سجل رقم (١٣٥) ، رقم الوثيقة ٤٦ ، عام (١٩٢٤م / ١٣٤٢هـ) ، ص ٢٩ .

302 - حنا ؛ عبد الله : القضية الزراعية والحركات الفلاحية ، ص ١٢٠ .

303 - العيساوي ؛ شارل : التاريخ الاقتصادي للهلل الخصيب ، ص ١١٨ .

304 - وثائق المحكمة الشرعية في متصرفية دير الزور ، سجل رقم (١٣٥) ، رقم الوثيقة ١٢٧ ، عام (١٩٢٤م / ١٣٤٢هـ) ، ص ٧٩ - ٨٠ .

305 - وثائق المحكمة الشرعية في متصرفية دير الزور ، سجل رقم ١٣٥ ، رقم الوثيقة ٤٥٤ ، عام (١٩٢٥م / ١٣٤٣هـ) ، ص ٢٩٥ .

، والحشاشة ، والمجدوم (أي القدوم) ، والطبان ، والزنبيل ، والمنخل (أي الغربال) ، و إلخ (٣٠٦) .

د- وسائل الري :

تعددت وسائل الري المستخدمة في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة ، وقد وجدت إلى جانب الطرق التقليدية في السقاية والري ثلاث وسائل أخرى لرفع المياه وسقاية المزروعات بواسطتها نتعرف عليها سريعاً :

- الغراف (الدولاب) : وهو عده قطع خشبية مترابطة مع بعضها على شكل دائري تتحرك بالتشابك ما بين المسننات الخشبية الدائرية (العمودية والأفقية) والتي يتعلق عليها أكثر من دلو أو سطل معدني ، ويتم تدوير هذه البكرات بواسطة حيوان (إما ثور أو بغل) ، حيث يوضع الغراف على أطراف النهر أو البهر لسحب المياه وري الأراضي (٣٠٧) ، وقد كان ثمن الغراف حوالي (٧٥ ليرة ذهب عثماني) (٣٠٨) .

- الناعور (الناعورة) : وهي دولاب خشبي يعمل بقوة الماء ليدور ويرفع الماء من النهر بواسطة دلاء أو سطل معدني إلى حوض جانبي ومنه ينتقل عبر أفنية ليسقي الأراضي الزراعية (٣٠٩) .

- الكرد (الجرد) : وهو عبارة عن مجموعة من الأخشاب تنصب على ضفة النهر أو البئر ، وتكون على شكل دولاب يثبت جيداً أو يدار بواسطة بكرة عليها حبل ينتهي بـ (دلو) كبير مصنوع من الجلد أو المطاط وقد كان يدار بواسطة اليد ، ثم صار يسحب من قبل ثور أو بغل (٣١٠) .

306 - وثائق المحكمة الشرعية في متصرفية دير الزور ، سجل رقم ١٣٥ ، رقم الوثيقة ٤٠ ، عام (١٩٢٤م / ١٣٤٢هـ) ، ص ٢٤ .

307 - الجزار ؛ وجيه : سنجق دير الزور ، ص ٢٥ - ٢٦ .

308 - هنري ؛ شارل : عشائر الغنامة في الفرات الأوسط ، ص ١٣٩ .

309 - الجزار ؛ وجيه : سنجق دير الزور ، ص ٢٨ ، وانظر : صليبي ؛ عمر : لواء الزور في العصر العثماني اجتماعياً واقتصادياً ، ص ١٢٥ .

310 - وثائق المحكمة الشرعية في دير الزور ، سجل رقم ١٣٥ ، رقم الوثيقة ٣٥١ ، عام (١٩٢٥م / ١٣٤٣هـ) ، ص ٢٣٤ ، وانظر : هنري ؛ شارل : عشائر الغنامة في الفرات الأوسط ، ص ١٣٥ .

كانت هذه الوسائل هي أهم الوسائل التي يعتمد عليها في سقاية الأراضي الزراعية بمنطقة الفرات الأوسط والجزيرة السورية حيث كانت تسقي الأراضي الزراعية القريبة من النهر بمسافة تتراوح من (٥٠ - ٤٠٠ م) عن السرير النهري ، لكن بعد ظهور المضخات الميكانيكية صار يستفاد من زراعة الأراضي التي تبعد أكثر من ذلك .

مضخات الماء الميكانيكية : بدأت بالظهور والانتشار في المنطقة خلال عقد العشرينات من القرن العشرين أي خلال فترة الانتداب الفرنسي على سوريا ، وكانت تستخدم لأكثر من غاية وليس للري فقط ، مثل طحن الحبوب و صناعة الثلج وكانت تتفاوت في قوتها من ماكينة لأخرى ، فأضعفها قوة كانت تقدر بـ ١٨ حصان وأعلاها قوة تصل إلى ٦٤ حصان ، بعضها يعمل على الفحم ، و بعضها يعمل على الديزل (المازوت) وبعضها الآخر يعمل بالكاز .

أدى ظهور هذه المضخات الميكانيكية إلى الاعتماد عليها تدريجياً وزاد في انتشارها مما أضعف دور وسائل الري التقليدية السابقة ، وقد بلغت أعداد تلك المضخات مع نهاية فترة الاحتلال الفرنسي قرابة ٤٠ مضخة موزعة في مختلف مناطق الفرات الأوسط والجزيرة السورية متوزعة في غالبيتها على نهر الفرات والباقي موزعة على أنهار الخابور والبليخ^{٣١١}.

هـ - المحاصيل الزراعية :

تُعد منطقة الفرات الأوسط والجزيرة مكاناً ملائماً لزراعة أنواع عديدة من المزروعات نتيجة لتوفر الأراضي لزراعية والتربة المناسبة والمناخ، ولذلك فإننا نستطيع أن نقسم المحاصيل الزراعية في المنطقة إلى شتوية وصيفية .

ولعل أهم المحاصيل الصيفية هي القطن والذرة والسمسم والخضراوات كالبندورة والخيار والفتاء والفاصولياء والبامياء واللوبياء والبطيخ بنوعيه إلخ (٣١٢) .

311 - الجزائر ؛ وجيه : سنجق دير الزور ، ص ٣٥ - ٣٦

312 - موسى ؛ علي : محافظة دير الزور ، ص ٢١٩ .

أما أهم المحاصيل الشتوية فهي القمح والشعير والخضراوات الشتوية كالفول الأخضر والخس والبازلاء والسبانخ والسلق واللفت والبطاطا الربيعية والثوم و إلخ .

إضافة إلى وجود أنواع كثيرة من الأشجار المثمرة التي تتلائم مع مناخ المنطقة كالرمان والتين واللوز المشمش والتوت والتفاح والكرمة والنخيل والسفرجل و إلخ (٣١٣) .

الصناعة والثروات الباطنية :

للحديث عن جانب الصناعة والثروات الباطنية فإننا نستطيع القول بأنه خلال فترة بحثنا لم تشهد منطقة الفرات الأوسط والجزيرة بل حتى المنطقة عامة في بلاد الشام ، نهضة صناعية كذلك التي كانت في أوربا ، وإنما هي في الواقع مجموعة من الحرف اليدوية مع دخول صناعات خفيفة ، ولذلك سنخرج سريعاً عليها مع التطرق في الحديث للثروات الباطنية ومواد الخام التي عرفت في المنطقة آنذاك .

i. الثروات الباطنية والمعدنية :

كانت الثروات الباطنية والمعدنية تتوزع في مناطق متعددة وأماكن متفرقة من اللواء، مما ساعد على استثمار ما عرف منها، وذلك لتوزع السكان، وبالتالي توفر اليد العاملة فيها، وأهم الثروات في دير الزور:

معدن المغرة :

لونه أحمر ويكون على شكل تراب أحمر، كان يستفاد منه في اللواء من قبل أبناء الريف والبادية، وذلك لأنهم يستخدمونه في وشم الدواب من أجل تمييزها^(٣١٤)، وبخاصة في صباغ قطعان الأغنام، هذا وقد كان يتوفر هذا المعدن في بادية الشام، وتحديداً في جبل البشري^(٣١٥)، حيث يستفيد منه سكان المنطقة ببيعه في أسواق دير الزور.

الكبريت :

وهو أحد المعادن الهامة التي كانت تدر على دير الزور، وراتات وأرباحاً جيدة، وقد كان موجوداً في أنحاء عدة من أراضي اللواء وبخاصة في المناطق التي تتوفر فيها عيون الماء الكبريتية، مثل السخنة، ورأس العين، وهي الأهم^(٣١٦)، وقد كانت الدولة

(٣١٤) الغزي: نهر الذهب، ص ٤٦٢.

(٣١٥) الجزار ؛ وجيه: سنجق دير الزور، ص ١٨.

(٣١٦) الغزي: نهر الذهب، ص ٤٦٢.

العثمانية تقوم باستثماره عن طريق الالتزام، ويصل إلزامه بنحو " ٨٠,٠٠٠ قرشاً^(٣١٧)، ولذلك يعدّ مصدراً هاماً لواردات دير الزور^(٣١٨).

البوتاس:

وكان يستخرج من بين حشائش بادية الشام، وخاصة في المنطقة الممتدة ما بين السُّخنة وتدمر، واستفاد منه سكان تلك المنطقة بشكل جيد، وذلك لأنهم يقومون باستخراجه ومن ثم يرسلونه إلى أورفة وحلب كي يباع هناك، فهو يستخدم في صناعة الصابون^(٣١٩)، وبهذا يحصلون على مكاسب تكفيهم لسد احتياجاتهم.

الصوديوم:

أحد المعادن الهامة التي كانت تدخل واردات مالية جيدة إلى دير الزور، واللواء عامة، ويستعمل كمادة رئيسة في تصنيع البارود، حيث يغلى التراب الذي يوجد فيه الصوديوم بالماء، ثم تتم تصفيته، وبعد ذلك يفت ويخلط مع فحم الغرب والصفصاف ليصبح باروداً، فيستفيد منه الأهالي باستعماله كبارود للصيد، أو استخدامه في بنادقهم للدفاع عن أنفسهم، وكذلك يمكن استعماله كسماد كيماوي^(٣٢٠).

أما أشهر المناطق التي يوجد فيها الصوديوم من أراضي اللواء فهي البصيرة، الصور، الشدادي، القصبي، وهي الأكثر شهرة بذلك حتى عرفت من خلال شهرتها بالبارود باسم " بارود القصبي "^(٣٢١).

الكلس:

(٣١٧) كان يصل إلى دير الزور بعضٌ من التجار للحصول على التزام الكبريت، وذلك لما يدره من أرباح هامة، فقد كانت تستخرج من الينابيع الكبريتية الحارة وخاصة في رأس العين، وتدمر، والسُّخنة، التي يعتقد بأن اسمها قد استمد من وجود الينابيع الحارة فيها. الجزار؛ وجيه: سنجق دير الزور، ص ١٨. وانظر: بلنت ؛ آن: قبائل بدو الفرات، ص ٣٠٧.

(٣١٨) الجزار؛ وجيه: سنجق دير الزور، ص ١٨.

(٣١٩) العيساوي ؛ شارل: التاريخ الاقتصادي للهِلال الخصيب، ص ١١٦.

(٣٢٠) الجزار؛ وجيه: سنجق دير الزور، ص ١٨.

(٣٢١) الغزي: نهر الذهب، ص ٤٦٢.

إحدى المواد الهامة التي كانت تدخل في تصنيع السكر وفي حفظ بعض المواد الغذائية كالمخللات، ويحضر الكلس في البصيرة التي وجد بها مكلسة واحدة تعمل بقوة الاحتراق حيث تشعل بوساطة شجر الطرفة^(٣٢٢)، وقد عرفت هذه المكلسة باسم " نامورة البصيرة "، وقد كان يخرج الكلس منها في مدة شهر، ويحتاج للحرق بمدة أسبوع، في حين بلغ إنتاج المكلسة نحو " ٢٦,٠٠٠ كغ " في كل مرة، أما متوسط إنتاجها السنوي فيبلغ نحو " ٣٠٠,٠٠٠ كغ " سنوياً^(٣٢٣)، أما حجارته فتجلب من مناطق متعددة في اللواء الذي تكثر في أرضه تجمعات للصخور الكلسية.

- القير (الزفت) :

يوجد في جبل البشري، والذي تتخلله وديان عديدة في هذا الجبل، وأشهرها وأعظمها " وادي القير"^(٣٢٤) حيث يتقاطر منه القير على جانبيه فيؤخذ وينقل إلى دير الزور^(٣٢٥)، وكان يستفاد منه في أشياء كثيرة مثل طلاء أسقف المنازل، ودهن الأسطح من الجهة الخارجية، وذلك لسد الثقوب والتشققات التي كانت تحدث في البيوت وخاصة القديمة منها، لأنه مادة لزجة تتغلغل في الفجوات فتساعد على راب التصدعات، وكذلك استخدم في رش بعض الطرقات واستخدم لطلاء الأحواض الخشبية وغيرها.

أما أهم الفترات التي ينتج فيها خلال السنة فهي في فصل الصيف حيث تشتد الحرارة فيذيب القير الموجود في أودية جبل البشري، ويبدأ بالتقاطر والسيلان على جوانبه^(٣٢٦).

(٣٢٢) كانت توجد في متصرفية دير الزور غابات من أشجار الطرفة على نهر الخابور، وبعض منها على ضفتي نهر الفرات. انظر: بلنت ؛ آن: قبائل بدو الفرات، ص ٩٥.

(٣٢٣) الجزار؛ وجيه: سنجق دير الزور، ص ١٨.

(٣٢٤) الغزي: نهر الذهب، ص ٤٦٢.

(٣٢٥) موسى ؛ علي: محافظة دير الزور، ص ١٩٣.

(٣٢٦) الجزار؛ وجيه: سنجق دير الزور، ص ١٨.

- الملح :

تعدّ أراضي اللواء أشهر مناطق لاستخراج الملح، وأكثر الثروات الباطنية التي كانت تشتهر بها ^(٣٢٧)، فهو يغطي النسبة الأكبر من الإنتاج بين مختلف ولايات ومصرفيات بلاد الشام، وأهم أماكن استخراجه التي وجد فيها منطقة التنبني ^(٣٢٨)، ويتوضع عند نهاية سير نهر الفرات في أراضي اللواء على بعد ٣-٦ كم على كل جانب منه في باديتي الشام والجزيرة، على شكل سبخات يكون فيها الملح ظاهراً على السطح الخارجي للتربة فتدعى ملاحات أو بوارات وأهمها بوارة الطويلة، والكشمة ^(٣٢٩).

- الفحم :

إحدى الثروات الباطنية التي كانت موجودة في دير الزور، وقد وجدت في منطقتين من أراضي اللواء، وتحديداً في جبل البشري، وأبو فياض ^(٣٣٠)، ولكن لم يكن بذلك الإنتاج الكبير، بل يتم استخراجه بكميات بسيطة تكفي الحاجة المحلية.

- الجص (الجبصين) :

كان يدخل الجص كإحدى المواد الرئيسة في البناء بدير الزور، والتي يكثر في أراضيها مثل هذا النوع من الأتربة والأحجار الجصية، وبخاصة في منطقة البادية سواء الشامية أو الجزيرة، وأيضاً على أطراف وادي الفرات في المناطق المنخفضة منه، حيث تصل إليها بعض الأتربة الجصية محمولة بفعل الفيضانات التي تجرها إلى الأراضي المنخفضة على أطراف النهر، لتتوضع فيه بعد انحسار المياه فتشكل طبقة قاسية من الجص ^(٣٣١). وقد كان يجمع بكميات كبيرة ويصنع في " النوامير " التي كانت ولا تزال تتوضع في أطراف دير الزور وتحديداً بالجهة الجنوبية منها.

النحاس :

(٣٢٧) موسى ؛ علي: محافظة دير الزور، ص ١٩١.

(٣٢٨) شوحان ؛ أحمد: تاريخ دير الزور، ص ١٥٧.

(٣٢٩) موسى ؛ علي: محافظة دير الزور، ص ١٩٥ - ١٩٦.

(٣٣٠) الغزي: نهر الذهب، ص ٤٦٢.

(٣٣١) الجزار؛ وجيه: سنجد دير الزور، ص ١٩.

وجد في أراضي اللواء معدن النحاس والذي يدخل في تصنيع العديد من الأدوات المنزلية والزراعية في منطقة الفرات والجزيرة ، وكان يتوفر كمادة خام في إحدى المناطق التابعة لدير الزور، وتحديداً على الطريق إلى الموصل قرب منطقة الصور (٣٣٢). لقد أراد بعض الحرفيين من الصناع في دير الزور الاستفادة منه والقيام بتصنيعه فأخذوا عينات منه لتصفيته فأخفقوا وفشلوا في ذلك (٣٣٣)، فظلّ يباع كمادة خام وهذا يعود بواردات مالية أقل، ولو أنهم نجحوا في تصفيته وتصنيعه لعاد عليهم بفائدة أكبر.

هذه هي أهم الثروات الباطنية والمعدنية التي كانت موجودة في منطقة الفرات والجزيرة ، ودخلت في إطار وارداتها المالية وتجارتها وصناعاتها، فمنها ما استفادوا منه بشكل جيد، وأنواع أخرى لم يحققوا فيها النجاح، أما ما نجحوا في استثماره فقد استغله الحرفيون من الصناع، ولهذا لا بد لنا من التعرف على تلك الصناعة.

لقد توزعت الثروات الباطنية والمعدنية في مناطق متعددة ومتفرقة في الفرات الأوسط والجزيرة وقد ساعد توزع السكان وتوفر اليد العاملة على استثمار تلك الثروات .

ب - الصناعة والحرف التقليدية :

عرفت منطقة الفرات والجزيرة العديد من الحرف التقليدية والمهن اليدوية مع قلة من بعض الصناعات الخفيفة نذكرها سريعاً وفق أنواعها :

أ- الصناعات النسيجية : (الغزل) وقد كانت تتم على يد نساء متخصصات ، والثاني (النسيج) وله أنواع متعددة كنسيج البسط ، والسجاد ، والحصران ، وخيام الوبر ، والعباءات ، والمناديل إلخ .

- الصناعات الجلدية : وقد اشتهرت بعض مناطق الفرات والجزيرة بصناعاتها الجلدية وعلى رأسها دير الزور ، وقد تنوعت الصناعات الجلدية ولعل أهمها هي

(٣٣٢) الغزي: نهر الذهب، ص ٤٦٢ .

(٣٣٣) الجزار؛ وجيه: سنجق دير الزور، ص ١٨ .

صناعة الأحذية والنعال ، والسروج ودلاء الماء ، وعباءات الفراء (الفروا) إلخ (٣٣٤) .

- الصناعات الغذائية : وهي ترتبط بالحاجة الاستهلاكية في المنطقة وأهمها صناعة الألبان ومشتقاتها كالجبن واللبن الرائب والسمن والزبدة ، وكذلك صناعة الخبز والمعجنات ، والحلويات ، وطحن الحبوب ، وعصر الزيوت وخاصة زيت السمسم إلخ (٣٣٥) .

- الصناعات المنزلية والحرف اليدوية : متعددة وهي تلبي حاجة السوق المحلية في كل مكان من منطقة الفرات والجزيرة ضمن مراكز الأقضية خاصة ؛ ولعل أبرزها هي النجارة ، والحدادة ، والنحاسية ، إضافة إلى حرفة أخرى كثيرة مثل القصابة (الجزيرة) ، والعطارة ، والحجارون (البناؤون) ، وصناع الفخار (٣٣٦) ، والصياغة ، والخياطة ، والحلاقة ، والسكرة ، والتجيد ، وتصنيع الأسلحة الحادة (كالكساكين ، والخنجر ، والسيوف) ، وتصنيع الشباك للصيد ، وغيرها (٣٣٧) . كما قامت مجموعة من التجار بدير الزور بإدخال وتمديد شبكة الكهرباء لأول مرة في منطقة الفرات والجزيرة في مدينة دير الزور فقط حيث أسسوا (شركة الفرات للكهرباء والمشاريع العامة) فكانت هي الشركة الوحيدة ذات الامتياز في كل المنطقة ، وكان ذلك في عام ١٩٣٧م (٣٣٨) .

334 - نخبة من الباحثين : دير الزور ماض عريق وحاضر مشرق ، ص ٥٣١ .

335 - الغزي : نهر الذهب ، ج ١ ، ص ٤٦٦ .

336 - اشتهرت منطقة البصرة (قرقيسيا) بصناعة الفخار أكثر مناطق الفرات الأوسط والجزيرة ، حيث موقعها المتوسط عند مصب الخابور في الفرات على بعد ٣٥ كم عن دير الزور ، وذلك لترتبتها الغضارية ، حيث كانت معظم الأواني الفخارية المنزلية من إنتاجها ، انظر : عياش ؛ عبد القادر : الآنية والمواعين في دير الزور ، دير الزور ، مطبعة السليمية ، ط ١ ، ١٩٦٥م ، ص ٤٨ ، وانظر عياش ؛ عبد القادر : قرقيسيا قاعدة وادي الفرات ، دير لزورو ، مطبعة الفرات ، ط ١ ، ١٩٧٢م ، ص ١٤ - ٢٧ .

337 - بلنت ، آن : قبائل بدو الفرات ، ص ٨٥ - ٩١ - ٣٥٤ ، وانظر : زكريا ؛ أحمد وصفي : ذكرياتي عن وادي الفرات ، تحقيق : عبد القادر عياش ، دير الزور ، مطبعة الفرات ، ط ١ ، ١٩٦٨م ، ص ٤٨ .

338 - عياش ؛ عبد القادر : حضارة وادي الفرات ، ص ١٥٦ .

٣- التجارة :

لقد تنوعت التجارة في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة ما بين تجارة داخلية أو خارجية ، ولعبت الصادرات والواردات دوراً هاماً في القوام الرئيسي لتلك التجارة ولذلك سنتعرف عليها بشكل موجز بما يغطي متطلبات دراسة البحث عامة .

١. التجارة الداخلية :

ونقصد بها تلك التجارة التي كانت تتم ما بين مدن وأرياف وأقضية ونواحي وبادية منطقة الفرات والجزيرة فيما بين بعضها البعض معتمدة على منتجاتها المحلية .

ولعل الحركة الأهم في هذه التجارة هي ما يقوم به أبناء الأرياف والبادية من تسويق لمنتجاتهم في مراكز المدن ، ومنها يتسوقون كل ما يحتاجونه في حياتهم اليومية من لباس وغذاء وأدوات إلخ (٣٣٩) .

وتُعد مدينة دير الزور أهم المراكز التجارية في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة حيث كانت قصبة هذا اللواء وأكبر مراكز الحضرية إضافة إلى موقعها المتوسط ما بين الشامية والجزيرة في اللواء فكانت تعتبر السوق المركزية في المنطقة (٣٤٠) .

٢. التجارة الخارجية :

التجارة تتم ما بين مناطق الفرات الأوسط والجزيرة مع المناطق المجاورة لها من جهة ، أو دول ومناطق غير قريبة منها من جهة أخرى .

ولعل أهم المناطق التي كانت على علاقة تجارية من مناطق ومدن الفرات والجزيرة خلال فترة بحثنا هي : ولاية بغداد ، وحلب ، والموصل ، وبيهره جيک ، وماردين ، وأورفه إلخ ، ونتيجة لتعدد وتنوع تلك الأقاليم فقد تعددت وتنوعت

339 - موسى ؛ علي : محافظة دير الزور ، ص ٢٦٣ .

117 - 115 P. : DEYR – AL – ZOR , 1851 – 1921, (J) HANNOUER - 340 .

طرق التجارة ووسائلها والتي كانت تتم إما عن طريق البر بواسطة العربات والخيول أو السيارات أو عن طريق النهر بواسطة القوارب النهرية (٣٤١) .

وقد تعرضت التجارة الخارجية في أواخر القرن (١٩) التاسع عشر إلى حالة من عدم الاستقرار لأسباب كثيرة أبرزها غارات البدو ، ومنافسة البضائع الأجنبية ، ولكن نشطت في بداية القرن العشرين ونشطت بشكل خاص مع قصبة هذا اللواء (دير الزور) (٣٤٢) ، بل وكان لتلك التجارة وطرقها دوراً في ظهور بعض القرى والبلدات لتخدم هذه الطرق التجارية كما حصل في نشوء الحسكة (٣٤٣) .

٣. النقود المتداولة :

تعد النقود روح التجارة وأساسها ، فمن خلالها تتم التجارة سواء الداخلية أو الخارجية ، ومن خلالها يضبط الحساب التجاري وهي عصب السوق التجارية ومحركه .

لقد تنوعت النقود المتداولة في أسواق الفرات والجزيرة ، حيث عمت الفوضى النقدية داخل أسواقها واستعملت عملة محلية وأخرى أجنبية ومنها ما هي ذهبية أو فضية وأخرى ورقية دخلت بعد الاحتلال الفرنسي ، إضافة إلى استمرار بعض القطع النقدية العثمانية في التداول داخل أسواق المنطقة حتى في الفترة الفرنسية فقد استعملت الليرة الذهبية بأنواعها الإنكليزية ، والفرنسية ، والعثمانية (٣٤٤) ، كذلك استخدم الريال

3 - 2 : MUSIL (A) : the MEDDLE EUPHRATES , P. 2 - 341 ، وانظر وثائق المحكمة

الشرعية بحلب ، سجل رقم ٣٠٩ ، رقم الوثيقة ٩ ، عام (١٨٧٨ م / ١٢٩٦ هـ) ، ص ٥ .

342 - سامي ؛ شمس الدين : قاموس الأعلام ، مج ٤ ، ص ٢٤٢٨ .

116 - 117 : HANNOUER (J) : DEYR AL ZOR , 1851 - 1921 , P. 343 ، وانظر وثائق

المحكمة الشرعية بحلب ، سجل رقم ٦٤ ، [د . ر . و] ، عام (١٨٦٤ م / ١٢٨٣ هـ) ، ص ١٠ - ١٦ .

344 - وثائق المحكمة الشرعية في متصرفية دير الزور ، سجل رقم ١٣٥ ، رقم الوثيقة ٩ ، عام (

١٩٢٤ م / ١٣٤٢ هـ) ، ص ٤ ، وانظر : الشهابي ؛ قتيبة : نقود الشام دراسة تاريخية للعملة ، دمشق

، منشورات وزارة الثقافة ، ط ١ ، عام ٢٠٠٠ م ، ص ١٧١ - ١٧٤ .

المجيدي الفضي العثماني ، وكذلك استخدمت القروش بمختلف أنواعها والممتلك والبشاك والبارة (٣٤٥) ، ومختلف أنواع النقود الورقية من الليرة إلى القرش (٣٤٦) .

٤. الصادرات والواردات :

لقد تنوعت البضائع التي كانت تصل إلى منطقة الفرات الأوسط والجزيرة كواردات إضافة إلى ما كان يصدر منها ، ولذلك نذكر سريعاً أهم تلك البضائع .

ولعل أبرز صادرات المنطقة هي الأجبان والسمن والزبدة ، والصوف ، والمواشي ، وخاصة تجارة الخيول العربية الأصيلة (٣٤٧) والجمال ، والقمح والشعير والسمن ، والكمون ، والكبريت ، والقيز ، والصوديوم ، والذرة ، والقطن ، ودبس الرمان ، والأحذية الجلدية إلخ (٣٤٨) .

أما أهم الواردات التي تصل إلى المنطقة فهي متنوعة ولكن أبرزها مختلف أنواع البضائع المصنعة والسكر ، والرز ، والبن ، والشاي ، والزيوت (للطعام) ، والأصبغة ، والطرايش ، والأقمشة ، والعصابات ، والعباءات ، والزيوت وقمر الدين إلخ (٣٤٩) .

345 - عامر ؛ محمود : المكايل والأوزان والنقود منذ فجر الإسلام وحتى العهد العثماني دراسة وثائقية ، دمشق مطبعة ابن حيان ، ط ١ ، ١٩٩٧م ، ص ١٨٤ - ١٩٠ .

346 - وثائق المحكمة الشرعية في متصرفية دير الزور ، سجل رقم ١٣٧ ، رقم الوثيقة ٥٣٨ ، عام (١٩٢٥م / ١٣٤٣هـ) ، ص ٣٤٧ ، للمزيد انظر : حكمت ؛ عبد الرحمن : النقود العثمانية في سورية ، رسالة ماجستير بإشراف : محمود عامر ، جامعة دمشق ، عام ٢٠٠٠م ، غير منشورة .

* تعددت أنواع الخيول العربية الأصيلة في المنطقة وأهمها : (الصقلاوي ، والسعدة ، العبيان ، الجفلة إلخ) وكانت دير الزور أهم سوق للخيول الأصيلة في الشرق فيقصدتها تجار من حلب ، ودمشق ، والعراق ، وتساق خيولها إلى أوروبا والهند ومصر ، انظر :

347 - بلنت ؛ آن : قبائل بدو الفرات ، ص ١٠١ - ١١٠ - ٢٦٥ ، وانظر : وثيقة عثمانية ، رسالة صادرة من الشيخ فارس بن صفوك شيخ عشيرة شمر إلى السيد موسى كاظم بك ، صادرة في عام (١٨٩٨م / ١٣١٦هـ) ، يوضح فيها الخلاف مع عشائر الفدعان والسبعة حول ملكية بعض الخيول الأصيلة ، كالهديان ، والكحيلة ، من الوثائق الشخصية لآل عصمان بك .

348 - الغزي : نهر الذهب ، ج ١ ، ص ٤٦٨ .

349 - الجزار ؛ وجيه : سنجد دير الزور ، ص ٣٤ .

هذا وقد كانت تتم العمليات التجارية من بيع أو تبادل سلع أو عقد صفقات تجارية في أسواق مدن الفرات والجزيرة وخاصة دير الزور ، ويتم هذا داخل الأسواق المحلية أو في الخانات والتي شهدت نشاطاً ملحوظاً آنذاك كما في مختلف مناطق بلاد الشام (٣٥٠)

ثانياً : الحياة الاجتماعية في منطقة
الفرات الأوسط والجزيرة
(١٩٠٩م / ١٣٢٧هـ - ١٩٤٦م / ١٣٦٥هـ) :

١- تمهيد :

تتمتع منطقة الفرات الأوسط والجزيرة بامتداد جغرافي واسع كبير تنوعت فيه طبيعتها ما بين سهل وجبل وأودية وبادية إلخ ، ويعد نهر الفرات ودجلة وعدد من روافد الفرات الهامة كالخابور والساجور والبليخ، شرايين الحياة فيها.

كان للطبيعة دور هام في التوزيع السكاني فنلاحظ بأن التجمع السكاني الأكبر كان على ضفاف الأنهار في حين تكاد أ، تنعدم الكثافة السكانية في معظم أنحاء البادية (الشامية والجزيرة) إلا بشكل متفرق ، ولذلك فقد تنوعت الفئات البشرية في هذه المنطقة ما بين حضر وفلاحون وبدو إضافة إلى تعدد الفئات الدينية والاجتماعية ، ولذلك يجدر بنا أن نقدم دراسة واضحة عن الواقع الديموغرافي الذي انعكس بشكل أو بآخر على الحياة الاقتصادية والاجتماعية في تلك المنطقة من بلاد الشام (الفرات الأوسط والجزيرة).

١- السكان دراسة ديموغرافية :

لقد اهتمت الدولة العثمانية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر بعملية إحصاء السكان في الولايات والمتصرفيات التابعة لها، وكذلك الأمر بالنسبة لحكومة الاحتلال الفرنسي التي حاولت تقديم إحصاء لمنطقة الفرات الأوسط والجزيرة ليس فحسب بل لسورية كاملة، إلا أن هذه المحاولات لم تكن بالأمر السهل وذلك لوجود صعوبات وعوائق عديدة، ولعل أهم تلك الأسباب هي امتناع معظم أهالي منطقة الفرات الأوسط والجزيرة عن تسجيل نفوسهم وأسماءهم في سجلات النفوس بغية التخلص عن دفع الضرائب والرسوم التي كانت تفرض على النفوس، إضافة إلى جهلهم من تسجيل بناتهم في النفوس معتبرين ذكر أسم الأنثى عاراً عليهم، إضافة إلى الوضع الاقتصادي المتردي وحركة الهجرات المتزايدة وتعداد الوفيات والولادات وفروقتها و الامتداد الجغرافي والمناطق الوعرة الصعبة الوصول مثل البادية..

كل تلك الأسباب كان مقومات أمام عمليات إحصاء النفوس في منطقة الفرات و الجزيرة.

إن أول إحصاء رسمي جرى للمنطقة من قبل الدولة العثمانية عام (١٨٦٩م/١٢٨٨هـ) وبلغ في تعداد السكان في منطقة الفرات والجزيرة نحو ما يقارب (٨٦٧ و ٢٢) ألف نسمة في حين بلغ عدد البيوتات المسجلة حوالي (٩٠١٢٤) ألف بيت في حين بلغ عدد السكان في المنطقة في عام (١٨٩٤م/١٣١١هـ) حوالي (١٠٠٠٠٠٠) مائة ألف نسمة، وهذا يدل على تضخم سكان واضح نستنتج منه أن نسبة الزيادة بلغت حوالي خمسة وعشرين بالآلاف وهي نسبة عالية جداً، في حين آخر إحصاء أجراه العثمانيون لتعداد سكان اللواء في عام (١٩١٠م/١٣٢٨هـ) نحو ما يقارب (٤٥٠٩٠٠) نسمة).

أما خلال فترة الاحتلال الفرنسي فقد أجري إحصائيات تقديرات الأول في عام (١٩٢٠م/١٣٣٩هـ) نحو ما يقارب (١٧٨٠٣٠٠) نسمة)، أما الإحصاء الثاني فقد أرجى فور انتهاء الاحتلال الفرنسي من قبل الحكومات العربية السورية في عام (١٩٤٦م/١٣٦٥هـ) وبلغ فيه تعداد سكان منطقة الفرات الأوسط والجزيرة السفلي فقط نحو ما يقارب (٢٢١٠٠٠) نسمة) وقد أجري هذا الإحصاء على المنطقة دون محافظة الحسكة التي انفصلت قبل هذا التاريخ.

وبتحليل الأرقام الإحصائية التي سبقت وفقت تطور مراحلها الزمنية ونسبها بالنسبة للسنوات نستنتج أنها كانت ترتفع بين الحين والآخر لتصل في بعض الأحيان نحو ثمانية وأربعين بالآلاف وفي أدنى مستوياتها وصلت إلى ٣٠٠٠٠٦ بالآلاف أما النسبة الغالبة عليها فكانت نحو أربع وأربعين بالآلاف و هذا إن دل على شيء فهو مؤشر نسبة الخصوبة العالية في التزايد السكاني وهي نسبة عالية جداً بالنسبة لمعدلات النمو الوسطية المتعارف عليها في المجتمعات البشرية، حيث تنوعت فيها القوميات فكانت الغالبية هم من العرب وقلة من قوميات متنوعة كالارمن و الأكراد، والجركس، والأتراك، والفقاقص... الخ.

أ - تقسيم السكان حسب دياناتهم :

المسلمون :

يشكل المسلمون الغالبية الكبرى من نسبة السكان في المنطقة وتتعدد مذاهبهم ولكن المذهبيين الأكثر انتشاراً في الفرات الأوسط والجزيرة كانا أصحاب المذهب الشافعي والحنفي ، والكفة بينهما كانت راجحة في الأكثرية لأصحاب المذهب الحنفي ويعود ذلك لتأثيرات واضحة في عهد الدولة العثمانية خاصة وأنه المذهب الرسمي والذي شاع غالباً في محكمة متصرفية الزور خلال العهد العثماني (٣٥١) .

أما بالنسبة لباقي المذاهب الإسلامية فإنه وجدت أقليات من المذاهب الإسلامية الأخرى كالمذهب المالكي أو الحنبلي أو إلخ ، ومع ذلك فهي قليلة جداً .

لقد ظهر لنا واضحاً النسبة الكبيرة للمسلمين السكان وخاصة خلال مرحلة السنوات الأولى المتعلقة بفترة بحثنا هذا حتى أنهم كانوا يشكلون الغالبية العظمى حتى أن نسبتهم بلغت حسب الإحصاء الرسمي في سجلات الدولة العثمانية عام (١٩١٠م / ١٣٢٨هـ) (٣٥٢) نحو ما يزيد عن ٩٨% وهذا يدل على أنهم الأغلبية العظمى .

ولاحظ أنه بدأت تزداد أعداد بعض أصحاب الديانات الأخرى بشكل تدريجي وخاصة خلال سنوات العقد الأخير من الاحتلال العثماني وتحديداً من المسيحيين واليهود ولكن وخاصة المسيحيين منهم .

- المسيحيون : وهم قلة مقسومون إلى فئتين رئيسيتين ، فئة هم في الأصل من أبناء المنطقة وفئة من المسيحيين الذين وصلوا مهاجرين إلى منطقة الفرات الأوسط والجزيرة ، ولذلك سوف نعرض سريعاً على تقديم الفئتين .

351 - غراييه ؛ عبد الكريم : سورية في القرن التاسع عشر ، دمشق ، [د . ن] ، ١٩٨٤م ، ص ١١٠ ، وانظر : وثائق المحاكم الشرعية في دير الزور ، سجل رقم : ١٣٧ ، عام (١٩٢٤م / ١٣٤٢هـ) ، وسجل رقم ٣٨ ، عام (١٩٢٦م / ١٣٤٤هـ) .

352 - سامي ؛ شمس الدين : قاموس الأعلام ، مج ٤ ، ص ٢٤٢٧ .

• المسيحيون من أبناء الفرات الأوسط والجزيرة ، ويعرفون بالسريان أو الكلدان وهم في الأصل من جماعة مسيحيي الشام والعراق ويشكلون أقلية في المنطقة ، ويعرفون بتسمية محلية هي (الآشوريين أو القصوران) وتحديداً في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة السورية أما في العراق فقد عرفوا باسم (الكلدان) وهي التسمية الرسمية لهم في سجلات الدولة العثمانية (٣٥٣).

إن الغالبية الأكبر من هؤلاء كانوا يتركزون في مناطق رأس العين أو الحسكة أو دير الزور والرقعة وفي أرياف تلك المناطق ، أما بالنسبة لتعدادهم بين فئات المسيحيين الأخرى فقد كانوا النسبة الأكبر بين مسيحيي المنطقة ، ولكن بعد وصول موجات هجرات الأرمن أصبحوا يساوونهم في التعداد خلال فترة بحثنا هذا وخاصة منذ عام (١٩١٥ م / ١٣٣٣ هـ) وما بعد نتيجة للسوقيات (الهجرات القسرية) التي وصلت للمنطقة على يد العثمانيين .

• المسيحيون المهاجرون الذين وفدوا إلى المنطقة من الأرمن كما ذكرنا نتيجة للهجرات الجماعية القسرية التي تعرضوا لها في أواخر عهد الدولة العثمانية منذ عام (١٨٦٧ م / ١٢٨٤ هـ) أما أكبر تلك السوقيات تعداداً وتأثيراً في عام (١٩١٥ م / ١٣٣٣ هـ) وقد كان لأبناء متصرفية دير الزور موقف بطولي في مكان مرت فيه السوقيات ضمن أراضي المتصرفية ونخص بالذكر منطقتي دير الزور ومركده (٣٥٤) .

353 - السريان : جماعة من مسيحيي العراق والشام ، تكلموا اللغة السريانية قبل انتشار العربية في المنطقة الشمالية من العراق والشمال الشرقي من سورية أما تسمية الآشوريين والكلدان في العراق أطلقت على أبناء هذه الفئة الموجودة في دير الزور ، انظر : الزبير ؛ محمد : موسوعة السلطان قابوس لأسماء العرب (معجم أسماء العرب) ٢٠ مج ، عمان - مسقط ، ط ٢ ، ١٩٩١ م ، مج ٢ ، ص ٧٩٧ .

354 - الأرمن : موطنهم الأصلي تراقيا وهاجروا منها إلى أرمينيا ، اعتنقوا المسيحية على يد القديس نريغريس ، دخلت تحت سلطة روسيا القيصر في عام (١٨١٣ م) ، وتعرض الأرمن لمذبحة في عام (١٨٦٧ م) ، ثم منحوا استقلالاً إدارياً شكلياً ، تكررت المجازر لهم في عام (١٨٩٤ م) وفي (١٨٩٦ م) و (١٩٠٩ م) ، ونتيجة لوقوف الأرمن إلى جانب الحلفاء خلال الحرب العالمية الأولى مما دفع بالألمان وبالتعاون مع يهود الدونمة من الاتحاديين إلى تدبير مجزرة لهم في (٢٤ / نيسان / ١٩١٥ م) وقد كان أثرها الأكبر على أرضاي متصرفية دير الزور والتي لعب أبنائها دوراً مشافاً في حماية الأرمن ، الذين وصلوا لمناطق كثيرة من أراضي متصرفية دير الزور . انظر : كشيبيان ؛ ألكسندر : المستندات الألمانية والنمساوية الرسمية عن المجازر الأرمنية ، حلب ، منشورات الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية ، ط ١ ،

وكان الجانب الأهم في تلك القوميات هو الاحتكاك بين الوافدين الجدد من المسيحيين والسكان الأصليين الذين أجاروهم وأنقذوهم ومن ثم أسكنوهم معهم فأصبحوا جيرانهم بل وقاموا بتشغيلهم وإعانتهم على ظروف الحياة بل وأكثر من ذلك أنهم تزوجوا معهم (٣٥٥).

ونتيجة لذلك فقد أخذت أعداد المسيحيين تتزايد في المنطقة ولكن رغم ذلك فإن تعدادهم لم تتجاوز النسبة فيه ٥% من تعداد السكان في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة (٣٥٦).

لقد كانت الغالبية العظمى من المسيحيين يعانون الفقر ذلك أن غالبيتهم جاؤوا غرباء عن المنطقة مجبرين لا يحملون معهم ثروة أو أي شيء يساعدهم على شطف العيش حيث أخذ معظمهم يزاول مهنة بسيطة تكسبهم قوت يومهم وسداد أجرة بيوتهم فقد استأجر قسم منهم بيوتاً (٣٥٧) وقسم آخر استقبلهم أهالي المنطقة في بيوتهم وأمنوا حمايتهم من ملاحقة العثمانيين بل وحموا كبارهم وصانوا أعراضهم ، ونتيجة لذلك فقد اختلّفوا المسيحيين بالمجتمع المحلي واستقر قسم كبير منهم في المنطقة حتى بعد زوال الاحتلال العثماني وقسم آخر رحل بعد أن لقي الحماية في لواء دير الزور إلى مناطق أخرى (وخاصة الأرمن قسم كبير من رحل حلب) ، أما من استقر في مناطق متفرقة من المنطقة من المسيحيين فقد كان لهم كنيسة بنيت لكل طائفة ولها رئيس طائفة روعي وظهر ذلك منذ عهد العثمانيين (٣٥٨).

١٩٩٧م ، ص ٤٧ . وانظر : الجهماني ؛ يوسف : تركيا والأرض ، دمشق ، دار حوران ، ط ١ ، ٢٠٠١م ، ص ٣٩ - ٤١ .

355 - تزوج العديد من أبناء دير الزور ، عبد الحميد السليمان ، أمين الضللي ، جمعة الحويج ... إلخ ، انظر : الصليبي ؛ عمر : لواء الزور ، في العصر العثماني سياسياً وإدارياً ، دمشق ، دار العلم ، ط ١ ، ١٩٩٦م ، ص ٢٣٩ ، وانظر : وثائق المحكمة الشرعية في دير الزور ، سجل رقم ١٣٦ ، وثيقة رقم ٥٢ ، عام (١٩٢٩م / ١٣٤٧هـ) ، ص ٣٧ .

356 - HANNOYER (J) : DEYR – AL – ZOR > 1850 – 1921 . P.125 .

357 - بلنت ؛ آن : قبائل بدو الفرات عام ١٨٧٨م ، ترجمة : أسعد الفارس ، نضال معيوف ، دمشق ، دار الملاح ، ط ١ ، ١٩٩١م ، ص ١٠٨ .

358 - تعاقب عدد من رؤساء الطائفة الرومانيين والسريان خلال فترة بحثنا نذكر بعضهم مثل (نرسييس أفندي والراهب فرايجيان آغوب أفندي لطائفة الأرمن) ، (والخوري ياقوب ملكي أفندي لطائفة السريان) ،

نتيجة لهذه الهجرات فقد ظهرت نتائج عدة ومتنوعة الأبعاد ولعل أولها هو التغير الديموغرافي للسكان وازدياد أعدادهم في أراضي اللواء ، أما النتيجة الأبرز فهي انفتاح المجتمع المحلي في المنطقة بعد أن كان على شكل تكتلات محلية أو عشائرية مغلقة على نفسها فصار هنالك تحول ملحوظ وأبسط مثال على ذلك أن بدأ أبناءها يتقبلون فكرة الزواج من غيرهم بعد أن كان يستحيل لأي شاب أو فتاة الزواج من خارج إطار قوميته المحلي ولكن بعد هذا الاحتكاك مع المسيحيين الوافدين صار الأمر متقبلاً^(٣٥٩) ، وبالتالي فقد كان لهذه الهجرات متغيراتها التي أثرت في المنطقة.

- اليهود (الموسويون) :

وفدت إلى منطقة الفرات الأوسط والجزيرة مجموعات من الوافدين اليهود (الموسويون) وذلك خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، يُعد هؤلاء ملة دينية من أهل الذمة^(٣٦٠) ، وهم من أتباع التلمود ، لهم عاداتهم وتقاليدهم الخاصة بهم وكانوا يمارسون طقوسهم الدينية الخاصة بديانتهم بكل حرية ، وهم يتبعون لرئيس طائفة روحاني أعلى ، وهو الحاخام الأكبر في الأستانة^(٣٦١) ، لقد استقر هؤلاء ضمن أراضي اللواء في مناطق متفرقة لكن أبرزها كان في دير الزور والبوكمال والقامشلي والميادين إلخ^(٣٦٢).

انظر : سالنامه الدولة العلية العثمانية ، عام (١٨٨٦م / ١٣٠٤هـ) ، ص ٤٣٩ ، وانظر : سالنامه الدولة العلية العثمانية ، عام (١٨٩٠م / ١٣٠٨هـ) ، ص ١٠٤٠ و ١٠٤٥ .

359 - هنالك الكثير من الأطفال الذين أنقذهم أبناء منطقة الفرات والجزيرة وهم أحياء في أحضان أمهاتهم الميتات ثم ربوهم وزوجوهم نذكر منهم (علي الحسون ، وعبد الله الأرمني ... إلخ) ، انظر : صليبي ؛ عمر : لواء الزور (إدارياً وسياسياً) ، ص ٢٣٩ .

360 - أهل الذمة : أهل الكتاب من غير المسلمين ، المقيمون في بلاد الإسلام ، حيث يجوز عقد الذمة معهم ، على أن يقدموا الجزية مقابل حماية المسلمين لهم ، انظر : الماوردي ؛ أبو حسن علي بن محمد : الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، ترجمة : عصام الحرساني ومحمد إبراهيم ، المكتب الإسلامي ، ط ١ ، ١٩٩٦م ، ص ٢٣٠ .

361 - نعسية ؛ يوسف : يهود دمشق ، دمشق ، دار المعرفة ، ط ٢ ، ١٩٩٤م ، ص ٦ .

362 - وثيقة إدارية عثمانية ، سند ملكية عثماني صادر عن إدارة الدفتر الخافاني لمتصرفية دير الزور ، عام (١٩١١م / ١٣٢٩هـ) .

أما أعداد اليهود فقد كانت تتراوح من منطقة لأخرى ففي دير الزور لم يكن عددهم يتجاوز أكثر من ٢٠٠ نسمة ، وبالتالي فهم لا يشكلون سوى أقلية من تعداد السكان ، في حين كان تعدادهم أكبر من هذه النسبة في القامشلي وأقل في مناطق أخرى ، لكن على العموم لم يكن لهم وجود ولكن كان تعدادهم بشكل عام بالنسبة لإجمالي المنطقة أقل من ١% (٣٦٣).

أما بالنسبة لحالة اختلاطهم مع المجتمع المحلي كونهم وافدين إضافة إلى العامل الديني فإنها أقل من الحالة السابقة مع المسيحيين ، فقد تميز يهود المنطقة بانغلاقهم على أنفسهم ، ولكن رغم ذلك فقد احتك اليهود - ولو بشكل بسيط - مع السكان الأصليين من المسلمين بدليل وجود حالات تزواج أو اعتناق بعض الأسر اليهودية للدين الإسلامي .

أما أهم الأعمال التي كان يمارسها اليهود فهي الصياغة والصيرفة والتجارة وكذلك بعضهم عمل أجيراً لدى بعض أصحاب الحرف ، وبالتالي فقد تعددت الحرف والمهن أي أعمال متعددة كان يمارسها اليهود في لواء الفرات الأوسط والجزيرة ، وكذلك وجد منهم الفقراء وميسوري الحال أيضاً ، إلا أنهم اتصفوا بتوقعهم على أنفسهم (٣٦٤) .

أ- اليزيديون : وهي فرقة نشأت في عام ١٣٢هـ إثر انهيار الدولة الأموية ، وقد كانت في بدايتها حركة سياسية لإعادة أمجاد بني أمية ، لكن الظروف الدينية وعوامل الجهل أغرقت بها فأوصلتها إلى تقديس يزيد بن معاوية وإبليس الذي يطلقون عليه اسم (طاووس ملك) وعزرائيل ، وقد جرهم اعتبارهم الشيطان طاووس الملائكة إلى تقديس الطاووس على شكل ديك بحجم الكف (٣٦٥) ، وقد انتشر هؤلاء في جزر الشمال

363 - Musil (A) : the middle Euphrates (DEIR AZ-ZOR ti AL FHEJMI) , NEW YORK , 1927 , P,2

364 - مارس اليهود العديد من المهن ولكن برزت لديهم ظاهرة التعامل في أمور الربى من خلال عملهم في الصيرفة والصياغة ، انظر : صليبي ؛ عمر : لواء الزور (إدارياً وسياسياً) ، ص ١٦٠ - ١٦١ .

365 - قيل بأن هؤلاء قد اختاروا السكن بين القرى التي تنتشر فيها قبائل كردية وذلك لأنهم أخوال مروان بن محمد ، ونتيجة لعدم تقبلهم التعليم لمعتقدهم بأن التعليم صوري ولذلك زاد الأمر سوءاً لهم وتشعبت معتقداتهم نذكر منها سريعاً ، أن لهم كتابان مقدسان الأول هو (الكتاب المقدس) وهو يتحدث عن صفات الله ووصاياه ، وكتاب (مصحف رش) وهو يتحدث عن خلق الملائكة والكون ونشوء اليزيدية أما شهادتهم فهي (أشهد واحد الله سلطان يزيد حبيب الله) .

الشرقي من الجزيرة ، وهم يشكلون أقلية من تعداد السكان في المنطقة وينتشرون في قرى تجمعوا بها وتكتلوا ضمنها وفي تعدادهم العام هم أقل من ٢% .

ب- تقسيم السكان بحسب طبيعة عملهم :

- أهل المدن (الحضر) :

ونقصد بهم سكان المراكز الحضرية في مدن ومراكز أقضية الفرات الأوسط والجزيرة وعلى رأسها قصبة اللواء (دير الزور) ، والرقعة ، والحسكة ، والبوكمال ، والميادين ، والقامشلي ، و إلخ ، وتعود أصول سكان المراكز الحضرية إلى أصول عربية^(٣٦٦) ، وقد احتك معهم بعد وصول هجرات أخرى إليها من أتراك وأرمن وسريان وجركس^(٣٦٧) إلخ .

لقد اختلط هؤلاء مع السكان الأصليين وبالتالي فإن المراكز الحضرية في المنطقة ضمت خليط متنوع ولكن كانت السمة الأهم أن الغالبية الساحقة من أصول عربية إضافة إلى انتقال عدد من أبناء الأرياف والبادية للسكن في المراكز الحضرية القريبة

وهم يصومون ثلاثة أيام بالسنة وأيضاً في يوم ١٥ شعبان ، ويقفون في ١٠ ذي الحجة على (جبل النورانيين) في لاشن بشمال العراق ، وهم يقسمون بطوق سلطان يزيد ، أما زكاتهم فتجمع حين يدور رجال دينهم بت شمال طاووس نحاسي على القرى والبيوت اليزيدية فيدفعون الزكاة ، وهم لا يزالون موجودين في منطقة الجزيرة من الشمال الشرقي في سورية وكذلك ينتشرون في شمال غرب العراق ، أما أشهر قراهم في منطقة الجزيرة السورية نذكر منها مثل قرى (طولوكو ، أبو حجر ، تل الطويل ، إلخ) انظر : الشهرستاني : الملل والنحل ، الباب الأول ، فصل الخوارج الإباضية ، جزء اليزيدية ، بيروت ، دار المعرفة ، ١٩٨٩م ، ص ١٣٦ - ١٣٧ ، ودراسة ميدانية قمنا بها في محافظة الحسكة .

366 - وثائق المحكمة الشرعية شفي دير الزور ، سجل رقم ١٣٥ ، عام (١٩٢٤م / ١٣٤٢هـ) ، رقم الوثيقة ٧٥ ، ص ٤٥ ، وانظر : وثائق المحكمة الشرعية في دير الزور ، سجل رقم ١٣٥ ، عام (١٩٢٤م / ١٣٤٢هـ) ، رقم الوثيقة ١١٢ ، ص ٦٩ ، وانظر : وثائق المحكمة الشرعية في دير الزور ، سجل رقم ١٣٥ ، عام (١٩٢٤م / ١٣٤٢هـ) ، رقم الوثيقة ١٩٤ ، ص ١٢٤ .

367 - الجركس : هم اللاجئين المسلمون الذين وصلوا من بلاد البلقان والقفقاس وأذربيجان وبقية مناطق روسيا إلى أراضي الدولة العثمانية بعد الغزو الروسي في ق ١٩ فهربوا إلى مناطق بلاد الشام ومنها منطقة الفرات الأوسط والجزيرة ، انظر : بينغسن ؛ ألكسندر - وكيكجاي ؛ شانثال : المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفيتي ، ترجمة : عبد القادر الضللي ، بيروت ، دار الفكر المعاصر ، ط ١ ، ١٩٨٩م ، ص ٢٢ -

من قراهم أو باديتهم ، لذلك أخذت أعداد السكان فيها بتزايد تدريجي على حساب تناقص تدريجي في أعداد سكان الأرياف والبادية .

إن هذا التمازج البشري لمراكز المدن في الفرات الأوسط والجزيرة قد ساعد على انفتاح العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية إلخ ، لتلك المدن بدل عزلتها ، بل واستطاعت المجتمعات المحلية لتلك المدن أن تمتص تلك المؤثرات الحضارية التي نتجت عن ذلك التمازج لتظهر مجتمعات جديدة منفتحة محاولة اللحاق بتطورات عصرها الآنية .

- الفلاحون (٣٦٨) :

وهم سكان القرى في ريف الفرات الأوسط والجزيرة من الذين سكنوا في الأرياف دون المدن أو مراكز الأفضية وبالتالي فقد ارتبط ذلك بعملهم الرئيسي ألا وهو الزراعة ثم تربية الحيوان .

لقد عرف الفلاحون بتسمية محلية في منطقة وهي (الشوايا) ، وهي لفظة قديمة عند العرب تدل على عودة أصولهم إلى جذور عربية وبالتالي أريد فيها جانب إيجابي ، وقد غلبت عليهم في معيشتهم طابع العشائرية حيث تعددة عشائريهم وأفخاذها (٣٦٩) .

368 - الشوايا : لفظ قديم عند العرب ويعني (القلة المتبقية من القبائل العربية) ، وهي من الفصيح العامي الشائع الاستعمال ، قيل للشيء القليل (شوية) وأصله (شوي) فسهلت الهمزة وألحقت التاء المربوطة بها لتحقيق القلة ، انظر : ابن منظور : لسان العرب ج ١٨ ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، ط ١ ، ١٩٩٦ م ، ج ٧ ، باب الشين ، ص ٢٤٧ ، وانظر : رضا ؛ أحمد : قاموس رد العامي إلى الفصيح ، بيروت ، دار الرائد ، ط ٢ ، ١٩٨١ م ، ص ٣٢٨ .

369 - كثيرة هي العشائر والأفخاذ التي ينحدر نسب السكان إليها في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة نذكر بعضاً منها كمثال لا على سبيل الحصر (العقيدات ، البقارة ، العبيد ، البوشعبان ، الشرايين ، الهيب ، الجبور ، العزاوي ، البوعبيد ، الجغايفة ، البوسرايا ، القلعين ، البوبدران إلخ) ، انظر : زكريا ؛ أحمد وصفي : عشائر الشام ، ص ٦١١ - ٦٤٨ ، وثائق المحكمة الشرعية بحلب ، سجل رقم ١٣١٣ ، عام (١٨٨٠م / ١٢٩٨هـ) ، رقم الوثيقة ٢٢١ ، ص ١٤٠ ، وانظر : وثائق المحكمة الشرعية في دير الزور ، سجل رقم ١٣٧ ، عام (١٩٢٩م / ١٣٤٧هـ) ، رقم الوثيقة : ٥٧ - ٤٠ .

لقد لعبت الظروف الطبيعية دوراً هاماً في قلة أعداد سكان الريف في قرى الفرات الأوسط والجزيرة خلال فترة بحثنا هذا ، سبق وذكرنا منها هجرتهم إلى المراكز الحضرية ، إضافة إلى مرور المنطقة بسنوات من الشح والقحط التي مرت بها المنطقة ، كذلك شهدت المنطقة اجتياح موجات من الجراد الذي أكل محاصيل كبيرة من الزرع ، وسوء الحالة الصحية ، وتخلف في التعليم إلخ (٣٧٠) .

- البدو :

لقد تركز البدو الذين سكنوا أراضي لواء الفرات الأوسط والجزيرة في باديتي الشامية والجزيرة وهم الأقوام التي تعيش في البادية ، ولهم صفات معينة نتيجة لظروف حياتهم الخاصة ولكون البادية قد وسمتهم بسماتها وطابعها (٣٧١) .

أما أصول البدو في المنطقة فهي عربية ، ولكن بعض قبائلها ذو تواجد قديم على أرض هذه البادية وبعضهم الآخر وصل في فترات متأخرة إلى المنطقة عبر هجرات قدمت من شبه الجزيرة العربية ، وهم الغالبية (٣٧٢) .

أما طبيعة العلاقات بين هذه القبائل البدوية فكانت الحروب والصراعات الطويلة على أماكن التواجد والسيطرة على أراضي هذه البادية طلباً للمرعى والمياه أو بعضها

370 - شارل ؛ هنري : عشائر الغنامة في الفرات الأوسط ، ترجمة : مسعود الظاهر ، دمشق ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ، ط ١ ، عام ١٩٩٧ ن ص ١٨ - ٢٤ ، وانظر : زكريا ؛ أحمد وصفي : ذكرياتي عن وادي الفرات عام ١٩١٦ م ، تحقيق : عبد القادر عياش ، دير الزور ، مطبعة الفرات ، ط ١ ، عام ١٩٦٧ م ، ص ٥١ .

371 - تعدد القبائل العربية التي كانت تجوب في بادية الفرات الأوسط الشامية والجزيرة ، نذكر بعضاً منها كأمتلة : (العنزة ، شمر ، طيء ، الفدعان ، الولادة ، الحويطات ، الأحسنة ، الخرصة ، العمارات إلخ) ، انظر : كحالة ؛ عمر رضا : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ٣ أجزاء ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ج ١ ، ١٩٧٨ م ، ص ١٩ - ٢٦ ، وانظر : زكريا ؛ أحمد وصفي : عشائر الشام ، ٦١١ - ٦٤٢ .

372 - وجدت قلة من البدو الأكراد وهي قبيلة (المليّة) والتي كانت تدخل في حروب مع القبائل العربية في بادية الجزيرة وبخاصة (طيء ، والجبور ، وشمر) ، انظر : وثيقة عثمانية ، رسالة صادرة من صفوك بن فارس شيخ شمر الجربا إلى متصرف دير الزور ، بتاريخ : (٢٩ / ذي الحجة / ١٣٠٥ هـ / ١٨٨٧ م) ، من وثائق آل عصمان بك الشخصية .

عشائرية بين قبيلة وأخرى ، ومنها ما هو بين أفخاذ العشيرة الواحدة (٣٧٣) ، وأحياناً كانت أسباب الصراعات هي الخلاف على قطعان المواشي أو غزو من قبيلة لأخرى للحصول على الحلال والأموال إلخ (٣٧٤) ، إلا أن ما قدموه في دعم للحياة الاقتصادية في المنطقة خاصة وأن بعضهم قد عمل بالزراعة في المناطق التي تزرع موسمياً في فصل الشتاء، لكن اعتمادهم الرئيسي في العمل بالرعي وتربية الحيوانات من أبل وخيول وأغنام والتي كانت تشكل نوعاً هاماً في التجارة سواء المحلية أو الخارجية ويعتمد عليهم في الواردات المالية لأبناء منطقة الفرات و الجزيرة ببلاد الشام.

أما بالنسبة للقبائل البدوية غير العربية فهناك قبيلة واحدة عاشت في بادية الجزيرة وهي قبيلة المليّة الكردية والتي كانت تجوب في المناطق الشمالية من بادية الجزيرة ودخلت في حروب ونزاعات مع جوارها من القبائل الأخرى في المنطقة (٣٧٥) .

لقد أثرت هذه الحروب وحالة النزاع شبه الدائم على حالة الأمن في البادية بل انعدامها في طرقاتها التي تمر منها مما أثر على حالة الاستقرار وأدى إلى دفع بعض هذه القبائل إلى التحرك نحو مناطق الاستقرار في بعض القرى والأرياف المواثية

373 - جرت نزاعات وحروب كثيرة بين القبائل البدوية بين بعضها وأحياناً بين أفخاذ القبيلة الواحدة ، ولعل أبرز هذه الحروب هي بين (العنزة ، وشمر) و (طي ، والجبور) أما أبرز الصراعات بين أفخاذ القبيلة نفسها فهي الصراعات التي دارت بين أفخاذ قبيلة شمر نذكر أبرزها (شمر الزور ، شمر الجبل ، شمر لحدود ، سنجارة ، الخرصة ، العبدية ، الأسلم ، التومان إلخ) ، انظر : زكريا ؛ أحمد وصفي : عشائر الشام ، ص ٦٢٠ - ٦٣١ .

374 - سلكت بعض القبائل طريقاً جديدة لاستعادة قطعان مواشيتها إذا ما سلبت منها وذلك بأن تقدم توكيل رسمي صادر عن المحكمة الشرعية بدير الزور إلى أحد رجال الحكومة الكبار مهمة تحصيل أو بيع أو تنازل للقطيع الذي يسلب منها لينال ذلك المسؤول نصيبه مقابل استعادة المواشي أو يقاسمهم رؤوس الماشية ، انظر : وثيقة عثمانية ، توكيل رسمي من الشيخ عبيد الخير والشيخ محمد الحسن إلى البكباشي حسن آغا (قائد جهاز الأمن بدير الزور) لتحصيل أغنامهم من عشيرة العقيدات صادرة عن المحكمة الشرعية في متصرفية دير الزور بتاريخ (١٣ / تموز / ١٨٦٨ م / ١٢٨٥ هـ) من الوثائق الشخصية لآل عصمان بك .

375 - وثيقة عثمانية ، رسالة صادرة من الشيخ صفوك بن فارس شيخ شمر الجريا إلى متصرف دير الزور ، تاريخ الوثيقة (٢٩ / ذي الحجة / ١٠٣٥ هـ / ١٨٨٧ م) ، من وثائق آل عصمان بك .

لبواديهم بل وبعضهم انتقل إلى السكن في أطراف مراكز الأقضية والمدن الحضرية فشكلوا أحياء محيطة بها ، وقد لعب ذلك دوراً هاماً في استقرارهم (٣٧٦) .

كذلك أثر هذا الأمر في طبيعة أعمالهم الرئيسية ألا وهي تربية المواشي والجمال ، حيث صار بعضهم يمارس إلى جانب ذلك الزراعة ممن استقروا في القرى والأرياف ، وبعضهم أخذ يمارس الأعمال اليدوية وبعض الحرف البسيطة وتجارة الهجن (الإبل) وغيرها ممن استقروا في المراكز الحضرية وأطرافها .

٢- الفئات الاجتماعية :

نقدم في هذه الدراسة تقسيماً للسكان في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة خلال الفترة الخاصة ببحثنا (١٩٠٩م / ١٣٢٧هـ - ١٩٤٦م / ١٣٦٥هـ) ، فقد ظهر تمايز بين عدة فئات في هذا المجتمع والتي اصطلحنا ترتيبها بشكل هرمي متدرج من الأعلى (وهي الفئة الحاكمة) إلى الأدنى وهي (فئة الزعران) ولذلك سوف نستعرض سريعاً تلك الفئات والتي قمنا بتقسيمها إلى أربع فئات وفق الآتي :

١- الفئة الحاكمة :

وهي تلك الفئة التي كانت تشكل الجهاز الحاكم في المنطقة على مر فتراتنا السياسية التي شهدتها المنطقة ، وهي تضم كبار الجهاز السياسي والإداري فيها وعلى رأسهم يأتي المتصرف أو المحافظ (خلال قسم من الفترة الفرنسية) (٣٧٧) ، ثم يأتي رئيس الجهاز العسكري والأمني في المنطقة (٣٧٨) ، ثم قائد الدرك (الشرطة) ، ثم رئيس

376 - بلنت ؛ آن : قبائل بدو الفرات ، ص ١١٧ ، وانظر : شارل ؛ هنري : عشائر الغنامة في الفرات الأوسط ، ص ٢٤ .

377 - نقصد بذلك تلك الحقبة للحكم الفرنسي في المنطقة منذ ١٠ تشرين الأول / ١٩٢٠م حتى ١٧ / نيسان / ١٩٤٦م وقد تولى الحكم في المنطقة / ١٢ / اثنا عشر حاكماً أولهم الجنرال (ديبوفر) ثم تلاه عدد من الشخصيات الإدارية وليست العسكرية ، كمتصرف أو محافظ ، انظر : نخبة من الباحثين : دير الزور ماضي عريق وحاضر مشرق ، إشراف : علي الشعبي ، دمشق ، دار الجمهورية ، ط ١ ، ١٩٩٨م ، ص ٦٩٤ - ٦٩٩ .

378 - خلال العهد العثماني كان يتم تعيين المتصرف في الإدارة بموجب فرمان صادر من قبل السلطان العثماني ، أما خلال الفترة الفرنسية فقد كان التعيين عن طريق رئيس الدولة السورية ، انظر : اسماعيل ؛ حكمت : نظام الانتداب الفرنسي على سورية ، ص ١٧٧ - ١٨٠ ، وانظر : أنيس ؛ محمد : الدولة

البلدية والقاضي والنائب العام ، والمفتي ومدراء الدوائر وكبار الموظفين الإداريين إلخ، واستمدت سلطتها من مناصبها.

لقد تميزت هذه الفئة بميزات كثيرة لعل أبرزها وأهمها هي امتلاكها زمام السلطة والقرار إضافة لتمتعها بامتيازات واسعة بسبب موقعها في العمل مكنتها من جمع المال والحصول على الثروة ، كذلك استطاعت الاستيلاء على مساحات وقطع كبيرة من الأراضي وقد كان من يقبع على هذه الفئة المتصرفون أو المحافظون وهم إما من خارج الوطن وخاصة في الفترة العثمانية وبعض منهم من أبناء الوطن ولكن معظمهم كانوا من المتعاونين مع حكومة الاستعمار (٣٧٩) .

٢- فئة الأعيان ورجال الدين :

أمام وجود الفئة السابقة الذكر (الفئة الحاكمة) وسيطرتها كان لابد من وجود فئة تتوسط بين هذه الفئة الحاكمة وبين فئة العامة من الشعب ، وذلك لتقوم بدور الوسيط فتكون هي التي تساعد على التقارب بين الفئتين وتعمل على رأب الشرخ فصارت تشكل صلة الوصل بين تلك الفئتين.

لقد ضمت هذه الفئة مجموعة وجهاء الأسر المحلية وزعماء العشائر وشيوخ القبائل وكبار الأغنياء والتجار ، وإقطاعيي الأراضي الواسعة وبرجوازيو المدن (٣٨٠) .

وقد برزت في هذه الفئة مجموعة كبار رجال الدين وزعماء الطرق الصوفية والزوايا والتكايا إضافة للزعماء الروحانيين من الطوائف المسيحية واليهودية ، وقد كان لهؤلاء تأثير واضح على العامة وذلك لما لهم من مكانة إجتماعية وكلمة نافذة حتى لدى

العثمانية والمشرق العربي ١٥١٦هـ / ١٩١٤م ، القاهرة مكتبة أنجلو المصرية ، ط١ ، ١٩٩٣م ، ص ١٤٥ .

379 - ذلك أن تعيينهم صحيح أنه يصدر عن رئيس الدولة السورية لكن شريطة أن يصادق المفوض السامي الفرنسي على كل تعيين يجريه رئيس الدولة السورية ، انظر : اسماعيل ؛ حكمت : نظام الانتداب الفرنسي على سورية ، ص ١٧٨ .

380 - سالنامه ولاية حلب ، عام (١٨٦٥م / ١٢٨٤هـ) ، ص ٥١ ، وانظر : الصباغ ؛ ليلى : المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني ، دمشق ، وزارة الثقافة ، ط١ ، ١٩٧٣م ، ص ١٢١ .

زعماء العشائر ووجهاء المدن والنواحي وفي مختلف مناطق لواء الفرات والجزيرة (٣٨١) .

٣- فئة العامة :

وهي الفئة الأكبر والشريحة الأوسع بين الفئات الاجتماعية ، وذلك لكونها تضم عامة الشعب أي أبناؤها كافة في مختلف مناطقهم سواء من أهل المدن والمراكز الحضرية أو القرى والأرياف أو البادية ، وعلى مختلف مذاهبهم ودياناتهم .

لذلك تُعد هذه الفئة هي الأوسع وقد كانت تتميز بتواضع أحوالها المعيشية والثقافية وبساطة أوضاعها الاقتصادية ، وقد ضمت هذه الفئة شرائح متعددة أكبرها هي شريحة الفلاحين وصغار المزارعين ، ثم أبناء المراكز الحضرية والذين زاولوا مهن متعددة كالتجارة والبقالة والمهن والحرف اليدوية إلخ (٣٨٢) ، كذلك شريحة العوام من أبناء البادية ممن يمارسون مهنة الرعي أو كانوا يعملون لدى زعماء قبائلهم وقلّة منهم مارست إلى جانب الرعي مهنة أخرى وهي الزراعة ولكن قلّة غير أننا نلاحظ بأن البدو في المنطقة قد مارسوا الغزو وأعمال السلب والنهب وقطع الطرق ، فكانوا يشكلون خطراً على مراكز الاستقرار السكاني القريبة منهم فخلقوا حالة من الفوضى وانعدام الأمن ، إلا أن بعضهم مل حياة القتال والفوضى وبالتالي مال هؤلاء إلى النزول حول أطراف الأرياف والمدن واختلطوا مع أهلها وتعايشوا معهم (٣٨٣) .

فئة الزعران :

-
- 381 - الجزار ؛ وجيه : سنجق دير الزور ، ص ٤٣ - ٤٦ .
- 382 - وثائق الدفتر الخاقاني بمتصرفية ديرا لزور ، سجل عام (١٣١٨ - ١٣٢١هـ) ، ص ٧ وما بعد ، وانظر : نخبة من الباحثين : دير الزور ماضٍ عريق ، ص ٤٨٨ .
- 383 - وثائق الأوامر السلطانية بحلب ، سجل رقم ٦٤ ، عام (١٨٦٤م / ١٣٨٣هـ) ، ص ١٦ ، وانظر : بلنت ؛ آن : قبائل بدو الفرات ، ص ١٠٦ - ١١٤ ، وانظر : عوض ؛ عبد العزيز : نظام ملكية الأرض في بلاد الشام وآثاره الاقتصادية والاجتماعية ١٨٣٩ - ١٩١٤م ، دمشق ، مجلة الدراسات التاريخية ، العددان ٣٥ + ٣٦ ، آذار وحزيران ، ١٩٩٠م ، ص ٥١ .

تشكلت هذه الفئة نتيجة لتردي الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي عاشتها فئة العامة ، وخاصة لدى عاطلين عن العمل أو ممن تضررت مصالحهم الحرفية والمهنية فتحولوا إلى عاطلين عن العمل بنتيجة ذلك .

وتعد هذه الفئة هي الأقل في المجتمع المحلي لمنطقة الفرات الأوسط والجزيرة ، فكان ينظر إليهم على أنهم الفئة الطفيلية والنكرة في المجتمع المحلي ، وقد ضمت داخلها شرائح متنوعة سوف نعرض عليها سريعاً .

من هذه الفئة ظهرت مجموعة العواينية أي الذين كانوا يتجسسون على الناس من أبناء لحمتهم وينقلون ذلك إلى الأجهزة الأمنية أو الفئة الحاكمة بغية الاستفادة وإلحاق الضرر ، وكان ينظر إليهم بمقت وازدراء (٣٨٤) .

كذلك وجدت في تلك الفئة شريحة الغوغاء وهم مجموعة من الشبان العاطلين الذين يتحركون بتوجيه من الزعران الذين كانوا يتزعمونهم ، وذلك دون حساب للعواقب والمخاطر وهم ينتشرون في الحارات والأزقة متخذين من الأماكن المهجورة مقراً لالتقاءهم .

وظهرت أيضاً شريحة البلاصية ممن كانوا يأخذون أموال الناس غصباً واستحياءاً وبشتى الطرق والحجج وهم ينشطون في أطراف المدن والأرياف ويقطعون الطرقات وإذا ما ضاقت بهم الحال اتجهوا إلى البادية أو الجزر النهرية (الحوائج) (٣٨٥) بعيداً عن يد القضاء والسلعة ليتخذوها مقراً لهم .

كذلك ظهرت في هذه الفئة شريحة مشايخ وزعماء الحارات أولئك الذين سلطوا أنفسهم على أبناء حاراتهم ، فصاروا يتكلمون باسمهم ويتدخلون في كل ما يتعلق

384 - صليبي ؛ عمر : لواء الزور في العصر العثماني إدارياً وسياسياً ، ص ١٢٢ .

385 - (الحوائج) : وهو المصطلح المحلي الدارج في مناطق الفرات الأوسط والجزيرة والذي يطلق على الجزر النهرية ، حيث يصعب الوصول إلى هذه الجزر إلا بواسطة السفن أو سباحة وتتطلب مهارة عالية ، وتتميز هذه الجزر بأنها كغابات من النباتات النهرية الطويلة وخاصة (الزل) أي نبات الحلفا ، ولذلك كان معظم الخارجين عن السلطة يلجؤون إلى مثل هذه الجزر النهرية (الحوائج) والتي تكثر في وسط نهر الفرات ، انظر : موسى ؛ علي : محافظة دير الزور ، دمشق ، منشورات وزارة الثقافة ، ط ١ ، ١٩٩٣ م ، ص ٤٨ - ٥٤ ، وانظر : بلنت ؛ آن : قبائل بدو الفرات ، ص ١٠٨ - ١١٠ .

بالحارة وشؤون أهلها ، فكانوا هم من نصبوا أنفسهم المشيخة ، وقد تسبب هؤلاء بانقسامات داخل المجتمع المحلي ، وخاصة في المراكز الحضرية فخلقوا حالة من العدائية بين أبناء الأحياء والحارات داخل المدينة أو الناحية الواحدة ، وغالباً ما أدت إلى حزازات وصدامات ونعرات كان يستغلها هؤلاء لصالحهم ^(٣٨٦) .

هؤلاء مجموعهم خلقوا حالة من الفوضى داخل المدن ومراكز الأقضية والنواحي فاستغلها بعض الشبان والرجال محاولين اتخاذ وسائل وسبل كثيرة للنهب والسلب وسرقة الأرزاق مترعمين مجموعات طائشة من الشبان وهم شريحة الزعران فكانت مجمل هذه الشرائح تشكل فئة الزعران ^(٣٨٧) ، وقد تسببت هذه الفئة كاملة على مختلف شرائحها نزاعات داخلية استغلها المحتل على مختلف أوجهها ليسخرها في مصلحته حتى أنه كان يطلق لها العنان في بعض الأحيان حتى يشغل الشعب بمشاكله الداخلية وتبقى له الخطوة والسيطرة ، وبالتالي فقد خلقت هذه الفئة حالة من الفوضى وعدم الاستقرار داخل أراضي لواء الفرات والجزيرة .

المرأة :

تعد المرأة أساساً في الوضع الاجتماعي لأي مجتمع بشري ، فهي التي تسهم في نجاحه وصلاحه أو في خرابه ، علماً بأن المرأة في منطقة الفرات والجزيرة لم تكن قد أحيطت بتلك المكانة المهمة ، سواء في داخل الأسرة أو على صعيد المجتمع المحلي ، بل كان ينظر إليها على أنها أقل شأنًا وأهمية من الرجل فلم تحظ بالاهتمام الكافي بل كثيراً ما عانت من الظلم والقهر في حياتها الاجتماعية سواء أكانت المرأة المسلمة أو من أهل الذمة ، وكذلك عانت في مكانتها سواء وهي زوجة أو أم أو أخت إلخ .

فالمرأة في حياتها الأسرية عليها واجبات كثيرة ، فيترتب عليها تربية الأولاد ورعايتهم ، وكذلك القيام بالواجبات المنزلية ، والعناية بنظافة وترتيب البيت ، بالإضافة إلى ممارسة بعض الأعمال والمهن التي تتقنها مثل (النقش ، التطريز ، الخياطة ،

الغزل إلخ) ، والتي تسخرها لصالح بيتها ^(٣٨٨) وقد تشارك أحياناً كثيرة في الأعباء المالية المنزلية مع زوجها من خلال مهنتها ، أو بالعمل معه في الأرض .

أما على صعيد المجتمع فقد كانت المرأة في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة قليلة الاختلاط مع الرجال وقليلة الخروج من بيتها ، بل وحتى المهن التي تتعلمها إنما كانت تمارسها في معظم الأحيان داخل البيت مع أنها كانت - خلال فترة بحثنا - قد نالت جزءاً من حقوقها وخاصة بما يتعلق في الجوانب الشرعية كالإرث ، والبيع ، والشراء ، والملكية إلخ ^(٣٨٩) .

إلا أنها عانت من جوانب مجحفة أخرى حتى أنها لم تكن تستطيع تناول الطعام إلا بعد أن ينتهي الزوج ، بل وحرمت أحياناً كثيرة من أبسط الحقوق كاختيار الزوج أو رفضه أو حقها في التعليم بل قلة هن الذين تعلمن ، وكذلك الزواج المبكر ، بل وحتى في حقها بالمهر فيسلب منها أو تعرضها للضرب ، أو في الطلاق وغيرها ^(٣٩٠) .

وبالتالي فقد عانت المرأة في حياتها الاجتماعية داخل منطقة الفرات الأوسط والجزيرة سواء في الأرياف أم البادية أم المدينة .

388 - صباغ ؛ ليلي : المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني ، دمشق ، وزارة الثقافة ، ط ١ ، ١٩٧٣م ، ١٥٣ .

389 - وثائق المحكمة الشرعية في متصرفية دير الزور ، سجل رقم ١٣٥ ، رقم الوثيقة ١٧٩ ، (١٩٢٤م / ١٣٤٢هـ) ص ١١٤ .

390 - وثائق المحكمة الشرعية في متصرفية دير الزور ، سجل رقم ١٣٥ ، رقم الوثيقة ٥٦ ، (١٩٢٤م / ١٣٤٢هـ) ص ٣٥ .

وانظر : MUSIL . (A) : the MIDDLE EUPHRATES, P.2 .

١- المساجد والجوامع :

يعد المسجد (بكسر الجيم) البيت الذي يسجد فيه وكل موضع يتعبد فيه فهو مسجد ويقال مسجد الجامع، والمسجد الجامع أي مسجد اليوم جامع.

فالمسجد قد يكون صغير المساحة والحجم، والجامع مسجد عظيم يجمع المصلين أيام الجمع والأعياد.

أخذ المسلمون مساجدهم للصلاة والعبادة وتلقي القرآن وعلومه والحديث وفنونه وعلم اللسان، وما يتعلق بذلك من المطالب التي فيها قيام أمرهم وخدمة دينهم أولاً ولغتهم ثانياً، وظلوا على ذلك في بلاد الشام حتى بدأت تظهر المدارس بالتدريج وتأخذ الدور التدريسي والتعليمي من المساجد لما يتعلق بمختلف العلوم مع استمرار دور المساجد في تعليم العلوم الدينية واللغوية أحياناً.

وما المساجد والجوامع في لواء الفرات والجزيرة سوى كغيرها من مناطق بلاد الشام، فقد كانت تدرس فيها العلوم الدينية الشرعية وبعضاً من علوم اللغة، ويتم ذلك بعقد حلقات التدريس فيها ولذلك سوف نتعرف على أهم المساجد التي قامت بهذا الدور التعليمي وتمتعت بأهمية ومكانة خاصة لها في الحياة الفكرية، حتى أنها صارت منابر للفكر والعلم ومراكز للحوار والنقاش الفكري، وسوف نعرف أهم المساجد التي كانت تقوم بهذا الدور وتسهم في الحياة الفكرية للمنطقة.

إن أقدم تلك المساجد تاريخياً في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة يعود على العصور المبكرة في نهاية فترة صدر الإسلام وبداية العصر الأموي، حيث كان قادة المسلمين يكللون فتوحاتهم ببناء المساجد والجوامع ابتداء من عياض بن غنم، ثم سعيد بن عامر الذي بنى مسجد الرقة، ثم عمير بن سعد وسهيل بن عدي حيث بنيت في عهدهم مسجد رأس العين (عين وردة)، والبصرة (قرقيسيا)، ومدن الخابور الأخرى^{٣٩}، ولنتعرف في البداية على أهم المساجد في دير الزور

أ- المساجد في دير الزور:

سوف نكتفي بالحديث عن أهمها والتي لعبت دوراً هاماً في الحياة الفكرية في العهد العثماني وكانت جوامع تجمع مكان الصلاة ومدرسة وحلقات ذكر وعلم.

- الجامع الكبير (جامع الوسط) :

سمي بالجامع الكبير لأنه كان أكبر مساجد دير الزور وأهمها منذ القرن الرابع وحتى أواخر القرن التاسع عشر، وعرف بجامع الوسط كونه كان قد شيد في أعلى قمة دير العتيق (القديم) من جهة الشرق، ويعد من أقدم المساجد في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة خلال العهد المملوكي وحتى العثماني.

أما شكل الجوامع فهو مستطيل غز يبلغ طوله نحو (٣٠م) ثلاثون متراً من الخارج وعرضه (١٥م) خمسة عشرة متراً، بما في ذلك فناء المسجد والمصلى مع باحته المكشوفة وله بابان أحدهما من جهة الشرق والآخر من جهة الشمال، وله باحة مكشوفة تقع في جهته الشمالية فيها موضعاً من جهته الشمالية الغربية وبركة ماء في وسطه.

أما المسجد فقد بني من الحجر والأجر، وفيه أميال وأعمدة من الأجر تحمل أسقف والذي بني من أعمدة خشبية مغطاة بطبقة طينية ممزوجة مع التبن، وتظهر في جدرانه نوافذ طولانية مصنوعة من الخشب متقاربة مع بعضها.

أما مئذنته فهي مئذنة الأضلاع رأسها على شكل قلنسوة، وهي مبنية من الأجر المترابط بملاط جبسي قاسي، قاعدتها من الأسفل مربعة الشكل يبلغ طول الضلع الواحد فيها قرابة (٣م) ثلاثة أمتار، وارتفاع تلك القاعدة (٥م) خمسة أمتار، تضيق المئذنة كلما اتجهنا نحو الأعلى حتى يصل عرض لا يزيد عن (٢/١م) نصف متر في قمته والتي وجدت فيها فتحة لخروج المؤذن^{٣٩٢} من الأعلى أما صعوده من الأسفل فقد جعل في قاعدة المئذنة بابين متقابلين من الجهة الشمالية وآخر في القبلية.

أما في وسط بناء المسجد فيعلوا سقفه قبة كبيرة والواسعة وفيها نافذتين صغيرتين تعقد فيه حلقات للعلم والتدريس في مختلف العلوم الفقهية والشرعية والدينية والتي غالباً ما تتم في فترة ما بعد صلاة العصر، وغالباً ما كانت تعقد فيه تلك الجلسات على شكل محاضرات حيث ألقى فيه العديد من الشيوخ والأساتذة علمهم الديني ولعل أشهرهم كان خطيب المسجد وهو الملا (أحمد عبد الحميد) والشيخ (الأستاذ حسين السراج)، ويعد هذا الجامع أقدم وأهم المراكز

الفكرية والمدارس التعليمية في المنطقة عامة، وقد ظل المتصرفون في دير الزور يقيمون صلاة الجمعة والأعياد فيه بصفته الجامع إلى أن تم بناء الجامع الحميدي (١٨٩٧م/١٣١٥هـ) وذلك في عهد المتصرف مصطفى رفقي باشا^{٣٩٣}.

- جامع الملا علي:

يقع في الجهة الشرقية من دير العتيق ويعود تاريخ بناءه إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر، وهي مبني من الطين والحجر، وسقفه من أعمدة خشبية تعلوها طبقة من الجبس القاسي، وهو مستطيل الشكل طوله (٢٥م) خمس وعشرون متراً وعرضه (٧م) سبعة أمتار، وهو يخلو من القباب وليس له مؤذنة وله باحة مكشوفة صغيرة وموضاً صغير.

أما فناء المسجد فهو مربع الشكل، أعيد بناؤه في عهد المتصرف صالح باشا في عام (١٨٩٣م/١٣١٠هـ) فصار له قبة كبيرة في وسطه وهي تحمل على أربعة أعمدة رخامية أسطوانية الشكل.

لقد لعب هذا المسجد دوراً في الحياة الفكرية، حيث كانت تعطى فيه دروس الفقه والحديث وعلوم القرآن وقد وقف فيه العديد من شيوخ وعلماء دير الزور كأساتذة ومحاضرين لطلابهم، وكان خطباء هذا المسجد يتكئ أي خطيب منهم على سيف أي غمد عند الخطابة^{٣٩٤}.

- الجامع العمري:

ويقع في أقصى الشرق من دير العتيق، ويعود تاريخ البدء ببنائه إلى أواخر القرن الثامن عشر وأنجز في مطلع القرن التاسع عشر (١٨٠٠م/١٢٢١هـ)، على يد أميرة من عرب الموالي تبرعت ببنائه على نفقتها الخاصة، أما من نفذ البناء فهو أحد الشيوخ في المنطقة ويدعى (محمد العمري).

393- سالتنامه الدولة العثمانية العليا، عام (١٨٩٦م/١٣١٤هـ)، ص ٩٢٢-٩٢٣.

394- ولعل من أشهرهم كان الملا علي والذي يعتبر أول أمام فيه، وكان يدرس الطلاب القراءة والكتابة وقراءة القرآن داخل المسجد حتى ارتبط اسم المسجد به منذ منتصف القرن التاسع عشر (١٨٥٠م) درس فيه الملا أحمد التدمري، والشيخ مصطفى اليساوي، والملا أحمد الشبيب، والملا غفور وكان خطيب المسجد ويلعب دور الواعظ وأستاذ التفسير والإعراب للقرآن الكريم ومعلم أصول الدين، وتميز بأنه كان يستند على سيف أثناء خطبة.

للمزيد أنظر: صليبي؛ عمر: معالم وأعلام ونضالات الجزيرة ووادي الفرات في العصر العثماني ١٥١٦-١٩١٨م) مطبعة دار العلم، دمشق، ط ٢٠٠٠م، ص ١٨٩-١٩٠.

وقد كان مبني من الحجر والطين بما في ذلك قبابه، أما مدخلة فهو من الجهة الشمالية وله ساحة صغيرة عند الدخول، والموضاً على اليمين من جهة الغرب، أما مساحته فيبلغ طوله حوالي (٥٠م) خمسون متراً وعرضه نحو (٢٥م).

أما سقف المسجد فبني من الطين وله سبعة قباب، واحدة كبيرة في الوسط تستند على أعمدة أسطوانية وثلاثة صغيرة في واجهة المسجد وثلاثة من الجهة الخلفية الجنوبية صغيرة أيضاً، وجعل في جدرانه نوافذ صغيرة عالية الارتفاع.

أما المئذنة فقد بنيت من الجهة الشرقية وتهدمت ثم أعيد بناؤها في عهد السلطان عبد الحميد الثاني وذلك عندما أعيد تجديد وترميم بناء المسجد وأنجز بناء المئذنة في عام (١٨٩٦م/١٣٠٣هـ)^{٣٩٥}.

وجعلت أسطوانية الهيكل رأسها على شكل قلنسوة مدببة وفي داخلها درج يساعد على صعود المؤذن.

تصدع هذا المسجد وأعيد بناؤه في عام (١٩٤٥م/١٣٦٣هـ) تبرعاً من أحد المحسنين^{٣٩٦} فسمي باسمه لفترة ثم عاد وارتبط بالاسم الأصلي له (جامع العمري).

يعد هذا الجامع أحد أماكن الفكر في المدينة (دير الزور) والمنطقة وقد بنيت فيه غرف خاصة للتدريس في الجهة الغربية من البناء، فكانت تعقد فيها حلقات العلم على يد مشاهير رجال العلم الديني والمشايخ، حتى أنه كانت الطلبة تتسابق في حضور الحلقات فيه^{٣٩٧}.

- جامع أهل الغرب:

وهو مسجد صغير وكان يقع في المنطقة الغربية من الدير العتيق لذلك دعي بجامع أهل الغرب، ولم يكن يتجاوز من حيث الطول خمسة عشر متراً وكذلك العرض، وفسحته السماوية صغيرة في جهة الشمال أما الموضاً ففي جهة الشمال الغربي من المسجد وكان يجاوره من الغرب دربة صغيرة يليها بيت سبع الدير الذي كان في أعلى القمة الغربية، وقد كان سقفه من

395- صليبي؛ عمر: أعلام ونضالات، ص ١٩١.

396- وهو الحاج (هزاع الحاج طعمة) أحد تجار دير الزور الميسورين، فأطلق عليه (مسجد هزاع) لفترة بسيطة من الزمن.

397- تعدد رجال العلم والدين كانوا يدرسون فيه ولعل منهم كان الشيخ أحمد السراج وعمر النقشبندي وكذلك كان يتردد عليه الشيخ حسين السراج.

الخشب ولم تكن فيه قبة أو مئذنة^{٣٩٨}، وكان يؤذن فيه (الملا حمود الحساني) في أواخر العصر العثماني على سطح الجامع، وعندما أزيل هذا المسجد أثناء هدم الدير العتيق وجدوا على الجنوب منه مسجداً آخر يعود إلى العصور الإسلامية الأولى فيما يعود تاريخ بناء جامع الغرب إلى نهاية القرن الثامن عشر، حتى أنه في نهاية القرن التاسع عشر كان قسم منه مشقق في السقف في السقف والجدران، وقد أزيل هذا الجامع مع هدم دير العتيق.

- جامع السرايا :

ومن حيث التفسير العام لكلمة السرايا أي (دار الحكومة والمحكمة) وقد كان هذا المسجد للموظفين الأتراك الذين يقطنون بدار الحكومة، وفي موقعه الحالي وكان ضمن دار الحكومة أيضاً المحكمة ودور الموظفين الأتراك ودائرة المتصرف العثماني، وموقع قيادة الشرطة الحالي هو مقر الحكومة العثمانية في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

والمشاهد لجامع السرايا قدما يرى واجهتين للجامع، إحداهما شمالية وأخرى غربية بينما تقع الجهتان الشرقية والجنوبية ضمن إطار البناء الحكومي الذي كان محاطاً بالأسوار الحجرية والحديدية.

وكانت الواجهة الشمالية للمسجد والمطلة على نهر الفرات مكونة من خمس أقواس والأقواس الشرقية والغربية فيهما تتراجعان عن الأقواس الوسطى البارزة والمكونة من ثلاث أقواس وسطية كبيرة وأكبرهما القوس الأوسط وجميع هذه الأقواس مصنوعة من الحجر الكلسي المنحوت، وكانت القبة الوسطى في المسجد أكبر القباب وأوضحها وتتكئ على أعمدة دائرية وبجوارها قبتان من الشرق والغرب، أما القبتان الغربيتان فإنهما تتجاوزان مع المئذنة التي شيدت زمن السلطان عبد الحميد عام (١٨٦٩م/١٣١٦هـ) وعلى نفقة الدولة آنئذ، ولا تزال شاهدة على العصر كما المآذن العديدة العثمانية في الجوامع والتكايا والمدورة الشكل والمصنوعة من الحجر الكلسي المنحوت والمنتهية بقبة يزيناها النحاس على شكل كرات في نهايتها الهلال.

وكان طول الجامع حوالي (٥٠م) وعرضه (٢٠م) وكانت له أروقة من الجهتين الشمالية والغربية تم هدمها في زمن الشيخ (عمر النقشبندي مفتي دير الزور عام ١٩٤٥م) وتحويلها

إلى حوانيت وبنيت فوقها للسكن بهدف الاستثمار المالي لمرفقات المساجد لإصلاحه والاهتمام به^{٣٩٩}.

- الجامع الحميدي:

وقد كان موقع هذا الجامع في موقعه الحالي، وكان الشكل الخارجي فيه مؤلفاً من بناء يعلوه سطح بتسع قباب، الوسطى أكبرها وذات نوافذ طويلة واسعة وتصغرهما القبتان الأماميتان والخلفيتان تماماً أما القباب الجانبية فهي القباب الأصغر من الجميع، وكانت ترتصف من الشمال إلى الجنوب، على شكل نسق واضح يمكن رؤيته من كل الجهات وإلى الغرب من الجامع بنيت المئذنة المستديرة المصنوعة من الحجر الكلسي كما واجهة البناء وجوانبه، وكان البناء العلوي للمئذنة متدرجاً ومتسعاً نحو الأعلى ولكنه مزخرف بطابع حجري متنوع، وتصبح المئذنة مخروطية بشكل أكبر كلما توجهنا إلى الأعلى، وتنتهي على شكل ثلاث حلزونات تنتهي بدورها بكرات نحاسية.

وتبدو الواجهة مكونة من ثلاث مداخل أكبرها المدخل الأوسط، وأما المدخلان الجانبيان فقد كانا أصغر منه وفوق المداخل نوافذ دائرية للتهوية، أما في الجوانب فكانت النوافذ فيها مؤلفة من أربع نوافذ طويلة بارتفاع ثلاثة أمتار وعرض متر واحد وفي أعلاها قوس دائري يشير إلى هيكالية البناء في الزمن العثماني.

لقد بوشر ببناء هذا الجامع في عام (١٨٩٤م/١٣١٤هـ) ويذكر أن الجامع الحميدي كان بمثابة جامعة إسلامية، إذ أنه كان للتدريس وليس لحلقات الذكر الصوفية، وقد أنشأه السلطان عبد الحميد وأنجز عام ١٣١٦هـ ١٨٩٦م^{٤٠٠}، وكان في المسجد غرف كثيرة يخصص بعضها للدروس، وأخرى لإقامة الطلاب الغرباء وذلك في القبو الأرضي.

وكان قيم الجامع الشيخ حسن زيتون رحمه الله، أما أمام الجامع فقد كان (الشيخ أحمد العربي) وينوب عنه في غيابه (الشيخ حسن زيتون)^{٤٠١} وكان الشيخ حسن يدرس القرآن ويقوم بتحفيظ الطلاب له كما كان يعلمهم القراءة والكتابة.

399- وثائق المحكمة الشرعية في دير الزور، سجل رقم (١)، رقم الوثيقة ١٣٦، عام

(١٩٢٤م/١٣٤٢هـ)، ص ٨٧.

400- وثائق الدفتر الخاقاني في متصرفية دير الزور، سجل رقم (١)، عام (١٣١٨-١٣٢١هـ)، ص ٦.

401- أحد مشاهير الأساتذة الذين علموا في دير الزور خلال العهد العثماني والفرنسي، وسوف نقدم دراسة له.

- مسجد أبي عابد :

يقع هذا المسجد في وسط محلة أبي عابد بدير الزور وقد بني في عام (١٨٩٣م/١٣١٢هـ) وذلك في عهد المتصرف صالح باشا، وقد بني هذا المسجد ملاصقاً لغرفة فيها مزار لقبر أحد الأولياء الصالحين الذين عاشوا في دير الزور خلال القرن الحادي عشر الميلادي حيث كان زواره الذين يعتقدون بكراماته كثر حتى أن أرض المنطقة التي دفن بها عرفت نسبة لكنيته أبي عابد وهو الشيخ محمد السائح^{٤٠٢}، وقد ضم هذا المسجد باحة صغيرة مكشوفة، ومكان للوضوء ، و(مصلّى) مما يميز هذا المسجد إنه كان بسيط بالبناء حتى أن سطحه لا توصله قبلة ولم تكن له مآذنة بل كان يرفع الأذان والتكبير من أعلى سطح هذا المسجد، ولا يزال هذا المسجد حتى اليوم قائماً في نفس مكانه ولكن بعد أن جدد أكثر من مرة أما المزار فكان ولا يزال خارج أسوار هذا المسجد ولكن كان له تأثير في زيادة أعداد المصلين والزائرين نظراً لاعتقادات بكرامات هذا الولي أبي عابد^{٤٠٣}.

المسجد السليمي:

ويقع هذا المسجد في أطراف حي الحميدية من الجهة الجنوبية، وقد أنجز بنائه في عام (١٩٣٦م/١٣٥٤هـ)، بفضل جهود خاصة من قبل أحد تجار مدير دير الزور وهو السيد محمد نوري السليم آل بكر ولذلك ارتبط اسم هذا الجامع نسبة لكنيته بانيه وهو مسجد صغير ضمّ مصلّى وباحة مكشوفة، ومكان وضوء وقد كانت تعطى فيه دروس لحفظ القرآن وتعليم القراءة والكتابة لأطفال حي الحميدية على شكل حلقات يعطيها أمام وشيخ هذا المسجد ولكن ضمن نفس المصلّى من فترات ما بعد الصلاة، وذلك نظراً لعدم وجود غرف مخصصة لهذه المهمة التي قدمنا لها دراسة سابقاً أو التكاية^{٤٠٤}.

أنظر: وثائق المحكمة الشرعية في دير الزور، سجل رقم ١، رقم الوثيقة ١٦٠، عام (١٩٢٤م/١٣٤٢هـ).
402- أبو عابد: وهو الشيخ محمد الهادي السائح المكنى بأبي عابد، ولد عام (١٩٠٢م/١٤١٥هـ) وتوفي في دير الزور ودفن فيها في عام (١٩٠٣/١٤٨٦)، كان شخصية معروفة بين رجال الدين والعلوم الشرعية، ليس في دير الزور والفرات الأوسط فحسب بل حتى على مستوى بلاد الشام والرافدين فقد اتصف بورعة وزهده، ويعتقد به البعض بأنه أحد أولياء الله الصالحين لذلك يزاره قبره حتى وقتنا الحاضر أما أصله فيعود نسبة إلى الإمام الحسين. للمزيد أنظر:

الرفاعي؛ عبد اللطيف: من شجر الأنساب، حلب، مطبعة الاتحاد، ط ١٩٩٥، ص ١٤١.

403 وثائق إدارية عثمانية، سجل الدفتر السخاقي لمتصرفية دير الزور، سجل رقم ١، عام ١٨١٨-

١٣٨١، ص ٧+ص ١٢٣.

404 -شوحان؛ أحمد: تاريخ دير الزور ، ص ١٣٢ .

ب- المساجد والجوامع في الرقة :

لقد أدى التطابق الديني بين السلطة والشعب المتدين، وأئمة الدين إلى مزيد من العطاءات، قادت على بناء الكثير من المساجد الحميدية أو (الكبيرة) في منطقة الجزيرة والفرات، ومنها في الرقة الجامع الحميدي وجامع الشراكسة.

- جامع الحميدي في الرقة (١٨٩٤م/١٣١١هـ) :

نسبة إلى السلطان عبد الحميد الثاني وقد تم بناء هذا الجامع في قلب بلدة الرقة القديمة وضم مسجد أو مدرسة صغيرة لتعيين الصبيان والبنان في الجهة الشرقية منه وذلك في عام (١٨٩٤م/١٣١١هـ) لقد أشرف على بناء هذا المسجد الشيخ عبد الرحمن زاده الحجار أما أمين الصندوق المشرف على نفقات بناء هذا الجامع فكان عبد الله أفندي العجيلي ومدير المالية هاشم بيك، أما المعماري فهو رجل من دير الزور وأسمه خضر الدرار لقد كان يعمل عند مجموعة من معلمي البناء من حلب والدير وقد وصلت كلفة بناء هذا الجامع (١٥٥٦) ليرة ذهب.

وبعد إنجاز هذا المسجد فإن مساحته كانت تصل إلى حوالي ٢دونم، وقد بني من الأجر والجص وله قبة على شكل قلوونسوة أما فناء المسجد فكان يتوسط المبنى (أي المصلى)، وقد صار هذا الجامع يقوم بأكثر من غرض فهو مسجد للصلاة ومدرسة لتعليم الأطفال وبعده صلاة المغرب مكاناً تعقد فيه حلقات العلم لتدريس الطلاب بمستوى أعلى من تلك المدرسة وكان يعطي فيه مثل الملا صالح الجلي وغيره حلقات في التفسير وعلوم القرآن الكريم والفقه والحديث^{٤٠٥}.

- جامع الشراكسة (١٩٠٧/١٣٢٤هـ) :

بني هذا المسجد في مدينة الرقة في أواخر العهد العثماني في فترة السلطان عبد الحميد الثاني وسمي بجامع الشراكسة نسبة على الحي الذي كان يقن فيه عدد كبير من الشراكسة في الرقة وتحديداً في الجزء الغربي من مدينة الرقة القديمة^{٤٠٦} ووجد هذا الحي خارج أسوارها

405 - الغزي: نهر الذهب، ج٣، ص٣٦٣.

406 - الغزي: نهر الذهب، ج٣، ص٦٣.

وقد كان هذا المسجد صغير المساحة مقبب بقباب صغيرة وبني فيه دكان وقف تعود واردة له للمسجد، وحوض صغير (فناء) خصص لأهل الحي كوقف للتشديد، بعد انتهاء فترة الاحتلال العثماني فوراً وكانت فيه تعقد حلقات لتعليم القراءة والكتابة.

- جامع السبحة :

ويقع هذا المسجد في قضاء السبحة، وقد بني في أوائل القرن التاسع عشر، ولم يكن فيه مؤذنة آنذ، ويشير أبناء المنطقة أنه لم يتجاوز من حيث المساحة طولاً مقداره (١٦م) وعرضاً (١٠م) وقد تهدم في أواسط القرن التاسع عشر وأعيد بناءه مع قبة وسطية كبيرة تحيط بها أربع قباب صغيرة، كما تم بناء مؤذنة له فيما بعد على زمن المتصرف ثريا باشا على نفقة أهل السبحة، وقد تم تشييد البناء للمرة الثالثة وتوسيعه في أواسط القرن العشرين^{٤٠٧}.

د- المساجد والجوامع في الميادين :

جامع المشوح :

إن الذي بنى المسجد هو مشوح العبد العزيز العاني عام ١٢٩٠هـ - ١٨٧٠م وكان سقفه من القطع الخشبية العادية والأعمدة الملتوية، وجدرانه من القرميد والطين العادي وكان الإمام والخطيب معاً (الشيخ عبد العزيز المشوح) وتلاه المفتي عمر المشوح، وجدده الشيخ عمر، وأعاد بناءه الشيخ محمود المشوح في الستينات من القرن العشرين.

وكان قد قدم من عانة في العراق على الميادين عام ١٢٤٠هـ أي حوالي عام ١٨٢٥م، وأما والذي فتاريخ ولادته يعود إلى عام ١٨٨٤م، وكانت العلاقات قائمة بين بغداد وحلب تجارياً، وكانت وسيلة النقل الأساسية هي السفن في نهر الفرات، وكان مرسى السفن أسفل منطقة العلو في الميادين، فشهد فتاة أعجبهته وسأل عنها وطلب يدها، فزوجها له وسكن بمنطقة العلو، وفي أيام حضوره لم يكن في الميادين إلا جامعاً وحيداً هو جامع العبيد، ففكر ببناء جامع عرف بجامع المشوح، وكان في مقابل النهر مباشرة، كما بنى منزله خلف الجامع، وكان عدد السكان أيامها محدوداً، ومع هذا فقد بادر بتعليم أبناء الميادين القراءة والحساب والكتابة بالإضافة إلى أمور الدين.

ولم تقم في الجامع حلقات ذكر صوفية، وكان الشيخ رمضان أفندي والد الشيخ حسين
الرمضان وصالح الرمضان من الناس الذين يصلون به وكل العلماء يصلون في الجامع، أما
الحركة الصوفية فقد كان مركزها في تكية الراوي^{٤٠٨}.

- جامع العلوة :

تشير الدلائل إلى أنه أقدم مسجد بالميادين، وأنه قد بني في وقت مبكر من القرن التاسع
عشر، ويذكر أهل الميادين أن الذي بناه هو (سيد عبيد المشهداني)، وعرف بجامع العلوة
لوجوده في منطقة العلوة، كما يعرف أيضاً باسم جامع عبيد.

وكان المسجد مؤلفاً من قبتين صغيرتين من القرميد والطين العادي، ومئذنته مائلة وقد
سقطت بعد سنوات وجدد أبناه (عبد الله بن سيد عبيد) عام ١٣١٩هـ أي حوالي عام ١٨٩٨م،
ولا زالت قائمة إلى الآن وقد كان خطيب المسجد الأول سيد عبيد، ومن ثم أبناه عبد الله، وقد
جدد وأعيد بناءه ولكن المئذنة لا تزال حتى اليوم^{٤٠٩}.

- جامع الوسط :

وسمي كذلك لأنه يقع في وسط منطقة الميادين سابقاً، وقد بناه الشيخ اسود الجبور في
مطلع القرن العشرين من القرميد والطين العادي، وكان سقفه من الحطب والقش والحصير
وحصر النخيل، ولم يلبث طويلاً فسقط، وكانت فيه مئذنة قرميدية أيضاً، وبعد هدمه أعيد بناء
الجامع عام ١٩٣٥م مع مئذنته بمساعي أهل الخير كما هي العادة في الميادين ولا يزال قائماً.

هـ- المساجد والجوامع في البوكمال :

الجامع الكبير في البوكمال :

يقع في وسط مدينة البوكمال الحالية، وكان قد ابتدأ العمل به عام ١٨٨٠م وتالف يومها
من قبة وسطية كبيرة وتحيط بها ثمان قباب أصغر ولا تزيد مساحته عن مائة متر مربع.

وأهم ما فيه الأعمدة والأقواس الرخامية التي يقول أبناء البوكمال أنه قد تم جلبها من
الموصل، وترصع الأعمدة التيجان من الأعلى، وكان قد بناه العثمانيون وأهل البوكمال وبنيت
له مئذنة لا تزال قائمة، وقد قام أبناء البوكمال بتوسيعه في مطلع القرن العشرين فتضاعفت

408- صليبي؛ عمر: معالم وأعلام، ص ٢١٠-٢١١.

409- عياش؛ عبد القادر: حضارة وادي الفرات، ص ١٤٢.

عدد القباب فيه والأقواس والتي كانت تصل لأكثر من أربعين قوسياً، وقد قام بالتعليم فيه الملا محمد الخرسا وتولى الخطابة والإمامة فيه.

و- المساجد والجوامع في رأس العين:

- جامع رأس العين:

تقتصر المساجد التي كانت في رأس العين على وجود جامع كان يحمل أكثر من صفة فهو بيت للعبادة ومكان للتدريس وفيه زاوية لإقامة المساكين والفقراء ويعتبر جامع رأس العين هو الأهم في منطقة الجزيرة خلال العهد العثماني حيث يسود تاريخ إنشاءه إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وقد كان يتلقى الطلبة فيه تعليم القراءة والكتابة وحفظ القرآن، وكان موقعه يتوسط رأس العين مركز البلدة القديمة^{٤١}.

٢- التكايا والطرق الصوفية في الفرات الأوسط والجزيرة:

أ- التكايا والزوايا:

أمنت الدولة الشيوخ بالعون ومصادر القوة المتعددة وأقطعهم الأراضي وأقامت التكايا خدمة لأغراضها ذات الأبعاد الدينية والفكرية والسياسية في ذلك الوقت وقبول الناس في ذلك الحين لمثل هذه الأدوار كان قد بني على مبدأ الجهاد والمجاهدة وطاعة أولي الأمر وعدم مخالفة أحكام الشريعة الإسلامية، ونقف عند التكايا في الفرات والجزيرة والتي نشأت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأهمها:

- تكية الراوي في دير الزور:

وتكية الراوي التي تقع الآن في وسط مدينة دير الزور على الشارع المؤدي لمدينة بغداد وكانت هذه التكية تبعد عن مركز المدينة مفازة لا تقل عن كيلو متر ونصف شرقاً، كما كانت إحدى المراكز الدينية التي نشأت في هذه المدينة، وقادت الحركة الفكرية فيها في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

أسس هذه التكية الشيخ أحمد بن حسين بن عبد القادر الراوي نسبة إلى مدينة (راوة) وذلك في عهد المتصرف حسين باشا في عام (١٨٨٣م/١٣٠٥هـ) وكان الدخول إلى التكية

الواقعة على الشارع مباشرة عبر بوابة كبيرة وذات باب مدور ومرصع بالحديد وتزدان بالنوافذ الطولانية المشرفة عليها.

وكانت التكية عبارة عن غرفة كبيرة بطول حوالي (١٥م وعرض ٦م) وهي مجلس الشيخ، وفيها يتم القيام بالذكر والتسبيح، كما أنها كانت مقراً لأهل العلم وبحث المشكلات الاجتماعية والقضايا الفكرية.

إذ أن التكايا والدواوين العامة، كانت المقرات الدائمة لمعالجة مختلف القضايا ولكن يظل للتكايا الدور الأكبر في حل القضايا الكبيرة، وذلك بالإضافة على أن المسائل الأساسية والدائمة في التكايا وهي اللقاء مع المريدين ومعرفة المشكلات التي تعترضهم وتجري عمليات (المذاكرة) أي عرض المشكلات النفسية والروحية أمام الشيخ الذي يقوم بتوجيه المريد هي الأساس، وللتكية أنظمة خاصة يحددها الشيخ (نوم-أكل-ذكر-علم..الخ)، وإذ أشرنا فيما سبق إلى تعلق المريدين وبعض الناس بالشيخوخ، إنما يأتي بفعل المكرمات التي اعتقاداً منهم يمنحها الله للشيخ، فإن ما يمكن ذكره أيضاً أن هذه المكرمات تجعل الناس أكثر تعلقاً فيهم من تعلقهم بالعالم ذلك العلم.

ويرى مريدوه أن هذه الكلمات والرؤى هي من (عالم الملك) في الفكر الصوفي، أما (عالم الملكوت) فهو الاجتماع بالأرواح الشريفة والطاهرة من الأنبياء، بينما العالم الأعلى فهو (عالم الجبروت) وهو التعرف على الصفات الإلهية، وهي أعلى الكرامات العظمى.

وإذ نعود مرة أخرى لمسألة الوصف للتكية التي كانت في جهة الغرب من موقعها السابق فإن الجهة الشرقية منها والمطلّة على ممر للمشاة، كانت تشرف على المسجد، وقد كان الممر عبارة عن فتحة سماوية وكان أمام التكية بئر وفي الوسط ضمن الفتحة السماوية بحرة، ومن الممكن أن تكون مياهها للوضوء.

وأما في الجنوب فهناك فسحة سماوية واسعة، وهي مسجد ومجلس صيفي ولا تزال القباب في القسم الشرقي منها والقبة الحالية تضم رفاة للشيخ وهي مزار، وإلى جانب قبره قبور بعض تلاميذه وأولاد الشيخ وزوجته، وبعد وفاته^{١١}.

وقد كانت المئذنة المصنوعة من الحجر الكلسي والمدورة الشكل في الأعلى وذات القاعدة الرباعية في وسط التكية، بينما هي الآن تطل على الشارع الرئيسي مباشرة، إذ تم

تعرض الشارع العام على حساب أرض التكية، وعلى المئذنة لوحة رخامية لا تزال واضحة ومكتوب:

الله أكبر أذن الداعي وحي على الفلاح
من بر سلطان الوري عبد الحميد مولى النجاح^{١٢}

- تكية الشيخ أحمد النقشبندي الكبير والمعروفة الآن بتكية الشيخ ويس في دير الزور:

تقع هذه التكية في الجهة الجنوبية الغربية من محلة الشيخ ياسي وتطل على شارعها الرئيسي تعرف باسم شارع التكايا لوجود التكايا فيه كمعلم شهير وكان قد بناها الشيخ أحمد النقشبندي الكبير (والد الشيخ ويس) عام (١٨٧٣/١٢٩١هـ) أما لماذا عرفت باسم تكية الشيخ ويس؟

فلأنه عاش بالبلد أكثر من والده الشيخ أحمد وأقام في التكية أطول من مدة إقامة والده، وكان الشيخ أحمد الكبير^{١٣} قد جاء إلى (الدير) بناء على طلب شيخه (حامل الجفا) من أجل الدعوة على ضوء ما قال أحفاده أبناء الشيخ عبد الجليل النقشبندي.

وكانت التكية في بداية الأمر مكونة من اللبن ومسقوفة بالصبر والحطب، ولم يكن لها مئذنة ولا قبة، وهي اقرب ما تكون منها للزاوية من المسجد، ثم اعيد بناء التكية بشكل أحدث وأوسع مما كانت عليه بناء على مشيئة السلطان (عبد الحميد الثاني) وذلك عثر ذهاب الشيخ إلى الأستانة لمعالجة ابنة السلطان عبد الحميد وشفائها على يديه.

وكان السلطان قد منحه الهدايا والثريات والفرش للمسجد، وأحضر معه ترخيصاً ببناء المآذن في دير الزور لمساجد العمري والحميدي والتكية وجامع السراية، وكان السلطان عبد الحميد قد منحه الأموال اللازمة لذلك.

412- دراسة ميدانية في عام ١٩٩٤م.

413 - أحمد الكبير: يقصد به الشيخ أحمد النقشبندي الأول واصطلاحاً أطلق عليه الكبير، وهو عراقي

الأصل ووصل إلى دير الزور في عام (١٨٧١م/١٢٨٩هـ) اشتغل في الزراعة ووعى إلى الطريقة النقشبندية فاجتمع حوله عدد من المريدين ثم بنى تكية خاصة للطريقة صارت تعرف باسمه ومن ثم باسم أبنه الشيخ محمد ويس، توفي الشيخ أحمد في دير الزور (١٩٠٦م/١٣٢٤هـ). أنظر:

حسني؛ حسن: محمد رئيس الخالدي، ص ٤٣.

وكان وصف التكية عام (١٨٨٢م/١٣٠٠هـ) إثر الانتهاء من بنائها كما هو الوصف الحالي لها وهو على النحو التالي:

المسجد ويقع في الجهة الشرقية من البناء مطلاً على الشارع من جهتي الشرق والجنوب أما من الشمال فينتهي بفسحة سماوية ومن جهة الغرب يظل على الرواق المسقوف بالأقواس الثلاثة المتصلة، وتبلغ أبعاد المسجد (الحرم ١٠×١١)، وفيه منبر على الطراز العثماني القديم.

ويتألف سقفها من تسع قباب أكبرها في الوسط، وبداخله مجموعة من الأعمدة الرخامية المستديرة التي يبلغ تعدادها أربع أعمدة، وتنتهي بيتيجان منحوت عليها أوراق نباتية، وفيها ثلاث ثريات أكبرها في الوسط والأصغر في الجانبين وفي الجهة الجنوبية الغربية منه مدخل لخلوة أسفل الأرض في المسجد (قبو) مكونة من غرفتين صغيرتين وعلى عمق أربعة أمتار تقريباً.

وكان الشيخ أحمد ومن بعده الشيخ ويس يتعبدان فيها مدة أربعين يوماً بين الفترة والفترة، وهذه الحالة هي جزء من مكونات الطريقة النقشبندية وفي هذه الفترة كان أكل الشيخ قليلاً ومكوناً من التمر والزبيب على طعام الإفطار إثر الصيام ولا يخرج الشيخ من خلوته إلا للصلاة

وفي المسجد مدة من الخشب في الجهة الشمالية يصعد عليها بسلم خشبي وإلى الغرب من الحرم، وفيه ثلاث نوافذ علوية بكل جهة وفي القبة الوسطية ست نوافذ، وسابعة مطلة على الطابق العلوي وأما الرواق والذي كان المدخل العام للتكية والمسجد والبيت تبلغ أبعاده (١١×٥)م تقريباً وهو مسقوف على شكل قباب متصلة مشكلاً ثلاث أقسام، وفي الغرفة الغربية تقع التكية، والتكية عبارة عن غرفة كبيرة للشيخ تقوم فيها حلقات الذكر والعلم، ويجاورها من جهة الشمال غرفة أخرى لخدمة التكية.

وكانت الساحة العامة في التكية تقع في الشمال أيضاً وهي مصلى صغير وكان فيها محراب أيضاً، أما منزل الشيخ ففي أقصى الشمال من الساحة، وفي الشمال الغربي الموضاً، كما كان في الساحة بئر من الماء وكان يوجد أيضاً (خوصة) وهي الباب الواصل بين بيت الشيخ (أحمد الكبير) والمسجد، ومن ثم تم بناء قبة كبيرة على ضريحه، وهو الآن مقبرة لآل الشيخ، والمقبرة أنشأت بعد بناء المسجد وفي عقار آخر مجاور له.

أما الوصف الخارجي للتكية فيشير إلى وجود نافذتين للمسجد من جهة الجنوب على جانبي المنبر، ووجود خمس نوافذ أخرى إلى الغرب من باب المدخل الجنوبي والرئيسي، أما من جهة الشرق فهناك ثلاث نوافذ، وتوجد نافذتان مطلتان على باحة المسجد الشمالية، ويتوسطها باب كبير كتب فوقه أبيات من الشعر نذكر منها:

بناه النقشبندي القادري الـ	غيث الشيخ أحمد خير ذات
بأمر من ولي الأمر عبد الـ	حميد البر مناح الهيات
وها هي منشآت أرخوها	دواع للصلاة مع الصلات

تاريخ البناء (١٩٠٦م/١٣٢٣هـ)^{٤١}

ولكل غرفة من غرف التكية باب ونافذة مطلة على الرواق، وتشرف على الرواق الواقع بين التكية والمسجد نوافذ أيضاً، وفي الشرق من الباب الرئيسي من الجامع مئذنة عثمانية الطراز، مبنية بشكل مستدير كما خصصت في إحدى غرفها زاوية صوفية وهي زاوية للطريقة النقشبندية.

- تكية الشيخ عبد الله في دير الزور

- وهي تكية الشيخ أحمد النقشبندي الصغير، والمعروفة أيضاً باسم (تكية الشيخ عبد الله) وقد بناها أيضاً الشيخ أحمد النقشبندي الكبير رحمه الله، على ما ذكره أبناء الشيخ عبد الجليل النقشبندي، ولها نفس الطراز والوصف ما عدا المئذنة التي لم تبين بسبب وفاة الشيخ أحمد الكبير، والمئذنة الموجودة فيها الآن بناها الشيخ عمر النقشبندي من الأسمنت المسلح، كما أن التكية تفتقد لخلوة، لأن الذكر الأساسي كان يتم في حياة الشيخ أحمد الكبير في التكية الأولى المعروفة باسمه، ثم أصبح الذكر في التكتيتين.

وقد بنيت هذه التكية في الجهة الجنوبية من محلة الشيخ ياسين وقد اتخذ بناؤها في عام (١٨٨٧م/١٣٠٥هـ) وذلك في عهد المتصرف مصطفى رفعتي باشا^{٤٢}.

414- تم استكمال أعمال التجديد والتوسعة للتكية، وبناء المأذنة والقباب من ثم تم قطع سند خاقان الرسمي بالتكية في عام (١٩٠٦م/١٣٢٤هـ). أنظر:

وثيقة إدارية عثمانية، صادرة عن إدارة الدفتر الخاقاني يقصد فيه دير الزور، (١٩٠٦م/١٣٢٤هـ)، هي سند ملكية تكية الشيخ ويس وجعلها وقفاً، من الوثائق الشخصية لآل الشيخ محمد ويس النقشبندي.

-- تكية الراوي في الميادين:

والمقصود هنا الشيخ أحمد الراوي الكبير الذي تحدثنا عنه عند كلامنا عن تكية الراوي في الدير وقد بنيت هذه التكية لأول مرة في الميادين وبمنطقة (الجوبة) عام (١٨٧٥م/١٢٩٢هـ) وكان قد أسسها الشيخ أحمد الراوي، وهو نفسه الذي أعاد بناءها بعد أن هدمتها السيول ولكن بموقعها الحالي أما موقعها القديم فقد كان بجوار بيت (السيد عبد القادر الضويحي) وقرب جامع المشوح.

وقد بنيت التكية الأولى من اللبن والحجر والوحل، وكان سقفها من جذوع النخيل والسعف ولم يكن لها قبة أو مئذنة، وقد أعاد الشيخ بناءها بعد هدمها وفي المرة الأخيرة عادت إلى موقعها الثاني، وكانت مركزاً من مراكز ممارسة الطريقة الرفاعية في الصوفية ومن روادها القدماء الأصدقاء للشيخ والمريدين ومنهم عليوي الناصيف وضيف المهيد وعلي محمد علي والشيخ بركات الجربا وطعمة اللطيف وزايد العبادي الذي كان صديقاً ومريداً والشيخ سعد الدين صليبي الحسيني مفتي.

ب- الطرق الصوفية:

جذبت الدولة العثمانية إليها علماء الدين الإسلامي وخاصة أصحاب الطرق الصوفية ورفعت من مكانتهم الاجتماعية، ورمز السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦م/١٢٩٤هـ) على هذا الأمر، حيث شهد عصره نشاطاً دينياً ملحوظاً تركّز على الفكر الديني الإسلامي وعلى الطرق الصوفية التي لاقت انتشاراً واسعاً في معظم المناطق العربية وولاياتها التابعة للدولة العثمانية لكون رابطة الدين الإسلامي هي الأكثر قرباً إلى قلوب الناس وهي الرابطة الوحيدة التي عول عليها السلطان جذبته للعرب من خلال ذلك، وتعد منطقة الفرات الأوسط والجزيرة (متصرفية دير الزور) واحدة من الألوية التي شهدت انتشار ثلاث طرق صوفية ولاقت إقبال واسع من أبنائها فصار لها أتباع أكثر من منتصف القرن الثاني إلى منتصف القرن التاسع عشر.

وهذه الطرق الصوفية الثلاث هي الدفاعية، والنقشبندية، والقادرية.

- الطريقة الرفاعية:

سميت بالرفاعية نسبة لصاحب هذه الطريق وهو الشيخ أحمد الرفاعي، ولسالكي هذه الطريقة أربع مراتب، وهي : (مريد، شاويش، نقيب، خليفة) وهي تقوم على خمس دعائم وهي : (الصحة، الذكر، المبايعة، الرياضات، الخلوات) وهي تعني ما يلي:

- الصحة: أي على المريد المصاحب أن يلزم حسن الاعتقاد بشيخه، ويلزم الكتاب والسنة.

- الذكر: (ذكر الله) وهو سر يفرغه المرشد في قلب المريد ويعتبر إفرادي كما يجوز بالتلقين الجماعي بقول عبارة، لا إله إلا الله.

- المبايعة: وفيها شيخ يأمر مريده بالوضوء وبصلاة ركعتين على نية التوبة ثم يجلس الشيخ على السجادة وأمامه مريده يجلس لاصقاً ركبتيه بركبتي الشيخ الذي يقرأ بعض الآيات والأحاديث ثم يستغفر الاثنان معاً ثلاث مرات وبعدها يلقي الشيخ العهد لمريده بقوله (أشهد الله وملائكته ورسله وأنبيائه و...الخ..

إن هذه المبايعة تجري على السالكون أهل المراتب الأربعة.

- الرياضات:

بعد تلقين المريد كلمة التوحيد يطلب منه الدوام عليها بذكر الواحد الأحد وهو "الله" و مدة لا تقل على ثلاثة أشهر فإذا اجتاز هذه المرحلة بنجاح نقل على مرتبة أعلى هي الشاويشية، ولكل منها رياضات خاصة بها تتراوح بين ثلاث إلى خمسة أيام، ويفصل بين كل اثنتين عشرة أيام، ويكون طعامه الخبز والملح والزيت^{٤١٦}.

- الخلوات:

وتقسم إلى مرحلتين الأولى: وتدعى خلوة التهذيب وهي خلوة مربوطة للخليفة مدتها ٤١ واحد وأربعين يوم ويصومها السالك ويكون فطورها وسحوره خبز الشعير وماء السكر واللوز، أما الثانية فهو الخلوة المخرّمية وهي سبعة أيام من محرم كل سنة،

416- الراوي؛ إبراهيم: السيد والمساعي مني أحزاب وأوراد السيد الرفاعي، بغداد، مطبعة بغداد، ط ١،

١٩٦٣، ص ١٣٦ وما بعدها.

وتضم خلوة مريدين، وخلوة خلفاء، وقد تزعمها الشيخ أحمد الراوي في منطقة الفرات والجزيرة.

- الطريقة النقشبندية :

- تزعمها الشيخ أحمد النقشبندي في الفرات والجزيرة وجعل مركزها دير الزور تقوم هذه الطريقة على حرية تصرف الشيخ الجديد، وإن كان ناقص القابلية وإلغاء الجذبة فهي، وعلى إتباع السنة وتجنب البدعة السيئة، وهي تقوم على العمل بأحد عشر كلمة فارسية وهي:

- هوش دردم:

وتعني حفظ التنفس على الغفلة ليكون قبله حاضر مع الله.

- نظر بر قدم: لا ينظر السالك إلى قدميه عند المشي وغلى ما بين يديه عند القعود.

- سفر دروخين: الانتقال من الصفات البشرية إلى الملكية الفاضلة.

- خلوة دراوجن: أي الخلوة مني الجلوه ، ليكون قلب السالك حاضراً مع الحق.

- يادکرد: أي تكرار الذكر بـ(لا إله إلا الله).

- بازگشت: أي الرجوع الذاكر بالنفي الاثبات بعد إطلاق قول (إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي).

- تكاه داشت: أي حفظ المريد قلبه من دخول الخواطر.

- يادداشت: أي توجه الصرف على شادة الذات الأصدية.

- وقوف زماني: أن يلتفت السالك إلى نفسه بعد مضي ساعتين أو ثلاث فيراها كيف كانت.

وقوف عدوي: المحافظة على عدد الوتد في النفي والإثبات^{٤١٧}:

ثلاثة، خمسة، سبعة.. إلى إحدى وعشرين.

- وقوف قلبي: أي حضور القلب مع الحق سبحانه وتعالى أما كيفية الذكر القلبي عند النقشبندية فإنها تقسم إلى شقين القسم الأول- ذكر بسم الذات، القسم الثاني- ذكر بالنفي والإثبات.

الطريقة القادرية :

سميت بذلك نسبة لصاحب هذه الطريق وهو الشيخ عبد القادر الكيلاني^{٤١٨} وللطريقة القادرية ثلاث عشرة مرحلة، سبعة أصول، وستة فروع، أما الأصول: فهي مداخل يلزم فيها المريد تلاوة اسم وورد بعد خاص ولا ينتقل منه حتى يستحق غيره بإشارة من الشيخ أو غيره، تظهر من الله سبحانه وتعالى بإمارات وقرآن، ولكل اسم نفس علامة ولون، وسيرة، وعالم، وسجل، وحال، ووارد، وأحلام، وطريقة لعبورها، فإذا انتهى المريد من الأصول انتقل إلى الفروع الستة ويمر بها واحداً بعد واحد، فإذا ختمت يعود إلى الاسم الأول حتى يأتي الله بالفتح من عنده.

أما الأصول السبعة فهي:

- النفس الأمانة: ووردها " لا إله إلا الله"، مئة ألف مرة تتلوه..
- النفس اللوامة: ووردها (الله) تلاوته ثمانية وسبعون ألف وأربع وثمانون مرة.
- النفس الملهمة: ووردها (هو) تلاوتها أربعة وأربعون ألف وستة مائة مرة.
- النفس المطمئنة: ووردها (هي) وتلاوتها عشرون ألف ومئتان وتسعون مرة، ثم يصلي ركعتين.
- النفس الراضية: ووردها كلمة (واحد) وتلاوتها ثلاثون ألف مرة.

417- الكردي؛ محمد أمين: تنوير القلوب، مصره مكتبة التهذيب، ط ١، ١٩٢٨، ص ٥٠٢ وما بعد.

418- ولد عبد القادر الكيلاني في جبل أوجلان ببلاد ما وراء طبرستان عاش في بغداد وتوفي فيها (١٠٧٨-١١٦٦م) كان له اتباع كثير ولا يزال مدفون في بغداد.

- النفس المرضية: وردھا (عزيز) تلاوتھا اربعة وسبعون ألف وسبع مائة واربع واربعون مرة.

- النفس الصحيحة أو الكاملة: ووردها كلمة (ودود) وتتلھ عشرة آلاف ومائة مرة، فإذا خلص المريد من هذه النفوس سار من خواص الكاملين، ويمكن أن بلغ الفروع الستة وهي (تقّ - قهار - قيّوم - وهاب - مهمين - باسط) فإذا انهاها عاد إلى ما بدء به بانتظار الفتح.

ثم يبایع الشيخ مريده بأن يجلسه أمامه لاصقاً ركبتيه بركبتي شيخه وواضع يده اليمنى بعدها صلاته ركعتين، ثم يقرأ الفاتحة للرسول والاه ثم يرددان وهم في وضعية المبايعة كلمات المبايعة، وبعدها يسقيه كأساً من الماء أو السكر أو زيت، ويقرأ على الشراب دعاء:

(سلام قولاً من رب رحيم)، وقوله تعالى: (تنزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) سورة الفاتحة والإخلاص، فتتم بذلك البيعة^{٤١٩}.

وقد تزعمها في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة من آل الخالدي وبعض آل النقشبندی^{٤٢٠}.

ثالثاً - خاتمة :

نستنتج مما سبق بأن الأوضاع السياسية والإدارية كانت هي السمة الغالبة على الحياة الاجتماعية والاقتصادية في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة السورية وذلك لما

419- القادري؛ إسماعيل: الفوضات الربانية في المآثر والأدراء القادرية، حلب ، مطبعة مصطفى الحلبي، ط١، ١٩٣٤، ص١٢ وما بعدها.

420- ونقصد بذلك كل من محمد سعيد النقشبندی وعبد الله أمراء النقشبندی وهو ابن الشيخ أحمد النقشبندی الصغير وقد تولى التكية التي أنشأها واحدة في حملة الشيخ ياسين وسميت باسمه تكية الشيخ عبد الله ، أما من آل الخالدي تزعم الطريقة محمد يس رمضان الخالدي والذي أجاز الطريقتين النقشبندية والقادرية سبق وتحديثنا عنهم أنظر: حسني؛ حسن محمد رئيس الخالد ، ص٥١ وما بعدها.

سببته من متغيرات سياسية نتيجة التنافس الاستعماري بين القوى الأوروبية المتصارعة على المنطقة خلال المرحلة التي عشنا بدراستها وكذلك بدء التراجع وأقول نجم الدولة العثمانية (الرجل المريض) التي كانت لا تستطيع الحفاظ على ولاياتها التي بقيت تحت سيطرتها لأكثر من أربعمئة سنة.

وبالتالي فإن تلك المتغيرات السياسية هي التي أعطت الصبغة الرئيسية للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وما شهدته منطقة الفرات والجزيرة من انتهاء الحكم العثماني عليها، ومن ثم سيطرة الحكم الشعبي المحلي وما تلاها من فترة احتلال إنكليزي ثم حكومة عربية (الحكم الفيصلي) ثم الاحتلال الفرنسي كل ذلك خلال مرحلة سنتين من الزمن شهدت تلك المتغيرات (١٩١٨-١٩٢٠م/١٣٣٦-١٣٣٨هـ) وهذا إن دل على شيء فهو يدل على النتائج التالية:

١- حالة عدم الاستقرار السياسي والإداري في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة السورية خلال مرحلة من عام (١٩٠٩-١٩٤٦م/١٣٢٧-١٣٦٥هـ).

٢- أصبحت منطقة الفرات الأوسط والجزيرة ذات أهمية سياسية نتيجة لموقعها الاستراتيجي وأوضاعها الاقتصادية والاجتماعية، فكانت عرضة للتنافس السياسي الاستعماري.

٣- أثرت المتغيرات السياسية تلك على الأوضاع الإدارية مما أدى إلى كثرة التغيرات الإدارية في المنطقة.

٤- عانت المنطقة من حالة اضطراب وانعدام الأمن وفقدان الاستقرار مما تسبب بالفوضى الأمنية والشعور بعدم الاستقرار من قبل سكانها نتيجة لتلك المتغيرات السياسية والإدارية.

٥- عاشت المنطقة خلال الفترة الطويلة من بحثنا تحت سيطرة الاحتلال الفرنسي وقد عانت من خلال هذا الاحتلال الولايات والاضطهاد مما أدى إلى حدوث ثورات شعبية وإضرابات سياسية، ومظاهرات أدت بالنهاية على التعبيرات عن حالة الرفض لذلك الاحتلال.

٦- شهدت منطقة الفرات الأوسط والجزيرة حركة الكفاح السياسي المسلح حيث نجحت مجموعات من الثوار سواء خلال فترة الاحتلال الإنكليزي أو الفرنسي بالمقاومة الشعبية المسلحة في إلحاق الهزيمة في أكثر من مرة لقوات الاحتلال.

٧ - عاشت منطقة الفرات الأوسط والجزيرة متغيرات اقتصادية على صعيد الزراعة أو الصناعة أو التجارة وخاصة في مجال الزراعة شهدت دخول آلات الري الزراعي الحديث بواسطة ماكينات الضخ المائي مما سهل عملية الري الزراعية.

٨- دخول بعض الحرف والصناعات التقليدية البسيطة إلى المنطقة وتطورها ولعل أبرز ما كان من صناعات قد أدخلت هي دخول شركة كهرباء خاصة لأول مرة في دير الزور عام ١٩٣٨م.

٩- تطورت حركة التجارة المحلية وذلك بتطور وسائل النقل خلال فترة الاحتلال الفرنسي.

١٠- سحب النقد الذهبي والفضي الذي كان متعاملاً به في الأسواق المحلية ليس بمنطقة الفرات الأوسط والجزيرة فحسب بل في القطر العربي السوري من قبل سلطات الاحتلال الفرنسي واستبداله بالنقد الورقي مما أثر سلباً على حركة التعامل التجاري المالية في الأسواق المحلية وعلى علاقات التبادل التجاري الخارجية..

١١- شهدت المنطقة دخول أعداد كبيرة من المهاجرين الذين وصلوا إلى منطقة الفرات الأوسط والجزيرة السورية وخاصة في أواخر العهد العثماني أي مع مرحلة بداية بحثنا ودراستنا هذه.

١٢- أثرت تلك الهجرات التي وصلت للمنطقة على حالة التوزيع السكاني والديموغرافي في المنطقة مما أسهم في زيادة عدد السكان بشكل كبير ومتسارع حتى وصلت النسب في بعض الأحيان إلى أكثر من أربعين بالآلاف سنوياً.

١٣- نتج عن تلك الهجرات دخول عناصر غير عربية على منطقة الفرات الأوسط والجزيرة واستمرت بوجودها في المنطقة وتعايشها مع أبناءها وهذا إن دل على شيء

فهو يدل على القدرة الاستيعابية والمرونة لدى أبناء تلك المنطقة مما سهل عملية اندماج هذه العناصر مع مجتمعهم المحلي.

١٤- تأثر هؤلاء المهاجرين بالعادات والتقاليد الشعبية المتعارف عليها في منطقة الفرات و الجزيرة وتعلمهم اللغة العربية بلهجتها المحلية للمنطقة، مما يدل على أصالة تلك العادات والتقاليد التي استطاعت أن تؤثر بهؤلاء المهاجرين.

١٥- عانت المنطقة من فروق اجتماعية واضحة ما بين طبقات المجتمع فكانت في القمة الفئة الحاكمة وفي القاعدة عامة الشعب، تتوسطها فئة من كبار التجار الأغنياء والموظفين الإداريين.

١٦- لم تنل المرأة حقها الكامل من الرعاية في المجتمع أو على صعيد الأسرة ولاحظنا ذلك من خلال دراسة أوضاع المرأة في التعليم والقضاء والأوقاف والإرث الشرعي....الخ.

١٧- النتيجة الأهم أن كل المتغيرات الإدارية والاقتصادية والاجتماعية أثرت بها الأوضاع السياسية والمتغيرات التي شهدتها منطقة الفرات الأوسط والجزيرة ، بل وأن الجانب السياسي هو المفتاح الرئيسي في تلك المتغيرات التي تنعكس على بقية الأوضاع كافة.

الفصل الثالث

عوامل ومقومات الحياة
الفكرية في لواء الفرات
(١٩٠٩-١٩٤٦م / ١٣٢٧-١٣٦٥هـ) :

عوامل ومقومات الحياة
الفكرية في لواء الفرات
(١٩٠٩-١٩٤٦م / ١٣٢٧-١٣٦٥هـ) :

أولاً - العوامل :

١- العامل السياسي.

٢- العامل الاقتصادي وطرق المواصلات (النقل).

٣- العامل الاجتماعي.

٤- دور العلماء والمفكرين.

٥- الموروث الثقافي.

٦- اللغة.

ثانياً : المقومات :

١- الكتابات.

٢- المكتبات وسوق الكتب.

٣- الصحف والمجلات.

٤- النوادي والجمعيات الثقافية والفكرية.

٥- المدارس.

١- العامل السياسي :

تمتاز منطقة الفرات الأوسط والجزيرة في بلاد الشام بأهمية خاصة، وذلك لجوانب متعددة سواء أكانت بشرية أو اقتصادية أو إستراتيجية... الخ، مما جعلها تتمتع بأهمية سياسية جعلت منها م ركزاً لفت أنظار واهتمام القوى السياسية الخارجية سواء الدول الاستعمارية أو الدولة العثمانية والتي كانت تسيطر على المنطقة وأولتها اهتماماً واضحاً في أواخر فترة تواجدها، وخاصة منذ أواسط القرن التاسع عشر حتى أنها حولتها إلى متصرفية مستقلة ممتازة في عام (١٨٨١م) / (١٢٩٩هـ) واستمر هذا حتى انسحابها وخرجوها من آخر جزء في أراضي المتصرفية في عام (١٩١٨م/١٣٣٦هـ).

أما القوى الخارجية الأخرى فهي دول أوربية عظمى كان لها مصالح حيوية واستراتيجية ليس في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة السورية فحسب بل في المنطقة

العربية ولذلك نافست أيضاً على السيطرة والتواجد في البلاد، وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا، وظهر ذلك واضحاً في اتفاق (سايكس- بيكو) ومن ثم تواجدها الفعلي عن طريق تدخلها العسكري المباشر، وقد جاءت البداية من قبل الإنكليز في عام (١٩١٩م-١٣٢٧هـ) فدخلت إلى دير الزور وتوسعت في الفرات الأوسط والجزيرة، تلاها الاحتلال الفرنسي في عام (١٩٢٠م/١٣٢٨هـ).

لقد ظهرت اهتمامات ونوازع للعديد من الدول الأوروبية الاستعمارية الأخرى والتي حاولت التدخل بشكل غير مباشر من خلال مجموعة من المشاريع الاستعمارية أو الشركات...الخ.

ومما سبق نلاحظ أن المنطقة شهدت تقلبات سياسية وعسكرية متعددة خضعت فيها للسيطرة من قبل قوى خارجية أو حتى داخلية استطاعت إحكام قبضتها وتولي زمام الحكم، والبداية لمرحلة بحثنا كان التواجد السياسي فيها للدولة العثمانية.

وتعد فترة انتهاء حكم السلطان عبد الحميد الثاني (١٩٠٩م/١٣٢٧هـ) هي نقطة البدء، ونلاحظ خلالها استمرار السيطرة العثمانية حتى عام (١٩١٨م/١٣٣٦هـ) بعد أن عانت من التردّي والإهمال لفترة طويلة من الزمن تجاوزت أكثر من ثلاثة قرون تركت خلالها لنفوذ الأمراء وزعماء العشائر المحليين منذ دخول الفرات والجزيرة تحت الحكم العثماني.

في عام (١٥١٧م/٩٢٣هـ)^{٢١} واستمر هذا حتى منتصف القرن التاسع عشر، حيث اكتفي خلالها العثمانية بالتبعية الاسمية مما أفسح المجال لحدوث الكثير من التمردات والنزاعات والحروب بين قبائل المنطقة وأدى إلى خروج بعض العشائر عن

(١) من تلك القبائل نذكر بنو ربيعة، والموالي، وبعض الزعماء المحليين أمثال آل الفضل ومدلج بن ظاهر ويلقب (أمير عرب الشام) وقد امتدت منازل هؤلاء من بادية الشام وحدودها مع السلية في سورية وصولاً إلى عانة والحديثة في العراق، للمزيد انظر: جب، هاملتون - بوون في هارولد: المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة أحد مصطفى، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧١م، ص ٥٠.

السلطة المركزية بين الحين والآخر ولفترات طويلة أحياناً أخرى^{٤٢٢} ، وذلك لانصراف العثمانيين إلى الشؤون العسكرية^{٤٢٣} .

استمر هذا الحال من الفوضى وانعدام الاستقرار وضعف الأمن مما أثر سلباً على الحياة الفكرية وأدى إلى حالة من التراجع الفكري نتيجة للانغلاق والعزلة التي عانتها المراكز الحضرية خاصة بعد تعرض المنطقة لغزوات وهجمات متكررة من قبل البدو على مناطق الفرات الأوسط والجزيرة (مدن وقرى..) وخاصة منذ أواخر القرن الثامن عشر وفي القرن التاسع عشر، فشكّلت تلك الهجمات ضغطاً على عشائر المنطقة مما أدى إلى حالة من الفوضى والحركة التي دفعت بعض قبائل وعشائر الفرات الأوسط والجزيرة إلى التحرك وأجرتهم على الهجرة وترك قراهم لتغير مكان إقامتهم لتحل مكانهم قوى قبلية أخرى قادمة من شبه الجزيرة العربية، وبالتالي أدت هذه التحركات إلى تغير ديموغرافي سكاني خلق نوعاً من الخوف والذعر للقرى والمراكز الحضرية الأخرى مما جعلها تنكمش على نفسها وتحصن نفسها وخير مثال (دير الزور) التي بنى أهلها سوراً محيط بدير العتيق وجعل له بابين للدخول أحدهما من الشرق ويدعى (الباب الشرقي) والثاني من الغرب ويدعى (باب الهوى) وجعل على كل باب مجموعة من الحراس فيتناوب شباب المدينة على الحراسة فيه خشية غزواً بدوي، فكان يؤخذ من كل عشيرة رجلان للحراسة وتقفّل الأبواب ليلاً.^{٤٢٤}

بل ومن حتى من كان يريد السفر فإنه يسافر مع قافلة جماعية تكون مسلحة وتسلك طرقاً محددة وواضحة تعرف مخارجها لكي لا تتعرض للنهب أو السلب، وهذه كلها صوراً لحالة الانكماش التي عاشت خلالها المنطقة بعزلة فكرية وسياسية واجتماعية أدت إلى انغلاقها فعانت البعد والتفوق على نفسها نتيجة لذلك الإهمال السياسي والحماية العسكرية وفقدان الأمن التي شهدته المنطقة من قبل الدولة العثمانية أدى في النهاية إلى الركود والجمود وبعداً عن المؤثرات الحضارية جعلت من الصعوبة إمكانية اللحاق بالركب الحضارية والتقدم الفكري المعاصر لها آنذاك.

⁴²² إسماعيل؛ حلمي: تاريخ العرب الحديث، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ط١، ١٩٩٧م، ص٣٧.

⁴²³ مصطفى؛ أحمد عبد الرحيم: في أصول التاريخ العثماني، القاهرة، دار الشروق، ط٢، ١٩٩٣م، ص١٠٦.

⁴²⁴ كان الحراس مسلحين ببنادق تعرف بتسمية محلية لنوعها (شيشاخات أم قطنة)

تلك الأوضاع التي سبق ذكرها كادت أن تؤدي إلى تهيمش الفرات والجزيرة من أي تقدم لولا بعض العوامل التي أسهمت في إمكان أن يحافظ المجتمع المحلي لسكانها على قدرتهم في التماسك والاستمرار رغم الظروف ورغم استمرار إهمال الدولة العثمانية للمنطقة في منتصف القرن التاسع عشر، عندما تنبعت إلى أهمية الفرات والجزيرة على مختلف الصعيد سواء السياسية أو الإستراتيجية أو الاقتصادية والاجتماعية..الخ.

إضافة إلى تحرك بعض القوى الأوروبية العظمى في المنطقة والاهتمام بها وإرسال جواسيسها لاستطلاع المنطقة ودراساتها والاتصال مع بعض زعماء وشيوخ العشائر المحلية والبدوية^{٤٢٥}.

كذلك اعتبرت بعض تلك القوى الغربية مجالاً حيوياً لمد نفوذها، وأخرى أرادت ممرًا سياسياً آمناً في مستعمراتها في الشرق، وآخرون أرادوها لقربها من منابع النفط التي بدأت رائحتها تفوح في المناطق القريبة كالعراق وشبه الجزيرة العربية منذ بدايات القرن العشرين.

وهنا نلاحظ بأن منطقة الفرات والجزيرة قد دخلت في إطار اهتمام القوى السياسية الدولية المتنافسة آنذاك وعلى رأسها إنكلترا وفرنسا وألمانيا وغيرها من الدول الأوروبية الاستعمارية^{٤٢٦}، إضافة إلى الدولة العثمانية والتي كانت تخضع المنطقة لنفوذها.

لقد لعبت تلك الظروف والمتغيرات السياسية دوراً هاماً من الجانب الأمني تساعد في كسر حاجز العزلة والانغلاق الذي استمر لفترة طويلة على المنطقة فكانت إحدى المنعكسات السياسية، مما أسهم في الانفتاح الفكري والحضاري، ولذلك سوف نتطرق للحديث عن أهم تلك الأحداث والمتغيرات السياسية والتي جعلت من الفرات الأوسط

⁴²⁵ زكي ؛ صالح: مجمل تاريخ العراق الدولي في العهد العثماني، القاهرة، ط١٩٦٦، ١م، ص٤٧.

⁴²⁶ أرادت بعض الدول الأوروبية أن تجعل من أهمية منطقة الفرات الأوسط والجزيرة في بلاد الشام حاجزاً في وجه النفوذ الروسي المتنامي، وذلك لامتدادها الطبيعي في وسط إقليمين هامين في الوطن العربي هما العراق وبلاد الشام. للمزيد انظر غانم؛ نائلة: اتفاقية سايكس بيكو ومنعكساتها، دمشق، مطابع الإدارة السياسية، ط ١ ٢٠٠٨، ص ٦٥-٦٦. وانظر : زكي؛ صالح: مجمل تاريخ العراق، ص٤٧ - ٤٨

والجزيرة بل وبلاد الشام عامة ساحة لهذا التنافس الاستعماري والذي تجلى بمظاهر عدة منها ما هو عسكري مباشر أو سياسي مبطن بمجموعة من المشاريع والاستثمارات والشركات الاستعمارية وبالتالي فإن الطريقتين هما وجهان لعملة واحدة، وقد ظهر ذلك واضحاً منذ منتصف القرن التاسع عشر، ومن ثم تجلى بشكل واضح خلال مرحلة بحثنا باحتلال أوربي مباشر بدايته كانت إنكليزية ١٩١٩م/١٣٢٧هـ تبعها الاحتلال الفرنسي (١٩٢٠م/١٣٢٨) وقبل هذا كل فقد تنبّهت الدولة العثمانية لأهمية المنطقة وإن كان متأخراً - نتيجة لتحركات عديدة قامت بعض الدول الأوروبية مثل إجراء مسح طبوغرافي ودراسة جغرافية للفرات الأوسط وبادية الشام والجزيرة، أو إرسال البعض جواسيس إلى المنطقة للتغلغل فيها وتقديم معلومات ودراسة واضحة عنها^{٢٧}، وأخذت بعض الدول الأخرى تحاول من خلال جواسيسها الاتفاق مع بعض زعماء العشائر والاتصال بهم لعقد اتفاقيات سرية معهم تمهيداً للتخطيط لدخول المنطقة^{٢٨} في حين حاول بعض الدول من خلال قناصلها الاتصال مع القوى السياسية المحلية^{٢٩} ذات التأثير والتواجد القوي، وأحياناً أخرى يتم الاتصال بواسطة التجار المسافرين، وغيرها من أشكال التغلغل السياسي تلك، وبالتالي فإن جذور التنافس الاستعماري تعود إلى مرحلة سابقة لبحثنا، وقد تجسدت إلى أرض الفرات و الجزيرة صور وطرق متعددة، فنلاحظ اهتمام بريطانيا الزائر بمنطقة الفرات الأوسط في سورية والعراق الأدنى في العراق حتى أنها أخذت تفكر بالسيطرة عليها وأخذت تجري دراساتها للمقارنة و المفاضلة بين الطريقين المصري (قناة السويس) - والفراتي (من الفرات)^{٣٠}، للرد سياسياً على فرنسا في مشروع قناة

⁴²⁷ طربين، أحمد: تاريخ المشرق العربي المعاصر، ص ٣١٩.

⁴²⁸ حجار، جوزيف: سورية بلاد الشام تجزئة وطن، دمشق، دار طلاس، ط ١ ١٩٩٩م، ص ٢٨.

⁴²⁹ بلنت، أن : قبائل بدو الفرات، ص ٢٣-٢٨.

كان لافتتاح قناة السويس في عام (١٨٦٩م/ ١٢٨٦هـ) أثر واضح على طرق التجارة في بلاد الشام، فإذا كان افتتاحها نكبة بالنسبة للتجارة في حلب ، فإنه منح طرق التجارة النهرية عبر الفرات، حيث أدى إلى زيادة الإقبال على نقل قسم كبير من البضائع القادمة إلى العراق، عبر الفرات إلى البصرة وتصدر من هناك، أنظر: شارل، العيساوي: التاريخ الاقتصادي للمشرق الأوسط وشمال إفريقيا، ترجمة: سعد رحمي، بيروت، دار الحداثة، ط ١، ١٩٨٥م، ص ٩٩-١٠٠.

⁴³⁰ وللمزيد انظر: عامر؛ حمود: نهر دجلة والفرات وأهميتها الاقتصادية في العهد العثماني، مجلة كلية

الآداب صنعت، العدد ٧/ ص ١٦٥.

السويس، وهي في نفس الوقت كانت تسعى بذلك للحيلولة دون الزحف الروسي نحو منطقة العراق والخليج العربي خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، وقد اعتمدت بريطانية لذلك على عدة أمور منها ما يخص منطقة الفرات والجزيرة وقد تجسد هذا في لجنة أرسلتها بريطانية إلى الفرات الأوسط هي (لجنة تشنسي) والتي قامت بإجراء مسح سياسي وطبوغرافي للمنطقة أوضحت في نهايته أهمية منطقة الفرات الأوسط سياسياً واستراتيجياً، ولعل أبرز ما ركز عليه التقرير يتلخص بمخاطبة رئيس اللجنة (تشنسي) للحكومة البريطانية قائلاً:

(إن أهمية المنطقة للمواصلات السريعة تتضاءل إذا ما قيسَت بأهميتها السياسية، وذلك بوصفها حاجزاً في وجه النفوذ الروسي، حاجزاً يستند إلى تجارة نامية ومفيدة لنا ولمستعمراتنا في البلاد العربية^{٣١}).

بدأت بريطانية محاولة الاتصالات مع زعماء القبائل البدوية المحلية وشيوخ العشائر منذ منتصف آذار من عام (١٩٣٦م/١٢٥٢هـ) وبأشرت الاتصال مع الزعماء الذي كان لهم مكانة و سطوة ممن يتمتعون بنفوذ كبير على امتداد وادي الفرات وباديتي الشامية والجزيرة، فاخترت قبيلتين للاتصال بهما (العنزة، وشمّر)^{٣٢} وذلك عن طريق مبعوثيها وجواسيسها فوصلت الأخبار إلى العثمانيون وكانت بمثابة إنذار أولي لخطورة الموقف الأوربي والتنافس الاستعماري تلا ذلك ظهور من الشركات التجارية الأوربية ذات الطابع السياسي المبطن برداء اقتصادي ومعظمها كانت في التجارة والملاحة والمواصلات، نذكر منها على سبيل المثال شركة بلجيكية للملاحة في الفرات ودجلة، وأسست شركة لينتش للملاحة في الفرات ودجلة كما اتفقت الحكومة العثمانية مع حكومة بالمرستون الإنكليزية على مد خط برقي على

⁴³¹ زكي، صالح: مجمل تاريخ العراق، ص ٤٧.

١٢ (العنزة وشمّر) قبيلتان عربيتان أصليتان ومن كبرى القبائل العربية، موطنهما الأصلي شبه الجزيرة العربية، هاجرت بعض بطونها خلال العهد العثماني نحو بلاد الشام فاستقرت العنزة في بادية الشامية وبعض المراكز الحضرية في الفرات الأوسط واستقرت شمّر في بادية الجزيرة، للمزيد انظر: عزوي، عباس: عشائر العراق، ٤ أجزاء، بغداد، مطبعة الشريف العرضي، ط ١ ١٩٩٥م، ج ٤، ص ١٢٨-١٨٩ وانظر: الطيب؛ محمد سليمان: موسوعة القبائل العربية (بحوث ميدانية وتاريخية) ٥مج، بيروت، دار الفكر العربي، ط ٢، ١٩٩٦م، مج ٢، ص ٢٤-٢٦.

طول نهر الفرات وشركة الملاحة الخارجية في دجلة الفرات والفرات، وهم شركتان إنكليزيتين، وقد كانت هذه المنافسة التجارية السياسية للشركات^{٣٣}، وقد ظهرت في وقت متقارب لظهور دعوة لإنشاء سكة حديد فراتية تمر بدير الزور، وقد اعتبرها الإنكليز جزءاً رئيسياً من مشروع سكة حديد بغداد في عام (١٨٥٧م/١٢٧٥هـ)، وهذا يعود لأسباب كثيرة لعل أبرزها هي الجانب السياسي لشعور بريطانية بضرورة تعزيز نفوذها في المنطقة ضد الخطر الروسي، وتأمين طريقها إلى مستعمراتها في الهند، إلا أن اصطدام إنكلترا برغبة النفوذ الفرنسي الاستعماري في التوسع بمنطقة الفرات والجزيرة بل وسورية عموماً، مما أوقف المشروع^{٣٤}.

أخذت الدولة العثمانية ذلك كله بعين الاعتبار وأظهرت نوعاً من الاهتمام بالمنطقة رغم عدم مقدرتها على تثبيت أقدامها فيها بشكل مستمر يؤمن الاستقرار لتواجدها، مما أدى لعدم تمكنها من إحكام سيطرتها وقبضتها عليها، ولذلك عملت منذ تلك المرحلة جاهدة على وضع يدها بشكل مباشر على المنطقة بل وقامت بربطها بشكل مع الآستانة منذ عام (١٨٨١م/١٢٩٩هـ)^{٣٥}، خاصة وأن باديتها بشقيها (الشامية والجزيرة) تشكل خطراً سياسياً وأمناً فيها، ويعود ذلك لكثرة تمردات البدو وتحركاتها التي بها القبائل البدوية حتى أن الكثير منها قد وصل إلى مدن وقرى المنطقة وصار يهدد أمنها وخاصة دير الزور و الرقة وتدمر والسخنة...الخ.

إضافة إلى أنها كانت تشكل خطراً على طرق القوافل التجارية العابرة بالمنطقة وتقود بمهاجمتها بين الحين والآخر وعلى رأس تلك القبائل البدوية التي سيطرت عليها كانت قبيلة العنزة^{٣٦}، لذلك وضعت الدولة العثمانية ثكنات عسكرية (قشلة) على مسافات الطرق لكي تؤمن الحماية والأمن لتلك الطرق التجارية، حتى أن بعض المراكز الحضرية قد ارتبط أسمها (بالقشلة) مثل البوكمال والميادين.

١٣ غانم، نائلة: اتفاقية سايكس بيكو ومنعكساتها، ص ٦٤.

MONDES EN DEVELOPEMENT AVEC LE CONCOVRS DS :)^{٤٣٤} Fromcois (LVNESCO ET DV C.N.R.S 1980,P.465.

^{٤٣٥} عين على متصرفية دير الزور في فرمان السلطاني حسين باشا كمتصرف يدير شؤون منطقة الفرات

الأوسط والجزيرة- انظر: سالنامه ولاية حلب عام (١٨٨١م/١٢٩٩هـ)، ص ٨٤.

^{٤٣٦} جب، هاملتون: المجتمع الإسلامي والغرب، ج ٢، ص ٥٠-٥١.

كل تلك المتغيرات والأحداث أدت إلى حالة من الاستقرار الأمني سواء داخل المراكز الحضرية في المنطقة أو على طرق النقل وسلامة أمنها، مما أسهم في كسر تلك العزلة السياسية والفكرية السابقة عليها.

لقد وجدنا أن الصفة العشائرية هي التي كانت تسيطر فعلياً على المنطقة والقبائل البدوية تقوم بأعمال السلب والنهب وقطع الطرق وفرض الضرائب على قوافل التجار والمسافرين والحجيج فكانت تضطر إلى حمل (الصرة)⁴³⁷ معها لحماية قوافلها تلك.

ومما زاد من تمرد البدو إلى درجة أنهم أصبحوا مصدر خطر على الدولة العثمانية نتيجة لازدياد نفوذهم السياسي، حيث راحت بعض القبائل البدوية التي وصلت إلى المنطقة، تقوم بقصد الاتفاقيات مع بعض الدول الأوربية مثل فرنسا وإنجلترا، كالاتفاقية التي عقدت بين بريطانيا وعشيرة العنزة في عام (١٨٣٦م/١٢٥٥هـ) وقد مثل بريطانيا في هذه الاتفاقية (تشنسي) والتي تضمنت السماح لإنجلترا في التدخل بأمور الصحراء الشامية مقابل مبلغ للقبيلة يعطى سنوياً⁴³⁸.

بل وراحت الدول الاستعمارية ترسل جواسيسها إلى المنطقة بقصد وضع دراسة سياسية وتوضيحية لطبيعة المنطقة، وديموغرافية بغية الاتصال مع زعماء العشائر المحليين فكانت إحدى العوامل التي ساعدت على الانفتاح بدلاً من العزلة⁴³⁹.

أمام ذلك التنافس الدولي على الفرات، اضطرت الدولة العثمانية إلى تغيير سياستها في المنطقة، ولهذا قامت بخطوتين هامتين في تاريخ الفرات الأوسط:

⁴³⁷الصرة: وهي المبالغ المرصدة للصر أو الصرة التي كانت تدفع إلى بعض القبائل البدوية على طرق الحج لشراء حمايتها، وقد كانت تدفع من قبل الدولة العثمانية عن طريق موظف يعرف (الصرة أميني) أما القوافل التجارية فكانت تدفع الصرة من قبل التجار انظر: رافق، عبد الكريم: قافلة الجمع الشامي وأهميتها في العهد العثماني، دمشق، مجلة الدراسات التاريخية بجامعة دمشق، العدد ٦، تشرين الأول ١٩٨١م، ص ١٢-١٣.

⁴³⁸ طربين؛ أحمد: تاريخ المشرق العربي المعاصر، ص ٣١٩.

⁴³⁹ بلنت، ان: قبائل بدو الفرات، ص ٢٣-٢٨.

الأولى: وهي السعي إلى تحقيق الاستقرار والأمن فيها ليساعدها على تثبيت أقدامها.

أما الثانية: فهي باتباعها سياسية الانفتاح وإدخال المنطقة في واقع متغيرات عصرها لأجل أن تسير ولو خطوة واحدة إلى الأمام في هذا الميدان.

ولهذا فقد استخدم العثمانيون سياسية الإقناع حيناً والشدة والحزم حيناً آخر، فاستطاعت أن تقنع بعض شيوخ العشائر البدوية وزعمائها بإقامة منازل لهم في مركز المتصرفية (دير الزور) وخصصت لهم رواتب ومنحتهم نفوذاً محلياً، وجعلت منهم صلة الوصل ما بين الشعب والدولة، وكذلك استخدمت أحياناً أخرى أسلوب القوة فوجهت حملات عسكرية في حال عدم جدوى سياسة اللين والإقناع، ونتيجة لذلك كثيراً ما ثارت وتمردت قبائل البدو على الدولة⁴⁴⁰.

ومن خلال ما سبق فقد سعت الدولة العثمانية لإحكام قبضتها على المنطقة من خلال تحويلها على متصرفية مستقلة ممتازة ترتبط مع الآستانة مباشرة في (١٨٨١م/١٢٩٩هـ)⁴⁴¹ وإن تلك الأسباب السياسية التي ذكرتها قد لعبت بمجملها دوراً هاماً في تخلف المنطقة من الناحية الفكرية، ولذلك فإن الخطوتين اللتين تقدمت بهما الدولة العثمانية قد نتج عنها تغير ملحوظ للمنطقة إذ أعادت الروح والحياة إليها وساعدت إلى إنعاشها لتغير واقعها بكسر

حواجز العزلة والانغلاق الذي عاشته مدنها داخل أسوارها كما لعب هذا التنافس الدولي دوراً مؤثراً في خلق حالة من التواصل لأبناء المنطقة مع الخارج للإطلاع والاحتكاك مع دول ذات تقدم فكري وعلمي.

⁴⁴⁰ وثائق الأوامر السلطانية بحلب، السجل، رقم ٥٧، رقم الوثيقة ٤٧١، عام ١٨٥٠م/ ١٢٧٠هـ، ص ١٩٤.

ولعل ذلك يرجع إلى خوف الدولة العثمانية من تأثيرات تمرد البدو في منطقة البادية وكذلك أبناء الفرات والجزيرة على الأمن والاستقرار، مما يؤدي إلى اضطراب الأمن في الولاية مما حد بها إلى جعل دير الزور متصرفية مستقلة ممتازة، ولهذا كانت تزود المتصرفين الذين⁴⁴¹ تعينهم على الفرات والجزيرة بتعليمات تقضي باستعمال المرونة والمبادرة السنة مع الأهالي بسبب طابع البداوة والخشونة الغالبة على المنطقة انظر: وثائق الأوامر السلطانية بحلب السجل رقم ٦٠، دون رقم الوثيقة، عام ١٨٥٥م/ ١٢٧٥هـ، ١٨.

أسهم هذا الاحتكاك في إدخال أفكاراً جديدة ذات ثقافات متنوعة وقوميات متعددة مما شجع إلى إثارة وتحفيز العاطفة القومية وإبرازها أمام الأفكار أو القومية التركية وضد النزعة الطورانية وغيرها، والتي كانت جميعها تطرح في المنطقة بشكل مباشر (كالنزاع السياسي..)، أو غير مباشر وبطرق متعددة (كالتعليم..).

وأمام تلك الأوضاع والمتغيرات السياسية ظهرت فئة من المثقفين الذين نادوا بالتماسك في وحدة الصف المحلي العربي مع العثمانيون بحجة الرابطة الدينية الإسلامية مما دفع بالعثمانيون إلى تشجيع الطرق الصوفية ونشدها في المنطقة كما في غيرها من المناطق العربية الأخرى، كما قامت بتقريب رجال الدين إلى السلطة مما أسهم بتطور الفكر الديني في المنطقة^{٤٢}.

وكذلك ظهر تيار قومي نادى بالعروبة أولاً وبعيداً عن أي عامل آخر وجعلت رابطة القومية العربية أهم وأقوى من الروابط المتعددة الأخرى حسب وجهة نظر هذا التيار.

تعد مرحلة التغير والانفتاح هي الانطلاقة الأساسية للمنطقة وذلك منذ منتصف القرن التاسع عشر وما بعد، ولذلك فإن المتغيرات السياسية التي شهدتها الفرات الأوسط والجزيرة خلال فترة دراستي هذه (١٩٠٩-١٩٤٦م/١٣٢٧-١٣٦٥هـ) والتي خلالها انتقلت السيطرة على المنطقة ما بين الدولة العثمانية ثم حكم شعبي محلي تلاها الاحتلال الإنكليزي خلال عام (١٩١٩م/١٣٢٧هـ) تلاها حكم شعبي سيطر على السلطة كمقاومة ثم أعقبها الاحتلال الفرنسي الذي استمر من عام (١٩٢٠-١٩١٦م/١٣٣٨-١٣٦٥هـ) وصولاً إلى الاستقلال والحكم الوطني.

إن هذه المتغيرات السياسية كانت بمثابة قفزات لها أثرها في نمو الوعي الوطني حيث حفزت وحركت عقول المفكرين وتفتت أذهانهم إذ كان همهم الرئيسي هو الدفاع عن وطنهم وعروبته مما خلق تنظيمات سياسية لم تكن المنطقة قد عرفت سابقاً، إضافة لظهور عدداً من الكتب والمؤلفات والدواوين والقصائد الشعرية السياسية والتي

⁴⁴² رويلي؛ محمد رشيد: الحركة الثقافية في محافظة دير الزور وخلال القرن العشرين، دير الزور دار صائب للنشر والتوزيع، ط٤، ٢٠٠٤، ج١، ص١٠١.

تشير الجانب القومي، وظهور صحف محلية ومجلات، وخلق نوادي ثقافية وأدبية ذات طابع سياسي.

وظهور صحف محلية ومجلات وخلق نوادي ثقافية وأدبية ذات طابع سياسية، وظهور أندية رياضية تحمل الفكر السياسي، لقد تنتج هذه الأوضاع والمتغيرات السياسية جملة من الأحداث التي أسهمت في الحياة الفكرية يمكن استنتاجها وتلخيصها على النحو التالي:

- ظهور تنظيمات سياسية شعبية محلية لم تشهدها المنطقة من قبل، وكان لها دوراً مؤثراً وفاعلاً في تفتيح الأذهان وتوعية المجتمع المحلية بواقعه السياسي والجانب القومي.

- نشوء بعض الجرائد والمجلات المحلية، وقد كانت ظاهرة لم يسبق وأن عرفت المنطقة إلا خلال مرحلة دراستنا هذه⁴⁴³.

- تأسيس أندية ثقافية وأدبية ورياضية وفنية إلا أنها جميعاً كانت في باطنها تحمل روح العمل القومي والسياسي فتمارس نشاطاتها السياسية سرّياً.

- تعدد أنواع وطرق التعليم سواء منها ما هو تقليدي قديم واستمر مثل التعليم في التكايا والمساجد والكتاتيب، أو التعليم الحديث في المدارس النظامية والتي أخذت بالازدياد والتوسع.

- إقبال الناس على السكن في أحياء جديدة وخارج إطار أسوار مدنهم وبالتالي التخلص من حالة الانعزال والانغلاق الفكري التي كانت تسببها الحالة السياسية واضطراب الأوضاع الأمنية.

⁴⁴³ أول صحيفة صدرت في منطقة الفرات والجزيرة فكانت صحيفة (جول)، والتي صدرت في عام (١٩١٦م/١٣٣٤هـ) ومركز طباعتها في مدينة دير الزور، وصدرت بأربع صفحات أو باللغتين العربية والتركية، أنظر: عياش؛ عبد القادر: حضارة وادي الفرات، ص ١٥٧.

- لعبت العاطفة القومية دوراً هاماً في الجانب السياسي نحو تحريك أذهان أبناء المنطقة فكرياً لتحفيزهم نحو الدفاع عن عروبتهن وإنارة أذهان الناس من المخاطر التي تحيط بهم من القوى المحتلة والمستعمرة.

- البدء بتأليف الكتب والمؤلفات ذات الفكر السياسي، وإلقاء الخطب السياسية وتنظيم المظاهرات الشعبية وتحريك المقاومة السياسية والعسكرية، والاتصال مع أبناء المناطق الأخرى بقصد التعاون في ميدان النضال الوطني ضد المحتل والرد على السياسة الاستعمارية التي كانت تمارس على أبناء المنطقة⁴⁴⁴.

لقد لعبت المتغيرات السياسية دوراً هاماً في الحياة الفكرية كما أسهمت في تفتيح الأذهان وتحريكها مما ساعد في دفع الحركة الفكرية قدماً نحو الأمام.

وتعد فترة انتهاء حكم السلطان عبد الحميد الثاني (١٩٠٩م/١٣٢٧) هي نقطة البدء، ونلاحظ خلالها استمرار السيطرة العثمانية حتى عام (١٩١٩م/١٣٣٦هـ) وبعد أن لقيت اهتماماً (بعض الشيء) من حيث الجوانب السياسية والإدارية بعد أن عانت من الترددي والإهمال لفترة طويلة من الزمن تجاوزت أكثر من ثلاثة قرون تركت خلالها لنفوذ الأمراء وزعماء العشائر المحليين منذ دخول الفرات و الجزيرة تحت الحكم العثماني في عام (١٥١٧م/٩٢٣هـ)⁴⁴⁵ واستمر هذا حتى منتصف القرن التاسع عشر، حيث اكتفى خلالها العثمانيون بالتبعية الاسمية مما أفسح المجال لحدوث الكثير من التمردات والنزاعات والحروب بين قبائل المنطقة وأدى إلى خروج بعض العشائر من السلطة المركزية بين الحين والآخر ولفترات طويلة أحياناً أخرى⁴⁴⁶، وذلك لانصراف العثمانيين إلى الشؤون العسكرية⁴⁴⁷.

⁴⁴⁴ رويلى، محمد رشيد: الحركة الفكرية، ج١، ص١٠٤-١٠٦.

⁴⁴⁵ من تلك القبائل نذكر بنو ربيعة و الموالي، وبعض الزعماء المحليين أمثال آل الفضل و مدلج بن ظاهر ويلقب (أمير عرب الشام) وقد امتدت منازل هؤلاء من بادية الشامية وحدودها مع السلمية في سورية وصولاً إلى الحديثة في العراق، للمزيد انظر، جب، هاملتون- بوون؛ هارولد: المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة: أحمد مصطفى، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧١، ص٥٠.

⁴⁴⁶ إسماعيل؛ حلمي : تاريخ العرب الحديث، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ط١٩٩٧، ص٣٧.

⁴⁴⁷ مصطفى؛ أحمد عبد الرحيم: في أصول التاريخ العثماني، القاهرة، دار الشروق، ط٢، ١٩٩٣م، ص١٠٦.

استمر هذا الحال من الفوضى وانعدام الاستقرار وضعف الأمن مما أثر سلباً على الحياة الفكرية وأدى إلى حالة من التراجع الفكري نتيجة للانغلاق والعزلة التي عانتها المراكز الحضرية خاصة بعد تعرض المنطقة لغزوات وهجمات متكررة من قبل البدو على مناطق الفرات الأوسط والجزيرة (مدن وقرى..) وخاصة منذ أواخر القرن الثامن عشر وفي القرن التاسع عشر، فشكّلت تلك الهجمات ضغطاً على عشائر المنطقة مما أدى إلى حالة من الفوضى والحركة التي دفعت بعض قبائل وعشائر الفرات

- العامل الاقتصادي وطرق المواصلات (النقطة _____):

تمخضت أسباب اقتصادية عديدة في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة جعلت من الحياة الاقتصادية عاملاً هاماً أسهم في ازدهار ونشاط الحياة الفكرية فيها.

ولعل من أبرزها دور الموقع الاستراتيجي الهام الذي تتمتع به المنطقة والذي جعل منها مكاناً للتنافس الدولي من أهمية موقعها نبعت رغبة الدول الاستعمارية لمد سيطرتها الاقتصادية وبالتالي صارت موقعاً للتنافس الاقتصادي والسياسي، وطرح بعض المشاريع الاستعمارية ذات الطابع الاقتصادية، إضافة إلى مقدرات المنطقة الاقتصادية زراعياً وتجارياً والحرف اليدوية ووفرة المياه فيها، والتطورات التي شهدتها الاقتصاد..الخ.

كل ذلك جعل الجانب الاقتصادي عاملاً مهماً أسهم في ازدهار الحياة الفكرية وتقدمها ولذلك لا بد من توضيح كل ما سبق.

يلعب الموقع الاستراتيجي دوراً هاماً في الاقتصاد، ولذلك فإن أهمية منطقة الفرات الأوسط والجزيرة نابعة من موقعها الاستراتيجي الذي تميزت به سواء على الصعيد الداخلي للمناطق التي تحيط بها، أو على صعيد أهمية موقعها عالمياً.

فعلى الصعيد الداخلي تأتي أهمية موقعها في توسط كجزء من بلاد الشام ما بين منطقة الفرات الأعلى (تركية)، والفرات الأدنى (العراق)، فهي تمتد على رقعة واسعة من الأرض وتتوسط بين بلاد الشام وبلاد الرافدين، وهي المركز الرئيسي الذي يتوسط الملاحة النهرية لكلاً من نهر الفرات ودجلة، وهي التي تتحكم بالتجارة النهرية (آنذاك) فيها^{٤٨}.

الأهمية الإستراتيجية تلك جعلت الفرات والجزيرة تتلقى تأثيراً ثقافياً وفكرياً من المناطق المحيطة بها سواء العراق أو الأناضول وحلب ودمشق..الخ. ونشط هذا التأثير مع الانفتاح السياسي الذي شهدته، حتى أن كثير من المصطلحات التي كانت متداولة ولا يزال بعضها مستخدماً حتى اليوم، وبذلك فإنها قد انتقلت إليها تلك التأثيرات ليشاع استخدامها بين سكان الفرات والجزيرة وهذا يدل على تأثير ثقافي وفكري لعب الموقع الاستراتيجي دوراً بارزاً فيها.

أما على الصعيد العالمي فقد تمتعت المنطقة بأهمية خاصة نتيجة لموقعها كعقدة مواصلات لمرور الطرق التجارية والمواصلات المهمة التي تربط بين الأناضول وبعض الولايات العربية كبغداد مثلاً وكذلك تربط بين الصادرات القادمة عبر البحر المتوسط مع العراق وهي مكاناً لعبور القوافل البرية التجارية القادمة عبر الأناضول إلى شبه الجزيرة العربية والخليج العربي^{٤٩}.

لقد شهدت التجارة النهرية في المنطقة نشاطاً ملحوظاً نتيجة استقرار الأوضاع الأمنية فيها منذ منتصف القرن التاسع عشر، فإذا كان افتتاح قناة السويس في عام (١٨٦٩م - ١٢٨٩هـ) له أثر واضح في موازين طرق التجارة ببلاد الشام، مما أثر سلباً على التجارة فيها وخاصة في حلب وسبب نكبة لها، إلا أنه قد منح طرق التجارة

⁴⁴⁸ زكي ؛ صالح: مجمل تاريخ العراق، ص ٤٧.

⁴⁴⁹ حجار، جوزيف: سورية بلاد الشام تجزئة وطن، ص ٢٨.

النهرية عبر الفرات أهمية كبيرة، حيث أدى إلى ازدياد الإقبال إلى نقل قسم كبير من البضائع القادمة إلى العراق عبر نهر الفرات وهذا ما أكدته القنصل البريطاني في عام (١٨٧٩م/١٢٩٦هـ) بقول: (إن قناة السويس حولت صادرات العراق عن حلب، فأصبحت تنتقل عبر نهر الفرات ثم إلى البصرة، وتصدر من هناك).

وهذا يدل بوضوح على نشاط طرق التجارة النهرية، ولهذا فقد زادت أهمية المراكز السكانية الرئيسية الواقعة على الفرات الأوسط وخاصة دير الزور بوصفها المركز التجاري الأكثر تحكماً في المنطقة لكونه يتوسطها ومن ثم الرقة و البوكمال والميادين.

ونتيجة لذلك فقد شهدت المنطقة تنافساً دولياً تمثل بشكل مشاريع استثمارية أو شركات تجارية ولكن في النهاية هي تحمل طابع واحد ألا وهو السيطرة الاستعمارية بوجه قناعه التنافس الاقتصادي.

لقد ظهرت شركات أوروبية متعددة وذات جنسيات متفرقة ومنها شركة بلجيكية قامت ببناء باخرتين للملاحة في نهري دجلة و الفرات، وقد تأسست في عام (١٨٥٥م/١٢٧٢هـ) ثم ظهرت شركة لينتش الإنكليزية للملاحة في الفرات ودجلة ومحور عملها هو الملاحة في هذان النهرين لنقل البضائع الأوروبية عبرهما إلى الخليج العربي ومنه إلى الهند، وقد أنشئت في عام (١٨٦١م*١٢٧٨هـ) ثم تبعتها شركة الملاحة الخارجية في دجلة والفرات وهي شركة إنكليزية لها نفس الأهداف السابقة إضافة إلى دورها في التدخل والتواجد الإنكليزي في المنطقة يضاف إلى تلك المجموعة من المشاريع الاقتصادية ظهور دعوة إلى مشروع يدعو إلى إنشاء سكة حديد فراتية تمر في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة ودير الزور تحديداً حيث عدها الإنكليز جزءاً أساسياً من مشروع سكة حديد برلين-بغداد وذلك منذ عام (١٨٥٧م/١٢٧٥)٤٥٠.

ومن مشاريع طرق النقل والمواصلات التي كان لها أهمية في الجانب الاقتصادي إلا أنها أثرت سلباً فيه مثل (مشروع بريتريس) والذي تضمن فكرة الوصل بطريق

⁴⁵⁰ Framcoic (p) MONDES EN DEVEL, P, 465.

يربط ما بين دمشق وبغداد عن طريق البر وذلك لاختصار طول المسافة بينهما بواسطة الطريق القديم إلى حلب ثم دير الزور ثم عانة والفلوجة وصولاً إلى بغداد، وقد تراجعت أهمية هذا الطريق بعد ظهور مشروع برتريس والذي اختصر الطريق مباشرة من دمشق إلى بغداد وأطلق عليه اسم (الطريق الساعي)^{٤٥١} والذي أثر سلباً وبشكل واضح على الحياة الاقتصادية في منطقة الفرات والجزيرة حتى أن التجارة فيها قد انخفض نشاطها إلى أقل من النصف (٥٠%) من السابق، وبالتالي صار يعتمد على الطريق بين بغداد وحلب ومنها إلى الساحل السوري أو الأناضول والذي بقياً طريقهما يمر بالفرات الأوسط والجزيرة.

إذاً لقد لعبت طرق المواصلات دوراً هاماً أثر في الواقع الاقتصادي، فنشاطها كان يعني الازدهار الاقتصادي وتراجعها يعني العكس.

كذلك لعبت العوامل السياسي دوراً هاماً في الواقع الاقتصادي خاصة تجاه الرغبة الاستعمارية لبعض الدول الأوروبية تجاه الفرات الأوسط والجزيرة خاصة وأنها قد بدأت تفوح رائحة النفط من المناطق القريبة ذات الاتصال المباشر بالمنطقة مثل (زيت الموصل) و الموصل هي إحدى الولايات ذات الامتداد الطبيعي لمنطقة الجزيرة وكانت ذات تأثيراً هاماً في الاتفاقيات السياسية الدولية بين الدول الاستعمارية في الخارطة السياسية للمنطقة^{٤٥٢}.

أما من الجانب التجاري فقد تمتعت المنطقة بأهمية تجارية كبيرة و هذا يعود لمجموعة من الأسباب منحها تلك الأهمية التجارية وعلى رأسها موقعها المتوسط وخاصة مركز هذا اللواء وهو مدينة دير الزور والتي تعد قصبته اللواء فهي ذات موقع متوسط ما بين باديتي الشامية والجزيرة، وهي نقطة العبور الرئيسية للقوافل التجارية ما بينها لكونها تقع في منطقة ينخفض فيها منسوب مياه نهر الفرات لكونه ينقسم إلى فرعين مما يسهل عبور القوافل منها.

⁴⁵¹ رويلى، محمد رشيد: الحركة الفكرية، ج١، ص١٠٠.

⁴⁵² حجار؛ جوزيف: سورية بلاد الشام تجزئة وطن، ص٢٧-٢٨.

وتعد دير الزور السوق التجاري الأكثر أهمية في المنطقة فهي ملتقى لعرض البضائع التجارية لمختلف أبناء اللواء من بدو أو حضر أو أبناء القرى.

كذلك هي مركز تبادل تجاري كبير للبضائع القادمة من العراق والموصل وحلب وبيره جبك حتى أنه قد اشتهر تجار دير الزور بدور الوسيط في عقد الصفقات التجارية ما بين التجار العراقيين والحليين مقابل نسبة مئوية (كمسيون) وقد لعبوا التجار الفراتيين دوراً هاماً في ذلك وأكثر من اشتهر منهم التجار في دير الزور ثم البوكمال ثم الميادين، حتى أنه قد كثرت الخانات فيها^{٥٣}، والتي كانت تتم من خلالها تلك العمليات التجارية (تبادل بضائع، عقد صفقات والوكالات عرض بضائع، مكان لمبيت القوافل، مستودعات للبضائع، نسب الكمسيون، ضمانات تجارية، اصطلاب لدواب القوافل التجارية وفيها مكان لمبيت التجار.. وغيرها^{٥٤}).

لقد تمتعت منطقة الفرات الأوسط والجزيرة نم خلال موقعها بأهمية تجارية، فقد كانت محطة لعبور القوافل التجارية واستراحة لها، ولذلك فقد شهدت نشاطاً عمرانياً نتج عن النشاط الاقتصادي، و نلاحظ هذا من خلال كثرة بناء الخانات ونلاحظ هذا التطور منذ منتصف القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

لقد استفادت المنطقة من النشاط التجاري وذلك من خلال مرور القوافل التجارية والبضائع والتجار أنفسهم والمسافرين برفقتهم مما أسهم بنقل الأفكار الثقافية و المعارف وبعض العلوم حتى أن بعض الأساتذة والعلماء قد مروا بمدن الفرات الأوسط والجزيرة فأسهموا في نقل بعض هذه المعارف والعلوم الفكرية حتى أن بعضهم استقر فيها وسكنها أمثال الشيخ العلامة حسين الأزهرى^{٥٥} الذي زار دير الزور وأعطى دروس في مسجدتها والتكايا ثم استقر وسكن فيها.

⁴⁵³ صليبي؛ عمر: لواء الزور في العصر العثماني اجتماعياً واقتصادياً، دمشق، دار العلم، ط١،

١٩٩٧م، ص٢١٥.

⁴⁵⁴ مهملات؛ عثمان: حلب التراث، حلب، دار القلم العربي، ط١، ع١٩٩م، ص٣٥.

١- حسين الأزهرى: أحد أعلام الفكر والتعليم في دير الزور والفرات الأوسط والجزيرة، ولد في بغداد عام (١٨٠٩م/١٢٢١هـ) درس فيها المراحل الأولى من تعليمه ثم انتقل إلى مصر فدرس في الأزهر وتخرج منه.

أما بالنسبة للواقع الزراعي فقد عانى من اضطرابات وأزمات اقتصادية ونتيجة لذلك فقد شهدت مجموعة من الانكسارات حيث أصيبت الزراعة بتغيرات كبيرة أدت إلى تدهور أوضاعها وأبرزها كان انتقال ملكيات كبيرة من الأراضي التي يشغلها الفلاحون إلى أيدي كبار المرابين وزعماء العشائر المحلية وأصحاب النفوذ في منطقة الفرات والجزيرة مستغلين مكانتهم الاجتماعية أو نفوذهم وسلطتهم، ومنهم من استغل الفلاحون بالربا الفاحش بسبب ونتيجة الديون ذات الفوائد الكبيرة جداً أو المركبة وبالتالي تتزايد على عاتق الفلاح وتظلمه^{٥٦}، ولهذا فقد ظهرت لدينا في المنطقة أسر إقطاعية مستغلة تلك الأوضاع فحولت صاحب الأرض إلى أجير لدى المالك الجديد، حيث لم تستطع الحكومة (وخاصة الدولة العثمانية) في إلغاء النظام الإقطاعي^{٥٧}.

كذلك فقد تغيرت المحاصيل الزراعية المنتجة في الفرات والجزيرة نتيجة لتغير ملكية الأرض لكون الفلاح صار يزرع أنواع المحاصيل التي يأمره بها الإقطاعي، فلا يزرع إلا ما يدخل في مجال التجارة الزراعية التي تتطلبها السوق الخارجية ولذلك صار التركيز في الزراعة على المحاصيل التي تلبي هذه الحاجة وتحقق أرباحاً أسرع للإقطاعي ونتيجة لذلك فقد زاد إنتاج بعض الزراعات كالقمح والسمسم في حين

عمل في التدريس بأمكان متعددة أولها في السودان ثم عاد إلى القاهرة ودرس في الرواق العراقي بالأزهر وكان ملازماً لكبار شيوخ الأزهر خلال عصره أمثال: الباجوري، والأنباري، والشربيني، والسقا وغيرهم. ثم عمل في الآستانة أربع سنوات، زار دير الزور ماراً بها في طريق زيارته لأهله فأعجب بها أهلها واستضافوه وأصروا على انتقاله للاستقرار فيها وتدريس أبناءها، ورغم رفضه لذلك إلا أن أصرار شيوخ ورجال العلم بدير الزور على بقاءه جعل يوافق، فالتف حوله عدداً كبيراً من طلبة العلم في زمن قصير، وتعلمت أعداد كبيرة من الطلبة على يديه، نذكر منهم (الشيخ محمد سعيد العرافي، الملا حميد الخرسا، حمادي الشعبي، علي صائب، والشيخ حسين الرمضان، والشاعر محمد الفراتي، وعبد القادر ملاحويش وغيرهم كثيرون) رفض أن يستلم القضاء، ولم يقبل أن يؤلف أو يكتب أو يدون أي كتاب، توفي بدير الزور عام (١٩٣٦م/١٣٥٤هـ)

انظر: شوحان؛ أمد: تاريخ دير الزور، ص ٢٦٧-٢٦٨.

^{٤٥٦} بولنيك؛ أن: الإقطاعية في مصر وسورية وفلسطين ولبنان، ترجمة: عاطف كرم، بيروت، دار

الكشوف، ط ١، ١٩٤٨م، ٦٩.

^{٤٥٧} عوض؛ عبد العزيز نظام ملكية الأرض في بلاد الشام وآثاره الاقتصادية والاجتماعية (١٨٣٩-١٩١٤م)،

دمشق، مجلة الدراسات التاريخية، العددان ٣٥ و٣٦ آذار وحزيران ١٩٩٠م، ص ١٥.

تراجعت زراعة محاصيل أخرى كالقطن وذلك لأنه ذو نوعية غير مرغوب فيها للتصدير إلى الأسواق الخارجية^{٤٥٨}.

أما بالنسبة لواقع الفلاح فقد حدثت هجرة لبعض الفلاحين عن أراضيهم بسبب الضرائب التي فرضت عليهم مما دفعهم إلى التنازل عن أراضيهم للمرابين مقابل مبالغ بسيطة، وبعضهم الآخر تركها لزعيم العشيرة أو المختار، ونتيجة لذلك فقد تحولت أراضي زراعية كبيرة إلى بور^{٤٥٩}.

وعلى الرغم من كل هذه السلبيات فقد كان هنالك بعض الإيجابيات في الجانب الزراعي والتي أسهمت في تحريك الجانب الفكري في العمل والإنتاج وتحسين نوعيته وكميات الإنتاج، نذكر منها تطور وسائل الري عما كانت عليه سابقاً وتعدد وسائل المستخدمة في السقاية بالمنطقة عامة، حيث كان الاعتماد على النواعير والغراف والكرد وظهر لاحقاً استخدام مضخات المياه الحديث (ماكينات)^{٤٦٠}. كذلك دخول بعض المزروعات التي لم تكن معروفة من قبل في منطقة الفرات والجزيرة مثل بعض أنواع الفواكه كالدراق والإجاص، وبعض الأشجار المثمرة كاللوزيات مثل الجوز واللوز^{٤٦١}.

ولعل من المظاهر الإيجابية في العمل الزراعي هو التعاون الذي يحصل بين الفلاحين في مواسم الحصاد فكان يحرك الناس والأسواق بل وحتى الجانب الفكري فيساعد على توليد الأفكار الجديدة حتى أن الكثير من المظاهر الثقافية التي تتعلق بالفلكور الشعبي من شعر شعبي وقصائد وغناء ورقصات فلكورية ودبكات وجل شعبي

⁴⁵⁸ الشوا؛ فاروق: الاحتياجات المائية لمحصول القطن في حوض الفرات الأوسط، دمشق المركزي العربي

لدراسات المناطق الجافة والأراضي القاحلة، هيئة الطاقة الذرية، ١٩٨٤، ١، ص ١٧٠٨

⁴⁵⁹ هرشلاخ، ز.ي: مدخل إلى التاريخ الاقتصادي الجديد للشرق الأوسط، ترجمة مصطفى الحسيني، بيروت، دار الحقيقة، ١٩٧٣، ص ١٤٧.

⁴⁶⁰ الجزار؛ وجيه: سنجق دير الزور، ص ٣٢. وانظر وثائق المحكمة الشرعية بدير الزور السجل رقم (٢)،

رقم الوثيقة (٣٥١)، عام (١٩٢٥م/١٣٤٣هـ) ص ٢٣٤.

⁴⁶⁰ موسى؛ علي: محافظة دير الزور، ص ٢٢٨.

وغيرها من المظاهر التي كانت تدل على نشاط فكري يترافق مع النشاط الاقتصادي الزراعي.

أما على الصعيد الصناعي (الحرفي) فإنه لم تكن هنالك في منطقة الفرات والجزيرة صناعات بمعنى تلك الصناعات الحديثة والكبيرة آنذاك، بل عبارة عن حرف يدوية تمثل صناعات بسيطة ليس إلا، تعتمد على المواد الخام المحلية التي تنتج في نفس المنطقة، فقد عانت تلك الصناعات المحلية من أزمات ومشكلات متعددة تأتي أولها في بداية مرحلة دراستنا هذه خلال الفترة العثمانية ونقصد بها الفترة ما بين (١٩٠٩-١٩١٨م) فقد فتحت الدولة العثمانية الباب أمام البضائع الأوروبية للتدفق إلى الأسواق المحلية، فصارت تباع السلعة الأجنبية ولاسيما الإنكليزية والفرنسية ذات التقنية الحديثة، بأسعار أرخص وجودة تضاهي السلعة المحلية اليدوية^{٤٦٢}.

وفي فترة الاحتلال الفرنسي زادت المنافسة للصناعة المحلية من قبل الصناعات الأوروبية داخل الأسواق المحلية دون أن تحقق أي نوع من التوازن بينهما، بل كانت هنالك امتيازات للبضائع الأوروبية وتقابلها ضرائب مفروضة على الصناعة المحلية التي تركت دون حماية لحقوقها.

والأمر نفسه ينطبق على التجارة فالامتيازات إتاحة لفرصة أمام التجار الأوروبيين لإدخال أموالهم إلى الأسواق الداخلية، نتيجة للحماية التي حصلوا عليها، ولذلك أغرقت بضائعهم الأسواق، وصار لهم مراكز تجارية في بعض مدن بلاد الشام الرئيسية مثل دمشق وحلب*^{٤٦٣} وارتبطت مجموعات من كبار التجار مع وسطات لهم في السوق المحلية، ولهذا تعاون فئة من تجار المنطقة (الفرات والجزيرة) مع هؤلاء التجار الوسطاء للتجار الأوروبيين، وصار يمثلونهم في السوق المحلية بالمنطقة، وأسهموا في حركة التجارة الداخلية، والتحكم في حركة السوق التجارية لمصالحهم الشخصية ومصالح عملائهم وذلك على حساب ضرب البضائع والصناعات المحلية،

politique DESNOTABLES EN syeyia LA Naissance Dune Ville :⁴⁶² HANNOUER (j)
(DER AL – ZOR.1850-1921)

Bulltetil Detudes Orientales , tome XLII , ANNEE 1989-90,Damas,1993,p,127.

بوخه ؛ أودلف: حلب وعلاقاتها مع أوروبا، حلب، مجلة العادات، الكتاب الثاني، جامعة حلب ١٩٧٦م ص١٦٥.

الأمر الذي أدى إلى إضعاف التجارة الداخلية، وكساد البضائع المحلية، وحلت نكسات بعدد من الحرفيين والتجار جعلت قسماً منهم يعلن إفلاسه، في حين رفعت تلك التغيرات التجارة من العملاء التجاريين، لتشكل منهم طبقة برجوازية فصاروا من كبار الأغنياء في الفرات والجزيرة، ونتيجة لذلك فقد صارت المنطقة سوق تجاري لتصريف البضائع الأوربية المتدفقة عليها من حلب، وبيره جيک، والساحل والموصل... الخ.

إضافة إلى أنها أصبحت سوقاً لبعض المواد الأولية التي تسوق إلى غيرها من المناطق المجاورة ومنها إلى أوربة^{٤٦٤}.

إن موقع الفرات والجزيرة المتوسط على طرق القوافل التجارية ما بين بغداد والموصل من جهة، مع الأناضول وحلب ودمشق من جهة أخرى، مما أعطى أسواقها نشاطاً تجارياً ملحوظاً، ولكن افتتاح قناة السويس في عام (١٨٦٩م/١٢٨٦هـ) أثر في ذلك النشاط التجاري، حيث تحول قسم كبير من صادرات العراق عن حلب والأناضول، وأصبح ينقل عبر نهر الفرات إلى البصرة ليصدر من هناك، مما أدخل بالسوق التجارية في الفرات والجزيرة وأنقص وارداتها التي كانت تجنيها عند مرور القوافل التجارية لمتجهة من العراق إلى حلب وبالعكس وكذلك أثر تمرد القبائل البدوية^{٤٦٥} التي حاولت الدولة العثمانية وسلطات الاحتلال الفرنسي أن تقلل من التجارة في المنطقة، بسبب الحالة الأمنية وعدم الاستقرار والخوف من انتقال البضائع التجارية في طريقها داخل أراضي الفرات والجزيرة وخاصة في البادية سواء أكانت بادية الجزيرة التي كانت قبيلتي شمر وطي تسيطر فيها على الطريق ما بين (حلب ودير الزور - الموصل) أو بادية الشامية التي سيطرت فيها قبيلة الغزة على الطريق ما بين (حلب ودمشق إلى دير الزور ثم بغداد) ولذلك فقد كانت هذه القبائل مصدر خطر على القوافل التجارية حيث فرضت الصرة أو الخوة عليها^{٤٦٦}.

⁴⁶⁴ Musil (A) Middle Euphrates (Deir AZ-ZOR to AL-fhegmi) York K1927, P, 2-3

⁴⁶⁵ وثائق المحكمة الشرعية بحلب، سجل رقم ٣٠٩، رقم الوثيقة ٩٥، عام (١٨٧٨م/١٢٩٦هـ) ص ٥ وانظر العيساوي؛ شارل: التاريخ الاقتصادي للهلال الخصيب ص ٣٦٧.

⁴⁶⁶ وثائق المحكمة الشرعية في دير الزور، سجل رقم ٥١ رقم الوثيقة ١٤٣ عام (١٩٢٤م/١٣٤٢هـ) ص ٩٠.

وأمام هذه الحالة الاقتصادية (زراعياً وصناعياً وتجارياً) في الفرات والجزيرة خلال الفترة ما بين عامي (١٩٠٩-١٩٤٦م/١٣٢٧-١٣٦٥هـ) فقد تأثرت الحياة الفكرية فيها بالمتغيرات الاقتصادية وخاصة في مجال الأدب الشعبي الذي نشط وتحرك نتيجة للأوضاع الاقتصادية.

إذاً لقد ارتبط الفكر الثقافي بالواقع الاقتصادي للناس في الفرات الأوسط والجزيرة ولامس همومهم في نكباتهم وفقرهم، وأثناء رحلات القوافل للتجارة وفي سفر التجار وسنوات الجوع، وفي مواسم الخير وأثناء الحصاد وعند قيام الصناعات بأعمال صناعاتهم وحرفهم، وفي تعاون الناس مع بعضهم عند حدوث المخاطر مثل الفيضانات والعواصف الرملية أو سيول الأمطار وغزو الجراد وغيرها^{٤٦٧}.

لقد ظهر لدينا في الأدب الشعبي نوع من القصص والروايات القصير والشعر والأغاني والأهازيج والدبكات والألحان الموسيقية.. الخ. والتي أنتجت أفكار أبناء الفرات والجزيرة بناء على المتغيرات الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة فكانت تلامس ذلك الواقع الاقتصادي حيث نسجت القصائد وكتبت القصص عن المآسي التي عاشها الناس بسبب الأوضاع التجارية أو في المواسم الزراعية، وبعضها الآخر يتحدث عن الصناعات والانتكاسات التي لحقت ببعضها وأدت إلى تراجعها وتدور أحوالها فتحدثت عن تراجع أحوال العاملين فيها وصورت هذا من خلال الروايات الشعبية.

كذلك بعض القصائد الشعبية التي تناولت تلك المواضيع إضافة إلى الشعر الشعبي الذي كان يترافق مع العمل وينشده الصناع والحرفيين أو يؤلفه الباعة لدى التجار لتصريف بضائعهم أثناء تنافسهم في النداء على المواد المعروضة للبيع، وأحياناً تترافق بعض الأغاني مع بعض الأهازيج الشعبية، حتى تتحول إلى أشبه بمباريات زجلية^{٤٦٨}.

زكريا؛ أحمد وصفي: ذكر يأتي عن وادي الفرات ، ص ٤٦^{٤٦٧}

نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر أزوجة شعبية هي (عالبادل البادل):^{٤٦٨}

يا ام العبيدية

عالبادل يا دل يادل

للغالي صدريه

يا جوخ لا فصل

هذا الحال يترافق مع الحالة الزراعية في موسم الحصاد أو أثناء القيام بأعمال الزراعة خلال المواسم كلها، وعند السقاية على مختلف طرقها البداية كالسقاية بواسطة السواق والترع أو دواليب الماء والنواعير والغراف، أو الحديثة منها عن طريق المضخات الحديثة، وكذلك عند تسويق المحاصيل، حيث كان لكل موسم أو مناسبة مجموعة من القصائد الشعبية أو الشعر أو الأغاني التي تترافق في إيقاعها ووزنها مع تلك المناسبة أو النشاط الاجتماعي الاقتصادي الذي تغنى فيه.

وقد ظهرت أيضاً مجموعة من القصص الطويلة والرايات الشعبية التي نسجها خيال ومفكرة الناس وفق هذه المناسبات الزراعية، وخاصة في مواسم الزراعة والحصاد والسقاية، بل وظهر نوع من الأدب الشعبي الذي يحمل طابع القصص البعيدة عن الواقع (الخرافات)^{٤٦٩}.

إضافة إلى هذا فقد زاد معجم الأمثال الشعبية التي كانت تصور واقع الأحوال الاقتصادية وتتناول نقداً لها وفق العادات والأعراف الاجتماعية والثقافية .

وقد فندت مختلف تلك المقتضيات الاقتصادية وبتعدد جوانبها وعلى تنوع أوضاعها حتى ظهرت مجموعة من الأمثال التي قيلت في نفس الموضوع الواحد، وهذا يدل على تنوع وغنى الفكر في المنطقة فأخذت دور الموعظة للناس، بل وحتى العلوم الدينية والشرعية شددت نشاطاً فكرياً ملحوظاً نتيجة لتلك المتغيرات الاقتصادية وما كانت تتطلبه من أحكام دينية وفتاوى شرعية في عمليات البيع والشراء والرهن والحجر والديون والسلطة والنسب المئوية في الأرباح وفي أداء الفرائض أثناء سفر التجار والقوافل التجارية وأرباح الصانع وزكاة الأموال ومواسم الأرض وما تنتجه من

ويرد عليهم بالقول:

طلعت برا الجبل لقيت لمتهم كلهم هباري حمر يا زين لمتهم
ربي بجاه النبي واصر جنتهم والبس ثياب العرس واصفق بايديا

(العبيدية: نوع حلي ذهبية): وتنظم هذه الأجزاء بأربعة أشطر، ثلاثة جناس، والرابع ياء، وهاء ساكنة.

وهي قريبة إلى الموليا الفرانية، أنظر: رويلي ؛ محمد رشيد: الحركة الفكرية، ج ١، ص ١٣٦.

شوحان؛ أحمد: تاريخ دير الزور، ص ١٨١-١٩٢. 469

ثمرات وبنسب وأجور العمال والفلاحين المشاركين في الزراعة أو الصناعة أو التجارة.

وبنتيجة لما سبق فقد دفعت الحالة الاقتصادية إلى نشاط الواقع الفكري وأسهمت في تحريض الناس على تعلم القراءة والكتابة و الحساب لكي يتمكنوا من ممارسة المهن والحرف التجارية حتى يتمكنوا من مزاولة تلك الأعمال التي تحتاج إلى شخص متعلم وليس الأمي بشكل أفضل وخاصة في أعمال التجارة وحساباتها والصناعات ومتطلباتها من رأس المال والأرباح وخسائر، وكذلك مراقبة المواسم الزراعية وضباط الإنتاج وحساباته وتوزيعه ونسبه..الخ.

كل تلك الأمور كانت تتطلب مهارات فكرية، وهذا جاء نتيجة للانفتاح الاقتصادي وما رافقه من متغيرات جعل الفكر لمن يعمل في هذا الميدان يتغير مع واقعه الجديد وبالتالي فقد أثر الجانب الاقتصادي بالنشاط الفكري من شعر، وقصة، وقراءة، وكتابة، وحساب وتجارة وفنون ومن رسم وتصوير ضوئي ظهر آنذاك لتصوير الأحداث، و علوم دينية وشرعية، وتاريخ ورصد حالات فلكية... وغيرها، فكانت تلك هي الخلافة الأهم لنشاط الفكري والثقافي نتيجة للمتطلبات الاقتصادية في الفترات الأوسط والجزيرة.

العامل الاجتماعي:

لعب العامل الاجتماعي دوراً هاماً في الحياة الفكرية وأسهم فيها بشكل مباشر وفعال.

فالطبيعة الاجتماعية لأبناء المنطقة ولغتهم ولهجاتها وتوزع قبائلها وأصولها والمهاجرين الجدد الوافدين إليها من المهاجرين المسلمين وغير المسلمين، وطبيعة العلاقات الاجتماعية في هذه المنطقة العربية التي هي موطناً للآراميين والعموريين

والآشوريين والبابليين والكلدانيين ثم تبعتها قبائل عربية أخرى أسهمت كلها في تكوين العامل الاجتماعي الذي لعب دوراً هاماً وإيجابياً في الحياة الاجتماعية.

ويأتي في مقدمة الوضع الاجتماعي دور الواقع الديموغرافي للسكان وتركيباتهم وأصولهم وأنسابهم، فقد استوطنت في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة ثلاث قبائل عدنانية هي مضر، وبكر، وربيعه، حيث توزعت مناطق استقرارها على النحو التالي: (استقرت):

- استقرت مضر في الغرب.

- واستقرت بكر في الشمال.

- وربيعه في الشرق.

لقد أخذت المنطقة تتسم بطابع تلك القبائل التي حلت فيها، وصارت تسمى الأماكن التي تستوطن فيها بأسمائها فقبل ديار بكر، وديار مضر، وديار ربيعة^{٤٧٠}.

في مختلف أنحاء الفرات والجزيرة بل وامتدت لتنتشر في المناطق المجاورة لها والمحيط بها مع عدداً من القبائل والعشائر الحليفة، فصارت هنالك الكثير من القبائل والعشائر الحليفة العربية الأصل والتي اختلطت مع بعضها وامتدت أراضيها في المنطقة، نذكر بعضها مثل (مضر، وبكر، ربيعة، تغلب، باهلة، قيس، قضاة، أسد، هذيل، تميم.. وغيرها)، لقد امتزجت تلك القبائل العربية الوافدة مع سابقاتها واختلطت لهجاتهم وعروقتهم وعاداتهم وتقاليدهم.. فصاروا بمجموعهم يؤلفون مجتمع منطقة الفرات الأوسط والجزيرة بمختلف جوانبه الاجتماعية والفكرية والاقتصادية والسياسية.. وغيرها، وعن هذه القبائل العربية أخذ اللسان العربي واللهجات المحلية، وكان النتاج الفكري لثقافة عربية امتدت فيها حتى يومنا هذا فسبقها بطابعها وعكس صفاتها العربية الأصلية في حياتها الفكرية^{٤٧١}.

⁴⁷⁰ إبراهيم، عز الدين (ابن شداد): الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق: يحيى عبارة،

دمشق، وزارة الثقافة، ج ٣، ط ١، [٣.ت.ص.ع.

⁴⁷¹ رويلي؛ محمد رشيد : الحركة الثقافية، ج ١، ص ٩١-٩٢.

لقد لعبت تلك الهجرات دوراً هاماً في تنقل بعض المفردات الاجتماعية و الثقافية إلى المنطقة نتيجة احتكاكهم مع سكانها الأصليين، وقد جاء ذلك نتيجة للعلاقات الاجتماعية ما بين المسلمين وأهل الذمة فيها، ولذلك لا بد لنا من التطرق إلى تلك العلاقات التي نشأت ما بين هؤلاء الوافدين من أهل الذمة (مسيحيين ويهود) مع المسلمين.^{٤٧٢}

إن أقدم هذه الهجرات إلى المنطقة من المسيحيين الذين وفدا في العصر الحديث للفرات الأوسط والجزيرة كانت (للسريان الكاثوليك)^{٤٧٣} والذين جاؤوا من مناطق قريبة للجزيرة الفراتية وبخاصة من الموصل، ثم صارت تصل موجات أخرى للوافدين اليهود، ثم تلتها هجرات الأرمن القسرية (السوقيات)، فبدأت تتزايد أعداد المسيحيين في المنطقة وخاصة في المراكز الحضرية وعلى رأسها دير الزور، والحسكة والرقعة، والبوكمال.. وغيرها، وقد بوشر ببناء أول كنيسة لهم عام (١٨٧٠م/١٢٥١هـ)، وكانت في دير الزور بمحلة الرشدية^{٤٧٤}، وبناها المسيحيون السريان، ثم بنى الأرمن كنيسة أخرى لهم في نفس الحي بدير الزور في عام (١٨٥٥م/١٣٠٤هـ).

لقد كان المسيحيون واليهود حديثي العهد في الفرات الأوسط والجزيرة منذ أن حل الإسلام في المنطقة، و قد بلغت نسبتهم في أواخر القرن التاسع عشر ما يزيد عن ٦% من التعداد العام للسكان^{٤٧٥}، وقد أخذت تتبلور العلاقات الاجتماعية لهم مع

⁴⁷²الجزار؛ رجب: سنجق دير الزور، ص ٤٣.

⁴⁷³ Hannover : Deyr-AL-Zor,1850-1921,P,125.

⁴⁷⁴ حملة الرشدية: تقع هذه المحلة في الجهة الغربية لمدينة دير الزور، محاذية لنهر الفرات الذي يحيط بها من الجهة الشمالية والشمالية الغربية، ولتتمتد من الشرق حملة أبي عابد ودير العتيق، ومن الجنوب تحاذي أطراف البساتين والبرية والتي هي اليوم صارت محلة البعاجين، أما أهم ما وجد فيها كان المكتب الرشدي للتعليم،دمشقي عسكرية وفيها بستان (مزرعة) خاص بالمتصرف، كما بني فيها الجامع الحمدي، وأهم شوارعها (شارع حلب، الشارع العام، وقد كان مختار هذه المحلة حجي محمد الكويدر، وأمامها الشاعر محمد الفراتي أنظر:

Musil(A) Middli Euphretes,P,2.3.

وأنظر مجلة صوت الفرات، العدد ٢٠٦، أيول عام ١٩٦٠، ص ٣٢.

وأنظر وثائق المحكمة الشرقية في دير الزور، سجل رقم ١، رقم الوثيقة ٩٦، عام

(١٩٢٤/١٣٤٢هـ)، ص ٥٩.

⁴⁷⁵ Hannover : Deyr-AL-Zor,1850-1921,P,125.

المسلمين وتنقسم الدراسة إلى شقين: الأول يتناول العلاقات بين المسلمين والمسيحيين والثاني لدراسة العلاقات بين المسلمين واليهود، وبالتالي دراسة العلاقات ما بين المسلمين وأهل الذمة، إن المسلمين قد تعاملوا مع أهل الذمة بصورة جيدة وأحسنوا التعامل معهم وفق تعاليم الدين الإسلامي معياراً لهذا، وهم بذلك يقتدون بالقرآن الكريم، والسنة النبوية^{٤٧٦}.

إلا أن علاقاتهم مع المسيحيين كانت أفضل من طبيعتها مع اليهود، فكانت صلاتهم أكثر ألفة ومودة مع المسيحيين، وذلك لأسباب عدة نتيجة لتقوقع اليهود على أنفسهم وانعزالهم عن الاختلاط بالمجتمع المحلي.

كذلك إن هجرات المسيحيين إلى المنطقة كانت قسرية في معظمها أو رغبة في العمل وهي الأقل، وقد كانت مواقف أبناء الفرات والجزيرة إيجابية مع هؤلاء المهاجرين حيث استقبلوهم خير استقبال، وفتحوا لهم بيوتهم وأحسنوا استضافتهم، بل وسجلوا من خلالها مواقف مشرفة من البطولة لهم في التاريخ نتيجة مهاجمتهم للدوريات التركية المرافقة لسوقيات الأرمن القسرية عن وصولها إلى أراضي متصرفية دير الزور، وقد نجحوا في فك أسر الكثير منهم، فكانوا يهاجمون مؤخرة السوقيات في دير الزور والرقعة، ومركده^{٤٧٧}.... وغيرها، وكانوا يقاتلون ضد الدرك التركي ويساعدون الأرمن على الهروب، ثم يقومون بإيوائهم في بيوتهم على طول الطريق الذي مرت به قوافل السوقيات في المنطقة، حيث فتحت لهم المدن والأقضية والقرى أبوابها وبيوتها لكي تقوم باستضافتهم وتساعدهم على الخلاص من المخطط الذي كان يرسمهم لهم.. ألا وهو (الموت).

ولذلك فقد اختلط الأرمن مع السكان العرب الأصليين في المنطقة وتعايشوا معهم بسبب ظروفهم المعيشية التي وضعوا بها ولم يكونوا منعزلين أو منغلقيين على أنفسهم بل كانوا منفتحين واختلطوا مع المجتمع المحلي، وكذلك الأمر ذاته ينطبق على

⁴⁷⁶ أنظر قوله تعالى في الحث على حسن معاملة أهل الذمة بقول عز وجل {لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين}}.

⁴⁷⁷ جرجيان؛ يغيا- زهر الدين؛ صالح: مجازر الأرمن صرخة دائمة في وجه الضمير العالمي، حلب،

منشورات الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية ط ١، عام ١٩٩٥م، ص ١٣٥.

المسيحيين السريان الذين وفدا إلى المنطقة، وبالتالي فإنهم استطاعوا الاستقرار في المنطقة، وعاشوا مع أهلها حياتهم الطبيعية، ومارسوا مهنتهم وأعمالهم التي كانوا يتقنونها قبل قدومهم فاشتغلوا بأعمال كثيرة فمنهم من عمل إسكافياً أو خياطاً أو ساعاتية أو بناؤن... الخ^{٤٧٨}.

كما شارك المسيحيون المجتمع المحلية أفراده وأترابه، وبالتالي فقد نقل هؤلاء معهم ثقافة مجتمعاتهم السابقة، وفكرهم إلى مجتمعهم الجديد الذي انتقلوا إليه، ومما سهل في عملية النقل الثقافي، هي تلك الروابط الاجتماعية والعلاقات المتبادلة بين المسيحيين والمسلمين والتي اتصفت بسرعة نشوئها ومتانتها، مما جعل الثقة متبادلة بين الطرفين وكلاً منهم يأمن للطرف الآخر حتى تأمينهم على أموال وأعراض بعضهم، وهذه ظاهرة تدل على معيار لطيب العلاقات المتبادلة وحسن الجوار حتى أنه لم يحد صدام أو فتنة بين أبناء المسلمين والمهاجرين من المسيحيين، مما سهل عملية انتقال الأفكار الثقافية نتيجة هذا التواصل.

أما بالنسبة للعلاقات ما بين المسلمين والمهاجرين اليهود، حيث كان يسودها نوع من الجفاء والعزلة على عكس المسيحيين، وهذا يعود كما أسلفت بسبب انعزال اليهود وانغلاقهم على أنفسهم وتحديد علاقاتهم الاجتماعية بعصرها بين بعضهم من أبناء ملتهم، إلا ما ندر في المعاملات التجارية وحركة السوق والبيع والشراء والاستئجار.. وغيره، حتى أنهم كانوا لا يظهرون طقوسهم أو عاداتهم وتقاليدهم بل يخفونها ويحاولون عدم أشهرها.

لقد مارس اليهود العديد من المهن والحرف والأعمال إلا أنهم اشتهروا ببعضها^{٤٧٩} نذكر أبرزها هي الصياغة، والتجارة والساعاتية، وبعضهم مرابين، وملتزمين ضرائب.. وغيرها.

٤٧٨ ٤٧٩ Hannover : Deyr-AL-Zor,1850-1921,P,12

^{٤٧٩} وثيقة عثمانية صادرة عن ملتزم الضرائب في منطقة دير الزور (إسحاق دير) وهو يهودي، صادرة في متصرفية دير الزور عام (١٨٦٦م/١٢٨٥هـ)، من الوثائق النادرة والخاصة بآل عصمان بك. وأنظر أيضاً:

في حين أن بعضهم الآخر عانى من الفقر وتردى في أحوالهم الاقتصادية مما اضطّرهم إلى ممارسة أعمال متدنية كالسقاية والحمالّة، وبعضهم مارس أعمال سيئة من خداع وحيلة مثل السحر والشعوذة^{٤٨٠} حتى أنهم صار يضرب بهم المثل في السحر.

ورغم قلة الاحتكاك لليهود مع المجتمع المحلي للفرات والجزيرة التي انتشروا في مختلف أنحائها وخاصة في دير الزور والبيادين والقامشلي والبوكمال... الخ وقد نقل هؤلاء بعضاً م عاداتهم وتقاليدهم وأفكارهم الثقافية التي كان يحملها بعضاً منهم.

كذلك فقد وصلت بعض الأسر والأفراد المهاجرة إلى منطقة الفرات والجزيرة قادمين من المناطق المجاورة والقريبة مثل ديار بكر، الموصل، وأورفه، و حلب، وبغداد وبعضهم جاء من ولايات وسناجق بعيدة وكان معظمهم موظفين أتراك وفدا للمنطقة بقصد العمل كموظفين إداريين وعسكر، وظهر ذلك جلياً منذ قيام الدولة العثمانية بالتنظيمات الإدارية في المنطقة وذلك خلال منتصف القرن التاسع وخاصة بعد جعلها متصرفية (متصرفية دير الزور) مستقلة ممتازة ترتبط بالأستانة مباشرة وذلك في عام (١٨٨١م/١٢٩٩هـ)^{٤٨١}.

لقد حمل معهم هؤلاء الموظفين فكر وثقافة مجتمعاتهم ونقلوها إلى أهل المنطقة نتيجة احتكاكهم المباشر بينهم بحكم وظائفهم، وبسبب استقرار بعضهم في السكن والمعيشة حتى بعد انتهاء تكليفهم، بل وأثروا حتى في الفكر الاجتماعي، كالعادات

⁴⁸⁰ ظهر بعض اليهود يعملون في السحر والشعوذة وقد برز بعضهم في دير الزور واشتهر آخر في القامشلي وأحدهم كان في البيادين ، ونتيجة لذلك فقد صار يضرب المثل في شعوذة اليهود فقيل (سحر يهودي) وهو مثل فراتي شعبي ، أنظر عياش؛ عبد القادر: الماء في حياتنا وتراثنا، دير الزور، م طبعة الفرات، ط١. ١٩٦٩م، ص ٥١-٥٢، وانظر:

؛ Hannyoyr : Deyr-AL-Zor,1850-1921,P,12

⁴⁸¹ سالنامه الدولة العليا العثمانية، عام (١٨٨١/١٢٩٩هـ) ص ٨٦.

والتقاليد والمأكل واللباس⁴⁸² إضافة إلى دورهم في نشر وتعليم لغاتهم وثقافتهم..الخ وبالتالي فقد أسهموا في انفتاح المجتمع المحلي وتطور الفكر والحياة الثقافية، وكذلك الأمر بالنسبة لهجرات قبائل البدو التي وصلت إلى المنطقة واستقرت في بواديها وريفها وعلى رأسها عشائر من قبائل الغزاة...الخ.

حيث نقلت مورثها الفكري معها.

إذاً لقد أثرت هذه الهجرات بمجملها على الحياة الفكرية في الفرات والجزيرة، وأسهم في نقل بعض الأفكار والمعطيات الثقافية وذلك نتيجة الاختلاط والاحتكاك ما بين المهاجرين والمجتمع المحلي، وظهر ذلك واضحاً في الأدب الشعبي من شعر وقصة ورواية وأمثال وغناء..الخ.

ولقد وصلت تلك الهجرات على شكل موجات متتالية أسهمت بشكل إيجابي في انفتاح المجتمع المحلي وكسر حاجز عزلته وتقوقعه على ذاته، حيث صار سكانه يتقبلون فكرة وجود عناصر وافدة والاختلاط والاحتكاك معهم وبالتالي تقبل نقل أفكارهم وثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم.

ولعل أهم المتغيرات الاجتماعية في الجانب الفكري كانت في تعليم المرأة فهي نصف المجتمع وقد اتصفت المرأة في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة خلال القرن التاسع عشر بأنها قليلة الاختلاط أو الخروج من بيتها حيث لم تكن قد نالت ذلك الاهتمام الكبير أو المكانة العالية في المجتمع المحلي، سواء على صعيد حياتها داخل البيت أو خارجه، حتى أبسط حقوقها في الرعاية والتعليم، ولذلك فقد كانت الغالبية العظمى من النساء غير المتعلّقات آنذاك.

⁴⁸² انتقلت بعض المظاهر الفكرية والثقافية إلى المجتمع المحلي في الفرات والجزيرة منها ما يتعلق بالعادات و التقاليد والواجبات الاجتماعية والمأكل واللباس نذكر منها على سبيل المثال، ارتداء الرجال للطربوش والبزات الرجالية والأحذية العسكرية ذات السابق الطويلة وذلك في أواخر القرن التاسع عشر، ثم ظهرت ربطات العنق خلال فترة الاحتلال الفرنسي، أنظر:

إلا أنه منذ أواخر القرن التاسع عشر وبدايات العشرين بدأ الاهتمام بالمرأة في المجتمع المحلي وتوجيه الفتيات نحو التعليم وقهر الأمية، وقد ترافق ذلك مع اتساع وانتشار الكتاتيب في المنطقة وخاصة في مراكز المدن والأقضية، حيث صارت بعض الفتيات تتلقى تعليمها على يد الكتاتيب، ثم أصبح بعضهم يعملن في التعليم، فيدرسن الفتيات، وبذلك نشأت كتاتيب خاصة لتعليم الفتيات، حيث تقوم بعملية التدريس والإدارة والإشراف امرأة ويطلق على معلمة الفتيات تلك اسم الخوجة^{٨٣}، وقد استمر تعليم الفتيات على يد الخوجة حتى تم استقبال بعض الفتيات في أول مدرسة نظامية في المنطقة، وكانت في دير الزور وذلك في عام (١٨٦٥م/١٢٨٤هـ) ثم تتالي افتتاح المدارس الحكومية النظامية في المنطقة وازداد إقبال الفتيات على التعليم تدريجياً^{٨٤}.

وكذلك الطوائف المسيحية فإنها قامت بافتتاح كتاتيب خاصة بها في مناطق متعددة من الفرات الأوسط والجزيرة إلا أن أقدمها كان قد تم افتتاحه بدير الزور للطائفة الأرمنية وأحدث بعد بناء أول كنيسة لهم، وتم ذلك في عام (١٨٨١م/١٣٠٣هـ) ثم أتبعه كتاتيب آخر للسريان^{٨٥}.

لقد لعبت الكتاتيب سواء على يد الخوجة أو الملا وعلى مختلف أنواعها سواء للكتاتيب الإسلامية أو للطوائف المسيحية، وكذلك انتشار المدارس الحكومية سواء الابتدائية أو الرشدية للبنات، لعبت جميعها دوراً هاماً في تعليم المرأة ونشر الفكر والوعي الثقافي لها، وأسهمت بشكل إيجابي في تحفيز الناس على التعلم سواء الذكور أو الإناث، ومع تطور التعليم في الفرات الأوسط والجزيرة فقد ازدادت أعداد الفتيات المتعلّمات وحصل بعضهن على شهادات ساعدتهن على العمل في حين برزت أخريات في مجالات متنوعة في الفكر فظهرت بعض الشاعرات والأديبات والمهندسات والممرضات والطبيبة والأم المثقفة.. الخ، في حين اكتفين البعض بالتعلم فقط فساعدتهن على الخلاص من التخلف والجهل رغم قلة أعدادهم نسبة إلى العدد الإجمالي في المجتمع.

⁴⁸³ الخوجة: وهي كلمة تركية وتعني المعلمة، أنظر: جحا، فريد: الحياة الفكرية في حلب في القرن التاسع

عشر، دمشق، دار الأهالي، ط١٩٨٨، ص٨٧.

⁴⁸⁴ Hannayer (J) Deyr Alzor 1850,1921,P,124

⁴⁸⁵ Musil ;(A) the Middle Euphates,p,2003

العلماء والمفكرين هم أساس أي نهضة فكرية وهم العقل المدبر في جسد الأمم فعليهم تقوم نهضة الشعوب، وبعلمهم وفكرهم ترتقي أي أمة، فما الحضارات التي قامت سابقاً أو اليوم إلا بفضل علمهم وإبداعاتهم لما قامت أي حضارة أو ظهر إنجاز، وما الحضارة الفكرية العربية على مختلف مراحلها إلا بفضل نجاح كبير لعلمائها ومفكرها، ولعل أهم مظاهر نجاح الحضارة العربية على مختلف عصورها أنها تميزت بتنوع وشمولية العلوم التي نجحت فيها وبالتالي فقد برز علماء عرب في مختلف العلوم النظرية أو التطبيقية.

إن منطقة الفرات الأوسط والجزيرة إحدى مناطق إقليم بلاد الشام العربية، وقد اشتهرت بلاد الشام بعلمائها ومفكرها إحدى مناطق إقليم بلاد الشام العربية، وقد اشتهرت بلاد الشام بعلمائها ومفكرها، وتتميز منطقة الفرات والجزيرة بموقع متوسط ذو أهمية إستراتيجية ونتيجة لذلك فقد كانت محطة عبور ونزل للقوافل والمارة من المسافرين والتجار فشهدت نوعاً من التأثير والتأثير الفكري والنقل للشعر والأدب وبعض العلوم وفنون علم الكلام والموسيقا والغناء.. وغيرها.

ورغم فترة الركود التي عانت منها الحالة الفكرية وخاصة منذ القرن السابع عشر وحتى التاسع عشر إلا أنه مع حالة الاستقرار الأمني التي شهدتها المنطقة منذ منتصف القرن التاسع عشر ونتيجة لبدء اهتمام الدولة العثمانية بها تم تشكيل متصرفية دير الزور، وأوفدت قوة أمنية من العسكر والدرك والضابطية، فحقق المنطقة نوعاً من الهدوء وتحقيق حالة من الأمن^{٤٨٦}، فتغيرت الأوضاع المعاشية للناس.

⁴⁸⁶ وثيقة إدارية، فرحان بمنح نيشان مجيدي للبكباشي حسن آغا (قائد قوة الأمن في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة) وذلك لنوطينه عشائر الخابور، حيث لعب دوراً بارزاً في مواجهة العشائر المتمردة في المنطقة، وتمكنه من توطین قسم كبير منها في مناطقها، كما يعود له الفضل في توطین واستقرار زعماء العشائر في مركز المتصرفية (دير الزور). الوثيقة صادرة في عام ١٢٨٧٠م/١٢٨٩هـ، من الوثائق الشخصية لآل عصمان بك.

وشهدت المنطقة انفتاحاً فكرياً بدأت نهضته بالتدرج نحو الأفضل وانعكس ذلك ارض الواقع، فظهر نشاطاً ثقافياً أعاد على الساحة ما قدمته المنطقة سابقاً من إنجازات وإبداعات على يد نخبة من علماء ومفكرين وأدباء وشعراء ومهندسين وفنانين... وغيرهم.

كذلك فقد أسهمت الأوضاع والمتغيرات السياسية في إبراز دور العلماء والمفكرين بالنهوض في الواقع الفكري نتيجة لتلك المتغيرات حيث لم تكن فئة المثقفون الوطنيون في المنطقة بعيدة عن مجريات الأحداث، فكان المفكرين والشعراء والأدباء قد تأثروا بالأحداث السياسية واثروا بها، وكان لهم الدور البارز في التنظيمات السياسية والثورات التي قامت ضد قوى الاحتلال للفرات والجزيرة سواء العثمانيين أو الإنكليز أو الفرنسيين، فقد عايشوا تلك الوقائع مع أبناء المنطقة وشاركوهم الهموم والألم حتى أنهم أضحوا ينقلون ويصورون تلك الهموم في أدبهم وشعرهم ورواياتهم المعاصرة لذلك.

كما لقن المعلمين والمثقفين ورجال الدين الوطنيين أفكارهم الوطنية لطلابهم ومريديهم ومحبي الأدب، فألهبوا مشاعرهم فكانوا دعاة وجدانيين للوطن وللقوموية العربية، كما سخر كل هؤلاء إمكانياتهم العلمية والأدبية للنهوض بالواقع الفكري^{٤٨٧}.

لقد شهدت بدايات القرن العشرين تحديد سياسية قوية للعلماء والمفكرين في الفرات الأوسط والجزيرة حيث كان أولها خلال العهد العثماني، فنتيجة لتسلط جماعة الاتحاد والترقي على زمام الأمور داخل تركيا، وخاصة منذ أواخر عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٩٠٩م/١٣٢٧هـ) حيث كانوا سبباً مباشراً في إسقاط حكمه على يد قوى المعارضة^{٤٨٨}، حيث أمعن هؤلاء في محاربة العرب والمسلمين فكان من المنطقي أن ينعكس ذلك على واقع المفكرين في مختلف أنحاء الوطن العربي، وما منطقة الفرات والجزيرة إلا جزء من المعمورة، وبالتالي فقد شارك علمائها ومفكرها هموم ومشاكل الشارع العربي، حيث سجلوا مواقف رجولية أمام طغيان جماعة الاتحاد والترقي فترض عدداً منهم للتنكيل والتشريد والملاحقة، وبعضهم الآخر نفي وسجن

⁴⁸⁷ رويلى؛ محمد رشيد: الحركة الفكرية، ج ١، ص ١٠٤-١٠٦.

⁴⁸⁸ عامر، محمود: الدولة العثمانية تتهم سلاطينها، دمشق، دار الصفدي، ط ٢٠٠٣، ١، ص ١٦٥.

نتيجة لمواقفهم الوطنية فرفع كل وطني حر منهم رايات النضال السياسي ضد سياسة التتريك، فهذا هو الشاعر محمد الفراتي^{٤٨٩} يرفع صوته صارخاً في وجه المحتل العثماني مستلهماً القوة والعزيمة من صفحات التاريخ العربي.

إن أحساس الأديب لا يمكن أن يكون بعيداً عما يحيط به ويهدد وطنه فكان أدباء ومفكري الفرات والجزيرة أياً منهم يشعر بأنه مسؤولاً تجاه أمته وقضاياها الوطنية فيتبنّاها ويدافع عنها، وعليه أن يتحمل نتائج كل ذلك من اعتقالات وتنكيل وقد تحملت هذه الفئة وزر تلك المرحلة وما سهدتها من وقائع اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية.

إذاً لقد لعب المفكرين دوراً بارزاً في أواخر العهد العثماني بمنطقة الفرات والجزيرة وأسهموا كأدباء وشعراء وعلماء ومدرسين وشيوخ الدين^{٤٩٠} في مجال تنمية الفرات والجزيرة وأسهموا كأدباء وشعراء وعلماء ومدرسين وشيوخ الدين في مجال تنمية الثقافة والتعليم لدى أبناء المنطقة وإنارة العقول التي سيطر عليها الجهل خلال الفترات السابقة، وسلطوا الضوء على الحقائق والسلبيات التي يرتكبها الاحتلال

⁴⁸⁹ محمد الفراتي: ولد في دير الزور عام (١٨٨٠م/١٢٩٨هـ)، درس وتلمذ على يد الشيخ حسين الأزهرى ثم في المدرسة الخسروية في حلب وبعدها ألحق بالأزهر، له الكثير من الدواوين والقصائد الشعرية، كما كتب في مجال القصص الشعرية، وفي التفسير والترجمة من الفارسية تولى مناصب ومهام عديدة سوف نخصه بدراسة أوسع ، توفي عام ١٩٧٨، وهذه بعض الأبيات الوطنية يتوعد المحتل العثماني ويستنهض العرب فيقول:

فلو أن بين الترك والعرب نسبة
لقد أوقدوا نار الحرب بكلمة
ستبلى بنو جنكيز منا بفتية
تلاقى في الحرب صدراً إلى صدر

أنظر: رويلي؛ محمد رشيد: الحركة الفكرية، ج١، ص١٠٦.
وأنظر: شوحان؛ أحمد: تاريخ دير الزور، ص٢٧١.

⁴⁹⁰ نذكر منهم بعض من برز في هذا الميدان كالأديب علي صائب، وعالم دين كالشيخ حسين الأزهرى والشاعر محمد الفراتي، والمعلمين أحمد براسم الشيخ عطية وحسن زيتون وسعد الحسيني وأحمد شكري وأساتذة مساجد وتكايا أمثال الشيخ أحمد الراوي وأحمد النقشبندى وشعراء أمثال محمد الفراتي والشاعرة الشعبية خرما، ورجال دين ومعلمين أمثال مشوخ الكبيرة، والأسماء كثيرة، أنظر: نخبة من الباحثين بدير الزور ماضٍ عريق؛ ص٦٤١-٦٥٠.

والظلم الذي يمارسه سواء في ميدان السياسة أو تردي الأوضاع الاقتصادية والمشاكل الاجتماعية وسوء الواقع التعليمي والثقافي وضعف الخدمات... الخ.

كما نشط هؤلاء المفكرين من خلال أعمالهم التي كانوا يمارسونها وخاصة في مجال التدريس سواء في المدارس النظامية أو الكتاتيب، وكذلك من خلال الأفكار التي يلتقون بها مع الناس في الدواوين أو مجالس التعليم بالمساجد والزوايا والتكايا^{٤٩١}.

لقد أسهم المفكرين الوطنيين منهم في نقل الأفكار القومية وترسيخها لدى طلابهم ومريديهم، إضافة على تنوير العقول وتنبيه الناس على الظلم الذي يحيق بهم، وبهدف كيان وطنهم، ويوجهون برفض الذل والاحتلال الذي استقر أربعة قرون، وبذلك غدا الأديب مسؤولاً تجاه أمته يعبر عن نوازعها ويتجاوب مع أحداثها، وهكذا فقد لعب المفكرين دوراً بارزاً في تغيير أفكار مجتمع الفرات و الجزيرة وبث روح المقاومة الوطنية والميل على المقاومة وعدم الرضوخ أو التأثر بعاطفة العامل الديني فقط، مما أدى على قيام الكثير من الثورات الشعبية التي كانت ترفض ذلك المحتل العثماني، وكذلك مشاركة العديد من أبناء الفرات الأوسط والجزيرة نذكر منهم محمد الفراتي، ورمضان الشلاش وكانا ضابطان في الجيش العربي.. وغيرهم^{٤٩٢}.

فكانت هذه المتغيرات ثمرة أولى لتطور الحركة الفكرية في المنطقة، وكان للمثقفين والمفكرين الثوريين ما أرادوا بتحقيق الاستقلال في عام (١٩١٨م/١٣٣٦هـ).

ورغم الاستقلال إلا أن المنطقة لم تهدأ وتعرضت بعد ذلك مرتين للاحتلال أولها كانت في عام (١٩١٩م/ ١٣٣٧هـ) من قبل الاحتلال الإنكليزي واستمر أحد عشر شهراً حيث أعقبتها فترة الحكم العربي على يد الحكومة العربية إلا أنه لم يستمر سوى بضعة أشهر.

⁴⁹¹ رغم أن (التكايا والزوايا) خلال العصر العثماني تميل إلى التقارب مع العثمانيين بحكم الرابطة الإسلامية خاصة في عهد عبد الحميد الثاني الذي شهدت فيه نشاطاً ملحوظاً، حيث حاول التقرب من العرب واستطاع تبنيه الجامعة الإسلامية، إنشاء وحدة إسلامية

⁴⁹² سلوم؛ شادي: رمضان الشلاش، ص ٧١-٧٤.

أما الاحتلال الثاني فهو على يد الاستعمار الفرنسي والذي استمر في الفترة ما بين (١٩٢٠-١٩٤٦م/١٣٣٨-١٣٦٦هـ).

لقد لعب المفكرين والعلماء دوراً بارزاً خلال هذه المراحل وأسهموا في تنمية الفكر الوطني ففي مرحلة الاحتلال الإنكليزي كان مفكري الفرات والجزيرة من علماء وسياسيين ورجال دين ومدرسين... أداة لتحريك الشارع ضد الاحتلال الإنكليزي، وقد نجحوا في ذلك بشكل مباشر أعطى نتائجه الصحيحة، وخير دليل على هذا هو المقاومة الوطنية المحلية التي قدم من خلال أبناء الفرات والجزيرة أروع الملاحم ضد المحتل الإنكليزي في صفحات لم يعطيها التاريخ كامل حقها في الدراسة، فكانت منذ اللحظات الأولى لدخول المستمر المقاومة الوطنية الشعبية تعمل واستطاع قادتها وزعمائها المحليين طرد المستعمر من أرضهم وإرجاعه على قواعده العسكرية بعد نضال سياسي ومقاومة مسلحة قدمت فيها الدماء رخيصة وكان أبرز قادتها هو العقيد رمضان الشلاش^{٩٣}.

أما المرحلة الثانية فهي مرحلة الحكومة العربية، وخلالها نشط المفكرين في زيادة الوعي القومي العربي والأفكار الوطنية لبث الروح الوطنية في أبناء المنطقة ضد المخاطر والمؤامرات التي كانت تحاك ضد أرضهم من اتفاقيات سرية وعلنية ما بين قوى الاستعمار مع بعضها وعلى رأسها فرنسا وإنكلترا وما بين قوى الاستعمار وبعض القوى العربية^{٩٤}.

^{٩٣} استطاع المقاومون إرجاع القوات الإنكليزية حتى قواعدها كافة في عامة العراق واسترداد دير الزور والميادين والبوكمال وأنزلوا هزائم كبيرة بقوات الاحتلال، تولى بعدها الحكم في المنطقة رمضان الشلاش أنظر:

الشلاش؛ فائز: مذكرات رمضان الشلاش، ص ١٣٢.

^{٩٤} عندما دخلت القوات الإنكليزية إلى دير الزور، كان ذلك بموجب صك من قبل حكومة الملك فيصل بتبعية دير الزور للانتداب الإنكليزي، بل وأعلن فيصل إدانة تحرك الثوار في الفرات والجزيرة ضد القوات الإنكليزية وتبرئة من أفعالهم، أنظر: سلطان؛ زبير: منطلق ثورة العشرين، مقالة في الأسبوع الأدبي، العدد ٦٣٢/، في ٢٤/١٠/١٩٩٨م.

أما المرحلة الثالثة فهي فترة الاحتلال الفرنسي، والتي تميزت بأهمية دور المفكرين والعلماء في تطور الواقع الفكري ودفع الحركة الثقافية خلال هذه المرحلة قدماً للتطور من أجل النهوض في الوعي الثقافي ونمو الفكر الوطني الناتج عن ذلك.

وخلال هذه الفترة التي امتدت لأكثر من خمسة وعشرون عاماً، اتسعت قاعدة النمو الفكري في الفرات الأوسط والجزيرة وكان لها أثر واضحاً من خلال ارتفاع المستوى التعليمي بشكل تدريجي في الفرات الأوسط والجزيرة وكان لها أثر واضحاً من خلال ارتفاع المستوى التعليمي بشكل تدريجي متصاعد سريعاً، ومعيارنا على ذلك هو ارتفاع مؤشرات أعداد الطلاب من الذكور والإناث في التعليم بالمدارس النظامية، وكذلك ارتفاع المستوى التحصيلي للشهادات العلمية والأدبية، وأعداد الطلاب الذين يتابعون دراستهم في مرحلة التعليم الثانوي، ومن يتابع منهم تحصيلهم في التعليم العالي^{٩٥}.

لقد قام المفكرين والعلماء بنقد واقعهم الاجتماعي والثقافي والاقتصادي والسياسي والتعليمي بل حتى القضايا المعيشية اليومية، موجهين فيها النقد إلى سلطات الاحتلال ولم يقتصر دورهم على جانب واحد فقط، فكانوا ينيرون العقول على تلك الجوانب المتعددة.

وإذا كان علماء ومفكري أي أمة يحضون برعاية واهتمام القائمين على السلطة في كل زمان ومكان، فإن علماء ومفكري الفرات الأوسط والجزيرة كانوا على النقيض، فاعتبرتهم سلطات الاحتلال مصدر خطر وإزعاج لتواجدهم في المنطقة، بل وراحت تلاحقهم وتقوم بطردهم عن أرضهم نفيّاً وتقتلهم، كما زجت ببعضهم الآخر في السجون، وعذبت قسماً منهم وبطشت بآخرين في حين، في حين هرب بعضهم للنجاة بنفسه ولاحقوا قسماً آخر.

فهذا هو الشاعر توفيق قنبر^{٩٦} يشارك أبناء الفرات ثورتهم ضد المستعمر ليقوم بدوره الوطني إلا أنه حكم بالإعدام غيابياً فاضطر للتسلل للعراق، ولم يستطع العودة على الوطن إلا بعد صدور عفواً عام، عانى فيه مرارة البعد عن الوطن والغربة، فعمل في مجال الصحافة وكتب بعض القصائد هناك والمقالات الصحفية^{٩٧}.

وذاك المؤرخ عبد القادر عياش^{٩٨} يتعرض وأسرته (عائلة عياش الحاج) إلى النفي خارج منطقة الفرات والجزيرة حيث أجبرتهم قوات الاحتلال الفرنسي على الإقامة في جبلة لمدة أربع سنوات بسبب المشاركة في الثورة السورية في عام (١٩٢٥م/١٣٤٣هـ) وكان لا يزال شاباً في مقتبل العمر^{٩٩}.

⁴⁹⁶ توفيق قنبر: ولد في دير الزور عام (١٩٠٩-١٩٧٢م) كان نبهاً منذ طفولته، شديد الولع بالمطالعة عرف بسلامة لغته الفصحى، كتب القصائد الشعرية الوطنية والغزلية، حصل على الشهادة الثانوية العامة ثم عمل مدرساً للغة العربية، كان يؤمن بالعلم التطبيقي حتى أنه استطاع صنع (تلسكوب) لمراقبة حركة النجوم والكواكب، كما قام بصناعة بعض التطبيقات الميكانيكية الصغيرة، وطور بعض الآلات الميكانيكية التي كانت تستخدم في المنطقة كمضمان المياه وآلات الطحن واستطاع تطويرها، اشتهر في مجال الصحافة عندما هرب إلى العراق بسبب توجيه تهمة التحريض على الثورة ضد سلطات الاحتلال فصدر الفرنسيون بحقه حكم بالإعدام غيابياً، عمل في بغداد بالصحافة في صحيفة (الفجر)، كانت تربطه صداقة متينة بالشاعر معروف الرصافي حتى أنه اشترك معه في ثورة رشيد علي الكيلاني (١٩٤١م/١٣٥٩هـ)، كما أنه تعرض للنفي إلى مصر، عاد للوطن وعمل في المركز الثقافي، له عدة مؤلفات في مجال التاريخ والأدب والشعر نذكر منها (تاريخ الرقتين، أعلام الرقة عبر التاريخ، ديوان محاسن الفرات، مسرحية الحي ميت- ديوان الصنوبري، توفي في عام (١٩٧٢)، للمزيد أنظر.

رويلي؛ محمد رشيد: الحركة الثقافية في محافظة دير الزور خلال القرن العشرين (من أدباء ومفكري وكتبا محافظة دير الزور)، ج٣، دمشق، دار التكوين، ط١، ٢٠٠٧م، ص ٢٩-٣٣.

⁴⁹⁷ شوحان؛ أحمد: تاريخ دير الزور، ص ٢٧٦.

⁴⁹⁸ عبد القادر عياش: ولد في دير الزور (١٩١١-١٩٧٤م) باحث ومؤرخ ومحامي، حصل على الثانوية العامة من دمشق (من اللاييك)، ثم حصل على الإجازة في (١٩٣٥)، عمل بالمحاماة، أهتم بالبحث وبتأريخ منطقة الفرات الأوسط والجزيرة، نفي هو وأسرته إلى جبلة لمواقفهم الوطنية، له مؤلفات كثيرة في التاريخ والتراث الشعبي توفي عام (١٩٧٤م)، أنظر: رويلى؛ محمد رشيد: الحركة الثقافية، ج٣، ص ٩٠-٩١.

⁴⁹⁹ عياش؛ عبد القادر: حضارة وادي الفرات، ص ١٥٤-١٥٥.

أما الشيخ محمد سعيد العرفي^{٥٠٠} فقد ألب أبناء الفرات ضد المحتل الفرنسي ونادى بأفكاره القومية لمقاومة المستعمر ووضح خطورة الاحتلال واستغلاله للشعوب وشارك بقوة في المقاومة الوطنية، فأصدر الفرنسيون أمراً بنفي العلامة العرفي إلى أنطاكية تحت الإقامة الجبرية منذ عام (١٩٢٢-١٩٢٩م) ثم نفي إلى مصر خلال الفترة من (١٩٢٩-١٩٣١م) أما الشاعر الكبير والأديب والمترجم محمد الفراتي^{٥٠١} فقد تعرض للملاحقة من العثمانيين فهرب وانضم مع جيش الثورة العربية الكبرى وكان برتبة ملازم (إمام طابور) في عام (١٩١٦م-١٣٣٤هـ)

أما خلال فترة الاحتلال الفرنسي فقد ألب بقصائده مشاعر الناس في المنطقة، بل وكان وطنياً مخلصاً لقضية عربيته، وشارك في المقاومة، ونظم القصائد التي تكشف حقيقة المستعمر وتنتقد الواقع السياسي والأوضاع المتردية سواء الاقتصادية أو الاجتماعية وسياسة كم الأفواه، فقامت سلطات الاحتلال الفرنسي بفصله عن العمل من وظيفته التعليمية في عام (١٩٢٤م/١٣٤٢هـ) ولاحقته فوراً فاضطر إلى الهرب وترك بلاده نحو العراق، فاستقر في بغداد وفيها نظم قصائده المعروفة (العراقيات).

والشيخ محمد سعيد المفتي^{٥٠٢} وهو نحوي بارع حتى أنه كان يطلق عليه شيخ النجاة، لم يكن يتعاون مع سلطات الاحتلال الفرنسي كغيره فتعرض للمضايقة منهم والمسألة رغم أنه كان كفيف البصر ولكنه متنور البصيرة فعاش حياته حبيس بيته.

⁵⁰⁰ محمد سعيد العرفي: ولد في دير الزور (١٨٩٦-١٩٥٦م)، علام في الحديث وعلوم الدين الإسلامي، أجازته كبار الشيوخ أمثال، أحمد زكي، وعبد الوهاب النجار، وحسين الأزهري، نفي إلى أنطاكية لمواقفه الوطنية له كتب ومؤلفات عديدة في مجال الأدب واللغة العربية وعلم الحديث، وعلوم الدين الإسلامي وتحقيق عدد من المخطوطات والكتب، توفي عام (١٩٥٦م)، أنظر: شوحان؛ أحمد: تاريخ دير الزور، ص ٢٦٩-٢٧١.

⁵⁰¹ محمد الفراتي: هو محمد بن عطا الله ولد في دير الزور (١٨٧٨-١٩٧٨)، شاعر الفرات المعروف بحبه للمنطقة اشتراه في مجال الشعر، والأدب، والنحو، والترجمة، له مؤلفات وواوين كثيرة، سوف نغرد له دراسة موسعة في الفصل الأخير، توفي عن عمر يناهز (١٠٠)مئة عام، أنظر: رويلي، محمد رشيد: الحركة الثقافية، ج ٣، ص ١٣٩.

⁵⁰² محمد سعيد المفتي: العلامة الشيخ الفقيه والنحوي، ولد في دير الزور (١٩٠٥-١٩٦٨م) فقد بصره وهو في السادسة من عمره، أجاز بالتدريس والإفتاء ولم يتجاوز سن العشرين، تخرج على يده الكثير من الطلاب أبرزهم (حسين السراج) د. حسن حسني، الشيخ العلامة صالح يساوي، خليل ملاحظر.. أما أبرز

أما الأديب والمدرس الشيخ حسين السراج^{٥٠٣} فقد كان مصدراً هاماً لطلابه في إلهامه الروح الوطنية ضد المحتل الفرنسي من منبر العلم الذي كان يدرس عليه في (تجهيز الفرات) أي ثانوية الفرات اليوم، حيث كان الملهم لطلابه العلم في بث روح الثورة ضد المستعمر الفرنسي وكذلك خارج العمل يلتقي بهم ويحثهم على النضال.

أما العلامة والمفتي سعد الدين الحسيني^{٥٠٤} فهيها هو يصرخ مصرحاً بمنهجه القومي في مطلع القرن العشرين، ليحث أبناء الفرات والجزيرة على المقاومة، ومشجعاً إياهم على نحو الحس القومي قائلاً:

أنت سوريا بلادي	أنت عنوان الفخامة
كل من يأتيك يوماً	طامعاً يلقي حمامه
نحن للحرب أسود	نحن للحرب حمامه ^{٥٠٥}

شيوخه فكانوا (حسين الرمضان، وجعفر الرحبي، ومحمد نهري) له آثار عدة في النحو، وقصائد شعرية وفي النحو وتفسير القرآن وشرح المعلقات السبع، وشرح الصحيحين البخاري ومسلم، كما لخص سيرة ابن هشام والسيرة الحلبية، ابتكر قوانين في حل مسائل الفرائض كان علامة في علوم النحو والصرف واللغة والعروض والبلاغة والسيرة والفقه والحديث وعلم الكلام، أنظر: جريدة الفرات: ، العدد ٨٥، دير الزور ١٩٨٥/٥/٢٧.

⁵⁰³ حسين السراج: الخطيب والأديب والفقيه، ولد في دير الزور، (١٩٠٧-١٩٦٧م)، علم أستاذاً في مدارس ومساجد دير الزور، امتاز بأسلوبه في جذب الطلاب، اشتهر في الأدب والخطابة وبرع في ميدان الخطابة إلى درجة فتنت طلابه به فجعلتهم يستمعون لتوجيهاته كان وطنياً فزرع حب الوطن لدى مستمعيه في خطبه سواء في تدريسه أو المساجد، أنظر: شوحان؛ أحمد ، تاريخ دير الزور، ص ٢٨٠-٢٨٣.

⁵⁰⁴ سعد الدين الحسيني: هو الشيخ سعد الديني من صليبي الصالح الحسيني، ولد في دير الزور (١٨٤٨م) حصل في دراسته في دير الزور ثم حلب والعليا في الآستانة، تولى الإفتاء في متصرفية دير الزور لفترة طويلة امتدت من عام (١٨٨٤-١٩٠٤م) ثم عين قاضياً في السلمية، ثم نقل على شط العمارة قاضياً، عزله الإنكليز بعد وصولهم إلى العراق نتيجة مواقفه الوطنية، كان مصدر وطني ضد سلطات الاحتلال الإنكليزي في العراق والفرنسي في سورية، كان علامة في أمور الشريعة والأفتاء، وهو رجالات دير الزور والحسكة ونشير إلى أن هذه التسمية هي غيرها في جمعية العهد حيث كان أحد قادة منطقة الفرات في الجمعية التي يرتبط قاداتها بحلب مباشرة وأطلق على قاداتها في منطقة الفرات والجزيرة اسم (الفراتين): أنظر:

صليبي؛ عمر: لواء الزور إدارياً وسياسياً، ص ١١٤+٢٠٨.

⁵⁰⁵ صليبي، عمر: أعلام ونضالات، ص ١٤٣.

لقد لعب العلماء والمفكرين والأساتذة ورجال الدين الوطنيين دوراً هاماً في بلورة الوعي الفكري في الفرات الأوسط والجزيرة خلال مرحلة دراستنا هذه، خاصة وأنهم نجموا من خلال علمهم وأدبهم وأفكارهم أن يحركوا الشارع في المنطقة من خلال تثقيف الناس وإثارة الجوانب المعتمدة في حياتهم، ومن خلال محاضراتهم ودروسهم وتأثيرهم على طلبتهم في المدارس أو المساجد أو الكتاتيب وغيرها.

كذلك كان تأثير المثقفين والأساتذة خارج أوقات وإطار العمل، حيث شهدت المنطقة نشاطاً فكرياً من خلال الجمعيات والنوادي الثقافية ذات الطابع السياسي فكرياً ومنهجاً، وظهور التنظيمات السياسية، والمجلات والصحف المحلية، ونشاط المؤلفات الفكرية ومجالس وحلقات العلم ومرد الخطابات السياسية التي كان العلماء والمفكرين آنذاك، كل تلك كانت نتاجاً واضحاً لدورهم الذي أثر بشكل مباشر في النضال السياسي الوطني والكفاح المسلح، وما خلصنا إليه من نتيجة هي الأهم أن دورهم كان الدور الفاعل والأساسي في تحقيق الاستقلال الوطني ودور رئيسي في رفع مستوى العلم والتعليم ورغد الأجيال اللاحقة والناشئة فكانوا بحق الشمعة التي تنير الدرب..

٥ - الموروث الحضاري :

تعد منطقة الفرات الأوسط والجزيرة في بلاد الشام، منطقة ذات ماضٍ عريق وحضارة غنية بمورثها الثقافي والفكري، وقلما تضاهيها منطقة عربية أو حتى على صعيد المشرق العالمي، وتشهد على هذا آثارها الكثيرة المتنوعة والمتعددة الأصول وصارت ذات الصيت والشهرة العالمية بدءاً من آثارها الحجرية والمغاور والكهوف، وتلك التلال الصناعية المغطاة بحطام الألوان الفخارية المتعددة وقرى زراعية أولية وطرق تجارية قديمة للقوافل مرصوفة بمختلف أنواع البضائع التجارية القديمة، ومدافن جنائزية، وأبراج وأقواس نصر، وصوامع عبادة منفردة ومعابد جماعية وتلال وأديرة وقلاع وحصون ومدن وحضارات.

وفي داخل الكتب والمصورات القديمة أسماء مدن وقرى وقصور كانت في المنطقة أقامت حضارات عريقة على أرضها وتركت تراث علمي وأدبي ضخم نتاج أبنائها من أدباء وعلماء الفرات الأوسط شاركوا في الحياة الفكرية على مختلف العصور.

لقد دون أبناء تلك المنطقة الحضارية أدبهم وفكرهم وفنهم ومعاملاتهم السياسية منذ منتصف الألف الثالث قبل الميلاد على رقم الطين حتى امتلأت

قصور الملوك والعامّة والمعابد، وكانت المكتبات في مدينة ماري وترقا تضاهي كبرى مكتبات العالم آنذاك وكان للكلدان مدارس شهيرة في مدن الفرات والجزيرة قبل الإسلام، وكان لها الدور البارز في تعميم الثقافة كما كان للعلماء السريان في العصر العباسي منزلة خاصة لدى خلفاء بني عباس وبخاصة المأمون بما نقلوه وترجموه من الكتب المتعددة المواضيع والمتنوعة اللغات والأغراض إلى اللغة العربية ومن الضروري أن نذكر الحياة الفكرية التي انبعثت من الحياة الاجتماعية وخاصة الفكر الديني فقد القبائل العربية قبل الإسلام تتوضع على ضفتي نهر الفرات وفي بادية الجزيرة الفراتية وهي تدين بالنصرانية وقد نبغ من أبنائها أحد عشر أسقفًا، وكان لتلك القبائل أدبها العربية وشعراؤها قبل الإسلام وبعده احتلوا مكانة مرموقة في الأدب العربي بكل عصوره^{٥٠٦}.

كلّك تطالعنا كتاب التراجم والسير والطبقات بالكثير من أبناء المنطقة^{٥٠٧} وقد كانت حران قبلة للعالم القديم وهي بمثابة أثينة للعالم الآرامي، وازدهرت فيها مدرسة في الشرق منذ القرن الخامس حتى السابع وبلغت أوج ذروتها آنذاك حتى ذاع صيتها في بلاد فارس والروم وأوربا وشمال إفريقيا وفيها وكانت أول جامعة لاهوتية^{٥٠٨}.

أما في العصور الإسلامية فقد شهدت المنطقة حركة كبيرة من خلال مساجدها وجوامعها وكذلك برز العديد من العلماء في علوم متعددة مثل علم الكلام وما يتعلق به

⁵⁰⁶ نذكر منهم على سبيل المثال والحصر (عمر بن كلثوم التغلبي) صاحب المعلقة المشهورة ومنصور النيميري والأخطل الكبير التغلبي، والعتابي، وأبي زبيد السلمي، وربيعة الرقي، وزفر بن الحارث الكلبي وعبد الحميد الكاتب، ومالك بن طوق، والتغلي القطامي.. الخ.

أنظر نخبة من الباحثين: دير الزور، ماضي عريق، ص ٦٢٢.

⁵⁰⁷ نذكر منهم: الحراني، والبالسي، والرصافة، و الرقي، والجعبري، والمنبجي، والعالم الفلكي البتاني:

أنظر: عياش، عبد القادر: حضارة وادي الفرات، ص ١٦.

⁵⁰⁸ كرد علي، محمد: خطط الشام، ج ٤، ص ١٣-١٤.

من علوم أخرى كالمنطق والفلسفة في التراث الفكري العربي القديم^{٥٠٩}. والتي كانت تدرس تلك الآراء والأفكار في حلقات المساجد، على الرغم ما فيها من الاختلاف لأن فيها ما يخص علم الكلام و علم التوحيد الذي غايته إثبات واجب الوجود، ومعرفة طريق المجادلة والإحاطة بطرق متناقضات الخصوم عندما تثار الشبهات وتكثر الأسئلة وهنا برز دور علم الكلام والتصوف...الخ.

كما كان للعلماء السريان في العصر العباسي منزلة خاصة لدى خلفاء بني عباس وخاصة المأمون، نتيجة لاجتهادهم في أكثر من ميدان علم وأبرزها حركة الترجمة وما نقلوه من الكتب المتعددة الموضوعات والمتنوعة اللغات والأغراض إلى اللغة العربية^{٥١٠}.

لقد كان السكان الأصليون في الفرات والجزيرة خليطاً من الآراميين والأشورية والبابليين وقبائل عربية أخرى هاجرت قبل الإسلام بفترة طويلة من الزمن، وعندما جاء الفتح الإسلامي استقر كل منها مع قبيلته التي سبقتها في الأصل قبل آلاف ومئات السنين فحملت معها تلك القبائل (ربيعة، وبكر، وتغلب، وقضاعة، وتميم...الخ. إلى موروثها الثقافي والفكري على الفرات والجزيرة وصارت بعض منها تتردد على السنة الشعراء كالأخطل التغلبي الذي ذكر في شعره كلاً من (الصور والبشري)^{٥١١}، واقترن قولها:

وللشمس قمت بعده بكسوف
وللبدر من بين الكواكب قد

هوى

⁵⁰⁹ مثل آراء الفارابي وابن سينا، وأبي حيان التوحيدي، وابن رشد والغزالي، وآراء الفرق الإسلامية المشهورة، دكا أنظر:

قنبر: توفيق: الحياة الفكرية، ص ٢٣٣.

⁵¹⁰ نخبة من الباحثين، دير الزور ماضي عريق، ص ٦٢٢.

⁵¹¹ الصور، وهي مدينة ماكسين كما حددها ياقوت الحموي فهي تقع على القرب من نهر الخابور وتعرف اليوم بالصور وتقع على بعد ٥٠ كم نحو الشمال الشرقي لدير الزور، اشتهرت في العصر العثماني بثرواتها الباطنية كالحساس والصوديوم والبشري: وهو الجبل الأكثر شهرة في منطقة بادية الشام القسم التابع لدير الزور، على بعد ٤٥/كم، وقد تواجد العنصر البشري عليه منذ العثور القديمة، أما في العصر العثماني فقد استثمرت الخيرات الموجودة في جبل البشري وفيها معدن المعزة، و الفحم، والقيز، والبوتاس، أنظر: الفخري: نهر الذهب، ص ٤٦٢.

فيا شجر الخابور مورقاً
كأنك لم تحزن على ابن طريف
أنظر: الزركلي، خير الدين: الأعلام، بيروت، دار العلم
للملايين، ج ٥، ١٩٧٧، ٢، ص ١٧٦.
اسم الرحبة بمالك في طوق الثعلبي^{٥١٢}، وقرقيسيا (البصيرة).
بزفر بن حارث الكلابي^{٥١٣}، وكذلك الفارعة بنت طريف التي هزت سكان الخابور
بشعرها وراثتها لأخيها^{٥١٤}.

وقد كان لكل قبيلة لهجتها، ولعبت تلك القبائل دوراً هاماً في الفكر الثقافي
 للمنطقة والذي عنهم نقلت اللغة العربية، وعندهم أخذ اللسان العربي عن بين قبائل
 العربية وبهم اقتدى فكان لكل قبيلة لهجتها لتصبح على مر السنين لغة أبنائها حتى
 عدد من القلة الذين ينطقون الحروف مفردة ويخرجونها من مخارجها الصحيحة
 المنصوص عليها في كتب اللغويين، بما في ذلك النطق بحروف الضاد، والفاء والجيم
 والذال كما نطقوا بأحرف معدلة.

كما أنجبت المنطقة العديد من العلماء والأدباء أمثال الأديب الكبير والفيلسوف
 (لوقيانوس السميساطي)^{٥١٥} الذي ذاع صيته ليصل إلى الأناضول وأوروبا وأفريقيا.

⁵¹² ارتبط اسم الرحبة بـ (مالك بن طوق) حتى باتت تعرف برحبة مالك. للمزيد: انظر الفصل الأول

⁵¹³ كما ارتبط اسم قرقيسيا بزفر بن حارث الكلابي وهو زعيم القيسية في عهد الدولة الأموية، أما قرقيسيا
 فتقع في راس المثلث الذي يؤلفه إلتقاء الفرات والخابور شرق دير الزور من جهة الجزيرة وعلى بعد ٤٣
 كم منها، نشأت في عهد الملك الأشوري سرغون الأول وسميت (سركي) واستمرت خلال العصر الفارسي
 واليوناني والروماني، وعندما استولى عليها الفرس في عام ٣٦٣م أطلقوا عليها اسم قرقيسيا، فتحت على
 يد المسلمين عام ١٦هـ، ولا تزال أثارها حتى اليوم، أنظر: عياش؛ عبد القادر: قرقيسيا قاعدة وادي
 الفرات، دير الزور، مطبعة الفرات، ط-١٩٧٢م، ص ٨-٢٤.

⁵¹⁴ الفارعة بنت طريف: وهي الفارعة بنت طريف بن الصلت التغلبية، شاعرة الفوارس، كانت تركب الخيل
 وتقاتل، وعليها الدرع والمغفر، وهي أخت الوليد بن طريف الذي استولى على الجزيرة الفراتية عام
 ١٨٧هـ في عهد الرشيد الذي أرسل إليه يزيد بن زائدة فقتل، وقد كانت فارعة تسلك سبيل الخنساء في
 مراتبها لأخيها صخر، توفيت فارعة في عام ٨١٥م/ ولعل أشهر

⁵¹⁵ لوقيانوس السميساطي: ولد في مدينة سميساط السورية على نهر الفرات (ديار بكر اليوم) في عام
 ١٢٥م، تلقى تعليمه في بلدة أيونيا، ثم امتحن المحاماة في أنطاكية، رحل إلى أثينا وبحر إيطاليا وفرنسا، ثم
 استقر في سميساط وتولى القضاء فيها حتى وفاته عام ١٩٢م/، وخلف آثاراً فكرية أدبية بلغت ٨٢/ كتاباً

ومنها التبانى^{٥١٦} الجغرافي والعالم الفلكي الشهير وهو من الرقة وله اكتشافات كثيرة في الرياضيات والفلك والشاعر العتابي^{٥١٧} وهو من رأس العين، وعمر بن كلثوم^{٥١٨} الذي عاش في الجزيرة الفراتية ضمن مناطق دير الزور اليوم.

أهمها: (نهج كتابة التاريخ، مذاهب في المزاد، مديح الوطن، محاورات الموتى....الخ). انظر: صائب؛ سعد وعرنوق؛ مفيد: ترجمة من أعمال لوقيانوس السمساطي، بغداد، دار الرشيد للنشر، [د.ت.]، ص ١٢.

⁵¹⁶التبانى: هو محمد بن جابر بن سنان أبو عبد الله، ولد عام ٢٣٥-٣١٧هـ في قرية بتان قرب حران، وعاش في الرقة، أحب رصد النجوم والكواكب، وبدأ تجاربه في مرصد الرقة عام ٢٦٤هـ، قدم اكتشافات كثيرة في جمال الفلك والرياضيات نذكر منها أنه حدد الكواكب التابعة، كما قدم بحثاً مبتكرة في الجبر والمثلثات، لا يزال حتى اليوم واحداً من مشاهير علماء الفلك، أنظر: عياش، عبد القادر: حضارة وادي الفرات، ص ٢٨٩.

⁵¹⁷العتابي: هو كلثوم بن عمرو التغلبي، ولد في الجزيرة الفراتية وعاش في رأس العين كان أديباً و شاعراً متميز فهو من أئمة البيان والبديع، وأستاذ الخطابة، وأستاذ النقد الأدبي، وشاعر الفن، توفي عام ٢٢٠ هـ نذكر من شعره قوله:

ألف نكس الدهر	فأضحى حلوه مرّاً
وقد جربت من منه	فلم أحمد هم طرّاً
فألزم نفسك اليأس	من الناس تعش حرّاً

أنظر: عياش، عبد القادر: تاريخ الأدب في وادي الفرات، دير الزور، مطبعة الفرات، ط ١٩٦٩م، ص ٧١.

⁵¹⁸عمرو بن كلثوم: هو عمر بن كلثوم بن مالك بن عتاب التغلبي، ولد في الجزيرة الفراتية، شاعراً أو فارساً، فتك بعمر بن هند وبعدهما قال معلقته المشهورة في سوق عكاظ أثناء موسم الحج توفي عمره (١٥٠)

عاماً، نذكر مطلع معلقته المشهور فيقول فيها: ألا هبي بصحتك

فأصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا أنظر: الشنقيطي، أحمد:

المعلقات العشر وأخبار شعرائها، القاهرة، مطبعة الاستقامة، ط ٢،

١٩٣٥م ٢ ص ٣٤.

كما أنجبت المنطقة الأديب و اللغوي والنحوي إبراهيم الحصكفي^{٥١٩} صاحب كتاب (أبكار المعاني)، وكتاب (حلبة المفاصلة في المطارقة والمراسلة). كذلك قدمت الشاعر العشاري^{٥٢٠} صاحب الإيوان الكبير المعروف باسم (ديوان العشاري) والذي يعد المجدد في الشق قبل أن يولد غيره من المجددين من دعاة التجديد بأكثر من مائتي عام^{٥٢١}.

كما أنجبت تلك الأرض مجموعة كبيرة من فحول الشعراء والأدباء والعلماء والكتاب فإنها قدمت مجموعة لاحقة منهم في القرن العشري، وما زالت تعطي الكثير حتى زمننا هذا^{٥٢٢}.

(إبراهيم الحصكفي): هو إبراهيم بن أحمد الحصكفي، أحد أبرز أدباء ولغوي منطقة الفرات والجزيرة له مؤلفات عدة لكن أبرزها كتاب المعاني، وكتاب حلبة المفاصلة في المطارحة والمراسلة... وغيرها للمزيد أنظر:

الزركلي: الأعلام، ج ١ ص ٢٤ و ٢١٦.

⁵²⁰(٩) العشاري: هو علاء الدين علي بن عبد الله العشاري، وسمي بالعشاري نسبة على بلدة العشارة التي أقدم منها إلى حلب، شافعي المذهب، وقد عرف باسم القاضي (ابن قطان)، وتولى قضاء إعزاز وسرمين، وذاع صيته بأنه من بلدة العشارة التي تتبع لقضاء الدير، توفي في العشر الأخير من رجب عام ٩٣٢هـ للمزيد أنظر:

الحنبلي (ابن فلاح): شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٨٢ مج، بيروت، المكتب التجاري للنشر، [د، ت] مج ٤، ص ١٨٤.

⁵²¹ونقصد بذلك المجددين في الشق مثل (بدر شاكر السياب، أو نازك الملائكة..الخ)..

⁵²²كثيرة جداً هي الأسماء للمفكرين الذي برزوا من أبناء الفرات الأوسط والجزيرة على مر العصور التاريخية، فإذا بعضاً منهم، فإن ذلك لا يعني أنهم الجميع بل هنالك الكثير من علماء ومفكري المنطقة الذين تركوا بصمات لا تنسى في ميادين شتى من الحياة الفكرية أمثال: غياث بن غوث (الأخطل الكبير) الشاعر الكبير، وعمرو بن الأيهم، وابن الغدير والذين كانوا من أبناء الجزيرة الفراتية في مناطق دير الزور

* اللغة (الحفاظ على اللغة العربية) :

تعد اللغة هي الممثل الرئيسي لأي قوم بل وتجسيدا لانتمائه وأصالته والركيزة الثقافية الأهم في مجال الفكر.

ومفهوم اللغة في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة له أهمية كبرى كما لدى كل العرب، وما لغة أهل المنطقة سوى العربية الفصحى تنطق بلهجتها المحلية، ولذلك لا بد لنا من التعرف على مفهوم اللغة وتلك اللهجة المحلية وخصائصها وأثرها في الحياة الفكرية.

الحديث عن اللهجة واللغة يتطلب منا توضيح مفهومها، فاللهجة اليوم تعتبر مجموعة من الصفات اللغوية، تنتمي إلى بيئة خاصة، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد تلك البيئة، ويراها البعض الآخر بأنها استعمال خاص للغة في بيئة معينة^{٥٢٣}،

والخابور، وأبو زبيد الطائي من الرقة، ودعل الخزاعي من قرقيسيا (البصرة) والشاعر القطامي من مناطق الجزيرة (الحسكة اليوم) وعوف بن محلم الخزاعي عالم وأديب وروائي وأحد اشعر الشعراء الظرفاء من مناطق الفرات الأوسط (دير الزور والرقة اليوم)، وعبد الحميد بن يحيى (عبد الحميد الكاتب) وهو تربوي ومؤدب وأديب وكان كاتب مروان بن محمد، وكان الكاتب يحسن اللغة الفارسية وهو في الرقة، ومالك بن طوق أمير وشاعر من الرحبة (من مناطق دير الزور اليوم)، والعنترى طبيب وعالم وفيلسوف من أبناء الجزيرة (الحسكة اليوم)، والعلامة الشيخ شهاب الدين الصوفي، والجعبري، والجرزي، وعيسى بن مسلمة وصاعد بن حسن وعبد العزيز أحمد المعروف بسعد الديري والعلامة ابن عجل الخناجري الديري، وشمس الدين الحريري والقرقيس صاحب كتاب الجامع الكبير، وربيعة الرقي الشاعر الضرير، وإسحق المعيطي شاعر الهجاء وأحمد بن محمد الدنيسري.... وغيرهم الكثير ممن عطرت آثارهم عالم الفكري العربي، وفي التاريخ الحديث والمعاصر نذكر منهم أمثال الشيخ حسين الأزهرى، ومحمد الفراتي ومحمد سعيد الصرفي، ورمضان الخالدي وعبد الجبار الرحبي وعبد القادر عياش واللغوي علي صائد والأديب سعد صائب وعبد القادر ملاحويش، الشاعر هو توفيق قنبر، وتوفيق الفنوش، وثابت عزوي وجلال السيد.

وعبد السلام العجيلي... الخ. للمزيد أنظر: عياش، عبد القادر: حضارة وادي الفرات، ص ١٨٣-٣٥٦.

وأنظر: رويلى؛ محمد رشيد: الحركة الفكرية ج ١، ص ٧٢-٨٩.

⁵²³الخليل؛ إبراهيم: بعض الخصائص اللهجية لمدينة الرقة، الندوة الدولية لتاريخ الرقة وآثارها، دمشق،

واستخدام لفظ لهجة يعتبر حديث نسبياً، فالعرب القدماء لم يستعملوا مصطلح اللهجة على النحو الذي نعرفه في العلم اللغوي الحديث وإنما كانوا يستخدمون مصطلح (لغة) أو (لغة) للهجة، ويستعملون مصطلح (لسان) للدلالة عن اللغة بشكل عام فقد ذكر القرآن الكريم قوله تعالى : (لسان الذي يلحدون إليه أعجمي، وهذا إنسان عربي)^{٥٢٤}.

وبالتالي فإن اللسان قديماً هو بمعنى اللغة حديثاً، واللغة هي اللهجة قديماً لذا جاءت أكثر المؤلفات القديمة في اللهجات تحمل عناوين (اللغات) مثل:

- كتاب اللغات في القرآن: لمقاتل بن سليمان عام ١٥٠هـ، (كتاب اللغات لـيونس بن حبيب ١٨٣هـ، ومثله للأصمعي ٢١٣هـ).

- أ- أصول الظواهر اللهجية في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة.

تعد المنطقة إحدى أهم أماكن الاستقرار للآراميين والأشوريين والبابليين وعدة قبائل عربية أخرى استقرت قبل الفتح الإسلامي وأخرى بعده وكما ذكرنا سابقاً تلك القبائل فإن أبرزها كانت من تغلب وربيعة وبكر ومضر وتميم..الخ.

وبالتالي فقد كانت لهجة أبناء الفرات الأوسط والجزيرة وما تزال نتيجة اختلاط وتمازج لهجات تلك القبائل العربية والتي أثرت أثر فيها بالوجه الحسن والإيجابي أعطاهاميزة قيمة بين اللهجات الكثيرة في البلاد العربية^{٥٢٥} وقيمة تلك اللهجة تأتي من تعددها، وغناها وشمولها وقدرتها على الاستمرار والصمود أمام الاختلاط السكاني الكبير والانفتاح الذي شهده المجمع المحلي في الفرات و الجزيرة خاصة منذ بداية القرن العشرين حتى منتصفه ورغم ذلك فإنها ما زالت تحمل في داخلها بواكير اللغة العربية الأم^{٥٢٦}.

لقد تعرضت اللغة العربية لمحاولات محو وإضعاف في الفرات الأوسط والجزيرة كما في كل سورية وبلاد الشام، وأول هذه المحاولات كانت خلال هذه

⁵²⁴ القرآن الكريم، سورة النحل، الآية ١٠٣.

⁵²⁵ رويلي، محمد رشيد: الحركة الفكرية، ج ١، ص ٩٣.

⁵²⁶ الخليل؛ إبراهيم: الخصائص اللهجية، ص ١٢١-١٢٢.

الفترة في بدايات القرن العشرين - في نهاية العصر العثماني وهي سياسة التتريك على يد الاتحاديين، ثم أعقبها فترة الاستعمار الأوربي حيث تعرضت المنطقة للسياسة الفرنسية (وإن كانت على مستوى أضعف من السياسية الفرنسية في المغرب العربي) وذلك خلال فترة الاحتلال الفرنسي، ورغم ذلك فقد حافظت اللغة العربية على سلامتها وأثبتت أصالتها في القدرة على الاستمرار أمام كل تلك التحديثات، واستمرت اللغة في المنطق تحمل في داخلها بواكير اللغة العربية الأم.

لقد شغف أهل الفرات والجزيرة بتعلم العلوم الدينية، الأمر الذي يعكس اهتمامهم باللغة نتيجة ارتباط العلمين ببعضهما ارتباطاً وثيقاً، والقرآن الكريم أنزل عربياً، والرسول الكريم محمد (p) بعث رسولاً عربياً، وهذه دراسة لرجال علم في علوم الدين والقضاء واللغة من أبناء الفرات والجزيرة أسهموا في أغناء اللغة العربية من خلال تدريسها أو التأليف بعلومها.

فالشيخ حسين الأزهرى كان أستاذ العلوم الدينية وله مؤلفات (رفض طباعتها) في علوم القرآن واللغة أهمها مخطوطة تفسير أجزاء من القرآن الكريم، وعدد من الرسائل الدينية في التفسير واللغة ومعاني القرآن، ويشهد طلاب الجامع الأزهر الذي درس فيه لمدة (٢٧) سبعة وعشرين عاماً بتدريس التفسير والفقه، وكان شيخ الرواق البغدادي فيه، وعندما استقر في دير الزور راح يدرس تلك العلوم إلى جانب اللغة العربية فكان طلابه متميزون في علوم اللغة^{٥٢٧}.

أما الشيخ محمد سعيد العرفي فقد كان معلم التفسير والفقه والمذاهب الأربعة وفلسفة العقيدة وكان يدرس اللغة العربية وخاصة القواعد وعلم العروض والمعاني، رغم أنه متمكن من لغات أخرى مثل التركية والفارسية إلا أنه كان بفضل تدريس اللغة العربية فقد ألف كتاباً في علم العروض سماه (رسالة في العروض)^{٥٢٨}.

⁵²⁷ حيزه؛ عبد الصمد: رواد الفكر بوادي الفرات الأوسط، ص ٦٩.

⁵²⁸ شوحان؛ أحمد: تاريخ دير الزور، ص ٢٦٩.

والملا محمد سعيد المفتي شيخ الكتاتيب وكان من حفظة القرآن رغم أنه
ضرب وكان شيخ الأساتذة في النحو ومعلم البلاغة وعلم الكلام، فقد تخرج على
يدي طلاب كانوا يقارعون كبار الأساتذة في اللغة العربية.

القاضي عبد القادر ملاحويش كان قاضياً بارعاً وخطيباً بليغاً وأستاذاً ضليعاً
في علم اللغة العربية حتى أنه وضع عدة مؤلفات في قواعد علم اللغة العربية
نذكر منها كتاب (قواعد اللغة العربية)، وله كتاب لغوي ديني أطلق عليه اسم
(كتاب حسن البياني في تجويد أحكام القرآن الكريم، وله مؤلف (حسن القول في
المفرد والمفصل).. الخ لقد كان قاضياً وفتياً في علوم اللغة والدين⁵²⁹.

أما الشيخ محمد رئيس رمضان الخالدي فكان شيخ التجويد ويقرأ القرآن
الكريم بأكثر من قراءة⁵³⁰ وإلى جانب ذلك فقد كان شيخ التصوف وشاعراً دينياً
وهو أستاذاً في النحو والصرف، له مؤلفات شعرية وأدبية كثيرة نذكر منها (كتاب
مقدمات ونتائج في المنطق).

وكتاب (مفتاح الغيوب) وكتاب (رد على بنت الشاطئ) وكتاب في فقه اللغة
بالقرآن الكريم أسماه (كلام وجيز في القرآن) وديوان شعري هو (بطولة علمية)
ومجموعة قصائد زجلية... وغيرها الكثير، وقد أسهم في تعلم اللغة العربية
والحفاظ عليها أمام هجمات التتريك والفرنسة⁵³¹.

كذلك كان الشيخ طه حسون الطائي وهو من حفظة القرآن الكريم من سن
الحادية عشرة وبعدها حفظ ألفية ابن مالك، فكان يدرس القرآن والتفسير على

⁵²⁹ عبد القادر ملاحويش: ولد في دير الزور (١٨٨٠-١٩٧٨م)، درس في الميادين ودير الزور و منح
شهادة في المحاماة، عين قاضياً في أماكن عدة، تولى الخطابة و التدريس في مساجد دير الزور والميادين
له مؤلفات كثيرة منها ما هو مخطوط وآخر مطبوع، أنظر صليبي، عمر: معالم وأعلام في الجزيرة
والفرات، ص ١٣٤.

⁵³⁰ حسني؛ حسن: محمد رئيس رمضان الخالد ، أطروحة دكتوراه بإشراف: سعيد بستانى، بيروت جامعة
القديس يوسف، غير منشورة، ١٩٦٧، ص ٦٤-١٥٠.

⁵³¹ وهي الأجزاء النحوية المصرية ومؤلفها حنفي ناصيف، وهي تقع في أربعة أجزاء.

المذاهب الأربعة وهو أستاذ النحو والصرف، فكان يعلم طلابه الأجزاء النحوية المصرية الأربعة^{٥٣٢}، وشرح ابن عقيل، والمغني اللبيب والسيدة. لقد اتصفت اللغة في الفرات الأوسط والجزيرة بلهجة خاصة بها كانت هذه اللهجة متنوعة الظواهر، ولذلك لا بد من تقديم دراسة لأهم ظواهر تلك اللهجة وما تفرع عنها من لهجات عديدة.

ب - أهم الظواهر اللغوية في لهجة الفرات الأوسط والجزيرة: تتعدد الظواهر اللغوية في لهجة أهل المنطقة إلا أنها ورغم تفرع لهجات متعددة منها فهي تشترك بخصائص لغوية تحدث بها ونطقها ولا يزال حتى اليوم يلحنون بها أبناء الفرات والجزيرة.

وهي كثيرة ومتنوعة ولذلك يجدر بنا أن نقدم دراسة وافية لها.
أ- التثنية:

وهي كسر حروف المضارعة إطلاقاً، وفي لهجة أهل المنطقة تكسر حروف المضارعة عدا الألف وفي حالات متعددة نذكر منها:

يحضر - تعرف - نلعب - شعير

وتلغظ بالعامية: يحضر - تعرف - نلعب، شعير

ويمكن القول أن هذه من بقايا قضاة حيث ت نسب التثنية إلى بهراء وبعض كلب وهذيل وربيعه من العرب، وقد كانت لبني أسد وقيس وتميم^{٥٣٣}.

ب- العننة:

وهي إبدال الهمزة المفتوحة إلى عيناً، وهي تستخدم بكثرة في مناطق الريف من الفرات والجزيرة مثل.

- بحار - سؤال - القرآن.

وتلغظ: يجعر - سعال - القرعان.

وفي الأصل هي من لغة تميم، وشاع استخدامها ولا يزال لدى بعض القبائل في ريف من فطات دير الزور والحسكة والرقعة^{٥٣٤}.

⁵³² رويلى، محمد رشيد: الحركة الثقافية، ج ٣، ص ٦٨-٧٠.

⁵³³ الخليل؛ إبراهيم: الخصائص اللهجية، ص ١٢٣.

ج- الإحالة:

أي إحالة الألف نحو الياء، وهي غالباً ما تحدث وتنطق في الأسماء الخماسية التي رابعها ألف مع وجود بعض الشواذ، وتكثر حالات نطق الإحالة في المنطقة نذكر أمثلة منها.

مسبحة - مجداف - محراث.

وتلفظ: مسبيح- مجديف- محريث.

والإحالة ليست حالة شاذة عن اللغة العربية فهي قبل أن تكون موجودة لدى أبناء المنطقة فإنها موجودة لدى قبائل بكر وتغلب بل وهي إحدى القراءات القرآنية (الإحالة بالياء) مثال:

(والضحى والليل إذا سجي)^{٥٣٥}.

وقد عد علماء اللغة الإمالة حرفاً منطوقاً من حروب اللغة العربية، وسيبويه يرى الإمالة من جيد الحروب وليس من مذمومها^{٥٣٦}.

د- الكشكشة:

وهي إبدال كاف المؤنث المخاطبة على شيئاً في الوقف والوصل، وتنطق ما بين الجيم والشين كما في اللغة الإنكليزية يلفظ حرفي نذكر عليها: (ch)

- عندك -لأنك- أولادك- دفترك

وتلفظ: عندج- لأنج- أولادجي- دفترجي

وتعود الكشكشة في أوصلها على قبائل شبه الجزيرة العربية من ربيعة ومضر وتغلب وأهل الشحر من مهرة^{٥٣٧}.

⁵³⁴ طبال؛ عباس: لهجة دير الزور خصائصها وفصاحتها، الندوة الدولية لتاريخ دير الزور وآثارها، دمشق، وزارة الثقافة، ط ١ ١٩٨٣، ص ١٩٥.

⁵³⁵ القرآن الكريم: سورة الضحى، الآية ٢١.

⁵³⁶ رويلي؛ محمد رشيد: الحركة الثقافية، ج ٣، ص ٩٣-٩٤.

هـ- الشنشنة:

قلب القاف أو الكاف إلى شيئاً مضخمة مع إبقاء الكاف هي عندما يصرف الفعل للمضارع والأمر^{٥٣٨} مثال:

-كان -كثير - كلب

وتلفظ:جان -جثير -جلب

ويرى بعض اللغويين بأنها تعود في الأصل إلى أहत اليمن وتغلب^{٥٣٩}

وهي اليوم ماشية بشكل كبير تيس في منطقة الفرات والجزيرة فحسب بل في العراق وغيرها من المناطق الأخرى

و-الاستنطاء:وهي قلب حرف العين إلى نونا" اذا سبقت الطاء وتستخدم لدى أهل المنطقة

مثال:اعط - أعطيه

- انط - أنطيه

وهي لغة بكروقيس وهذيل والأزو زوقد قرئ بها القرآن مثل (انا أنطيناك الكوثر) ٤٧

ز-الابدال:لغة اشتهرت بهاكل القبائل اليمنية وبخاصة الأزدي وحمير وطى. وقد كان الأمر في منطقة الفرات والجزيرة نفسه حيث وجدت حالات عدة للإبدال نذكرها مع أمثلة:

-إبدال لام التعريف ميمًا" مثل: (البارحة تلفظها امبارحة)

-إبدال الخاء قافًا" مثل: (سبانخ تلفظ سبانق)

-إبدال الصاد زايًا" مثل (صغير تلفظ زغير) وهذا يدعى الرسو

-إبدال الشين سينًا" مثل (شجر تلفظ سجر)

-إبدال السين صادًا" مثل: (سبخ وتلفظ صبخ)

⁵³⁷الخليل؛ إبراهيم: الخصائص اللهجية، ١٢٢-١٢٤.

-إبدال القاف غينا"مثل : (قلم وتلفظ غلم)

-إبدال الغين قافا" مثل (غنم تلفظ قنم)^{٥٤٠}

إبدال الحروف

ح -القلب المكاني :بالقلب المكاني لبعض الحروف أي تبديل في مكان بعض الأحرف ضمن نفس الكلمة فيبدلون أمكنتها في اللفظ مثل :

-حدق - ضجع

وتلفظ :دحق - جضع^{٥٤١}

ط-تسهيل الهمزة :وذلك إذا جاءت الهمزة في وسط الكلام مثل :

جرئ -تلفظ جرايد

مصائب -تلفظ مصايب

وعرفت هذه قديما" عند قريش حيث كانت تسهل الهمزة في لغة قريش^{٥٤٢}

وقد قرئ في القرآن الكريم (انها عليهم موصدة)

وهي إدخال (أل)الموصلية على الأفعال في بعض الحالات كالأمثال والأقوال المأثورة دون أن يعرف السبب سوا أنها انتقلت لهم من الأجداد والآباء وهي ظاهرة رصدها علماء اللغة منذ القديم عند قبيلة تميم ولم ينكر هذا الإدخال أحد مثل :

- (اليدري والمايدري كف عدس)

- الياكل العصي مو مثل اليعدها).

- (المنى إيده الله يزيده).

١.القرآن الكريم :سورة الاخلاص٤٧

٢ الخليل ابراهيم :الخصائص اللهجية ص ١٢٥

٣ رويلى:محمد رشيد :الحركة الفكرية ،ح١،ص ٩٧-٩٨

⁵⁴²طبال،عباس :لهجة دير الزور ،ص ١٩٧

الاتباع: وهي إلحاق كلمة بكلمة قبلها مشابهة لها بالوزن والموسيقى، وقاربة لها في اللفظ، ومنتهية في اللفظ، ومنتهية بالحرف الذي أنتهت به الكلمة السابقة مثل:

- (سياح فياح)

- (سهيدة ومهيدة)

- (حاسا باسا)

والإتباع ليس جديداً وقد عرفه العرب منذ القديم والغاية عند استخدامه لدى أبناء الفرات والجزيرة هو إشباعاً للكلمة وتأكيداً لها.

ل- الوقوف بالسكون:

وهي قديمة عند العرب وعرفت لدى تغلب، وتعني الوقوف بالسكون على الاسم المنون^{٣٠} وهي شائعة لدى أبناء الفرات والجزيرة مثل:

- شاهدت زيد.

- حضر عبيد.

- مررت بزيد.

إن لهجة منطقة الفرات الأوسط والجزيرة متنوعة ما بين ريفها ومدنها وهي ليست دخيلة على اللغة بل هي من صميم اللغة العربية وفصيحتها، فهي لهجات القبائل العربية التي استوطنتها، والتي يقدرها علماء اللغة حق قدرها.

وكذلك وجدت في هذه اللهجة تنوعاً نتيجة لاتساع رقعتها الجغرافية فإنها وجدت فيها كلمات ذات مصادر متنوعة نتيجة لاختلاط السكان وتنوعهم ولكون المنطقة شهدت هيمنة من قبل شعوب متعددة ومرت عليها حضارات متنوعة ولكن الكثير من كلماتها عربت، والبعض الآخر أهمل وبعضها نحو الزوال وهذه بعض الأمثلة

- (حاصود - كادود..) أصلها سرياني.

- (أبوي) - أخوي..) أصلها أكادي.

(قناق - خاشوقة - أوضة..) أصلها تركي.

- (بلكون - موبيليا - شوفير - باسبور - كروز..الخ) وهي ألفاظ أوربية
من لغات متنوعة كالإنكليزية والفرنسية...الخ.

- إن لهجة أبناء الفرات والجزيرة هي أقرب للفصحى من خلال آلاف الألفاظ
المستعملة على ألسنة العامة والتي يمكن جمعها في معجم يوضح فصاحتها وأصالتها.

عوامل ازدهار الحياة الفكرية في لواء الفرات والجزيرة ١٩٠٩/١٩٤٦م - ١٣٢٧/١٣٦٥هـ :

مقومات الحياة الفكرية في لواء الفرات
والجزيرة في الفترة ما بين عامي (١٩٠٩ -
١٩٤٦/١٣٢٧ - ١٣٦٥هـ) :

تعد الدراسة السابقة للعوامل التي ساهمت في ازدهار الحياة الفكرية في لواء الفرات والجزيرة تفصيلاً للإنسان التي ساهمت في دعم مقومات الحياة الفكرية التي سنأتي للحديث عنها بل وكانت الركائز الأساسية التي قامت عليها تلك المقومات، وهنا لا بد لنا من دراسة وافية لمقومات الحياة الفكرية في هذه المنطقة حتى تصبح الصورة متكاملة وواضحة ما بين العوالم والمقومات التي أدت إلى ازدهار الحياة الفكرية ولعل أبرزها كانت حركة التربية والتعليم في المنطقة وقد كان ذلك من خلال المساجد والزوايا والتكايا والكتاتيب، وكذلك المكتبات والمطابع (سوق الكتب)، إضافة إلى مقومات أخرى كالصحف والمجلات والجمعيات والنوادي الثقافية والسياسية ولهذا سوف نقوم بدراسة لمقومات الحياة الفكرية في لواء الفرات والجزيرة، ونبدأها حسب تسلسلها التاريخي، حيث كانت أول مظاهر الفكر والتعليم فيها هي المساجد والجوامع.

١- الكتاتيب

أ- مفهوم الكتاب:

في الإطلاق اللغوي على المسميات أسماءها، كثير من الموجبات والظروف والدوافع التي استوجبت هذا الإطلاق بصورته اللفظية، نظراً لأهمية هذه المسميات في حياة المجتمع، وما لها من تأثير في شؤونه ومرافقه العامة.

وليست هذه الظاهرة خاصة باللغة العربية وإنما هي قائمة في كل اللغات الاشتقاقية والمتطورة إلا أنها في اللغة العربية أكثر غموضاً وأعقق أساساً منها في غيرها، نظراً لاتساع أساليب التعبير والبيان كالمجاز وفنونه الانتقالية من المحسوس إلى التجريد ومن الصور البسيطة إلى الصور المركبة وغير ذلك من طرق المجاز المعروفة، هذا بالإضافة إلى غنى المفردات بالمعاني المتعددة التي تحمل الأضداد.

كل ذلك مما يسترعي الانتباه والوقوف أمام هذا السيل الزاخر بتلك المعاني التي تدخل وتحمل معاني كثيرة عندما تدخل في تركيب الجمل.

أسوق هذه الكلمة استهلالاً موجزاً في دلالة معنى الكتاب والكتاتيب نظراً لأهميتها في حياتنا القديمة والحديثة، حينما كانت تصارع ظلمات الجهل لتوقد قناديل ومصابيح المعرفة التي اشتد وهجها وقوى سناها حتى أنارت العالم العربية والإسلامي أشعتها.

وأما في حياتنا الحديثة فقد كانت بمثابة جيش المقاومة الشعبي أمام الغزو التركي واستعمار الذي أناخ علينا بكلاكله قرابة خمسمائة عام كلها كان جيشاً غير مرئي في الجزائر وتونس ومراكش وغيرها من البلاد العربية التي أناخ عليها الاستعمار الفرنسي أسلحته وأسالبيه الجبارة التي فيها من الوحشية والقسوة ما يكفي لتفتيت الصخور وجعلها هباء منثوراً في عالم الانقراض والفناء.

فالكاتب (بضم الكاف وتشديد التاء) سعههم صغير مدور الرأس يتعلم به الصبيان الرمي ويطلق بهذه الصيغة على الصبيان، والكتاب محل التعليم أي بمعنى مكتب أو مدرسة وسواء كان ذلك لتعليم الصبيان الرمي أو القراءة ففي المعنى مجاز مرسل.

ومما يتقدم يتضح لنا أن لفظة "الكتاب" في جميع تخاريجها المجازية عربية الأصل في الإطلاق (محل التعليم أو مكانه) وهي المدرسة الأولية التي شهدتها الحياة العربية التعليمية في أغلب أطوارها: جاهلية وإسلامية وأن معرفة أغلب الصحافة الكتابة والقراءة⁵⁴⁴ والذين كتبوا للرسول صلى الله عليه وسلم يدل على ذلك العصر الذي سبق الإسلام كما أن في أسرى بدر من الذين اقتدوا أنفسهم لقاء تعليم أولاد المسلمين القراءة والكتابة ما يدل أيضاً على انتشار هذه المدارس في بعض المدن العربية المؤهلة اجتماعياً لاتخاذ التعليم عنصراً من عناصر حياتهم الاجتماعية العامة والاستزادة.

⁵⁴⁴ من الذين كتبوا بين يدي الرسول: خالد بن سعيد بن العاص بن أمية والمغيرة بن شعبة والحصين بن

نمير وعبد الله بن الأرقم الزهري، والعلاء بن عقبة، والزبير بن العوام وجهين بن الصلبت، وحذيفة بن اليمان، ومعيقب بن أبي فاطمة الدوسي وحنظلة بن الربيع الأسدي ويدعى حنظلة الكاتب وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وشرحبيل بن حسنة الطانجي وكان ابنان ابن سعد والعلاء بن الحضرمي ربما كتباً بين يديه صلى الله عليه وسلم وكتب له معاوية قبل وفاته بأشهر، أنظر:

قنبر؛ توفيق: تطور التعليم، ص ٢٥٧.

فالإسلام جاء هدى ونوراً للبشر، قال تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ولم يجيء غازياً ومغتصماً ولى المدى البعيد حيث توغلت الفتوحات العربية فقد توغلت حركة التعليم، ولم تكن المساجد والجوامع للصلاة وإقامة الشعائر الدينية فقط وإنما كانت أيضاً منائر هدى للتعليم واكتساب المعرفة والقضاء على الأمية قضاء تاماً إن أمكن لأن الأمية التي هي مصدر الجهل يقاومها الإسلام ويحاربها بكل ما أوتي من قوة، ولهذه الفضائل الحميد فقد قامت كثير من الدور بدور الكتاتيب والمدارس في الأمصار الإسلامية يقوم عليها رجال هدى الله قلوبهم، وتيقنوا من أن أفضل الخدمات الاجتماعية هي القيام بتدريس وتربية النشء تربية صالحة، وانتشار التعليم في البلاد الإسلامية وقيام النهضة فيها يعود الفضل فيها إلى أولئك الرجال المدرسين الذين لم يأخذوا أجراً أو أي مورد آخر من الطلاب وإنما كان عملهم خالصاً لوجه الله الذي أنعم عليهم بحياة هي في غنى عن مورد التعليم.

*- التعليم وأهميتها في العهد العثماني:

لم يعط هذا الجانب من حياتنا التعليمية الأولى أهمية دراسية شاملة تليق به، وتظهر صراعه العنيف في ميدان كانت فوارسه رجال السياسة والحكم والاستبداد الذي قذف بلغته وسط أمواج البحر العربي لتصبغه بلونها وتلحن وتلاطم أمواجه وهديره بألحانها، ولتجعل منه عالماً تركي⁵⁴⁵ مجرداً من كل تراث عربي وإسلامي قديم لم يدرس هذا الجانب دراسة حققة تبين العوامل الخفية التي كانت تقوم بعملية التحصين في نفوس الطلاب من جهة، وتكافح في حلبة المقاومة اللغوية من جهة أخرى، فالعالم العربي كان تحت عملية الاحتضار الأخيرة من حياته، مخدراً بمرققات خرافية تعزى إلى الدين زوراً وبهتاناً، فالجهل والجمود والركون إلى الراحة والتسليم بالواقع الاجتماعي لهذا الجمود، ليست من الدين الإسلامي أصلاً كما أنها ليست من خصائص العقل العربي المتطلع إلى آفاق الحضارات دائماً والمصطل بها من اقاصي الشرق إلى اقاصي الغرب حيث أشعة المعرفة بالإضافة إلى أنوار حضارته الذاتية ولا يمكن أن يرضخ للجمود دون أن تكون هناك أسباب قهارة عامة فوق ما في وسعه وطاقته التي استنزفت حيويتها الأحداث والكوارث المتلاحقة ونتيجة لهذه الأحداث

⁵⁴⁵ قال جلال نوري الكاتب التركي في كتابه تاريخ المستقبل أن المصلحة تقضي على حكومة الأستانة

بإكراه السوريين على ترك بلادهم وأن بلاد العرب ولا سيما اليمن والعراق يجب تحويلها إلى مستعمرات تركية لنشر اللغة التركية التي يجب أن تكون لغة الدين، ومما لا مندوحة لنا عنه للدفاع عن كياناتنا أن نحول جميع الأقطار العربية إلى أقطار تركية، لأن النشء العربي الحديث صار اليوم يشعر بعصبية جنسية وهو يهددنا بنكبة عظيمة يجب أن نحتاط لها من الآن وهناك أقوال ونصوص تركية تظهر مثل هذه الحماقات الساذجة مثل أقوال أحمد شريف كتبها في جريدة طنين التركية.

فرضت اللغة التركية فرضاً في المدارس وفي جهاز الدولة الإداري والعسكري، إلا أن اللغة العربية لم تمت كاللغات القديمة وإنما تقلص ظلالها وانكمشت على نفسها في دور الكتاتيب وفي هذه الدور البسيطة كان لها كيان مقدس تستوحي منه التعاليم اللغوية والأساليب التعبيرية العربية، المتجلية في تعليم القرآن الذي هو عماد التعليم^{٥٤٦}.

الدراسة في هذه الكتاتيب:

لقد بقيت حركة الكتاتيب التعليمية في مدينة دير الزور تمثل آخر جزئيات القوة الاستمرارية الكبرى والتي انبثقت من الروح العلمية الإسلامية رغم الكوارث والأحداث المتتالية والتي تعاودت على العالم العربي فكان لها أسوء الأثر بالمرافق والمقدرات المادية والفكرية في هذه الأقطار ومن هذه الأحداث ما كان وقعه شديداً على الحالة العامة في مدينة دير الزور ابتداء من أواخر العهد الأموي إلى آخر العهد التركي وفي هذا العهد الأخير ضعفت الحركة التجارية ووهنت الروابط والصلة الاقتصادية بينها وبين الأقطار التي يربطها وإياها طريق نهر الفرات، الذي جعل مدينة دير الزور من ربوع الفرات الأوسط همزة الوصل أو ملتقى النتاج المادي والفكري للحضارات الشرقية والغربية وما تتفرع منها شمالاً وجنوباً.

ب- الكتاتيب وإدارتها وأنظمتها وأنواعها في الفرات الأوسط والجزيرة:

شرحنا فيما سبق الاسم اللغوي وتخرجه، (لكلمة الكتاب) وقدم استعمالها بمعنى المدرسة أو مكان تعليم الصبيان القراءة والكتابة، وشيوع هذا النوع من المؤسسات التعليمية في العهد الأموي والعباسي، وفي هذا العهد نشأ أدب خاص حول معلمي الكتاب وظهرت الأمثال حول طاقة المعلمين وصبرهم على تصرف الصبيان أثناء الدراسة والرواح والغدو مما تولد في نفس المعلمين عقداً لا تخرج بنظر الأدباء عن "العقد الجنونية" وعلى طريق الأخص الجاحظ الذي روى عنهم الكثير ووضع حولهم الكثير من تلك الروايات التي حفلت بها كتبه، مثل البيان والتبيين والبخلاء وغيرها، وبعد هذا، فالكتاتيب في دير الزور، اقتصر نشاطها على تعليم القرآن، وما يستلزمه هذا التعليم من المبادئ الأولية الخاصة بتعلم حروف "الألف باء" أولاً، وبعدها عملية التهجي أي قوانين اللفظ للمقاطع الثنائية والثلاثية، المركبة أولاً من الحرف الصحيح وحرف العلة وتكييف صوت الحرف الصحيح بخصائص

⁵⁴⁶ العبدروس؛ محمد حسن: الحياة الفكرية في شرقي الجزيرة العربية في العهد العثماني، (١٨٧٠ -

١٩١٢م)، المجلة التاريخية المغربية، (العدد ٥٧-٥٨، تونس، تموز، ١٩٩٠، ص ٣٩١).

حروف العلة بعده وهذه القوانين - بعد معرفة أسماء الحروف الأبجدية - هي المرحلة الأولى من مراحل تعليم الصبيان، ثم تلتها مرحلة التطبيق على سور القرآن ابتداء من سورة الفاتحة وما بعدها من السور، إلى انتهاء الجزء المسمى "جزء عم" ثم تبارك والذاريات ثم على السور الكبيرة وهكذا إلى ياسين (يس) وهناك تلاوة تفرض على الطالب عندما ينهي كل جزء من الأجزاء أو تفرض عليه إذا وصل إلى بعض السور مثل "سور يس" وغيرها من سور "الحلاوة" إلى نهاية سور القرآن التي تنتهي الدراسة بحفلة الختمة ومن هنا تفترق الكتاتيب عن المدارس الأخرى باختصاصها بتعليم القرآن أولاً ثم بتعليم قواعد حسن الخط، ثم بتعليم مبادئ الحساب كالجمع والطرح والضرب والتقسيم.

و الكتاب:

* عبارة عن دار خاصة أو دار يقيم بها المعلم وأهله أو المعلمة مع أهلها أو هي من رواق أو غرفة ملحقة ببنائية المسجد أو الجامع أو (الزاوية) أسس لأغراض التعليم مهما كان نوعه، كالدروس الفقهية وعلم الكلام أو للوعظ والإرشاد أو للعلوم اللسانية العربية والكتاتيب في مدينة دير الزور ثلاثة أنواع: للذكور، وللإناث والثالث مختلط من الذكور والإناث، فالنوع الأول خاص بالذكور الصبيان الذي تجاوزت أعمارهم العاشرة والثاني خاص بالإناث والثالث تقبل الذكور والإناث أي بين الخامسة والثامنة على الأغلب والكتاب يفرض عادة بالحصص أو الساحات وهي ضرب من البسط وتوضع فوقها مقارء مصنوعة من الخشب بعضها يشبه الكرسي وبعضها مستطيل يجلس على جوانبها أربعة أو ستة طلاب^{٥٧}.

- الملا و الخوجة:

فمعلم الصبيان كان يطلق عليه في مدينة دير الزور وربوعها اسم "الملا" ومعلمة الإناث يطلق عليها اسم "خوجه".

فالملا: على ما يظهر لنا أنها عربية الجذر ومن كثرة التداول في أقطار شتى من العالم الإسلامي، وسعة الإطلاق على صفات المتحلي بالتعليم والتبحر بالعلوم الفقهية والدينية، قد

أصابها التحريف، فقد يرجع الأصل إلى كلمة "مملّى" الكتاب والدروس أي ملقى الدروس عن ظهر قلب دون الاحتياج والاستعانة بالسفر والكتاب من أمّل أي ألقى الدرس وأن ما يملّيه يسمى (الأمالي) ومن ذلك كتب الأمالي المشهورة في اللغة والأدب كأمالي أبي علي القالي والشريف الرضي وغيرها كثير في التراث العربي، وهذا التحريف قد أكسب هذه اللفظة "ملا" معاني خاصة وعامة، فهي في الفرات والجزيرة لا تطلق إلا على معلم الكتاتيب خاصة، وأما معانيها العامة فقد ازدادت مساحتها المعنوية سعة فإنها تطلق في الأقطار الإسلامية من آسيا الشرقية على العالم الكبير وعلى قاضي القضاة في البلدان^{٥٤٨} الكبيرة كقاضي قضاة مصر، ومكة، كما تكون بمعنى: "مولانا" مثل ملا جامي أي مولانا جامي ويطلقون ملا بك على رجل العلم الأصيل أي المختص كما ذكر ذلك شمس الدين سامي في معجمه اللغوي التركي.

وأما كلمة (خوجه) فهي تطلق على معلمة الإناث ولا يقال لها معلمة وإنما الخوجة ، وهذه اللفظة فارسية الجذر بمعنى معلم أو مدرس أو المعلمة^{٥٤٩} أو أستاذ مكتب، ومنها خوجة التي تطلق على الأفندي والآغا والجلبي في اللغة التركية، ومهما يكن من أمر معانيها في اللغة الفارسية والتركية فإنها كما قلنا لا تطلق إلا على المدرسات اللاتي يعلمن الإناث مبادئ القراءة والكتابة والقرآن في الفرات والجزيرة.

*النظم المرعية في كتاتيب الفرات الأوسط والجزيرة :

يخضع الطالب مهما كان عمره للنظام الخاص بكتاب حارته، وهذا النظام يتفق وسن الطالب أي أنه يتمشى مع نموه التعليمي والجسمي رويداً رويداً، حتى يختم القرآن، وبعد هذا المرحلة أما أن يخرج الطالب من الكتاب ويلتحق بعمل والده أن كان لديه عمل، أو أن يكون كاتباً لدى أحد التجار أو أن يلتحق بالحاكم المحلية كمتمرن متحياً للفرص للدخول في إحدى الوظائف الكتابية الشاغرة إن اجتاز التمرين الكتابي بحذافة تؤهله الوظيفة المذكورة، وأما أن يبقى مع الملا مساعداً له أو أن يلتحق مع غيره من الطلاب بحلقه من حلقات الفقه والحديث والنحو واللغة التي كان عليها مدرس مشهور، في إحدى غرف المسجد أو الجامع الملحقة به أو في رواق الدراسة الخاص بالعلم والنظام السائد في أغلب كتاتيب دير الزور تنحصر مواده بما يأتي: ويطبق عادة بين الشدة واللين حسن أخلاق الملا وسعة صدره:

١ - الطاعة التامة للملا.

⁵⁴⁸ قنبر؛ توفيق: تطور التعليم، ص ٢٦٤.

⁵⁴⁹ جحا؛ فريد : الحياة الفكرية، ص ٨٧.

- ٢- مراعاة حسن السلوك مع رفاقه الطلاب.
- ٣- الجد والاجتهاد على الدروس المعطاه له.
- ٤- مراعاة الواجبات المترتبة على كل طالب أن يقوم بها من دفع المنح والحلوات والخمسية وغيرها.
- ٥- أن يتحمس الطالب لكرامة كتابه والمدافعة عنه في حلبة التنافس التي يدخل فيها طلاب الكتاتيب الأخرى.
- ٦- إحضار الدواة^{٥٥٠} والأجزاء المفردة من سور القرآن موضوعة ضمن عليقة يتنكب بها الطالب عند الذهاب إلى الكتاب.

٧- العقاب إن أهمل الطالب واجباته أو الخروج عن تلك الأنظمة والعقاب تتجلى صورته في "الفلقة"^{٥٥١} أو في عدم الانصراف مع الطلاب عند الظهر.

٨- يقبل الطالب في أي فصل وقت يجيء فيه، فليس هناك صفوف ذات دروس منهجية وفق السنة الدراسية.

أما النظام الخاص بالإناث فهو نفس نظام الذكور دون مراعاة المادة الخامسة والسابقة منه فما عداهما يطبق على الذكور والإناث معاً.

أما العقاب وطرق تطبيقه- وعلى الأخص الفلقة فلم يكن استعمالها بهذه الصورة نابعاً من النظام التعليمي العربي وأن كان الاسم عربياً ويدل على تلك الأداة لتعذيب المجرمين، وقد طبقها على الصبيان ملالي المغول لإلقاء الرعب في نفوس هؤلاء الصغار وكثيراً ما تركوا الكتاب خوفاً من تطبيقها عليهم وقد اتخذها بعض المستشرقين رمزاً لسوء التعليم في الشرق وبالأخص في العالم الإسلامي والعربي.

* الإدارة والتدريس في كتاتيب الفرات الأوسط والجزيرة :

⁵⁵⁰ الدواة في الكتاتيب هي مصنوعة من الصغر أو الشبه لها يد مستطيلة فارغة لحفظ الأقلام ولها سداة خاصة بها وأما موضع الحبر فهو مكعب من الصغر له سداة ويملاً بالحبر بعد وضع خيوط المشق وهي معروفة بهذا الشكل في العالم الإسلامي والعربي.

⁵⁵¹ الفلقة مستقيمة ذات ثقبين في طرفيهما، ويشد سير من الجلد وتثبت أطرافه في كل ثقب، وهي بهذه الوضعية تلف على رجلي الطالب المراد عقابه، ثم يضرب ضرباً مبرحاً وهي من أدوات العقاب التتريّة والفارسية.

يقوم الملا أو الخوجة بإدارة الكتاب وتهيئة ما يلزمه من الأدوات الأولية كالحصران والبسط والمقارء بأنواعها وتحلية الجدران بالآلات المخطوطة وتأطيرها، وكل هذه الآيات تبين فضيلة العلم وتحض على تحصيله مثل [اقرأ باسم ربك الذي خلق] {العلق: ١}

[قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ] {الزمر: ٩}

[قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ] {آل عمران: ١١٨}

[يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ] {المجادلة: ١١}

إلى غير تلك الآيات الكريمة، وتحتها تعلق المشاجب الخاصة بالعلائق (جمع عليقة بالكسر) وهي أما أن تنسج أو تخاط من قماش لتحفظ القرآن والدفاتر والأوراق فبعض الطلاب يتركون مصاحفهم في الكتاب معلقة على هذه المشاجب.

وكان الملا يفضل الدار إذا كانت إيجاراً أن تكون ذات رواق طويلة للدراسة الصيفية، هذا بالإضافة إلى وجود الغرف للدراسة الشتوية..

وأما الخوجة فإنها تقوم بالتعليم حيث تسكن هي وعائلتها..

ومالية الكتاتيب وما تحتاجه من المصاريف الأخرى تجبى من الطلاب دون أن يشعر الطالب أو أهله أنها ضريبة يجب أن تؤدي لأنها لبست حلل العادات والتقاليد وأصبحت من جوهر المروءة التي يقدمها الأهالي للملا مع التجدة والاحترام والتقدير، وهم مهما بذلوا له يعدون أنفسهم مقصرين عما يستحق وهي في الحقيقة تؤدي مع كل مرحلة تعليمية يجتازها الطالب، فالأهل يفرحون كثيراً عندما يعلمون أن ولدهم قد اجتاز تلك المرحلة ولا بد إزاء ذلك من تقديم الهدايا للملا أملاً بأن طفلهم أصبح على وشك الانتهاء من الدراسة القرآنية.^{٥٥٢}

التعاون الشعبي يمول الكتاتيب:

ليس هناك أي مصدر مالي يمول الكتاتيب والقائمين بها من الملاي والخوجات سوى التعاون الشعبي الذي صقلته العادات وغذته بغذاء الواجب المحتم أدأؤه وتقديمه بكل أريحية للملاي والخوجات.

وهذا الواجب الذي تبطنه وتكلله المروءة من كل جهة، يقدمه الأطفال والصبيان للملا والخوجة بصور شتى وفي مناسبات مسنونة حسب سنن التقاليد والعادات المرعية في نظام التعليم (الكتابي) من تقديم الوقود شتاء والخمسيات^{٥٥٣} والحلاوات والخلع التي تعقب ذلك من الألبسة الثمينة هذا فضلاً من أن بعض سراة البلد وأغنيائها يقوم بتقديم المعونات للكتاتيب من تجديد الأثاث وتموين بيت الملا من الحبوب والسمن من المؤونة السنوية، هذا وللديرين إباد مشكورة تحفها أسترة الكتان ليكون الأجر عند الله عظيماً ولكي لا يتعلق بالجهر غاية أو مصلحة دنيوية ذات مقاصد شخصية وأما الحكومة التركية فلم تقدم أية معونة وإنما كانت تسعى لإضعافها وإنما الفضل يعود إلى أولياء الطلاب الذين يسبقون على هذه الكتاتيب ما يضمن لأصحابها الملاي الحياة الكريمة دون عوز، وبهذا تتجلى لنا صورة التعاون الشعبي في الضمان العلمي الخاص بالكتاتيب وأصحابها الملاي.

ولقد كان للكتاتيب أثر في هذه القرى فكثير من المتعلمين في كتاتيب المدينة يذهبون إلى القرى إنشاء الكتاتيب فيها، وكان أجر الملا يأخذه موسمياً أو سنوياً من أباء الطلاب قمحاً أو سمسماً أو ذرة.

ج - طرائق التدريس ومناهجها :

* ملا واحد ومستويات تعليمية مختلفة في غرفة واحدة:

استطاع الملاي عامة، وبحذافة مهنية أن يذلوا تلك العقبة التي تقف أمامهم فتحول دون ازدياد عدد الطلاب وعدم الإقبال على الكتاتيب زرافات ووحدانا، فتحد من هذا العدد الكثير إذا جعلوا قبول الطلاب مقيداً بزمان معلوم من كل عام ولا تقبل أحداً غداً تخلف عن هذا الوقت، وهذا ما يحول دون الموارد المالية التي هي قوام حياة الملا وعائلته، وكتابه،

⁵⁵³ الخمسية: هي الأمور التي تدفع من الطالب إلى الملا كل يوم خميس، وهي ما يقارب ربع قرش عثماني، مع بعض أنواع الطعام الأثاث، إضافة إلى الحلاوة التي تدفع نقوداً بعد الانتهاء من كل جز، وكذلك حلاوة أكبر بعد انتهاء الطالب من الختمة، أنظر: عثمان؛ عبد الجبار الحاج: التعليم الرسمي والأهلي عند المسلمين في بلاد الشام في الفترة ما بين (١٨٧٨-١٩٢٠م) رسالة ماجستير بإشراف أحمد طربين، دمشق، جامعة دمشق، كلية الآداب، قسم التاريخ، ١٩٨٠، غير منشورة، ص ٣١.

وهذه الطريقة التي تُولف بين مختلف المستويات التعليمية والتي تقبل الطلاب في أي وقت يجيئون فيه إلى الكتاب تتجلى فيما يلي:

طريقة التدريس:

يقوم الملا في مطلع كل عام بتدريس زمرة من الطلاب يتجاوز عددهم العشرة، تدريساً فيه من العناية والاهتمام بهم ما يجعلهم يبلغون مرحلة من التعليم لا بأس بها، ويظهر لهم من العطف والمحبة ما يشعرهم بشخصيتهم التعليمية وبأنهم من الطلاب النجباء المقربين إليهم وأنهم أصبحوا بمنزلة تخولهم تعليم غيرهم من الطلاب ما تعلموه وقد يزيدهم رفعة ومقاماً إذا كلفهم الملا بتدريس كل طالب حديث الدخول إلى الكتاب، وإذا كان عدد الطلاب الجدد مرتفعاً فإنه يلقي على عاتق كل واحداً منهم، تدريس عدد معين من هؤلاء المستجدين وبتتابع وتلاحق الأيام يختار الملا من هؤلاء المستجد المتعلمين، عشرة أو أقل أو أكثر ويتخذ منهم مدرسين لمستجدين آخرين، وهكذا دواليك، فإن كل طالب مستجد يجد من يدرسه ويعتني بأمره.

وبهذه الطريقة ثلاثت المستويات المختلفة في التعليم، بقاعة واحدة وبوقت واحد وبمعلم واحد (هو الملا) °° فترة المقرئ الخشبية مصنفة كل مقرئ حوله ستة من الصبيان حسب طول المقرئ يعلمهم طالب قد اجتاز هذه المرحلة بتفوق وعندما يحفظون دروسهم، يأتي دور الاستماع ويشرف الملا على مراقبة الطلاب ويقوم بدور الاستماع للطلاب الذين حفظوا دروسهم اليومية وترافق العصا الطويلة هذه العملية، فالملا يسمك بعصاه التي من طولها تطوف رؤوس الطلاب، فإذا اخطأ الطالب بحرف أو بكلمة ولفظها على غير قواعد التهكية هوت العصا على رأسه تداعبه وتحك يافوخه، وناهيك عن الخوف الذي ينتاب جوارح الطالب في هذه الأونة العصبية، فترى الطلاب قبل إجراء عملية التسميع أو الاختبار الدراسي، ينذرون النذر للأولياء والصالحين (خبز العباس) فإذا خرجوا من هذا الاختبار دون أن تلعب العصا فوق رؤوسهم، وكثيراً ما تزود الرجفة الطالب أثناء الاختبار

⁵⁵⁴ إن الذين زاولوا مهنة التدريس في دير الزور كثيرون تعاقبوا مع العصور الماضية حتى آخر القرن

التاسع عشر، ومن سمعنا عنهم وأدرنا بعضهم في الربع الأول من القرن العشرين ملا محمد الحاج حمودي، وملا حسن الفراس وملا حساني الملاطه وملا صالح العشاري وملا محييد وملا غفور وملا على الخلف وملا أحمد الصالح وملا سليمان الكواكه وملا حسن الفلاحة، وغيرهم كثير وسنخصص ترجمة لكل منهم في مناسبات أخرى.

والتسميع فيتلعثم باللفظ ولا يحسن إخراج الحروف من مخارجها من جراء الخوف والسيطرة التي تمثلها العصا والفلقة.

وقد كان لهذه الأدوات العقابية تأثير على نفسية الطلاب فغرست فيهم عوامل والكراهية للكتاب والمدرسة وللملا وللمعلم ولكل تعليم فيه العقاب ضرب مؤلماً، وهذه الأساليب في التدريس قد لاحظها العلامة العربي قديماً عبد الرحمن بن خلدون فنهى عنها، لأنها تحول دور انتشار التعليم الأولى، وإنما تساعد على تفاقم الأمية واستيلائها على جماهير الشعب، هذا إذا أضفنا إلى ذلك تدهور الحالة الاقتصادية وانحسار المد الزراعي والتجاري نتيجة ما ذكرنا من الأحداث السياسية والتطورات العلمية العالمية وتأثيرها على الطرق ووسائل المواصلات القديمة، ووجود الحكم التركي الذي فرض لغته على العالم العربي، منذ أن وطئت أقدامه الديار السورية سنة ١٥١٦ ميلادية بقيت حركة الكتابيب التعليمية في مدينة دير الزور طيلة الحكم العثمانية على هذا النمط من الأساليب القديمة والطرائق المحتفظة بعاداتها القديمة وتقاليدها وأعرافها التي ترجع إلى صدر العصر الإسلامي إن لم تكن قبله دون أن تتناولها يد التطور والإصلاح في العهد العثماني بل ربما كانت حالتها العلمية أكثر نشاطاً وتقدماً قبل الاستيلاء العثماني على هذه البلاد التي نكبت بتراتها العربي من الإهمال والضياع فضلاً عما أصابه من الفقر العلمي وإغلاق النوافذ في وجهة أمام العالم الغربي منذ القرن الخامس عشر، وعلى هذا فقد تعاون على مدينة دير الزور كل عوامل الخمود والفناء في هذا العهد، وبقيت بعيدة عن آثار النهضة العلمية الحديثة، ومعزولة عن كل تطور حديث - اللهم إلا بالسماع - من المخترعات والوسائل المستجدة والفعالة في شتى مجالات الحياة التي تتغذى بالاتساع الممتصة بالجذور العلمية الحديثة وإذا لم تغلق تماماً تلك النوافذ الإشعاعية عن بعض المدن السورية الغربية فإنها في هذه الربوع لم تفتح ولم يظهر منها أي نور علمي جديد.

د - مراسيم ختمة القرآن:

وهي مناسبة يحتفل بها عادة بعد انتهاء الصبيان من قراءة القرآن أو حفظه (ختمة) على يد الملا (معلم الكتابيب^{٥٥٥}) يقوم بتوجيه الصبي الذي ختم القرآن أن يحضر معه هبرية^{٥٥٦} والدته، وهذه إشارة للأهل بأن أبנם قد أتم الختمة، وفي اليوم الأخير يأخذ هذه

⁵⁵⁵ أوغلي؛ أكمل الدين: الدولة العثمانية، ص ٣٠٩.

⁵⁵⁶ الهبرية: وهي قطعة من القماش القطني، سوداء اللون أوفر هدة، تعصب بها المرأة راسها لتضع فوقها طبقة من خمارها، عصابة رأس أنظر:

الهجرية (عصابة الرأس) ويقوم الملا بشد يدي الصبي وراء ظهره بواسطة الهجرية ثم يخرج الملا وبقيّة الصبية يتقدمهم الصبي إلى السوق ليقوموا بجولة فيه يتلقون خلالها بعض النقود من التجار وأصحاب المحلات والصنائع، ومنى أثناء مرورهم في الحارات، أما الصبي المكتوف اليدين، فيسير هذه المراحل كلها وهو يتلقى وخزان عيدان أوراق سعف النخيل من قبل أصدقائه الذين يرافعونهم وهم ينشدون وراءه، في أثناء مسيرهم ووخزهم له قصيدة نذكر مطلعها.

يا برق شامي ، بلغ سلامي ، إلى محمد ، خير الأنام.

وبعد وصول الصبية والملا إلى أهل الصبي تبادر والدته على فك يدي أبنها ومن ثم تقدم الهدايا والنقود إلى الملا وتوزع الحلويات والهدايا على الأطفال وليرتين^{٥٥٧} ذهب للملا ونلاحظ مما سبق أن ختمة القرآن كانت تلقى اهتمام المجتمع العام في الفرات والجزيرة وخير دليل على ذلك هي طريقة الاحتفال تلك، التي كانت تشكل حافظاً نفسياً هاماً للطفل تشعره بالفخر عند طريقة التكريم هذه وبالتالي يكون دافعاً هاماً بقيّة أصدقائه، فتجعلهم يتسابقون إلى قراءة وحفظ القرآن.

هـ - أشهر معلمي الكتاتيب (ملاً خوجه) :

ترسخ لدى أبناء المنطقة قناعة بوجوب التعليم الديني وذلك للحفاظ على الدين والمعتقدات، لذا شجع الكتاتيب التي تعلم القرآن الكريم، وحددت أجرة ختمة القرآن بليرتين ذهبيتين عثمانيتين، واستخدمت لذلك طقوس ما زال المسنون يرددونها على أحفادهم العائدين من المدرسة:

هــلا بـو هـلايـو	هـل الجـاي مـن كـتابـو
الدوايـة بـايـدو	والحـبـر مـالي ثـيـابـو

الميمات: محمد إبراهيم: من مفردات التراث الشعبي، ترجمة: عبد العزيز ذكر، الرياض، لجنة الفرات والفنون الشعبية، ط ١٩٨٨، ص ٤٧.

⁵⁵⁷ وثائق المحكمة الشرعية، سجل رقم (١)، وثيقة رقم ١١، عام (١٩٢٤م/١٣٤٢هـ) ص ٦.

أما أشهر معلمي الكتاتيب في دير الزور نذكر أقدم الكتاتيب/كتاب ملا جواد/ وكان مكانه بموقع بيت فنوش العبود في الشارع العام، و/كتاب ملا محميد الخرسا/و/ملا علي المصطفى/و/ وملا صالح العشاري /و/ ملا محمد خضر /و/ ملا سليمان كواكه والملا حسين الدرويش /و/ وملا وردي وملا حسن وملا نهر^{٥٥٨}، والملا شوح في الميادين، والملا صالح الصاهود، والملا عبد المجيد العز الدين في البوكمال^{٥٥٩}.. الخ، والملا صالح العلي، والملا فصيح أحمد العجاني والملا عبد الزويقي وهم من الرقة.

أما النساء فكان محرمًا عليهم التعليم إلى أن جاء إلى دير الزور متصرف عثماني له ابنة أحب أن يعلمها، فاستخدم لتعليمها السيد /صالحة بنت حاج محي الدين/ زوجة السيد سليم عبد الله بكر من أهالي الموصل، غدت إلى دير الزور ١٨٧ مع والدها الذي كان أميناً للسجل المدني بدير الزور، وكانت تقرأ وتكتب، ونتيجة لذلك أرسل كبار الموظفين بناتهم إليها، وبقيت تعلمهم أكثر من ستين سنة في بيتها (محلة الشيخ ياسين) وتوفيت رحمها الله ١٩٤١ ودفنت بمدفن جامع السليمية.

وكذلك من أشهر الجوجات النساء في الفرات الأوسط والجزيرة نذكر منهم كلاً من الخوجة مرهونة التي نالت مكانة بين معلمات الكتاتيب في دير الزور، والجوجة فطمة خانم، وقد حظيتا بشهرة واسعة في مجال تعليم الفتيات خلال الفترة الممتدة من أواخر العهد العثماني حتى فترة الاحتلال الفرنسي (خلال الثلث الأول من القرن العشرين)

إذاً لعبت الكتاتيب دوراً هاماً في الحياة الفكرية في المنطقة في الفرات والجزيرة حيث كانت إحدى الركائز الأساسية للتربية والتعليم فيها فإذا كانت الدولة العثمانية قد تأخرت بالاهتمام في المنطقة ولم تفتح المدارس الكافية لتعليم أبنائها، والاحتلال الفرنسي لم يولي التعليم في المنطقة تلك الأهمية الكبيرة التي يقول عليها فإن الكتاتيب قد أسهمت آنذاك رغم تواضعها بجزء من حركة التربية والتعليم في المنطقة بل كانت عامل إيجابي في الحفاظ على اللغة العبرية وهوية المجتمع.

٤ - البوادي والجمعيات الثقافية والكتل السياسية:

⁵⁵⁸ وثائق المحكمة الشرعية في دير الزور، السجل رقم (٢) وثيقة رقم (٤٨٠+٤٨١)، عام

(١٩٢٥م/١٣٤٣هـ)، ص ٣١٠-٣١٣.

⁵⁵⁹ أبو شكير؛ طارق زرزو؛ محمد: تاريخ البوكمال، دمشق، مطبعة دمشق، ط ١٩٥٨، ص ٨+٩.

أ- النادي الثقافي العربي: (١٩١٨م/١٣٣٦هـ):

وكان النادي الثقافي العربي برئاسة الأستاذ توفيق فكرة الحسيني (توفيق الفنوش) في شهر حزيران ١٩١٨ (وكان النادي يتبع للنادي العربي بحلب يلعب دوراً نضالياً رائداً، وكان الأستاذ ثابت عزوي الذي تسلم إدارة النادي فيما بعد بسبب تعيين الأستاذ توفيق في مناصب قضائية خارج المحافظة (٤٤ مشعلاً) أنار للمناضلين طريق الحرية والكرامة وكان معه (مخلف العبد الحميد، محمود طه أفندي، عبد الوهاب عزوي، محمود الحسن العبود...) إذ جعل النادي ملاذاً ومتنفساً للمبدعين، وميداناً فسيحاً لنضال أدرك المثقفون عمقه واستطالته وبخاصة عندما تكشفت لهم الحقيقة على يد البلاشفة الروس بعد ثورة أكتوبر عام ١٩١٧ الاشتراكية وفضح أطماع فرنسا وإنكلترا في الوطن العربي، وفق اتفاقية سايكس بيكو، ووعد بلفور المشؤوم.

أغلق الإنكليز بهمجية هذا النادي، واعتقل أعضاءه على يد قائدهم العسكري /روبرت جامبير/ لكن المثقفين رفضوا كل شروط الاستسلام، وصمموا على المقاومة بكل الوسائل المتاحة، فهم الذين اتصلوا بحاكمة الرقة الديري /رمضان باشا شلاش/ ومهدوا له طريق الدخول إلى دير الزور، هذا حدث لم تقم به العامة، وإنما المثقفون الثوريون الذين تصدوا حتى للمكل فيصل الذي أعلن إدانة تحرك الثوار، وتبرئة من فعالهم، وأخبر نائبة بدمشق الأمير زيد بن الحسين لعمل مضاد^{٥٦٠}.

لقد وقف شاعر الفرات الكبير /محمد الفراتي/ يستنهض الهمم محرضاً على الثورة كل شرائح المجتمع رافضاً تسليم دير الزور للإنكليز بموجب صك موقع من الملك فيصل، فقال الفراتي^{٥٦١}:

انهض ورو العوالي من عداك دما واستنهض السيف والقرطاس والقلم

ونجح الفراتي ومعه كل المثقفين في تأجيج جذوة النضال بدير الزور مدينة وريفاً، وأعيدت دير الزور إلى الوطن الأم سورية.

ب- نادي الفرات الأدبي (١٩٣٠م/١٣٤٨هـ):

⁵⁶⁰ دير الزور منطلق ثورة العشرين - زبير سلطان - مقالة في الأسبوع الأدبي العدد ٦٣٢ تاريخ

١٩٩٨/١٠/٢٤

⁵⁶¹ الفراتي: محمد: ديوان الفراتي - مطبعة بابل إخوان ١٩٣١ ص ٦٥.

في عام ١٩٣٠ افتتح بدير الزور (نادي الفرات الأدبي، برئاسة الأستاذ ثابت عزاوي، والهيئة التأسيسية ممثلة بـ(راغب صائب، حسن صباغ، أمين هنيدي، عبد الوهاب عزاوي أحمد الحافظ، توفيق إبراهيم الخلف، جابر مصطفى العاني عثمان موسى بك) ونشط هذا النادي نشاطاً أقلق المستعمر الفرنسي الذي هاجمه أكثر من مرة، وأغلقه بهمجية، وسجن رئيسه، بعد أقل من سنة على تشكيل النادي ولذلك قامت مجموعة من مؤسسي النادي في عام ١٩٣١م بتشكيل حلقة نضالية سرية من المثقفين الثوريين وهم:

(ثابت عزاوي، تحسين الجوهرى، أمين العليوي، محمد الفراتي، نجم العبد الله الدرويس، كامل الحسيني، زكي ظاهر المدلجي، محمد العياش، خيرى الويس الكرمانى، عبد الله الحمد الرويلي) لكنها وئدت قبل أن يستفحل أمرها، وتشتت المناضلون هرباً من الحقد الغاضب.

ج- الجمعية الثقافية (١٩٣٦م/١٣٥٤هـ):

وهي الجمعية الثقافية (١٩٣٦م/١٣٥٤هـ) والتي أسسها الأستاذ /إبراهيم مدلجي فمنها انطلقت أفلام الأدباء والمفكرين والباحثين لتدوين أدب المحافظة القومي والوطني والاجتماعي..

أدب المعاناة والهم الإنساني، وكان أبرز أدباء ومفكري هذه المرحلة: (الشيخ محمد سعيد العرفي، الشاعر محمد الفراتي، الشاعر توفيق قنبر، الشاعر عبد الجبار الرحبي، الأديب حسن بشار، الأستاذ شفيق فتوح، المفكر جلال السيد، الأستاذ سعيد السيد، الأستاذ عبود الشيخ عطية، الأستاذ إسماعيل فراس، الأستاذ فائق ماضي، الأستاذ صادق رجب، الأستاذ إسماعيل حقي، الأستاذ عبد القادر فرحان الفياض، الأستاذ عبد الكريم فرحان الفياض، الأستاذ توفيق مطر، الأستاذ أحمد الفتوح، الدكتور لطفي الحاج حسين، الشاعر ناجي مشوح، الأديب عبد المجيد مشوح^{٥٦٢}، وعبد المجيد دهموش، وحسين السراج..الخ.

وهي جمعية ثقافية أدبية تعنى بتراث الفرات والجزيرة وحضارتها.

د- نادي الجراح الرياضي الثقافي (١٩٣٠م/١٣٤٨هـ):

بعد ذلك تم افتتاح /نادي الجراح الرياضي والثقافي/ الذي أخذ صفة رياضية لتغطية نشاطه السياسي والفكري والأدبي، لأنه ضم مجموعة كبيرة من الشباب المثقف الثوري بلغ عددهم أربعمئة عضو، وقد سمي بهذا الاسم تيمناً بالفارس العربي (أبي عبيدة الجراح) رضي الله عنه، وكان الحاكم الفرنسي/ جاكو/ ومتصرف الفرات (رشدي الصفدي/ قد وافقا على افتتاحه لممارسة الرياضة دون غيرها وتسلم رئاسة النادي السيد قاسم هنيدي، كما تسلم إدارته الشاعر الوطني توفيق عبد الله قنبر، وكان من بين أعضائه: (جلال السيد، حسن الأحمد بيك، توفيق الشيخ عطيه، أحمد العبود، مختشم بقجة ييج، عبد القادر فرحان الفياض، حسين الجمعة، إسماعيل حقي، فريد العليوي، ثابت عزاوي) وغيرهم من الأدباء.

هـ - العصبة الوطنية (١٩٣٦م/١٣٥٤هـ):

هذا وقد شهد العقد الثالث من القرن العشرين نشاطاً أدبياً وفكرياً وصحفياً وفنياً ومسرحياً وسياسياً في محافظة دير الزور، وقد أوفد المثقفون الثوريون /ثابت عزاوي/ إلى حلب ليشترك باسمهم في المؤتمر الوطني الذي أقيم بدار الزعيم إبراهيم هنانو عام ١٩٣٥ وقد حضر معه محمد الفتيح، حيث نوقش في المؤتمر الأوضاع السياسية وتعطيل الفرنسيين للحياة النيابية.

في عام ١٩٣٦ ناقش المثقفون الثوريون موضوع تأسيس فرع للعصبة الوطنية بدير الزور، وتشكلت فعلاً من المثقفين:

(توفيق الشيخ عطية، ثابت عزاوي، عبد العزيز الحسن بك، حسين جاهد، عبد الحميد خلوف) وعقد الاجتماع في منزل بشير الحاج فاضل، واجتمع المناضلون بعدها في جامع الوسط واتفقوا على قيام مظاهرات وإضرابات بلغت ذروتها في إضراب الستين يوماً، وذلك في عهد الجنرال /جاكو/ الذي أوقف كبار المناضلين والمثقفين ووجهاء المحافظة لإنهاء هذا الإضراب.

و - البيت الثقافي (١٩٤٤م/١٣٦٣هـ):

وفي عام ١٩٤٤ أسس الباحث عبد القادر عياش / البيت الثقافي/ خدمة للأدب والفكر والمسرح، وقدم المثقفون فيه محاضرات وأمسيات ومسرحيات هادفة أهمها (المجرم عدو النور) واستمر هذا البيت في عطائه الإيجابي حتى أغلقه حسني الزعيم ١٩٤٨، وقد أسس الباحث العياش في عام ١٩٤٥ مجلة /صوت الفرات/ وكانت مشعل ضياء وفسحة فكر

لخدمة الوطن وقضاياها وتراثه وقد انبثقت هذه المجلة من البيت الثقافي لتعكس تصورات مفكره وتابع عياش اهتمام بالفرات الأوسط والجزيرة في تأليف موسوعة عن تاريخ المنطقة^{٥٦٣}.

ز: النادي الثقافي: (١٩٤٤م/١٣٦٣هـ):

في العام ١٩٤٤ شهدت دير الزور ولادة /النادي الثقافي/ من قبل الدكتور لطفي الحلاج حسين الذي بذل مساعي حثيثة للنهوض بالفكر والأدب والفن إلى مستوى الأحداث الكبيرة التي تمر بها حركة النضال في محافظة دير الزور.

وعندما نقل الدكتور لطفي الحاج حسين خارج حدود المحافظة تسلم الراية المفكر جلال السيد، فأصدر مجلة أسبوعية باسم /مجلة الثقافة/ سلّطت الأضواء على الواقع الفاسد في المجتمع، ونبّهت الشعب على مؤامرات المستمر التي تحاك في الخفاء ضد الاستقلال والقوى الوطنية.

وقد عبر مفكري النادي الثقافي عن مشاعرهم الوطنية وأفكارهم الثقافية من خلال هذه المجلة التي كانت يساهم بالكتابة بها معظم أعضاء النادي الثقافي سواء من أبناء دير الزور أو الرقة والحسكة.

واستطاع الأستاذ جلال السيد^{٥٦٤} أن يقدم في النادي الثقافي عدداً من المحاضرات المحرّضة والهادفة، وعدداً آخر من المسرحيات الملتزمة بقضايا الوطن والإنسان، وأهمها مسرحية /في سبيل التاج/.

⁵⁶³ شوحان؛ أحمد : تاريخ دير الزور، ص ٢٣٧.

⁵⁶⁴ جلال السيد: أحمد أبرز رجال الفكر السياسي الحديث المعاصر في عصره بمنطقة الفرات الأوسط والجزيرة، ولد في دير الزور عام (١٩١٣م/١٣٣١هـ) عاش في الحركة الوطنية والثقافية منذ طفولته كان داعية للوحدة العربية، وكان عضواً فعالاً في عصبة العمل القومي في دير الزور وهو أحد مؤسسين النادي الثقافي بدير الزور أصدر مجلة الثقافة وهو أحد رجال الفكر وواضعي دستور حزب البعث العربي الاشتراكي له ثلاث كتب مطبوعة وسبعة مخطوطة لم تنشر بعد، العديد من المقالات المنشورة في مجلات وصحف محلية وعربية، وله محاضرات كثيرة، أشهر مؤلفاته كتاب الحزب أو علاج مشكلة الأمة العربية، كتاب حزب البعث العربي الاشتراكي..الخ.

توفي عام ١٩٩٢م في دير الزور). أنظر: خيرة؛ عبد الصمد، بوادي الفكر في وادي الفرات الأوسط، ص ٨٢-٨٥.

ج- نادي الطليعة للأدب والفنون (١٩٤٥م/١٣٦٣هـ):

كما كان لنادي الطليعة الذي أسسه الفنان والأديب إسماعيل حسني عام ١٩٤٥ دور كبير في تنشيط الحركة الأدبية والفنية والمسرحية، وكان للأدباء والمثقفين أمثال / صالح الشاهر عبد العزيز عزاوي عبد الرزاق جعفر عبد الرحمن مغير حسن عبود عادل خلوف عبد الرحمن العاني سيف الدين علوني جورج لولي عبد القهار عبيد جلال حسن عبد السلام حسن صبري شباط... وغيرهم / دور كبير من خلال عطاءاتهم الثقافي في رصد الواقع الفاسد، وسبل معالجته.

إذ قدموا المسرحيات الهادفة، والمحاضرات المحرصة، وتجولوا في مناطق المحافظة لحث الشعب على الثورة، وتقديم الدعم المادي والمعنوي للتأثرين بدير الزور التي التهمت من جراء إحراق سيارة عسكرية فرنسية من قبل المناضل /محمد الجولة/ في الشارع العام.

ط- جمعية العهد الفراتيين:

قد كانت حركة سرية جداً في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة وهدفها الرئيسي هو العمل ضد الاحتلال العثماني في سبيل حرية الأمة العربية وقد ارتبط اسم الجمعية بالفراتيين وذلك لوجود قادة سياسيين من أبناء الفرات والجزيرة كانوا يعملون بصورة سرية تامة لضم أكبر عدد ممكن إلى صفوف هذه الجمعية من الوطنيين المخلصين وقد كان له ارتباط مباشر ببعض القادة السياسيين في حلب^{٥٦٥}.

إن أبرز قادة هذه الجمعية من أبناء الفرات والجزيرة كان الشيخ حسين الأزهرى وأحمد العزاوي والشيخ سعد الدين الحسيني ومن الجزيرة كان الشيخ مشعل الجربا^{٥٦٦}.

أما من أبرز أعضاء الجمعية فهم كثر من أبناء دير الزور والرقعة والحسكة نذكر بعضهم مثل أحمد السيد، علي عداي، حضر لطفي الخفاجي وكان عضواً في مجلس المبعوثان ممثلاً عن منطقة الفرات والجزيرة، وحسن نجم الدين الحسيني، وشمس الدين العكل، وحباش الحسن، والشيخ أسعد البشير (من شيوخ البقارة في دير الزور امتداداً إلى

⁵⁶⁵ نخبة من الباحثين: دير الزور ماضٍ عريق، ص ٢٢٧.

⁵⁶⁶ وهو أحد أبرز شيوخ عشيرة شمر الجدياء ومن رجالات الوطن ضد الاحتلال العثماني والاستعمار

الفرنسي ويعتبر من الرجال ذوي المكانة الهامة بين شيوخ عشائر الحسكة ودير الزور.

الرقعة) وفارس الجراح (شيخ فخذ الدميم من عشائر العكيدات في البوكمال، وعجيل الياور والعاصي فرحان (من شيوخ عشائر شمر في الحسكة، وعلي السلطان وعلي الزوبع والشيخ مسلط الملحم (من شيوخ عشيرة الجبور في الحسكة) ومحمد العبد الرحمن (من شيوخ عشيرة طيء في الحسكة وامتدأ إلى أراضي الجزيرة في الرقة).. وغيرهم كثيرون.

لقد لعبت الجمعية دوراً هاماً في جمع شمال الوطنيين ضد الاحتلال العثماني وبرهنوا على قدرتهم النضالية من خلال مقاومتهم للاحتلال الإنكليزي في دير الزور والرقعة، والجزيرة والميادين والبوكمال وانضموا إلى قوات رمضان الشلال وفي نيسان عام ١٩٢٠ صار مركز الجمعية في دير الزور كطما ساهمت في النضال الوطني ضد الاحتلال الفرنسي بشكل فعال^{٥٦٧}، وقد برز من أعضاء خلال هذه الفترة مجموعة من المفكرين ورجال الدين والمعلمون الرسميون أمثال الشيخ مشوح الكبير (في الميادين)، و الشيخ أحمد الداوي الكبير (حامي الطريقة الدفاعية في الفرات والجزيرة، والشيخ أحمد النقشبندي الكبير، وولده الشيخ ويس حامي الطريقة النقشبندية، ومن المعلمون أمثال أحمد راسم الشيخ عطية، ومحمد راسم، والشيخ حسن الزيتون..الخ^{٥٦٨}

ي- الكتلة الوطنية : (١٩٣٢م/١٣٥٠هـ):

تأسست هذه الكتلة في مدينة دير الزور قصة الفرات والجزيرة وكان يرأسها محمد الفتيح^{٥٦٩} والذي استطاع أن يوسع حلقة هذه الكتلة الوطنية في دير الزور لتمتد إلى الحسكة حيث قام في عام (١٩٣٣م/١٣٥١هـ) زيارة الحسكة سراً والاتصال ببعض الشخصيات

⁵⁶⁷ المسلط؛ صالح: عنوان الكتاب صفحات من نضال الجزيرة السورية ص٢٦.

⁵⁶⁸ نخبة من الباحثين: دير الزور ماض عريق، ص٦٢٧.

⁵⁶⁹ وهو محمد الفتيح الكرنوس انتخب نائباً في مجلس المبعوثان في الفرات والجزيرة عام ١٩١٢م وأعيد انتخابه مرة ثانية ودخل عضواً في الحكومة المحلية التي عام ١٩١٢م وأعيد انتخابه مرة ثانية ودخل عضواً في الحكومة المحلية التي تشكلت في دير الزور عام ١٩٤١م مرتين وكان عضواً في المؤتمر السوري عام ١٩٢٠م وانتخب في مجلس النيابة عام ١٩٢٦م، ومرة أخيرة في عام ١٩٣٢م إلا أنه ترك المجلس وانسحب مع بقية الأعضاء الذين رفضوا المعاهدة الفرنسية ولد في دير الزور. الجندي؛ أدهم: بطولات أبناء دير الزور ص١١٣-١١٤.

التي كانت قد نفيت إليها أمثال: فوزي الغزي وفارس الخوري، وجميل مردم بيك، والدكتور الشهبندر، كما التقى مع مجموعة من شيوخ عشائر الجزيرة وبعض وجهاء الجزيرة أمثال الشيخ جميل المسلط (شيخ الجبور)، دهام المهادي (شيخ شمر)، حماد السلطان، وسعيد الدقوري (من زعماء الأكرد)

وتم من خلال هذا التنسيب تشكل الحزب الوطني في الجزيرة ثم تحولت جماعته إلى ما يعرف بجماعة القبضات الحديدية وقد واجه هذا التنظيم الفكري والسياسي قوات الاستعمار الفرنسي وشعرت بالخطر منهم فحاولت القيام بتنظيم معاكس ضم بعض الفئات الموالية للسلطة الفرنسية من المتعاونين والخونة والعوانية فشكلت لهم في منطقة الجزيرة ما عرف باسم جماعة الإشارة البيضاء إلا أن هذا التنظيم لم يكتب له الاستمرار بل سقط فوراً بسبب اكتشاف أمره من قبل أبناء الفرات والجزيرة فعرفوا ارتباط أعضائه بالسلطة.

ساهم أعضاء الكتلة الوطنية (جماعة القمصان الحديدية في مرحلة النضال الوطني ضد الاحتلال الفرنسي وكان عنصراً فاعلاً حتى بعد تحول قسم كبير منهم إلى الحزب الوطني فكان عنصراً هاماً ساهم في الاستقلال^{٥٧٠} وفي غناء الفكر الوطني.

ك- الشيوعيون :

يعتبر الاستاذ تحسين الجوهرى هو أول من أدخل الفكر الماركسي إلى دير الزور، وذلك منذ أواخر العشرينات من القرن العشرين، وكان معه /عبد الله عنايات وخير الويس/ وكان من تلامذتهم (ثابت عزاي، محمد الكضيب، عبد الحميد حافظ، ياسين جعفر، إبراهيم الصالح، إسماعيل بجعة، عبد القادر عبود، محمود رمزي، كمال علوان، وجابر العبيد..الخ) وقبض لهم أن يؤسسوا أول خلية شيوعية على يد المدرس الحلبي الأرمني (منير شدروفيان) الذي كان يدرس اللغة الفرنسية في تجهيز الفرات، ليمتد نشاطهم إلى صفوف الطبقة العاملة، وعدد لا يستهان به من الشباب المثقف، أمميون يرفضون الفكر الغيبي ، ويؤمنون بالاشتراكية العلمية.

ل- السوريون القوميون الاجتماعيون :

هم جماعة مثقفة واعية، تبينوا أفكار المفكر أنطوان سعادة زعيم الحزب في سورية ولبنان، يؤمنون بمشروع الهلال الخصيب وسورية الكبرى، والأمة العربية بنظرهم هي عدة أمم.

كان يدافع بحماس عن أفكارهم نخبة من المثقفين الثوريون والطلاب والعمال أمثال:/حسن عياش، حسن الشيخ، صالح عبود، عبد الوهاب بعاج (وهو المنفذ حالياً)، عبد الرحزاق بعاد، ناجي حطاب، صبحي المرعي، عبد العزيز المرعي، عبد الرزاق منديل، عبد الحميد منديل، جيرا توما، أمين دغيم، فاروق الرجب..الخ/.

م - حركة القوميين العرب:

تأسست في الثلاثينات من القرن العشرين، وتمخضت عن (عصبة العمل القومي) أبرز قادتها (ثابت عزاي، عبد الكريم الفرحان، طاهر المفتي، جلال السيد، عبد القادر عبيد، راغب صائب، نظام الدين ظاهر، محمود وكاع...الخ).

وقد سجنوا جميعاً أربع سنوات في سجن (المية مية) ببيروت عام ١٩٤١، حركة تؤمن بالقومية العربية وفق المنطلق العلمي^{٥٧١}.

ن - حركة شباب محمد:

التقى تنظيمهم منذ الثلاثينات مع حزب الأخوان المسلمين، فاندمجوا به، وتبنوا أفكاره واستراتيجيته، شعارهم العودة إلى حياة السلف، وضرورة هيمنة الدين على الدولة، قسم منهم تبنى البدع والخرافات، ومحاربة كل الأفكار المستوردة ومروجيها والقسم الآخر كان متطرفاً بأفكاره وعلاقاته العامة، ونهجه السياسي، يعملون بصمت، ويجتمعون في المساجد والزوايا والتكايا، من أبرز قادتهم (الدكتور حسن الهويدي، محسن الهويدي، أمين الشاكر، سعيد شرف، ياسين بعاج (أبو زهير)، رمضان السبع، سعيد مشهور، صالح طعمة، إبراهيم الطه، عبد الرزاق رمضان الخالدي، عبد الجليل النقشبندى..الخ).

س - الحزب الوطني:

وهم جماعة من الوطنيين المثقفين، انضم إليهم عدد من شيوخ العشائر والبرجوازيين، كان يرأسهم محمد الفتوح.

⁵⁷¹ رويلى؛ محمد رشيد: الحركة الفكرية، ج ١، ص ١٣٠.

المؤسس لهذا الحزب محمد أمين العليوي، ومن أبرز قاداتهم (محمد العيش، عبد القادر فرحان الفياض، سعيد بخيت المعروفي، عبد الصمد فتوح، راغب البشير، عبود الجدة، الهفل، بدر الدين الصباغ، محسن الصباغ، إسماعيل العاني، سعيد السيد).

إيديولوجية حزبهم النهوض بالوطن واقتصاده من خلال الانفتاح بلا حدود على الأشقاء العرب والدول الأجنبية الصديقة وعدم فرض القيود على التجاريتين الداخلية والخارجية.

ع- حزب الشعب:

ينادي بالوحدة العربية وفي مقدمتها وحدة سورية مع العراق واعتبارها المنطلق الحقيقي لقيام وحدة شاملة.

انطوى تحت لوائه عدد كبير من المثقفين الثوريين واليساريين، وعدد من التجار وكبار الملاك والرأسماليين وقلة من العمال والمهنيين والطلاب.

كان يرأسهم /ذكر عواك/ ومن قاداته الدكتور جمال الدين مدلجي، قاسم هنيدي، عبد الباقي رشيد الركاض، عبد الصمد مشرف، رفيق عرب، حسن بربندي، عبد اللطيف هنيدي، طعان الحميري.. الخ.

ب- الأندية الرياضية :

الرياضة هي مهارة وفن وعلم كونها تحتاج على فكر وقدرة بدنية فهي تعتبر مقياس حضارة الشعوب فكراً واجتماعياً ورياضة في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة قديمة جداً كان أولها وأقدمها هي رياضة ركوب الخيل حيث عرف عن أبنائها مهاراتهم في الفروسية فكانوا فرسان لا يشق لهم غير وخدمتهم بذلك شجاعتهم ونوع خيولهم العربية الأصيلة حيث كانت دير الزور واحدة من أهم أسواق الخيول العربية على مستوى المشرق^{٥٧٢}.

وقد مارسوا ألعاب فروسية كثيرة ثم ظهرت ألعاب أخرى صار يمارسها الشباب وأهمها كانت لعبة تدعى الحوري^{٥٧٣} في نهاية القرن التاسع عشر.

⁵⁷² بلنت: أن : قبائل بدو الفرات، ص ١٢٠.

⁵⁷³ الحوري: وهي إحدى الألعاب الشيقة التي كانت تمارس في الفرات الأوسط والجزيرة حيث يمارسها الشباب بشكل عام وهي تشبه لعبة الهوك ليون وإنما تمارس على أرض منبسطة وينقسم فيها اللاعبون إلى فريقان كل فريق يضم أحد عشر لاعباً أما أدواتها فهي عصا وكرة، أنظر:

ظهرت بعد ذلك ألعاب أخرى متنوعة مثل كرة القدم، والسباحة، كرة السلة وبعض ألعاب القوى حيث صارت تنظم جماعات الشباب الرياضيين في بدايات القرن العشرين بما يعرف بالأندية الرياضية ولعل أهم وأبرز تلك الأندية هي:

*** نادي النهضة الرياضي في دير الزور (١٩٢٨م/١٣٤٦هـ):**

يعد أول نادي رياضي في منطقة الفرات والجزيرة وقد أسس باسم نادي النهضة على يد مجموعة من الشباب في دير الزور بعد انحلال جمعية الألعاب الرياضية وقد كان أفراده يمارسون ألعاب مثل كرة القدم والسباحة، وأبرز مؤسسيه كانوا عبد الله القاسم، حسين الجوهري، سيف الدين خلوف، قاسم هنيدي، عبد الحميد صباغ، شفيق بشار، علي القاسم، توفيق الشيخ عطيه، عبد الصمد فتحي، محتشم بقبح جي، أحمد مردم بيك، لم يستمر هذا النادي طويلاً ذلك بسبب عدم التنسيق بين أعضائه.^{٥٧٤}

*** نادي الفرات الرياضي (١٩٣٢م/١٣٥٠هـ):**

تأسس بعد أن انشق عن جمعية الألعاب الرياضية مجموعة من الرياضي في دير الزور فاتخذوا مقراً لهم دار أحد الرياضيين معهم وهو عبد الرزاق هنيدي ثم قاموا بانتخاب رئيساً للنادي الرياضي حسن الأحمد بيك وقد مارس أعضائه ألعاب كرة القدم، والسلة، والطائرة وألعاب القوى والسباحة.^{٥٧٥}

*** نادي الكوخ (غازي) (١٩٢٠م/١٣٣٨هـ):**

كان مؤسسي هذا النادي يجتمعون في كوخ بسيط على شواطئ نهر الفرات في دير الزور فأطلقوا على النادي اسم الكوخ، وفي عام ١٩٣٢م قرروا تأسيسه مجموعة من أعضاء هذا النادي نذكر منهم عبد المجيد بقج حبي، غازي الحكيم، عبد الغفور خريط، رفيق مطر، اليون برانسوسيان، عبد الرزاق عزوي، تاج الرداوي، حمد كاكاخان، صالح نجار..الخ.

الطبال : عباس: الألعاب الشعبية في دير الزور، دمشق، وزارة الثقافة ط ١ ٢٠٠٧ ص ٢٠٢.

⁵⁷⁴ نخبة من الباحثين: دير الزور ماض عريق ص ٦٨٦

⁵⁷⁵ مجيد آغا، عبد السلام: الحركات الرياضية والكشفية في دير الزور، مجلة العمران العدد

وفي عام ١٩٤٠م/١٣٥٨هـ تم تغيير اسم النادي إلى نادي غازي الرياضي^{٥٧٦} ثم انشق عنه مجموعة من الرياضيين شكلوا ناد جديد أطلقوا عليه اسم نادي ميسلون ومن أعضائه نشأة علويني، صالح السيد، ليون برانسوسيان، محمود هنيدي، داوود الشوا..الخ.^{٥٧٧}

* نادي الأخوة الرياضي والثقافي (١٩٤٢/١٣٦٠هـ):

تأسس نادي الأخوة الرياضي الثقافي على يد مجموعة من الشباب المثقفين من المنطقة ممن عرف عنهم طابع النضال الوطني حيث مارس أعضائه نشاطات ثقافية وألعاب رياضية، وقد انتخبوا رئيساً له السيد ممدوح فديل وعضوية كل من حسن السراج، وصلاح عبود، أما ابرز محاضريه الشيخ محمد سعيد العرفي، ومحمد الفراتي، وعبد القادر عياش، ثابت عزاوي، حسين جاهد..الخ.

أما ابرز لاعبيه فكانوا: خلوف النحاس، بشير حوكان، عبد الرزاق حجاب، هشام غدير..الخ.^{٥٧٨}

* نادي البوكمال:

تأسس في بداية الأربعينيات وقد كان بعض الرياضيين في منطقة البوكمال دور في تأسيسه وقد كانت تنحصر المنافسة فيه نحو من بعض المباريات مع عناصر الجيش الفرنسي في بعض الألعاب مثل كرة القدم والملاكمة.

ص - الحركة الكشفية في الفرات الأوسط والجزيرة:

رافقت الحركة الرياضية في نشأتها وتطورها الحركة الكشفية حيث تشكل بادي ذي بدء فرقتان في نادي النهضة الرياضي وجمعية الألعاب الرياضية عندما انشطرا عن جمعية الألعاب الرياضية نفسها و كان ذلك عام ١٩٣١، وكانت الفرقة التابعة لجمعية الألعاب الرياضية تابعة للكشاف المسلم، وفي عام ١٩٣٤ أمر المفوض السامي الفرنسي بإغلاق جميع الحركات الكشفية في سورية وفي عام ١٩٣٦ أسس الأستاذ جودت الركابي فرقة

⁵⁷⁶ تم تغيير اسم النادي الكوخ الى نادي غازي في عام (١٩٤٠م/١٣٥٨هـ) ثم تم تغيير اسم النادي الى

الفتوة الرياضي في عام ١٩٧٢م ملا يزال يعرف حتى اليوم بهذا الاسم

⁵⁷⁷ شوحان ؛ أحمد: تاريخ دير الزور، ص ٢٤٣-٢٤٤

⁵⁷⁸ عياش عبد القادر : حضارة وادي الفرات ص ١٥٧

كشفية بمدرسة هنانو وهي النواة الأولى للحركة الكشفية في البلد إلا أن التأسيس الجديد المنظم كان على عهد الأستاذ بكري قدورة عام ١٩٣٧ عندما كان في دير الزور وأنشئ للحركة آنذاك مفوضية مؤلفة من الأستاذ بكري قدورة رئيسياً، وعضوية سليم السمان وطه حداد، وحسن الأحمد بك، شفيق بشار، بدري حنيش^{٥٧٩}.

وقد ساهم الجميع مساهمة فعالة في تقدم الحركة الكشفية منذ ذلك العهد، واستمرارها يعود الفضل به إلى الأستاذ المفوض حسن الأحمد بك إلا أن الحركة بقيت محصورة في المدارس إلى يومنا هذا!!!.

٥- الصحف والمجلات في الفرات الأوسط والجزيرة :

تعد الصحف والمجلات ظاهرة فكرية تعطي تصوراً لبعض واقع التطور الثقافي في أي بقعة كانت فهي تساعد على نقل الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي وتنقل الأبناء العامة والثقافية بل وهي فسحة لأفكار المبدعين من أدباء وشعراء ومفكرين في المجتمع المحلي وتساعد على انفتاح المجتمع حيث شجعت تلك الصحف أبناء الفرات والجزيرة على تقبل الأفكار الثقافية والموروث الحضاري المنقولة عن تجارب وشعبو غيرها بل وتشير إلى السلبات من المجتمع حتى وإن كانت من نطاق رقابة السلطة وبالتالي فقد كانت ظاهرة إيجابية عرفت المنطقة بشكل مبكر منذ بدايات القرن العشرين وهذه دراسة لأهمها:

أ- جريدة الجول (١٩١٦م/١٣٣٤هـ):

وفي عام (١٩١٦م/١٣٣٤هـ): ظهرت بدير الزور أول جريدة باللغتين العربية والتركية اسمها (الجول) أي البادية، وكان رئيس تحريرها العالم اللغوي الأديب /علي صائب/ رئيس ك تاب مجلس إدارة لواء الزور الذي استطاع بحكمته وحنكته أن يستقطب المفكرين والأدباء والعلماء ليكتبوا فيها مقالات وأبحاث عن قضايا اجتماعية وفكرية وأدبية وسياسية تشكل هاجس كل فرد من أبناء المحافظة، وقد استطاعت جريدة الجول هذه أن تحقق الأهداف الوطنية والقومية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية المرجوة رغم كل أشكال الضغط والرقابة المستمرة عليها فكانت بحق بؤرة ثورية، استطاع المناضلون من خلالها بث أفكارهم الوطنية والقومية في مجتمع متخلف عانى طويلاً ودقوا ناقوس الخطر بقوة، ورسموا من خلالها خريطة النهضة الفكرية والأدبية في هذه المحافظة مستمدين من التراث

العربي مهمزاً ليقظتهم وكان أول من هيأوا له هو نعش الذي جنم على صدر الأمة العربية أربعمئة عام ونيف.

وقد كانت تصدر بشكل دوري كل اسبوعين، وأول أعدادها صدر في (١٩١٧م/ المصادف أول ذي القعدة ١٣٣٥هـ) وتطبع في دير الزور مطبعة مدرسة الصنائع (الثانوية الصناعية) التي جلبها العثمانيون لصالح المدرسة وكانت الصحيفة تصدر بأربع صفحات مناصفة بين اللغتين العربية والتركية.

وفي نهاية الحرب العالمية الأولى بدأت تصل إلى متصرف دير الزور/ حلمي بك/ الأخبار التي تحمل هزائم الترك أمام القوات العربية والحلفاء، وخروجهم من عدد كبير من المناطق العربية، إلا أن أياً من القوات المعادية للترك عرباً وأجانب لم تصل إلى دير الزور أو المناطق التابعة لها ورغم ذلك فقد انسحب العثمانيون من المنطقة نتيجة خوفهم من أبناء الفرات والجزيرة المتعطشين لنيل الحرية والاستقلال بعدما فعله المحتل بهم من ظلم وبطش.^{٥٨٠}

ب- مجلة الفرات (١٩٣٨م/١٣٥٦هـ):

وقد لعب الشاعر والأديب عبد الجبار الرحبي دوراً كبيراً في نهوض الثقافة النضالية بدير الزور خلال العقد الثالث من القرن العشرين حين أشرف على تحرير /مجلة الفرات/ والتي صدر العدد الأول منها في ١٩٣٨/٤/٥ وكان صاحبها الأستاذ أحمد مصطفى، وهو صاحب مطبعة الفرات، من المناضلين الذين ما بخلوا يوماً على هذا الوطن بأي جهد أو مال، فصدر عن المجلة ٤٨/ثمان وأربعون عدداً، وكانت تصدر ثلاث مرات في الشهر، وقد ساهم في تحريرها نخبة من المثقفين الذين وردت أسماؤهم قبل قليل يضاف غليهم (الأديب سعد صائب، الأستاذ طه حداد، الأستاذ ممدوح منديل، الأستاذ عبد الحي مشهور، الأستاذ عبد الحميد مشهور، الأستاذ سعيد شرف، الأستاذ توفيق شاكر الجمعة، الأستاذ صالح العليوي، الأستاذ بدر الدين حنيش، والشيخ محمد سعيد العرفي، ومحمد الفراتي وحسين السراح وأحمد الفتيح..الخ.

لقد كان رئيسة تحرير مجلة الفرات السيد عبد الجبار الرحبي هو وبعض زملائه يكتبون أحياناً بأسمائهم الصريحة وأحياناً بأسماء مستعارة مثل أبي حيان التغلبي أو مالك

بن طوق أو الفهري.. اخل، ثم تحولت هذه المجلة إلى أسبوعية تصدر في بداية كل أسبوع، وبعد ذلك أغلقت الصحيفة ومنعت طباعتها بعد سنة من افتتاحها بحجة عدم حصولها على ترخيص رسمي لكن السبب الحقيقي هو التوجه الوطني ضد الفرنسيين.

فالمستعمر الفرنسي أدرك هو أيضاً خطر، فأغلقها، وسجن صاحبها الأستاذ أحمد مصطفى مدة شهري، وسرح الأستاذ الشاعر عبد الجبار الرحبي من الوظيفة، وسجن الشاعر النائر ناجي مشوح مدة شهرين بسبب جرائته ووطنيته وشعره ومقالاته وآرائه الجريئة والمحرضة على الثورة، هذا ولم ينته العقد الثالث من القرن العشرين إلا وكانت الثقافي تسري كالنار في الهشيم بكل بيت وشارع في محافظة دير الزور، وكان الأدباء والمفكرون الطليعة النضالية في كافة الميادين استمروا في عطائهم اللا محدود رغم العوز والحرمان والاعتقال.^{٥٨١}

ج - صحيفة الفرات (١٩٣٩م/١٣٥٧هـ):

يعتبر مؤسسها ورئيس تحريرها هو عبد الجبار الرحبي أما صاحبها فهو السيد أحمد المصطفى بعد خروجه من السجن قام بتنظيم صحيفة جديدة في عام (١٩٣٩م/١٣٥٧هـ) هي صحيفة الفرات وقد أعلنت صحيفة اجتماعية إخبارية أدبية.

في حقيقة الأمر هي استمرار لمجلة الفرات السابقة التي أسست بجهود الشخصين السابقين معاً ولكن عاد تأسيسها بعد منع المجلة السابقة كونها تتدخل في مجال السياسة ضد سلطات الاحتلال الفرنسي بشكل صريح وقد كانت تطبع باللغة العربية في مطبعة صاحب الصحيفة.

أما ابرز من كتب فيها نذكر منهم الشيخ محمد سعيد العرفي، محمد الفراتي، وماجد مشوح، لطفي حسين، وإبراهيم المدلجي.. الخ.

ونتيجة لعودة اتجاه كتاب هذه الصحيفة بكتابة الأفكار السياسية وفق التوجه الوطني فإنه لم يكتب لهذه الصحيفة الاستمرار، حيث قامت سلطات الاحتلال الفرنسي بإغلاقها عنوة وملاحقة مؤسسيها بعد أقل من مضي سنة على تأسيسها.^{٥٨٢}

⁵⁸¹ نخبة من الباحثين: دير الزور ماض عريق، ص ٦٣٤

⁵⁸² رويلي، عبد القادر: الحركة الفكرية والثقافية، ص ١٢٢-١٢٣

د - نشرة الفرات (١٩٤٢م/١٣٦٠هـ)

وهي عبارة عن نشرة إخبارية دورية ناطقة بلسان سلطات الاحتلال الفرنسية وهي عبارة عن نشرة يومية كانت تصدر في دير الزور وتبحث في شؤون لواء الفرات والجزيرة وتوزع على مختلف أرجائه (دير الزور، الحسكة، الرقة).

لقد كانت نشرة الفرات عبارة عن صحيفة صغيرة موجهة سياسياً من قبل سلطات الاحتلال الفرنسية التي كانت ترعاها وهي صحيفة يومية سياسية كانت تصدر باللغتين الفرنسية والعربية، تحمل شعار (إعلامية، سياسية، يومية) وقد صدرت أول نشرة لهذه الصحيفة في عام (١٩٤٢م/١٣٦٠هـ) ورئيس تحريرها الأستاذ إبراهيم الزين أما طباعتها فكانت تتم خارج الفرات والجزيرة.^{٥٨٣}

هـ - مجلة الثقافة :

مؤسس المجلة هو المفكر السياسي جلال السيد قد أتاحت له الفرصة لإصدارها عندما تولى رأسه النادي الثقافي في الفرات والجزيرة، بعد أن تركها الدكتور لطفي الحاج حسين نتيجة لنقل مقر عمله خارج المنطقة وأول أعدادها صدرت في أواخر (١٩٤٤م/١٣٦٢هـ) وقد جعلها مجلة أسبوعية ثقافية باللغة العبرية ومركزها في مدينة دير الزور.

في الحقيقة لقد كانت المجلة الثقافية ولكن أكثر منها هي مجلة سياسية حيث سلطت الأضواء على الأوضاع السياسية المتردية في المجتمع على يد الاحتلال الفرنسي وكانت تنبه أبناء المنطقة على المؤامرات الاستعمارية إضافة إلى أنها كانت منبراً لأفكار رجال القوة الوطنية فكانت صفحات الأولى تستقل بالمقالات الثقافية أما صفحاتها الداخلية فقد كانت تحمل عناوين ثقافية ولكن ذات مضمون سياسي يدعو إلى الاستقلال ووحدة الصف العربي في سبيل الحرية وتحقيق مجتمع متعاون وقد طرح جلال السيد من خلال هذه المجلة بعض الأفكار السياسية التي كانت تحمل البذور الأولى لأفكار إحدى التيارات السياسية القوية في سورية التي ساهمت فيما بعد في تشكيل إحدى الكتل والأحزاب السياسية بعد الاستقلال.

استمرت بالصدور بأعداد متفرقة حتى عام (١٩٤٦م/١٣٦٤هـ) ثم أغلقت.^{٥٨٤}

و - مجلة صوت الفرات (١٩٤٥م/١٣٦٣هـ):

⁵⁸³ شوحان أحمد: تاريخ دير الزور، ص ٢٤٩

⁵⁸⁴ حيزة، عبد الصمد: راوو الفكر بوادي الفرات، ص ٨٣

وقد أسسها المؤرخ الباحث عبد القادر عياش بعد أن أسس نادي البيت الثقافي في دير الزور بسنة واحدة فكان أول أعدادها صدر في عام (١٩٤٥م/١٣٦٣هـ) فكانت تصدر بشكل نصف شهري مرة كل اسبوعين وتصدر باللغة العربية فقط بدير الزور.

ساهم في الكتابة في صحيفة صوت الفرات مجموعة من المفكرين من أبناء الفرات والجزيرة وخاصة أعضاء البيت الثقافي فمعظمهم من المفكرين من أبناء الفرات والجزيرة وخاصة أعضاء البيت الثقافي فمعظمهم كان من الأدباء والشعراء وكتاب المسرح ومفكرين سياسيين، لقد كانت مجلة صوت الفرات مشعل ضياء لأفكار الوطنيين المخلصين في خدمة قضاياهم الوطنية وإغناء تراثهم الفكري كما أسهمت في تسليط الضوء على الواقع السياسي، وقدمت دراسات عن تاريخ المنطقة استمرت لعدة سنوات حتى تم إغلاقها عام ١٩٤٨م^{٥٥} على يد حسني الزعيم.

وأخيراً بعد هذه الدراسة لواقع الصحف والمجلات في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة نجد أنها قد لعبت دوراً مؤثراً في تطوير الحياة الفكرية والواقع الثقافي في المنطقة فكانت عاملاً إيجابياً أسهم في تفتح أذهان أبنائها على واقعهم السياسي وما يحيط به من متغيرات وعلى الظروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية فيه كما أسهمت بخلق نشاط فكري وثقافي جديد أسهم من خلال هذه الصحافة المقروءة بتقديم المجتمع.

وهذا رغم كل ما عانتته تلك الصحافة من صعوبات ومشاكل كان أبرزها عدم موافقة سلطات الاحتلال على منح أي ترخيص لصحيفة أو مجل، بل كانت تمنع وتعرقل صدور أي منها، إضافة إلى صعوبة الطباعة فما كان يطبع منها بدير الزور فهو يعتمد على الطريقة البدائية (طريقة الأختام) وما يطبع منها في الخارج يعاني من مشاكل كبيرة بالتنسيق والإخراج وتأخر نقلها، ومعظمها كانت تقوم على جهود فردية فكان تقوم غالبيتها لم يكتب بها دوام الاستمرار كما كانت تعاني من سوء التوزيع بارزاً وله أثره في الحياة الفكرية في لواء الفرات والجزيرة^{٥٦}.

⁵⁸⁵ عادت مجلة الفرات للصدور بعد فترة سنة ونصف من توقيفها، ثم استأنفت صدورها في عام ١٩٤٩ واستمرت بالصدور دون انقطاع فترة طويلة من الزمن حتى وفاة صاحبها الأستاذ عبد القادر عياش عام ١٩٧٤، أنظر: شوحان؛ أحمد: تاريخ دير الزور، ص ٢٤٩-٢٥١.

⁵⁸⁶ لم تظهر أي صحيفة أو مجلة في منطقة الحسكة أو الرقة خلال فترتي الاحتلال العثماني والفرنسي طيلة هذا الوقت أبداً، وذلك يعود لسبب بسيط لكون دير الزور كانت هي قسبة اللواء فمن الطبيعي أن تستقطب المثقفين والمفكرين وأن تكون لواء لأي عمل فكري أو ثقافي.

٦- أسواق الكتب والمطابع :

أ- أسواق الكتب :

لقد كانت مطالعة الكتب والثقافة بشكل عام ضيقة في منطقة الفرات والجزيرة حتى نهاية القرن التاسع عشر ضعيفة وفي بداية القرن العشرين بدأت النهضة تدريجياً وبشكل بسيط تعم المنطقة فسبقاً في القرن التاسع عشر كانت الدواوين (مجالس المضافة) في بيوت الأغنياء ووجهاء العشائر والزعامات المحلية فكان يلتقي فيه الشعراء الشعبيين ورواة القصص وغيرهم مكاناً والكتاتيب في عملية التعليم وتدرّس العلوم الدينية وبعض العلوم الدنيوية وفي بدايات القرن العشرين ظهرت لأول مرة في منطقة الفرات والجزيرة مكتبة عامة صغيرة في عهد المتصرف أحمد رشيد باشا وذلك بعام (١٩٠٤م/١٣٢٢هـ)^{٥٨٧} فيها حملة الراشدية وتحديداً أشرفي الجامع الحميدي، وهي عبارة عن مكتبة متوسطة كانت تسمى قراءة خانة^{٥٨٨} وضعت فيها عدة آلاف من الكتب ذات المواضيع المتنوعة ولكن معظمها كانت تخص الجانب الديني وتتحدث عن الفكر الديني وطرق التصوف والمذاهب الإسلامية في أحكام الشريعة والأصول والفقه والتفسير والحديث وملاحظة موضوعات كانت كتب تاريخية، وجغرافية، وسياسية وأخرى كتب قانونية خاصة بما يتعلق بمجال القوانين العثمانية في دير الزور وكتب في الأدب والشعر وكتب علمية في الرياضيات والعلوم الطبيعية وعلوم الفلك وقد كانت هذه الكتب معظمها باللغة العربية بعضها الآخر باللغة التركية وخاصة (القوانين والدساتير)^{٥٨٩} وقلة بلغات أخرى كالفارسية والإنكليزية والفرنسية وقد كانت هذه المكتبة أشبه بمكتبة المركز الثقافي أما بقية المكتبات فهي كانت عبارة عن

⁵⁸⁷ سالنامه الدولة العثمانية العلية، عام (١٩٠٣/١٣٢١هـ) ن ص ٨١٨-٨١٩.

⁵⁸⁸ قراءة خانة: وهي المكتبة التي أنشأها الأتراك في مدينة دير الزور فكانت أعظم ما شهده العثمانيون في هذه المدينة فكان بناءها يقع في وسط حديقة واسعة في مركز المدينة ولها غراف (دولاب ماء) لري أشجارها وتعد المؤسسة الثقافية الأهم في منطقة الفرات والجزيرة.

أنظر: قنبر؛ توفيق: تطور التعليم، ص ٢٦٨.

⁵⁸⁹ كانت هذه القوانين والدساتير الموجودة في المكتبة هي مجموعة الأنظمة والقوانين العثمانية وخاصة التي صدرت منذ أواخر القرن التاسع عشر بعد حركات الإصلاح التي شهدتها الدولة العثمانية والدساتير الموجودة في المكتبة هي مجموعة الأنظمة والقوانين العثمانية وخاصة التي صدرت منذ أواخر القرن التاسع عشر بعد حركات الإصلاح التي شهدتها الدولة العثمانية وقد كانت مجموعات هذه القوانين والأنظمة قد وضعت نسخ كاملة منها في هذه المكتبة ونقلت فيما بعد إلى مكتبة المحكمة في دير الزور، دراسة وثائقية ميدانية.

مكتبات خاصة بموجودة في منازل بعض المفكرين وبعض رجال الدين والأغنياء وبالتالي هي مكتبات يقتصر استخدامها والاستفادة منها على قلة من الناس.

ب- المطابع :

أما المطابع فقد دخلت إلى المنطقة بوقت متأخر، فقد وجدت خلال مرحلة بحثنا ثلاث مطابع في لواء الفرات والجزيرة وجميعها كانت في مدينة دير الزور.

* مطبعة مدرسة الصنائع :

وهي أول مطبعة وصلت إلى لواء الفرات والجزيرة وقد جلبت من حلب لتوضع في مدرسة الصنائع بدير الزور وهي بمثابة (الثانوية الصناعية) والتي كانت موقعها في الجهة الغربية من دير الزور في محلة الرشدية وتحديداً في الجهة الغربية من الجامع الحميدي، وكان ذلك في عام (١٩١٦م/١٣٣٤هـ) وذلك بفضل جهود متصرف دير الزور عبد القادر بيك، لقد كانت هذه المطبعة قديمة تطبع بالطريقة الكلاسيكية الحجرية (أي طريقة أختام الكوشوك والكليشيئات) وهي تعمل بإشراف مباشر من قبل مدير المعارف آنذاك وهو السيد محرم أفندي وتطبع باللغتين التركية والعربية باستخدام الورق الأصغر الخشن الذي كان معروفاً آنذاك.

* مطبعة الفرات :

وهي مطبعة خاصة اشتراها السيد أحمد المصطفى على نفقته وذلك في عام (١٩٣٩م/١٣٥٦) والغرض من شرائها كان من أجل طباعة مجلة الفرات التي سبق وأن تحدثنا عنها وقد كانت هذه المطبعة أحدث من سابقتها وإصداراتها باللغة العربية استخدمها ليس في طباعة المجلة فقط بل في طباعة بعض الكتب والمخطوطات التي كانت يؤلفها أبناء الفرات والجزيرة أما مركز هذه المطبعة فكان في مدينة دير الزور.^{٥٩٠}

* مطبعة الفرات لعبد القادر عياش :

وهي مطبعة صغيرة وبسيطة خاصة بالسيد عبد القادر عياش صاحبها ومديرها، لقد اشتراها لطباعة المجلة التي أصدرها وهي مجلة صوت الفرات، وطباعة بعض مخطوطاته ومؤلفاته التي كان يكتبها وقد كان يطبع أيضاً لبعض زملائه من المفكرين وبعض القصاص

الشعرية بل وحتى الدواوين لزملائه من الشعراء والكتاب وعلى نفقته الخاصة وقد اشتراها في عام (١٩٤٥م/١٣٦٣هـ) وكانت تنحصر على استعمالاته الخاصة ومعارفه الشخصية وليس لغاية الربح المادي بل كان يغطي نفقاتها من جيبه الخاص.

إذاً لقد كانت حركة أسواق الكتب والمطابع في منطقة الفرات والجزيرة ضعيفة بسبب ع دم تشجيع السلطات الحاكمة لها بل كانت معظمها تعتمد على جهود شخصية ولذلك فقد كانت حركة الإقبال على شراء واقتناء الكتب ضعيفة تختصر على بعض العلماء والمفكرين ورجال الدين وأصحاب الطرق الصوفية وبعض الطلبة والمثقفين لكي تساعد في دراستهم بالتالي لم تكن ترقى إلى المستوى المطلوب^{٥٩١}.

٧- المدارس:

لم تحظى منطقة الفرات الأوسط والجزيرة الاهتمام الكافي من قبل قوات الاحتلال خلال الفترة الممتدة من العهد العثماني وحتى في العهد الفرنسي لذلك لم ينال أبنائها القدر الكافي من حقهم الواجب لكل مواطن على الدولة في التعليم، ولقد كان هذا الإهمال متعمداً في بعض الأحيان وذلك لرغبة الدولة في إبقاء الحال الفكري على ما هو عليه من جمود وركود وأحياناً خارج عن إرادة الدولة (وهذا لا يبرر لها) وذلك بسبب ضعف سيطرتها على المنطقة وبكل الأحوال فالتقصير هنا يقع على عاتق ومسؤولية السلطة الحاكمة أي الدولة كل هذه النقاط سببت في النهاية تأخر في عملية إنشاء المدارس الحكومية النظامية بل واكتفت الدولة العثمانية بالوقوف موقف المتفرج تاركة وزر هذا الأمر على كاهل أبنائها مكتفية بإفساح المجال للتعليم في المساجد.

* التعليم في المساجد والتكاية:

وهو أول أشكال المدارس التي وجدت في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة وقد سبق وأن تحدثنا عنها مفصلاً في دراستنا للمساجد ونكتفي هنا بذكر الطريقة التي كانت متبعة في التدريس داخل المساجد وخاصة في دير الزور، والرقعة، ورأس العين، والميادين، والبوكمال... الخ، ألا وهي طريقة الحركات التعليمية حيث تعقد على شكل حلقات للتدريس في وسط المسجد عادة بعد صلاة الظهر وبعد صلاة العصر على مستويين.

المرحلة الأدنى وتشمل تعليم بمبادئ القراءة والكتابة والحساب وحفظ القرآن بعد صلاة الظهر، ومرحلة أعلى وتتم فيها دراسة كتب التفسير والفقه والحديث وبعض الآراء الفلسفية لفلاسفة المسلمين، وعلم الكلام، وقواعد اللغة...الخ.

وقد ظهرت مدرستان متنافستان بين مدارس المساجد في دير الزور، المدرسة الأعلى تحمل اتجاهين فكريين والمدرسة الأولى لرجال الطرائق الصوفية كالشيخ عبد الله أحرار النقشبدي، والشيخ عبد القادر ملاحويش، والشيخ حسين رمضان، والمدرسة الثانية فهي تعتمد على جانب الفكر التحرري المعاصر آنذاك وفق ما يناسب السلف الصالح والتراث، ابرز رجالها الأستاذ حسين السراج، والشاعر محمد الفراتي، والشيخ محمد سعيد العرفي، نكتفي بهذه الدراسة كوننا قدمنا فيما سبق دراسة متكاملة عن التدريس في التكايا أما المرحلة اللاحقة فهي التعليم بالكتاتيب.

* تعليم الكتاتيب:

وانتشرت في القرن التاسع عشر وكانت دير الزور هي السبابة في المنطقة وقد قامت بدور وقدر كافي من واجباتها التعليمية وقد سبق وأن قدمنا لها دراسة مفصلة وأمام ترك الثقل في العملية التربوية من قبل الدولة العثمانية يقع على كاهل هذا النوعين من التعليم من المساجد والكتاتيب وإهمال الدولة واجباتها أمام ابنائها في الفرات والجزيرة،⁵⁹² وقد قدمنا دراسة سابقة ومفصلة عن التدريس في الكتاتيب وما ذكرنا هذا إلا لتسلسل عملية التعليم ولذلك نكتفي بهذا ولكن ننبه على نقطة إلى أن هذه الكتاتيب قد تحولت في أواخر العهد الفرنسي وفي عهد الاستقلال إلى مدارس ابتدائية نظامية لذلك فقد تمكن ولأول مرة أبناء العشائر في القرى والأرياف أن يخرطوا في المدارس.

إحداث المدارس النظامية (خلال العهد العثماني):

فقد تأخر إحداث المدارس وافتتاح المدارس النظامية في المنطقة فكانت أول مدرسة ابتدائية⁵⁹³ افتتحت هي في دير الزور عام (١٨٦٥م / ١٢٨٤هـ) بعد حركة الإصلاح التي

⁵⁹² عياش، عبد القادر: الكتاتيب في دير الزور، دير الزور، مطبعة الفرات، ١٩٧٠، ص ١٧-٢٤

⁵⁹³ HANNoyER> (J):DEYRAL-ZOR1850-1921,p123

قامت في عهد السلطان محمود الثاني وقد استقبلت في صفوفها الصبيان والفتيات بشكل مختلط وكان مكانها في أحد بيوت أبناء دير الزور تبرعاً منه دون أجره مقابلته لحين بناء مدرسة رسمية وكانت تقع في الشارع العام (بيت فاضل عبود) ونظراً لازدياد الإقبال على التعليم في المنطقة فقد ظهرت مدارس أخرى وكذلك ازدادت أعداد الكتاتيب ثم افتتحت مدرستين أخرى بعد تلك الأولى فكانت المدرسة الثانية هي مدرسة الرشدية للصبيان فقط ومدرسة أخرى للبنات فقط وقد افتتحت هاتين المدرستين بشكل رسمي في عام (١٨٨١م/١٢٩٩هـ)، وقد بلغ عدد الطلاب فيها حوالي ٨٢ طالباً وطالبة في المدرستين وكذلك افتتحت مدرسة أخرى في نفس هذا العام فبلغ عدد المدارس خلال تلك السنة أربع مدارس في حين بلغ العدد الإجمالي للطلاب حوالي (٤٥٢ طالب وطالبة^{٥٩٤})، وفي عام (١٨٨٦م/١٣٠٥هـ) أنشأت مدرسة أخرى سميت فيض مشروطة وذلك في محلة علي بيك وفي عام (١٩٠٨/١٣٢٦هـ) أنشأت مدرسة الضائع في مكان مجاور لمدرسة الرشدية الابتدائية التي بمثابة (الثانوية الصناعية) اليوم وكانت هي من الثانويات السبابة على مستوى التعليم المهني في منطقتي الفرات والجديدة وكانت تضم أربع صنائع وهي التجارة، والحدادة، وصناعة الأحذية، والطباعة وكذلك خصص قسم ضمنها لتعليم الموسيقى فكان بمثابة أول المدارس الرسمية لتعليم الموسيقى في المنطقة وتتبع لثانوية الصنائع فاعتبرت إحدى الحرف المهنية والفنية^{٥٩٥}.

ثم افتتحت مدرسة ابتدائية في الميادين وعقبها مدرسة زراعية بمثابة (ثانوية زراعية اليوم) في عام (١٩١٦م/١٣٣٢هـ)، وكان ذلك قد ترافق كله مع وبعد تشكيل مديرية معارف في متصرفية دير الزور وعين أول مدير معارف عليها السيد محرم أفندي فكان بمثابة (أول مدير تربية) في لواء الفرات والجزيرة، كما قام باختيار موقع في الجهة الغربية من مدينة دير الزور يسمح بالتوسع فيه كبناء مدرستي فكان هذا الموقع في أقصى الجهة الغربية الجنوبية لحي الرشدية حيث بوشرببناء أول مكتب سلطاني عام (١٩٠٨م/١٣٢٦هـ) فكان أول مدرسة رشدية إعدادية (أي ثانوية) على مستوى منطقة الفرات والجزيرة بدير الزور.

وفعلاً: فقد أنجزت بعد اقل من ثلاث سنوات وافتتحت رسمياً في عام (١٩١٠/١٨٢٣هـ^{٥٩٦}) وكان للبنين وكانت تضم الصفوف للمرحلة التعليمية من الصف

⁵⁹⁴ سالنامه ولاية حلب، عام (١٢٩٩)، عام (١٢٩٩هـ/١٨٨١م)، ص ٩٥.

⁵⁹⁵ MUSIL (A). ThA MIDDLE EUPHARTES.P2-3

⁵⁹⁶ MUSIL (A). ThA MIDDLE EUPHARTES.P2-3

(١٢-٦) فكانت شهادة التعليم الرشدية بمثابة مرحلة التعليم الإعدادي أو الأساسي، أما الإعدادية فهي بمثابة المدارس الإعدادية التي عرفت باسم المكتب السلطاني^{٥٩٧}، وقد تخرجت أول دفعة طلاب منها تحمل الشهادة الرشدية (أي ما يعادل الإعدادية أو شهادة التعليم الأساسي اليوم) في عام (١٩١٣م/١٣٣١هـ^{٥٩٨}) وقد تابع نفس طلاب هذه الدفعة دراستهم وقد تخرج عدد منهم يحمل شهادة الإعدادية (أي ما يعادل البكالوريا) اليوم من مدرسة لواء الفرات والجزيرة (المكتب السلطاني) في دير الزور وذلك في عام (١٩١٧م/١٣٣٥هـ) وهي أول دفعة تخرجت تحمل الثانوية من مدارس المنطقة، كما افتتحت مدرسة ابتدائية في محلة الحميدية بدير الزور.

أما في الدقة فقد افتتحت أول مدرسة للتعليم ضمن بناء الجامع الحميدي بالرقعة، وإن تاريخ إحداثها هو في نفس عام إنشاء هذا الجامع أي في عام (١٨٩٤/١٣١١هـ) وبوشر التدريس فيها بعد الانتهاء من أعمال البناء والإحداث عام (١٨٩٨م/١٣١٥هـ)^{٥٩٩} وكانت تقع هذه المدرسة ملاحقة من مصلى في الجهة الشرقية من بناء الجامع، وكانت عبارة عن غرفة واحدة كبيرة، وقد خصص لتدريس الصبيان حيث لم يذكر فيها خلال العهد العثماني التحاق الفتيات للمتعلمين وقد كانت تقسم هذه الغرفة إلى ثلاث غرف صفية صغيرة لتدرس كل منها مستوى تعليمي أو أكثر فكانت هذه المدرسة مدرسة على مستوى تعليم ابتدائي وفق نظام التعليم العثماني وفي عام (١٩٢٨م/١٣٤٦هـ) قامت سلطات الاحتلال الفرنسي بعزل المدرسة عن فناء الجامع فجعلت المسجد (المصلى) معزولاً عنها بسور يفصل بين المدرسة والمصلى^{٦٠٠} - والغاية واضحة هي أبعاد التعليم عن الرابط الديني - فبقيت المدرسة

⁵⁹⁷ المكتب السلطاني (المدارس السلطانية) : وهي آخر تطور لهيكل التعليم في الدولة العثمانية وتمثل في ظهور تنظيم جديد للمدارس، حيث جعلت مدة الدراسة اثنتي عشرة سنة الخمسة الأولى منها ابتدائية، وسبعة الثانوية وهي تقسم إلى مرحلتين أ - الرشدية ومدة الدراسة فيها ثلاث سنوات (٦-٨) ب - الإعدادية (٩-١٢) وتعادل اليوم الثانوية العامة، أنظر: حلاق؛ محمد - الجندي، نزيه: تاريخ التربية، دمشق، جامعة دمشق، ط ٣، ٢٠٠٣ ص ٢٤٦.

⁵⁹⁸ سالنامه الدولة العثمانية العليا، عام (١٣٢٦هـ/١٩٠٨م)، ص ٩٧٢، أنظر: وثيقة إدارية عثمانية، صادرة عن مكتبة الإعدادي في قرية دير الزور عام (١٩١٧م/١٣٣٥هـ)، شهادة تعليم إعدادي (وتعداد الثانوية اليوم)، من الوثائق الشخصية للقاضي محمد توفيق الفوش.

⁵⁹⁹ الغنزي: نهر الذهب ج ٣ ص ٣٧٨

⁶⁰⁰ سويحة وعلي: الجامع الحميدي بالرافعة، مقالة غير مطبوعة، الرقة، (٢٠٠٥م)

في نفس موقعها من الجهة الشرقية للجامع، ولكن خارج أسواره، وجعلتها مختلطة للصبيان والبنات.

وحتى هذه المرحلة من كان يرغب بمتابعة تعليمه في الرقة والجزيرة بمستويات تعليمية أعلى من الابتدائية فإنه كان يتوجه إلى دير الزور وهذا يقتصر على الميسورين الحال الذي يمكنهم تغطية نفقات دراسة أبنائهم عند إرسالهم إلى دير الزور.

أما في الجزيرة فكانت توجد مدرسة في رأس العين (التابعة للحسكة اليوم) وأخرى في البليخ (التابعة للرقة اليوم) وقد كانت هاتين المدرستين قد بنيتا في بدايات القرن العشرين، وقد جعلت في نفس بناء جامع رأس العين وقد كانت غرفة واحدة ملاصقة للمسجد، ويتم فيها تدريس أكثر من مستوى تعليمي من قبل أستاذ واحد يعتبر هو المشرف على العملية التربوية في مدرسة رأس العين (أي بمثابة مدير ومعلم..الخ).^{٦٠١}

المدارس النظامية (خلال العهد الفيصلي، والاحتلال الإنكليزي) :

كانت هذه الفترة قصيرة وامتدت من أواخر (١٩١٨م/١٣٣٦هـ) حتى منتصف عام (١٩٢٠م/١٣٣٨هـ) وخلالها شهدت المنطقة مجموعة من المتغيرات السياسية نتج عنها حالة من عدم الاستقرار والفوضى وبالتالي لم تكن تسمح الأوضاع السياسية بدخول الاحتلال الإنكليزي وقيام حكومة وتشكيل مقاومة شعبية وقيام عمليات كفاح مسلح على شكل معارك متلاحقة، وحتى بعد طرد القوات الإنكليزية وعودة الحكم الشعبي، وبعدها دخلت منطقة الفرات والجزيرة ضمن الحكم الفيصلي فكانت فترة قصيرة جداً عمت الفوضى بعدها ولم يكن هنالك متسع أو مجال في تطوير وبناء القاعدة التطويرية ولكن نستطيع ذكر حالة واحدة فيما أنجزته الحكومة العربية الفيصلية عام (١٩١٩م/١٣٣٧هـ) وهي اتخاذها قرار باعتماد اللغة العربية لغة رسمية للدولة وذلك يعود لسببين أولهما ملاحظة تدهور اللغة العربية في بلاد الشام عامة، والثاني هو ازدياد عدد المصطلحات والألفاظ الأعجمية الدخيلة، وهذا أهم قرار كان يتعلق في مجال التربية والتعليم ليس في الجزيرة والفرات فحسب بل في سورية وبلاد الشام عامة، لكن هذا القرار لم يأخذ مفعوله الحقيقي لفترة طويلة بل سرعان ما انتهى نتيجة دخول الاحتلال الفرنسي.^{٦٠٢}

⁶⁰¹ قنبر، توفيق: تطور التعليم ، ص ٢٦٠

⁶⁰² مجلة افاق، عدد ١١، تاريخ (١٤/١٢/٢٠٠٢م)، ص ٨.

* المدارس النظامية خلال فترة الاحتلال الفرنسي:

لقد استمرت المدارس النظامية التي درسناها سابقاً وكانت مفتوحة خلال فترة الاحتلال العثماني لمنطقة الفرات والجزيرة واستمر التعليم والتدريس فيها ولكن وفق نظام التعليم الفرنسي، حيث قامت سلطات الاحتلال الفرنسي بتغيير المناهج خلال فترة سريعة بعد دخولها على المنطقة، حيث تم إدخال المناهج الفرنسية التي كانت معتمدة في المستعمرات الفرنسية بالولايات العربية مما سهل وسرع في عملية القلب لأنظمة التعليم حيث لم تتطلب العملية سوى استبدال للمناهج وأنظمة التعليم، معتمدة على التركيز بشكل كبير على اللغة الفرنسية.

حتى أنها قد أدخلتها كمادة رئيسية اعتباراً من الصف الأول بل وجعلتها محورا" في العملية التعليمية عندما استخدمتها في بعض المواد وخاصة" العلمية منها بل وجعلتها ركيزة رئيسية في التعليم بحيث يلزم كل من يرغب بالدراسة والاستمرار بها على إتقان اللغة الفرنسية فأعطتها الأهمية الكبرى بالنجاح. فعليها يتوقف ترفع الطالب ونجاحه من أي صف آخر. بل وحولتها في أول شهادة تعليمية وهي (السرتفিকা) وهي الابتدائية إلى المادة الرئيسية للنجاح شفوياً" وتحريراً" وذلك بغية فرصاً" بشكل ملزم للمتعلم فلم تجعل أي لغة أخرى معادلة لها ذلك لإبقاء العملية التربوية تحت إشرافها أما في جانب التوسع بالتعليم وتطوير قاعدتها المدرسية بزيادة أعداد المدرسين والمدارس كما" ونوعاً"

فإنها كانت تتقدم بالعملية التربوية خطوة" خطوة ببطء ،سواء على مستوى تطور وزيادة المدارس أو على صعيد المناهج أو طرائق التدريس ونوعية المدرسين....الخ

لذلك فإن المدارس التي تم إنشائها خلال فترة الاحتلال الفرنسي في منطقة الفرات والجزيرة كانت قليلة وهذه دراسة للعملية التربوية فيها حسب تطورها في مدن المنطقة فقد أقامت سلطات الاحتلال بعد دخولها إلى دير الزور فوراً" على وضع حجر الأساس للتوسع بمدرسة المكتب السلطاني والذي كان خلال الفترة العثمانية هو المدرسة الإعدادية والثانوية الوحيدة في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة عامة ،وقد باشرت في كانون الأول عام (١٩٢٠م/١٣٣٨ هـ) في البدء بالمشروع التوسع ،الأ أنها نتيجة عدم استقرارها الأمني بدير الزور إلا بعد فترة بسيطة من الزمن لم تستطع أن تنجز المشروع بسرعة لذلك فقد تأخر انجاز وافتتاح هذه المدرسة مدة أربع سنوات حيث تم الانتهاء من أعمال البناء وافتتاح الثانوية بشكل رسمي

في عام (١٩٢٤م/١٣٤٢هـ) وصارت تعرف باسم مدرسة تجهيز الفرات وهي نفسها

(ثانوية الفرات) وقد كانت تضم المرحلتين الإعدادية والثانوية وتضم المرحلتين الإعدادية والثانوية وتضم الصفوف من (٦-١٢) أي من الصف السادس حتى البكالوريا، وكانت تقسم الى مرحلتين تعليميتين الأولى وهي مرحلة التجهيز وتضم الصفوف

التعليمية من (٦-٩) أي من الصف السادس حتى التاسع وهي مرحلة أعلى من (السرتفিকা) سابقاً حتى شهادة الصف الخامس أما المرحلة الثانية التي كانت في تجهيز الفرات فهي الثانوية وتضم الصفوف التعليمية (١٠-١٢) أي من الصف العاشر حتى شهادة البكالوريا وتعتبر هذه المدرسة واحدة من الثانويات العريقة ليس على مستوى الفرات والجزيرة فحسب كونها كانت الوحيدة بل وعلى مستوى القطر العربي السوري

أما بالنسبة لإحداث المدارس الابتدائية قد قامت بإحداث مدرسة ابتدائية رسمية في دير الزور بمحلة علي بيك توسعا" لمدرسة فيض مشروطية السابقة وذلك في عام (١٩٢١م/١٣٤١هـ) ثم أنشأت مدرسة ابتدائية أخرى للإناث وذلك في عام (١٩٢٢م/١٣٤٠هـ) وبعدها فوراً قامت بإنشاء مدرسة أخرى في أطراف حي أبي عابد بدير الزور وذلك في عام (١٩٢٢م/١٣٤٠هـ) وهي مجاورة للمدرسة السابقة ولكن للذكور فقط وقد سميت هاتين المدرستين باسم مدرسة الزهراء وقد كان إنشاء مدرسة الزهراء للذكور فقط في عام (١٩٢٣م/١٣٤١هـ) أعقبها بناء حضانة للتعليم ما قبل الابتدائي وكانت هذه ظاهرة سبابة في التعليم على مستوى الفرات والجزيرة بل والقطر وذلك في عام (١٩٣٠م/١٣٤٨هـ) وأطلقت عليها اسم حضانة نجمة الصبح فكانت الحضانة الأولى بدير الزور والفرات الأوسط، ثم أحدثت مدرسة ابتدائية رسمية أخرى للذكور في محلة الحميدية وأنشأت مدرسة أخرى للإناث معها في نفس الحي وقد افتتحت هاتان المدرستان بشكل رسمي في عام (١٩٣١م/١٣٤٩هـ) كما قامت بإنشاء مدرسة إعدادية للإناث في نفس المحلة (الحميدية) وتضم الصفوف من (٦-٩) وكانت هي المدرسة الإعدادية الأولى على مستوى منطقة الفرات والجزيرة خاصة بالفتيات وتم إحداثها عام (١٩٣١م/١٣٤٩هـ)

كما أحدثت مدارس خاصة بالكنائس المسيحية الموجودة في دير الزور وقد كانت مدرستين الأولى افتتحها في كنيسة الأرمن والثانية هي مدرسة خاصة في كنيسة السريان (الكلدان)، في محلة الرشدية وجعلت فيها صفوف من (١-٥) وهي تقع ضمن بناء الكنيسة وكان يسمح لها بتدريس بعض مواد اللغات الأخرى الإضافية ومواد اللاهوت الدينية

والتبشيرية ، وكان افتتاح هاتين المدرستين في عام (١٩٣٢م/١٣٥٠هـ)، ثم بنيت مدرسة خولة بنت الأزور وعدة مدارس أخرى في النواحي والأقضية^{٦٠٣} أما عملية التربية والتعليم وإحداث المدارس في الرقة خلال العهد الفرنسي فانها لم تحضى بذلك الاهتمام الكبير (الرقة والجزيرة) فكانت المدارس المفتحة فيها قليلة بل وبعضها كان بجهود فردية لبعض أبناء المنطقة مثل المدرسة الأهلية التي أفتتت في قلب مدينة الرقة في عام (١٩٢٨م/١٣٤٦هـ)، فقد وافقت على افتتاحها سلطات الاحتلال الفرنسي بعد جهود شخصية من قبل أحد أبناء الرقة وهو حسين العليمان، وقد كانت للمرحلة الابتدائية فقط ولعل أشهر طلاب هذه المدرسة نذكر منهم الدكتور عبد السلام العجيلي، والأديب والشاعر فيصل البليبل، والمؤرخ مصطفى الحسون،...الخ.

أما المدرسة الثانية فقد سبق وأن تحدثنا عنها وهي مدرسة الجامع الحميدي التي كانت موجودة منذ العهد العثماني ولم يفعل بها الاحتلال الفرنسي سوى أن فصل بينها وبين الجامع بجدار وأخضعها لنظام مدارس التعليم الابتدائي وذلك في عام (١٩٢٨م/١٣٤٦هـ) قدم فيها تطور آخر بعد عام (١٩٣٠م/١٣٤٨هـ) بأن جعلها للصبيان والفتيات، كما أنشأ مدرسة أخرى في الرقة هي مدرسة العشائر وجعلتها مدرسة داخلية للطلاب حيث كانت تقدم فيها الإقامة والطعام والشراب للدارسين وجعلتها لأبناء القرى والبدو الذين يرغبون بالتعليم وضمت من أبناء مدينة الرقة ولكن دون إقامة وقد كانت مدرسة فرنسية في كل جوانبها من تربية وتعليم، كما قامت بإنشاء مدرسة أخرى ابتدائية في الرقة وجعلتها مكان السجن القديم خلف السرايا^{٦٠٤}.

كما افتتحت مدرسة خاصة في كنيسة الأرمن بالرقة وذلك خلال عهد العشرينات، وكانت مدرسة للمرحلة الابتدائية من الصف الأول حتى الخامس (السرتفيكا) وقد كانت تدرس م ناهج تبشيرية للدين المسيحي إضافة إلى المواد التعليمية ومركزها في بناء كنيسة الأرمن، كما بنت مدرسة أخرى هي المدرسة الرشد خلال الثلاثينات من هذا القرن أما في الجزيرة فقد توسعت مدرسة رأس العين وحولتها خارج المسجد وذلك في عام (١٩٢٦م/١٣٤٤هـ) وجعلتها تدرس في المناهج الابتدائية والنظامية وابت نفس القائمين عليها سابقاً معلمين في المدرسة وفي عام (١٩٣٠م/١٣٤٨هـ) قامت بافتتاح أول مدرسة

⁶⁰³ حسني؛ حسن: محمد رئيس الخالدي، ص ٣١-٣٢.

⁶⁰⁴ سويحة؛ علي: تاريخ الحركة التعليمية في الرقة خلال ثلاثة عصور، مخطوطة غير مطبوعة ، دراسة ميدانية ووثائقية، الرقة، عام ٢٠٠٧م، ص ٦.

في الحسكة في بيت مستأجر مؤلف من خمس غرف كانت أول مدرسة ابتدائية في الحسكة وسمتها عكاظ وقد كانت مهمة ومستوى التعليم فيها متدني وكان يشرف عليها أستاذ واحد متبع نظام الصفوف المجمع ولم تفتح مدرسة نظامية غير مستأجرة في الحسكة لأول مرة إلا في عام (١٩٤٢م/١٣٦٠هـ) وكانت تقع شرق المدرسة القديمة المستأجرة وأطلقت عليها اسم مدرسة (عكاظ شرقي) وكانت مختلطة هي مدرسة ابتدائية نظامية تضم الصفوف من (١-٥) السرتفياكا وغذتها ببعض المعلمين من أبناء المنطقة الذين تعلموا في دير الزور.

وذلك افتتحت مدرسة ابتدائية في القامشلي خلال عقد الثلاثينات من القرن العشرين وكانت قد بنيت في وسط مدينة القامشلي في قلب مركز المدينة الحالي، وهي تضم الصفوف من (١-٥) أي (سرتفياكا) وهي للذكور والإناث ونلاحظ مما سبق ضعف وقلة الاهتمام بالعملية التربوية في الرقة والحسكة ورأس العين والقامشلي خلال مرحلة الاحتلال الفرنسية أما بالنسبة للميادين فقد تم افتتاح مدرسة ابتدائية واحدة في أواخر الثلاثينات في كل منهما وكانت في مركز مدينة الميادين، وقد كانت تضم الصفوف من (١-٥) وكانت مختلطة، ولعل أشهر من درس فيها كانت الشيخ مشوح وكان موقعها في وسط بلدة الميادين، أما في البوكمال فقد تم افتتاح مدرسة ابتدائية أخرى وذلك في بداية الثلاثينات وقد ترك التعليم فيها على يد بعض أبناء المنطقة من رجال الدين ومعلمي الكتاتيب وأشهرهم الملا محمد الخرسا، وقد توسعت هذه المدرسة في أواخر العهد الفرنسي وصارت للصبيان والفتيات، أما من كان يرغب بمتابعة تعليمه من أبناء وبنات الميادين والبوكمال يتوجه إلى دير الزور.

- مناهج التدريس :

إن مرحلة دراستنا تمتد على فترتين عاشت خلالهما المنطقة في المرحلة الأولى تمت سلطة الاحتلال العثماني وخلالهما كانت المناهج تتركز وفق سياسة التتريك على مواد رئيسية وأهمها اللغة التركية (قراءة وكتابة)، علوم الدين الإسلامي (قرآن، فقه، حديث) تاريخ عثماني، الرياضيات، ومواد فرعية مثل اللغة العبرية واللغة الفارسية، والفلسفة، والجغرافية..الخ.

أما المرحلة الثانية فهي خلال فترة الاحتلال الفرنسي وقد اعتمدت فيها على المناهج التي تركز على تعليم اللغة الفرنسية، والمواد العلمية كالرياضيات، والعلوم، وكتب المنطق، والفلسفة، والمواد الأدبية^{٦٠٥}.

ومن هنا نفهم أن الاستعمار مهما كان نوعه ومظهره في بلادنا كان يسعى بكل وسيلة ظاهرة أو خفية لإطفاء جذوة الرقي والتقدم المؤسس على الدعائم العلمية والثقافية فالأتراك قد اتخذوا سياسة بعث الجهل وانتشاره للقضاء على كل مقاومة يذكيها العلم في نفوس أبناء البلاد العربية لأبعادهم عنها، فلم يتركوا البلاد ألا وهي فريسة الجهل المطبق، وأما الفرنسيون والإنكليز والطلين والدول الأوربية الأخرى فإنهم حاولوا أن يتركوا آثاراً سيئة في تراثنا وثقافتنا العبرية فضعافها وانتزاعها منا وأبعادها عنا ليتسنى لهم أن يكيفوا عواطفنا وجوارحنا وفق ما يريدون ليجعلوا منا لعبة بشرية.

يتصرفون بها كيفما يشاؤون، ولكن بزوغ فجر الاستقلال في سورية (سنة ١٩٤٦م - ١٣٦٥هـ) خيب كل أمل لهم.

- المدرسون :

المدرس هو جزء هام في العملية التربوية وبنجاحه يجعل من الطلاب المقربين منه ويساعدهم على محبة المادة من خلال قربه منهم ومحبتهم له فهو المربي الفاضل الذي ينظر إليه الطالب كمثال أعلى لذلك فإن المدرسين الأوائل الذين قاموا بتأسيس الحركة التربوية الأولى للتعليم في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة كانت انطلاقتهم الأولى من مدارس دير الزور ومعظمهم من أبنائها حيث اعتمدت الدولة على مدرسين رسميين من أبناء المنطقة والأتراك وأن هنالك كثير من الملالي في من منطقة الفرات والجزيرة قد أصبحوا مدرسين في المدارس الحكومية منذ العهد التركي وذلك لسد الفراغ الذي يتطلب معلمين قادرين على التدريس نظراً لاجتياح هذا العهد إلى من يستطيع القيام بهذه الوظيفة فقد دخل في سلك التعليم بدير الزور، والرقعة، ورأس العين، كل من كان له تمكن في اللغة العربية، وقدرة على تدريس موادها الأولية واستمر الحال على كل من كان له تمكن باللغة

⁶⁰⁵ من خلال الشهادات التي كان يحصل عليها الدارسين نستطيع تحديد المواد التدريسية التي كانت تدخل في المناهج التعليمية، أنظر: وثيقة إدارية، شهادة التعليم الابتدائية العثمانية، صادرة عن إدارة متصرفية دير الزور، عام (١٩٠٤م/١٣٢٢هـ - ٩٤ من الوثائق الشخصية للقاضي محمد توفيق الفنوش. وأنظر:

العربية، وقدرة على تدريس موادها الأولية واستمر الحال على ما هو عليه في مرحلة الاحتلال الفرنسي فإنها لم تستطع أن تغير من هذا النظام المتبع في الاعتماد على المدرسين من أبناء المنطقة (المدرسين الرسميين) أو بعض رجال الدين أو الملاي الذين كانوا يدرسون خلال العهد العثماني، ولكن إضافة لهذا فإنها قامت بتعيين أعداد من الأساتذة من المدن السورية الأخرى، أما مرتبات و أجور هؤلاء المدرسين فقد كانت تعتمد في المرحلة العثمانية على شقين نصفها الأول كمرتبات مخصصة من الدولة أما نصفها الثاني فهو يعتمد على واردات رسوم التسجيل في المدرسة وإن كانت بسيطة.

وأخيراً نذكر أبرز المدرسين الذين عملوا في التعليم بمنطقة الفرات والجزيرة سواء من المدرسين المتخصصين أو رجال الدين أو الملاي الذين كانوا يعملون في الكتاتيب ثم تحولوا على معلمين، ومنهم من كان قد حصل على شهادات تعليمية تؤهله بالقيام بالتدريس أمثال الأستاذ حسن زيتون، وعبد الله الدويلي، وزكلي المدلجي، ونجم الدين المدلجي، ومحمد الفراتي.. الخ كما اعتمدت على بعض رجال الدين المؤهلين بشهاداتهم وعلوم تؤهلهم للتدريس في تلك المدرسة الحكومية نذكر منهم الشيخ حسين الأزهرين، والشيخ محمد سيعد العرفي وفي منطقة الفرات نذكر منهم الشيخ الحجرة، وكان مديراً وأستاذاً للمدرسة الرشدية في الرقة، والحافظ شيخ الريجي ، وحسين البليل، والشيخ سليمان الراشدي، وسيد البيبي الظاهري⁶⁰⁶:

وأخيراً نقول إن الأسماء التي ساهمت في نشاط الحركة الفكرية في مجال التربية والتعليم خلال فترة الاحتلال العثماني (في آخر عهده) والاحتلال الإنكليزي والفرنسي (١٩٠٩-١٩٤٦م/١٣٢٧-١٣٦٩هـ) في لواء الفرات والجزيرة هي كثيرة وأسماء مجموعة كبيرة من المدرسين والمعلمين الذين تركوا بصماتهم واضحة في هذا الميدان، ولا يسعني سوى أن نكتفي بما قدمناه من دراسة تاريخية هي الأسبق من نوعها على صعيد الدراسات الأكاديمية.

⁶⁰⁶ للمزيد أنظر إلى مجموع الوثائق والمصادر والمراجع التي ذكرناها في الفقرة (٧) المدارس من خلال التحليل والتركيب استطعنا تركيب هذه الصورة المتكاملة عن هذه المجموعة الكبيرة من المعلمين الذين أسهموا في بناء القاعدة الرئيسية للتربية والتعليم في التاريخ الحديث والمعاصر ليتروا بصماتهم واضحة على منطقة الفرات الأوسط والجزيرة.

الخاتمة و نتائج البحث :

نستنتج مما سبق لدراسة عوامل وازدهار ومقومات الحياة الفكرية في لواء الفرات والجزيرة أن هناك أثراً واضحاً لواقع المتغيرات السياسية التي شهدتها المنطقة مع نهايات عهد الاحتلال العثماني، وفترة الاحتلال الإنكليزي، والحكومة العربية والاحتلال الفرنسي، فقد كانت المنطقة تعيش بحالة من العزلة والإهمال من قبل الدولة العثمانية والتي أخذت تهتم فيها منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فسارعت إلى إحداث تغيرات سياسية كان لها أثر سياسي في تغيرات هذه المنطقة ولكن في نفس الوقت أسهم في إحداث تغيرات اجتماعية واقتصادية..الخ، ولكن في النهاية كلها كان لها دورها في التأثير على الحياة الفكرية في المنطقة ولكن وبمنظرة سريعة على تلك العوامل والمقومات للحياة الفكرية التي لعبت دوراً في تاريخ المنطقة منذ أواخر العهد العثماني وحتى في فترة الاحتلال الفرنسي إلى الاستقلال كانت مجموعة متغيرات لها نتائج كثيرة يمكن تلخيصها بما يلي:

أولاً: كان الإرث الثقافي التي تختزنه منطقة الفرات والجزيرة عاملاً هاماً أسهم في ازدهار الحياة الفكرية فكانت الدخيرة التي يستخدمها المفكرين والمقاومين الوطنيين فكرهم ضد أي محاولة لمحو قوميتهم فكان هذا الإرث الثقافي بمثابة الهوية التي حافظت على هوية وازدهار الحياة الفكرية في المنطقة.

ثانياً: لعبت الكتابات دوراً في تعليم الأجيال الناشئة لمنطقة الفرات الأوسط والجزيرة منذ القديم واستمرت بدورها حتى نهايات فترة الاحتلال الفرنسي بعد أن لعبت النوادي والجمعيات الثقافية والفكرية والسياسية دوراً بارزاً كأحدى مقومات الحياة الفكرية المتقاربة فكان دعامة جديدة ظهرت في المنطقة لدعم الحياة الفكرية فكانت إحدى مقوماتها البارزة وخير دليل مجموعة الأسماء التي قدنا لها دراسة سابقة من المفكرين والعلماء الذين برزوا من هذه النوادي والجمعيات.

ثالثاً: أسهمت الصحف والمجلات المحلية التي أسست في المنطقة بدور هام ساعد على نشر الأفكار التي كان يتبعها أبناء الفرات والجزيرة فشكلت تلك الصحف إحدى مقومات الحياة الفكرية أو منبراً لهؤلاء المفكرين.

رابعاً: أسهمت المكتبات وأسواق الكتب والمؤلفات العلمية التي كان يقدمها أبناء الفرات والجزيرة بدور داعم في الحياة الفكرية للمنطقة نتج عنها ازدياد أعداد المفكرين الباحثين والشعراء والأدباء...، وزيادة نتاجهم العلمي فأسهمت تلك المتطلبات الفكرية الجديدة لوجود مطابع لطباعة تلك النتاجات لكي تتداول في الأسواق وتصل تلك الأفكار للناس.

خامساً: أما أهم دعائم ومقومات الحياة الفكرية من وجهة نظرنا فهي المدارس النظامية والتي كانت من قلة وضعف في توزيعها الجغرافي و مناهجها المسييسة وافتقارها للمدرسين ورغم ذلك فقد كانت تلك المدارس إحدى المقومات الهامة في الحياة الفكرية في المنطقة لكون أي مفكر وأي مبدع في مجال الحياة الفكرية يجب أن يكون متعلماً، كما أسهمت تلك المدارس ورغم بساطة الإمكانيات و الصعوبات التي كانت تواجهها بدور بارز في النضال السياسي والوطني كما برز منها مجموعة كبيرة من الطلاب الذين كانوا دعامة للمجتمع المحلي وعلى مستوى القطر حتى أن بعضهم برز على الصعيد العربي والعالمي.....

سادساً: وصول أقليات بشرية (كالأتراك، والتركمان، والشركس، والأكراد...الخ) إلى المنطقة الفرات الأوسط و الجزيرة بالإضافة إلى بعض المهاجرين الذين استقروا فيها من المذاهب والديانات الأخرى ك اليهود، والأرمن والسريان..الخ، وتقبل السكان المحليين العيش مع هذه المجموعات والاختلاط لهم بعد أن كان مجتمع الفرات والجزيرة مغلقاً على نفسه وأبنائه لا يتقبلون التعايش والتمازج مع أي ا لمجموعات البشرية من خارج مجتمعهم وهذا تغيير فكري كان هو النتيجة الأبرز والأهم.

سابعاً: هذه المتغيرات السياسية أثرت في الوضع الاجتماعي والتوزيع الديموغرافي للسكان في الفرات الأوسط والجزيرة حيث كانت تزداد أعدادهم في بعض السنوات بنسب تفوق التصورات فتصل أحياناً إلى نسبة (٢٥-٣٥%) أي أنها تصل إلى ثلث تعدادهم في بعض الأحيان وهذا نتيجة لوصول تلك الهجرات والوافدين الجدد الذين قدموا ومعهم إرثهم الثقافي وبالتالي كانت النتيجة الأبرز لانتقال هذا الإرث بتأثيرات مباشرة أو غير مباشرة فكرياً لأبناء الفرات والجزيرة.

ثامناً : أما على الصعيد الاقتصادي فقد شهد نشاط فكري اقتصادي خاص وأن الحالة الأمنية قد ساعدت على تقدم التجارة في المنطقة ولعبت طرق المواصلات وأهمية الموقع الاستراتيجي لمنطقة الفرات الأوسط والجزيرة دوراً في مرور المسافرين والقوافل التجارية بما تحمل من ميزات وبضائع في المنطقة وبالتالي أسهمت هذه الحركة التجارية وطرق المواصلات بشكل مباشر في التغيرات الفكرية بالمنطقة وساعدت على توليد أفكار اقتصادية جديدة لأبناء المنطقة وفي جانب الصناعة والحرف المحلية أو استثمار ثروات الباطنية أو حتى على صعيد واقع العمل التجاري، فلم تكن الخانات التي عمدت بها مدن الفرات الأوسط مجرد مكان للإقامة بل كانت تؤدي مهاماً كثيرة كعقد صفقات تجارية فيه وتبادل الأفكار الثقافية والنشاطات الفكرية التي كان يحملها معهم هؤلاء التجار.

تاسعاً : نتيجة لهذه المتغيرات السابقة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فقد برزت لدينا أفكار جديدة لدى علماء ومفكري الفرات والجزيرة خلال هذه المرحلة التاريخية التي أسهمت بدور فاعل في الحياة الفكرية فكان لهم الدور الرئيسي كإحدى عوامل ازدهار الحياة الفكرية.

عاشراً : لعبت اللغة العربية دوراً فكرياً هاماً أسهم في الحفاظ على هوية المجتمع في الفرات الأوسط والجزيرة أمام كل المحاولات التي قامت بها سلطات الاحتلال سواء في سياسة التتريك أو الفرنسية.

الفصل الرابع

منعكسات الحياة الفكرية على الواقع السياسي في
لواء الفرات والجزيرة
١٩٠٩-١٩١٨م/١٣٢٧-١٣٣٦هـ)

مخطط الفصل الرابع:

أولاً: تمهيد.

ثانياً: المقاومة الوطنية ضد الاحتلال العثماني (١٩٠٩-١٩١٨م) في منطقة الفرات والجزيرة.

ثالثاً: المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الإنكليزي (١٩١٩م/١٣٣٧هـ)

رابعاً: المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الفرنسي (١٩٢٠م-١٩٤٦م).

١ - الكفاح السياسي.

٢ - الثورات والكفاح المسلح في منطقة الفرات والجزيرة (١٩٢٠-١٩٤٦م).

٣ - اللحمة الوطنية وتعاون الثوار في منطقة الفرات والجزيرة مع باقي الثورات الوطنية.

خامساً: الخاتمة.

أولاً: تمهيد:

عاشت منطقة الفرات والجزيرة السورية فترة عصيبة من الزمن، ونعني بها الفترة التي دخلت بها بريطانيا وفرنسا منطقتنا، ومارست هاتان الدولتان شتى أنواع الظلم والاستبداد، وأشعلت نار الفتن بين القبائل والعشائر العربية.

وقد انعكست هذه الممارسات على الجماهير، واختلفت ردود الفعل، فعمّت المظاهرات الجماهيرية شتى مناطق الفرات والجزيرة، وكانت تتحول هذه المظاهرات أحياناً إلى ما يشبه المعارك الصغيرة عندما تتدخل القوات الغازية وتستعمل نيرانها لإسكات المظاهرات، وبذلك يسقط في ساحات هذه المظاهرات بعض الشهداء والكثير من الجرحى.

إلا أن هذه المظاهرات والمعارك الصغيرة سرعان ما تحولت إلى ثورات ومعارك كبيرة، كانت نتیجتها وخيمة على المستعمر الغاشم. فالقرارات التي كانت تصدرها الحكومة الغاصبة، كانت تشعل نار الثورات، منها قرارات بسجن أو إعدام أو ضم منطقة إلى أخرى أو فصل منطقة عن منطقة، كفصل الجزيرة عن سورية وجعلها تحت الانتداب البريطاني.

إن هذه القرارات جعلت العشائر العربية تتكاتف لطرد هذا الحاكم الأجنبي، وبرزت وجوه وطنية مازلنا نذكر أسماءهم حتى يومنا هذا.

والصفحات القادمة ستبرز هذه الوقائع، وسنتعرف على أبرز رجالات هذه المنطقة الوطنيين، الذين كانوا وراء خروج المستعمر من أراضينا. وسنتعرف على أبرز الثورات التي قامت في منطقة الفرات والجزيرة بمواقعها الصغيرة والكبيرة، من البوكمال إلى القامشلي وصولاً إلى الرقة، حتى مركز الفرات والجزيرة ونعني دير الزور.

كما سنتعرف على بعض الجمعيات والمنشآت التي نهضت بفعل الثورات، وكان لها الأثر البالغ في حثّ المواطنين على طرد المستعمر للوصول إلى الاستقلال.

ثانياً: المقاومة الوطنية في منطقة الفرات والجزيرة ضد الاحتلال العثماني (١٩٠٩-١٩١٨م/١٣٢٧-١٣٣٦هـ):

تعدّ فترة نهاية السلطان عبد الحميد (١٩٠٩م/١٣٢٧هـ) مرحلة البداية لبحثنا هذا، إذ عاش العرب خلال عهد السلطان عبد الحميد على وجه العموم مرحلة نمو بطيء بالنسبة لفكرة القومية التي عبّرت عن نفسها من خلال مرحلتين: الأولى عند بدء حكمه، وتمثّل ذلك من خلال جمعية بيروت السرية، والثانية في أواخر حكمه، وتمثّلت في ظهور الجمعيات السياسية.

فعلى الرغم من شدة سياسة عبد الحميد، إلّا أنها لم تستطع منع انتشار التحرر، والحكومة المسؤولة ونظام الأحزاب، وحرية التعبير بين الشعب، كما أنها لم تقدر على منع تطور الصحافة باللغة العربية، على الرغم من منعها من الطبع بالتصريح لما تريد كتابته، ولكنها رفعت مستوى التفكير والفهم السياسيين وعملت كقوى فكرية موحدة.

ظهرت في أواخر عهد السلطان عبد الحميد حركتان متعارضتان تعمل أحدهما على الحدّ من سلطاته كخطوة أولية لإعادة بعث الإمبراطورية، وهو برنامج جمعية تركية الفتاة^(٦٠٧)، أمّا الحركة الثانية فقد اقتصرّت على البلاد العربية تطمح بالاستقلال الذاتي ضمن الامبراطورية العثمانية كخطوة أولية نحو الاستقلال التام بعد ذلك، ولهذا هلّل الكثير من العرب بالانقلاب ضد عبد الحميد، إلّا أنهم اصطدموا بسياسة الاتحاد والترقي التي صارت تسيّس الدولة العثمانية التي دخلت بعداء ضد العرب نتيجة سياستها، وخاصة تدعيم سياسة القومية التركية (الترتيك)، واضطهاد العرب وملاحقة الأحرار منهم، وفرض سياسة التجنيد، وسوء معاملة رعاياها من العرب وغيرها من الأمور التي أدّت إلى تحوّل العرب نحو اتجاه عربي خالص يناور الفكرة القومية التركية الطورانية فظهرت ردود الأفعال، ومنها ماهي شعبية على شكل مظاهرات أو ثورات شعبية، ومنها ما هي على شكل مقاومة مسلحة^(٦٠٨).

لم تكن منطقة الفرات والجزيرة السورية تعيش بمنأى عن تلك الأحداث، وقد تمثّل ذلك من خلال حركات الثورة والمقاومة التي ظهرت بالمنطقة، والتي سوف نقدم دراسة عنها خلال المرحلة التي عُنينا بدراستها منذ عام (١٩٠٩م/١٣٢٧هـ) حتى نهاية الحكم العثماني في المنطقة عام (١٩١٨م/١٣٣٦هـ)، إذ رأى العرب خلالها المشانق

607 - لقد انتظم أفرادها فيما بعد بجمعية الاتحاد والترقي.

608 - رافق؛ عبد الكريم: المشرق العربي، ص ٣٧٩-٣٨١

تتنصب لأبنائهم، وتكمّم الأفواه وتُسلب الحريات، لذلك فقد عارض أبناء الفرات والجزيرة سياسة التتريك الجائرة هذه، فظهرت كثير من الاحتجاجات والمظاهرات من خلال حركة المقاومة الشعبية.

فعندما ازداد البطش التركي بأبناء الفرات والجزيرة ولّد هذا الضغط انفجاراً للمقاومة الوطنية العفوية تجسّدت بحركة شعبية قامت بالمنطقة تحديداً بدير الزور ثورة شعبية كان السبب في إطلاق شرارتها الأولى عندما طلبت قوات الدرك العثمانية أحد المواطنين بسوقه إلى الحرب وبلغت عائلته بأنه مطلوب تسليمه بسرعة خلال أربع وعشرين ساعة إلى قوات الجنرال التركية، وإذا لم يسلم نفسه فإن جميع أفراد عائلته ستفرض بحقهم عقوبات وغرامات جزائية ومالية، فكانت المهلة التي منحت لهذه العائلة قصيرة جداً لا تساعد على أن تستدعي ابنها من الريف لكي تسلمه، وعند انتهاء المهلة قامت قوات الدرك العثمانية بأخذ أفراد أسرته رجالاً ونساءً وقامت بطحهم أرضاً في الساحة، معرّضة إياهم للضرب المبرح دون رحمة أو شفقة، فكانت أياماً سوداء عاشتها المدينة تعرّض فيها أحد أبنائها للشنق لأنه قاوم سلطات الاحتلال. هذه الأحداث أثارت حفيظة أبناء هذه المنطقة فتار أهلها وقام مجموعة من أبنائها بمهاجمة القوات العثمانية، واستغل بعض الرجال تلك الأوضاع فقاموا بكسر باب مخزن المؤونة، وقاموا بخلط أكياس الطحين بالجص الأبيض ممّا أدى إلى وفاة بعض جنود الأتراك، فاستدعى المتصرف التركي قوات الحامية العثمانية الموجودة في القشلة العسكرية (التكنات العسكرية) إضافة إلى قوات الدرك و الطابعية وشن حملة على أبناء المدينة فسجنت عدداً كبيراً منهم في السجون وفرض الغرامات المالية عليهم.^(٦٠٩)

لقد عبّر أبناء الفرات والجزيرة عن نمو الحس القومي لديهم، فظهرت جمعية سياسية، أطلق عليها (جمعية العهد الفراتي)، وقد كانت تضم مجموعة كبيرة من وجهاء وشيوخ المدينة والريف من مختلف مناطق ومدن الفرات الأوسط والجزيرة، وقد كان لها أهداف سياسية، أهمها تشكيل قوة سياسية تضم الزعامات العسكرية في المنطقة كافة لتسهم في توعية أبناء المنطقة وتجهيزهم لمقاومة العثمانيين عندما تقتضي المصلحة العامة لأبنائها ذلك.

وقد أطلق عناصر هذه الجمعية على أنفسهم اسم الفراتيين، وقد جعلوا لهم قادة سريين تحفظوا على أسمائهم خشية كشفها من قبل قوات الاحتلال العثماني، وبالتالي قد تقوم بالبطش بهم^(٦١٠)، ولقد كانت مهمة هؤلاء الزعماء المحليين تسييس العشائر التي تتبع لهم أو المناطق التي يمثلون أبناءها، وذلك لما لهم من تأثير في مجتمعاتهم المحلية التي يتزعمون فيها، وقد أدت هذه الجمعية دوراً هاماً في تحريك نمو الوعي القومي لدى أبناء منطقة الفرات والجزيرة السورية، وكان ذلك خلال السنوات العشر الأخيرة من الحكم العثماني في المنطقة.^(٦١١)

كذلك لم يقف أبناء الفرات والجزيرة موقفاً سلبياً من الحركات القومية، إذ سجلوا مواقف سياسية كثيرة تدل على انتمائهم لعروبهم، ومنها ما ظهر من موقف واضح ضد موقف الدولة العثمانية عام (١٩١٢م/١٣٣٠هـ) عندما تنازلت الدولة العثمانية عن ولايتي برقة وطرابلس للحكومة الإيطالية، فتقدم أحد نواب منطقة الفرات والجزيرة بعريضة احتجاج باسم أبناء المنطقة مع غيرهم من العرب احتجاجاً على هذا التنازل.^(٦١٢)

ثالثاً: المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الإنكليزي (١٩١٩م/١٣٣٧هـ)، في منطقة الفرات والجزيرة:

بعد انسحاب الأتراك من منطقة الفرات والجزيرة في ٦/ تشرين الثاني عام (١٩١٨م/١٣٣٦هـ) كانت بريطانيا تنظر إلى منطقة الفرات والجزيرة بعين الاهتمام، وذلك بغية الاستيلاء عليها والسيطرة على مقدراتها، ولما لها من أهمية استراتيجية، وقد ظهرت نواياها جلية بعد فترة بسيطة من توقيع الهدنة الدولية (معاهدة الصلح)، وظهر ذلك بما اتخذته بريطانيا من وسائل عسكرية لاحتلال منطقة الفرات والجزيرة وضمها إلى العراق التي كانت تسيطر عليها ضمن منطقة نفوذها في الوقت الذي كان البريطانيون يقطعون الوعود باسم الحلفاء إلى الشريف حسين ويمنونه بالمواثيق والعهد باستقلال المناطق التي يتفقون عليها من البلاد العربية، وكانوا في الوقت نفسه يتفقون

610 - نذكر من قادة هذه الجمعية بعض شيوخ العشائر ووجهاء المدن في منطقة الفرات والجزيرة، أمثال الشيخ مشعل الجربة، واحمود البشير، وفارس الجراح، ومشراف الدندل، وحمود الشلاش، والشيخ حسين الأزهرى، وحمود العزاوي،... وآخرون، انظر: صليبي، عمر: معالم وأعلام ونضالات، ص ٩٦.

611 - نخبة من الباحثين، دير الزور ماضي عريق، ص ٣٥٤.

612 - علوان؛ إبراهيم: النضال القومي لدير الزور، ص ٧٣.

سراً على اقتسام هذه البلاد مع فرنسا في معاهدة سايكس-بيكو التي فضحت غاياتهم وخدعهم السياسية، فعاشت المنطقة بمرحلة تقلب سياسية خطيرة.^(٦١٣)

البداية كانت مع تعيين رمضان الشلاش حاكماً عسكرياً لمنطقة الفرات والجزيرة قضاء الرقة والخابور والفرات، وقد أعقبها فوراً وصول الشريف علي ناصر إلى المنطقة على رأس قوة كبيرة من الهجانة موفداً من قبل ابن عمه الأمير فيصل الحسين لمراقبة الأوضاع في المنطقة، وقد تجول في منطقة وادي الفرات، وخاصة في منطقة الرقة وريفها ودير الزور وقراها، كذلك كانت من المهام التي كلف بها في زيارته تلك هي مهمة الاجتماع بالحاكم العسكري المكلف لمنطقة (رمضان شلاش) كان ذلك في ٤/ كانون الأول عام (١٩١٨م/١٣٣٧هـ)، إلا أن ما نقله الشريف علي ناصر إلى الأمير فيصل يبدو أنه دفعه للإسراع الفوري لتعيين مرعي باشا الملاح متصرفاً لدير الزور في ٧/ كانون الأول (١٩١٨م/١٣٣٧هـ)، إذ عينه متصرفاً لدير الزور من قبل الحكومة العربية.^(٦١٤)

كان يرافق المتصرف مرعي باشا الملاح عند وصوله إلى مركز لواء الفرات والجزيرة (دير الزور) الأمير علي بك العسكري^(٦١٥)، الذي كلف بمهام تنظيم القوة العسكرية في منطقة الفرات والجزيرة والعمل تحت إمرة مرعي باشا الملاح، كما كان يرافق مرعي باشا الملاح الشيخ (مجم بن مهيد) شيخ عشائر العنزة.

أما أول عمل قام به المتصرف الملاح هو حل الحكومة المحلية الأهلية، وقد قام بالاستعاضة عنها بمجلس أهلي محلي جديد مطابق وفقاً للقوانين العثمانية السابقة مؤلف من السادة: عمر عبدالعزيز، الحاج فاضل العبود، شلاش حلمي المنديل، حسن المشهور، الحاج رشيد العزاوي، خلوف العبد الحميد الصباغ، محمد نوري الفتيح، خضر لطفي محمد كامل البعاج، حسن محمد الجاسم.

ودخلت القوات البريطانية دير الزور، وصحّ ما توقعه العارفون بنوايا بريطانيا، فقد أخفت سياستها في بادئ الأمر، ثم جاهرت بعد فترة وجيزة بمقاصدها الاستعمارية باحتلال منطقة الفرات، وضمّها إلى العراق، وتنفيذ معاهدة (سايكس بيكو) السريّة المعروفة، فقد احتلت القوات الفرنسية السواحل السورية واللبنانية في ١١/ تشرين الأول سنة ١٩١٨م، وفي

613 - سلطان؛ علي: تاريخ سورية عام (١٩١٨-١٩٢٠م)، دمشق، دار طلاس، ط/٢، ١٩٩٦م، ص ٦٩.

614 - شاهين؛ مازن: أحداث خالدة في تاريخ دير الزور، (د.ت)، ط/١، ٢٠٠٧م، ص ٤٧.

615 - الأمير علي بك العسكري شقيق الزعيم العراقي جعفر باشا العسكري، وقد جيء بعلي بك بغية تنظيم الجانب العسكري للقوات العربية في منطقة الفرات والجزيرة وتجنيد أكبر قدر ممكن من أبناء الجزيرة لتدريبهم عسكرياً.

٢٤/ منه احتلت الاسكندرونة واللاذقية، وهكذا تمّ احتلال السواحل السورية واللبنانية من الاسكندرونة حتى صور، وعيّن الكولونيل الفرنسي (بيابان) حاكماً لها. وإثر ذلك قامت الثورات في مناطق صهيون وجبل العلويين وكفر تخاريم وتلكلخ، وكانت فرنسا وبريطانيا على موعد بتقسيم مناطق الاحتلال، ففي ١١/ كانون الثاني سنة ١٩١٩م وصلت دير الزور ثماني سيارات وأربع مصفحات تقلّ عدداً كبيراً من الجند البريطانيين بقيادة الميجر (كاروير) الذي قابل فور وصوله المتصرف مرعي باشا الملاح وطلب منه تسليمه إدارة المتصرفية، مؤكداً له أن الحكومة العربية الهاشمية هي التي أقرّت ذلك، فرفض المتصرف، وأيده وجوه المدينة ورجالاتها، ولمّا أصرّ كلّ منهما على موقفه، اتفقا على الذهاب سوياً إلى حلب للاستفسار والتأكد من حاكمها العسكري شكري باشا الأيوبي، وفي ١٥/ كانون الثاني سنة ١٩١٩م^(٦٦) باشر الميجر (كاروير) إدارة عمله بدار الحكومة بدير الزور إثر عودته من حلب حاملاً للفراتيين رسالة من شكري باشا الأيوبي يبلغهم فيها أن الحكومة العربية أقرّت تسليم وادي الفرات إلى بريطانيا، وأنه بذلك أصبح ملحقاً بالإدارة العسكرية البريطانية ببغداد، فطويت الرايات العربية بين دموع الأهلين وحسرتهم، ونشرت بدلاً منها الأعلام البريطانية فاضطربت نفوس الأهلين، وهاجت خواطرهم، واختلّ الأمن بعد أن كان مستتباً، فما كان من البريطانيين إلّا أن فرضوا على وادي الفرات دكتاتورية عسكرية قاسية، لازال الفراتيون يذكرونها حتى اليوم بالنقمة والسخط.

ثورة رمضان باشا الشلاش عام ١٩١٩م:

بعد انسحاب الأتراك أرسل إلى (عانة) معاون حاكم سياسي بريطاني، ولم تتخذ أي ترتيبات بشأن دير الزور، لعدم وجود تعليمات حيالها لدى السلطات البريطانية في بغداد، ممّا أتاح للأهلين أن يتمتعوا شيئاً من الوقت بحكم ذاتي على النحو الذي فصلناه في الموضوع السابق. وقد كان الاحتلال البريطاني شديد الوطأة على دير الزور، بشكل جعل الشباب المثقف ورجال الوطنية، أمثال الزعيم عياش الحاج حسين الجاسم والعرفي والشاعر محمد الفراتي وتحسين الجوهرى وثابت العزاوي وغيرهم يكتبون إلى العقيد رمضان شلاش، الذي كان قائمقاماً عسكرياً لقضاء الرقة والخابور، يطلبون منه احتلال دير الزور، وإلحاقها بالحكومة العربية الهاشمية في دمشق، وفي ١٩/ تشرين الثاني سنة ١٩١٩م تسلّمت السلطات العسكرية العليا في بغداد برقية من المندوب السامي في القاهرة تفيد أن رمضان شلاش ترك حلب مزوداً بالتعليمات في السير إلى دير الزور، وقد وصل الرقة وشرع يتصل بالقبائل بصورة

فعالة، وفي /١٠/ كانون الأول سنة ١٩١٩م سمع الكابتن (كاميرا)^(٦١٧) معاون الحاكم السياسي البريطاني بدير الزور أن قوة عربية كانت تزحف من الرقة لتهاجم دير الزور، فاصطحب معه ضابط السيارات المصفحة، وذهبا بإحدى السيارات للاستطلاع في طريق الرقة، فلم يجد أي أثر لحركات غير اعتيادية، ولكن عند عودتهما أطلقت عليهما إحدى العشائر الرصاص من كمين نصب لهما في الطريق، وتعرضت حياتهما للخطر، ولكنهما تمكنا في النهاية من النجاة بنفسيهما.

ومع هذا ما كان من الكابتن (كاميرا) إلا أن يعتقد بأن العرب ينوون الإغارة على دير الزور، فأبرق إلى بغداد يخبر بوجود قلق خطيرة، وأمر بتوقيف الحاج فاضل العبود ورئيس البلدية، لارتيابه بمواقفه، واتخذ جميع ما أمكنه من التدابير للمحافظة على الأمن والنظام في البلدة، واعتصم بالثكنة الكبرى.

وفي صباح /١١/ كانون الأول سنة ١٩١٩م دخلت قوات كبيرة من العشائر إلى دير الزور من جهة الجنوب، فاستولت مع سكان البلدة على بعض المؤسسات ودائرة الحاكم السياسي البريطاني، إذ استولت على المال الموجود فيها ونسفت مخزن البترول، وفتحوا أبواب السجن وأخرجوا كل من فيه من الموقوفين والمحكومين. وفي اليوم التالي هاجمت القبائل الثكنة التي يعتصم فيها معاون الحاكم السياسي وأعوانه، وأخرسوا الرشاشات والمدافع التي كانت منصوبة بأعلى أساطيحها، ثم دعي الكابتن (كاميرا) للنزول إلى البلدة للمذاكرة، فتوجه معه معاونه إلى منزل الحاج فاضل العبود ورئيس البلدية، وكان هناك عدد من وجوه المدينة البارزين الذين طالبوه بعقد الهدنة مع قوات رمضان الشلاش حالاً، واجتمع إلى بعض الشيوخ من قادة الثورة، فكانوا بحالة هياج شديد، وأظهروا له عداً مفعماً بالتعصب، وكانوا يتوعدونه بقتل جميع الضباط البريطانيين مع موظفيهم، وأثناء ذلك جاءت طائرتان بريطانيتان وقصفت دير الزور بنيرانهما، فأندروه بوقف القصف، وعقدت بين الطرفين هدنة لمدة أربع وعشرين ساعة، وبعد ظهر /١٣/ كانون الأول سنة ١٩١٩م دخل دير الزور القائد رمضان شلاش، وحال وصوله إلى دار الحكومة (نادي الضباط اليوم) استدعى لمقابلته الكابتن (كاميرا) فأعلن في الحال استسلامه للقائد شلاش، الذي أخذ مع الضباط البريطانيين كافة رهائن مقابل سلامة البلدة من القصف البري أو الجوي.^(٦١٨)

وما أن اطلع الأمير فيصل، وكان يومها في باريس، على ثورة رمضان شلاش من قبل المستر (كورنواليس)، حتى أبرق لأخيه ووكليه الأمير زيد برقية شديدة اللهجة مستنكراً ما

617 - نخبة من الباحثين، دير الزور ماضي عريق، ص ٣٦٤.

618 - الجندي، أدهم: صفحات منسية، ص ٩٨.

فعله رمضان الشلاش ويقترح في برقيته أن هذه الأعمال الموجهة ضد حليفتنا بريطانيا العظمى وضد مصالح الأمة العربية، هي مخالفة للاتفاق المعقود في العام الماضي، وطلب من أخيه عدّ الثوار عصاةً، وطلب ضربهم بيد من حديد... ثم ألقت الطائرات البريطانية منشوراً يتضمن هذه البرقية إلى دير الزور، وأُنذرت رمضان الشلاش أن يبعث الضباط البريطانيين ومن كان معهم من الرجال سالمين إلى (أبو كمال)، وإلا فستخذ الإجراءات ضد دير الزور. وقد اعترفت (المس بيل) في مذكراتها أن الكابتن (كاميرا) ومعانويه قد عوملوا من قبل رمضان الشلاش طوال مدة أسرهم معاملة حسنة، وكان إطلاق سراح الأسرى في ٢٥/ كانون الأول سنة ١٩١٩م. أمّا رمضان الشلاش فقد شقّ عصا الطاعة على الحكومة العربية الهاشمية، وتحذّى أوامر الأمير فيصل، وصرّح بوجود انسحاب البريطانيين إلى بعد خمسين ميلاً جنوبي عانة، وكان ينوي توسيع منطقة سيطرته إلى الموصل، واستوفى الضرائب من الأهليين في داخل الحدود البريطانية نفسها، وأرسل إنذارات خطيّة إلى مختلف الحكام السياسيين المحيطين بمنطقة نفوذه، ورسائل حماسية إلى شيوخ العشائر الذين كانوا ضمن الأراضي المحتلة من قبل البريطانيين، ثم أُنذره البريطانيون بأنه إذا استمرّ باجتياز الحدود إلى المنطقة البريطانية فإن القائد العام البريطاني سيضطر إلى اتخاذ تدابير مقابلة. وكانت الطائرات البريطانية لا تفتأ ترسل الاحتجاجات الرسمية ضد ما كانت تسميه بالأعمال العدوانية من قبل رمضان الشلاش، فكان جواب الشلاش أنه أغار على البوكمال واحتلّها وكاد يحتل عانة، لولا أن الحكومة العربية كانت قد أرسلت خصمه السياسي مولود مخلص كمتصرف إلى دير الزور^(٦١٩)، فضلاً عن التصريحات التي كان الأمير فيصل بن الحسين يطلقها بين حين وآخر ضد حركته معرباً للبريطانيين عن أسفه ومقرناً هذا الأسف بوعود أنه سوف يتخذ التدابير اللازمة للحيلولة دون وقوع حوادث أخرى كالتّي وقعت.

بقي مولود مخلص باشا حاكماً في دير الزور بدلاً من رمضان الشلاش حتى هدأت الحالة، وقام الشلاش يريد احتلال دير الزور مرة أخرى فلم يتمكن، وظلّت دير الزور على هذا الوضع إلى أن احتلت الجيوش الفرنسية البلاد ودخلت وادي الفرات.

صور أخرى من النضال الثوري ضد البريطانيين في لواء الزور، معركة ضبيعة:

كانت البداية عندما اخترقت القوات البريطانية لواء الزور عند البوكمال، فتصدّى لها أبناء البوكمال من الريف والمدينة معاً، وفي أولى المصادمات قتل الشهيد (عبد الدندل) شقيق الشيخ (مشرف الدندل)، وقد حاول البريطانيون عبر رسائلهم وعبر بعض شيوخ العرب المتعاونين معهم استرضاء الشيخ مشرف فرفض، ولم يكن رفضه ومقاومته مبنياً على موقف

شخصي فقط، بل عوامل عدة، على رأسها الجانب الوطني الذي كان يمثل فيه كل الشعب الذي قاتل البريطانيين، ولم يقاتلهم وحده، وكان من جراء ذلك أن تشكلت قيادة سرية لقتال البريطانيين من السادة: مشرف الدندل زعيماً وعضوية أخوانه الشيخ فارس الصياح رئيس عشيرة الدميم، وقادة الرأي في المدينة، أمثال: رشيد وتوفيق الداود وعبد الهادي الزرزور والحاج عجبل الجاسم وجاسم الأبو شكير وشريف الأصيل، وقد أبلت هذه القبائل والشعب معها بلاءً حسناً، وأظهر رجالاتها من ضروب الشجاعة ما يجدر بالتخليد.

أما في معركة المجرود عام ١٩١٩م:

فقد قاتل الشعب من عشائر العكيدات البريطانيين فيها قتالاً مريراً وقتلوا منهم ثلاثين جندياً بريطانياً، وقُتل من العرب بعض الأعداد لتحكمهم في الأرض، ومن الجدير ذكره أن قوادها العرب هم: أسود المصيخ ومليشان المحيمد وعبيد الفارس المحمد الحسون.

معركة النسورية عام ١٩١٩م:

من المعارك الشهيرة التي قادتها عشائر الدميم بزعامة (فارس الصياح) وأخي (كسار الصياح) مع عشائر الشعيطات والمجاورة للتصدي للقوات البريطانية في الصالحية، كما تصدى لها في المجرود الشعب العربي من قبائل الحسون، واشتبكوا في معركة قوية مع البريطانيين وحاصروا منهم ما يقرب من المائة جندي، على حين قتل من العرب سبعة عشر بطلاً، سنذكر أسماءهم مع الشهداء لاحقاً، ولما جنّ جنون البريطان راحوا يقصفون قرى البوكمال في المدفعية والطائرات حتى انتقموا.

معارك أخرى ضد البريطانيين:

بعد أن احتل البريطانيون منطقة الميادين، وقتلوا بعض رجالاتها الذين قاوموا الغزو، عيّنوا الكابتن (شومر) فيها، وتوجهوا نحو الدير التي انتفض فيها كل شيء بوجههم، بعد أن شاهدوا نزول العلم العربي وارتفاع الراية البريطانية في سماء المدينة، وذلك في كانون الثاني عام ١٩١٩م.

أضف إلى ذلك سوء المعاملة والضرائب الباهضة، التي أدّت إلى اشتداد الموقف العدائي والثوري بين أبناء المدينة والبريطانيين، وحين ضم البريطان لواء الزور إلى العراق، ويذكر السيد ثابت العزاوي بمذكراته التي أورد جانباً منها الدكتور قاسم إبان الندوة الدولية لآثار دير الزور، إذ يقول: "اشتد الشعور الوطني بعد وصول أخبار لجنة الاستفتاء الأمريكية برئاسة المستر (كراين)، وعلى أثر علمنا بعزمها على زيارة حلب اتصلنا بلجنة الاتصال الحلبية التي يرأسها عبد الرحمن الكيالي، ونظمنا كتاباً نطلب فيه العودة إلى حكومة سورية، وقد تمّ توقيعها من قبل الديرين، وقام بتسليمها إلى اللجنة الأمريكية (مر عيسى العزاوي) بصفة رجل دين مع من زارها... أما الذي نقلها فهو (السيد محمد أمين العليوي)".

وكاد المستعمر البريطاني أن يفقد أعصابه لمرات عديدة من كثرة المقاومات الفردية والجماعية، فكشّر عن أنيابه، وراح يضرب الثوار إثر قيام الثورة ضده، حين استعاد الثوار الذين انتهجوا خط (العهد الفراتي) و (جمعية العهد) من بعد منهجية التخطيط فتشكلت أول نواة ثورية في داخل مدينة دير الزور هدفها الثورة على البريطان وتنظيم الأمور، وتدل الدراسات التي حصلنا عليها وأجرينا تحقيقاً فيها أنه قد تمّ تشكيل لجنة ثورية تتسق الأمور للثورات والتحركات الفردية والجماعية مؤلفة من السادة: (محمد الفراتي، تحسين الجوهرى، محمد أمين العليوي، الشيخ محمد سعيد العرفي، والسيد ثابت العزاوي) وعدّت هذه اللجنة أول خلية ثورية ضد البريطان، وقد جرت مكاتبات بينها وبين (الأمير فيصل) بتاريخ ١٢/١٢/١٩١٩م إلى الشيخ (فيضي الفوز) مأمور الأمن في الرقة لشؤون الثورة العربية الكبرى، ولأريب أن اتفاقاً سرياً آخر كان قد تمّ بينهما (فيصل - رمضان) على التحرك وإخفاء بعض الأمور، وعدم تنفيذها إذا ما صدرت عن الأمير فيصل الذي طير التحركات المضادة للثورة العربية، والتي تم بموجبها الاتفاق بين البريطان والفرنسيين على إعادة شكلية الاقتسام ومضمونه في اتفاقية سايكس بيكو والتي فصلناها في كتابنا (معالم وأعلام ونضالات وادي الفرات).

رابعاً: المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الفرنسي

(١٩٢٠-١٩٤٦م/١٣٣٩-١٣٣٦هـ)

أولاً- مقاومة دخول القوات الفرنسية لاحتلال منطقة الفرات والجزيرة:

رابعاً: المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الفرنسي (١٩٢٠-١٩٤٦م/١٣٣٩-١٣٣٦هـ):

١ - مقاومة دخول القوات الفرنسية لاحتلال منطقة الفرات والجزيرة:

لقد امتدت الثورة السورية إلى مناطق عدة من البلاد، وثار أهل الفرات والجزيرة على الفرنسيين، وأشعلوا الثورة في منطقة جرابلس، وعلى طول سكة الحديد الممتدة من حلب حتى الحدود التركية، وقد تحالف العرب الأكراد على مقاومة الفرنسيين الذين فرضوا انتدابهم على البلاد فرضاً، ونشط الثوار فعطّلوا جسر الفرات، وقام مجاهدو منطقة الفرات بحركات ثورية كثيرة، واستطاعوا بفضل ما أبدوه من بسالة فائقة الاستيلاء على مدينة دير الزور، فجّهز الفرنسيون قوات كبيرة سارت إلى مناطق الثائرين، واشتبكوا معها بمعارك دامية، وتعرضت القوات الفرنسية لخسائر جسيمة، فغاضها ما منيت به من هزيمة وفشل، فأرسلت القيادة الفرنسية حملة كبرى جاءت على طريق جرابلس، ووقعت المعارك الرهيبة التي أسفرت ارتداداً على أعقابها، وفي أواخر سنة ١٩٢٠ نزلت دير الزور بعثة فرنسية توطيداً لسلطان الفرنسيين في منطقة الفرات، وفي حزيران وتموز من سنة ١٩٢١م أقبلت من حلب قوات بقيادة الكولونيل (لموان) فرابطت إحدى فصائلها في دير الزور، وقفل الجيش راجعاً من حيث أتى دون أن يعترضه معترض على أن الدعاية التركية والفيصلية ما لبث أن ظهرت نتائجها، ف وقعت في شهر أيلول سنة ١٩٢١ بعض الحوادث، إذ هاجمت قبائل العكيدات دير الزور نفسها، فتحتّم على الفرنسيين مواجهة الحالة، وتألّفت حملة بقيادة الكولونيل (ديبوفر) كانت تشتمل على: لواء المشاة التابع لفيلق الرماة السابع عشر، لواء الرماة التابع للفيلق التاسع عشر، لواء الرماة المختلط من الفيلق الثاني والعشرين بطارية مدفعية من عيار ٧٥ وبطارية من عيار ٦٥ كوكبة من الخيالة التابعة لفيلق الخالية السريعة الثالث، كوكبة من فيلق الصباغين مفرزة الرشاشات من الفيلق نفسه، وفرقة فنية ومفرزة من الهجانة ومفرزة من المتطوعين، وفي الثامن والعشرين من شهر أيلول سنة ١٩٢١ انطلق الجيش من حلب إلى دير الزور وبمؤازرة شيوخ ضفة الفرات اليمنى، ولم تقع أية عقبة في سبيله، لأن القبائل المبتوثة في طريق قد توافد مشايخها أمام القائد معلنين الاخلاص، وأعادوا ما حصلوا عليه ورضخوا لما فرض عليهم من الغرامات الحربية، وقد نبذت قبيلة العكيدات كل اتفاق، منها عشيرة الخابور النازلة في

صفته اليسرى وعلى الضفة الخابور حتى (الصور) وكان هؤلاء عبارة عن بضعة آلاف محارب مجهزين بالبنادق ولديهم رشاشات.

فاعتزم الكولونيل (دبيوفر) أن يبدأ الحركات العسكرية على الضفة الفرات اليسرى وضفة الخابور حتى (الصور)، وعلى أن يستأنفها على الضفة الفرات اليمنى وحتى الميادين التي كانت الأوامر تمنعه من تجاوزها.

زحفت القوات الفرنسية في الفترة الواقعة بين ٢١-٢٣ تشرين الثاني سنة ١٩٢١ استجمع الجيش الفرنسي قواته على شاطئ الفرات الأيسر، وتطوع في الجيش الفرنسي أبناء إبراهيم باشا، وكانت الأعمال الحربية على جانب من الصعوبة والدقة، وقد استغرق التأهب زمناً غير يسير، لأن الجسور القائمة هنالك لم تكن على شيء من المتانة لعبور الأوائل الحربية الثقيلة، وتجمع الجيش الفرنسي في الثالث والعشرين من الشهر المذكور، ثم تقدم إلى مسافة أربعة أميال من خطوط العشائر الثائرة الأولى التي سبق للفرسان الفرنسيين أن استطلعوها في ٢١ منه بقيادة الملازم (لياس) وكانت تلك الخطوط واقعة في الجنوب الشرقي من (المعرة) وعلى بعد ميل ونصف الميل منها، وفي صباح اليوم الرابع والعشرين من شهر تشرين الأول سنة ١٩٢١ زحف الجيش الفرنسي في الناحية الجنوبية.

وكانت خطة القيادة الفرنسية أن تحدث بالثائرين في دائرة (خشام) على أن تقوم الخيالة بحركة التفاف تسندهم فيها فصيلة من كتيبة (غرازياني) التابعة لفيلق الرماة السابع عشر، وإحدى سرايا المدفعية من عيار (٦٥) وفي الصباح استولى الفرسان على مشارف (خشام الشرقي الشمالية) بعد أن زحفوا إليها ليلاً، فتسلطوا على الممر بين نهر الفرات والمرتفعات الصخرية مقابل (الطيبة)، بدء المعارك الرهيبة لقد انطلقت كتيبة (غرازياني) واستمرت في سيرها حتى التقت حولها جماعات من العشائر وأحدثت بها، وكانوا زهاء ألف مقاتل تألبوا من الخابور لنجدة بني قومهم، فقامت كوكبة (دي لاما) وسرية الرشاشات قيادة (درتیشام) لإنقاذ كتيبة (غرازياني) فهاجمتها العشائر بشدة، ولكنهما منيتا بخسائر جسيمة من جراء الهجوم فقتل من الفرنسيين الملازمان (لياس ودرتیشام) ومعاون الضابط الخيال (كليمان) وفرسان من الصباحيين، وجرح عدد كبير من الضباط والجنود، وفي هذه الأثناء كانت المعركة على أشدها في دائرة (خشام) فانتظمت كوكبة (أمانريش) في الميسرة واللواء المختلط في الميمنة، فكانت مواقع المجاهدين محكمة الحلقات، ومحاطة بخنادق تصل بينها الانفاق والسراديب، وقد

تحصنوا في خفايا هاتف ديامن قذائف المدفعية والطائرات وتلقى الجيش الفرنسي الأمر بالهجوم، وتصديع جبهة المجاهدين في شرقي خشام ونفذ المهاجمون الخطة بعد أن مهدت لهم المدفعية ثم عززتهم الرشاشات وقامت بالهجوم كتيبة (دوماس) وتقدمت فاجتاحت (خشام) وغابتها الصغيرة، وانسحب المجاهدون أمام القوات الفرنسية، حتى إذا ما وصلت إلى أرض منكشفة ارتد المجاهدون عليها بقوات كبيرة تبلغ زهاء ثلاثة آلاف مقاتل، وكانوا في مواقع حصينة، وكلهم يحسن الرماية، فأبادوا أكثر القوات الفرنسية وقتل (الليوتان لوسيانى) و(الليوتان ميكال) وسقط كثير من الجرحى منهم أربعة ضباط، ولزم الجيش مكانه في اليوم الخامس والعشرين من شهر تشرين الأول سنة ١٩٢١.

فنقل جرحاه وقتلاه واستخدم الذخيرة، وفي ٢٦ تشرين الأول سنة ١٩٢١ زحف الجيش على (جديدة عكيدات) فوصلها دون حادث ثم انطلق إلى البصيرة فأشرف عليها فرأى الأعلام البيضاء خفاقة على مبانيها.

المعارك الحربية النهائية لم تكن تلك الأعلام البيضاء إلا خديعة، فما كاد الجيش يستأنف المسير حتى قابل المجاهدون فرسان الطليعة الفرنسية بنار عنيفة، وقد اكتشف الفرسان مواقع المجاهدين، فظهر لهم أنهم قد نظموا في ثلاثة خطوط دفاعية أمام الجسر، وقرية البصيرة، وبين الفرات والخابور، وقطعوا الطرق المؤدية إلى دير الزور والخابور الأعلى، فقرر قائد الجيش أن يقوم بهجوم على جبهة المجاهدين في قلب خطوطه، دون أن يأخذ البصيرة لصعوبة منالها وأن يقوم القومندان (يوسون) بالانطلاق مع فصائل للإحداق بمسيرة المجاهدين وأن توازره كوكبة الفرسان لامتلاك جسر الخابور وطريق الميادين، أما القوات التي يقودها أبناء أبراهيم باشا فقد توغلت بضعة أميال في الشمال الشرقي ثم عبرت نهر الخابور وجنحت بعد ذلك إلى جسر البصيرة لقطع خطوط الرجعة على المجاهدين، من ضفتي الخابور والفرات الشماليين، ولازمت المدفعية قوات المشاة في تقدمها لتمنع الثوار من ممر الجسر ونصبت بطارياتها أمام مواقع المجاهدين وعند العصر بدأ الجيش هجومه على مراكز المجاهدين واندفعت الطليعة في منطقة منكشفة فاصلت بنيران حامية وتقدمت تحت ستار المدفعية والرشاشات واكتسحت قوات المتطوعين من أبناء أبراهيم باشا في أقصى الميسرة قوات المجاهدين التي تألبت إلى ذلك الجانب لتشرع بحركة الالتفاف وقاد (يوسون) رجاله فاجتاحوا المشارف التي أقام عليها الثوار نقاط ارتكازهم، ثم جنح الفرنسيون إلى

الجنوب الغربي على جسر الخابور، واجتاحوا الخطوط المبنوثة، على الهضاب تباعاً رغم انصباب النيران عليهم، فلما كان الليل توافد مهاجموا الجبهة، ومهاجموا الجناح إلى مرتفعات البصيرة، فتخلّى عنها المجاهدون بعد مقاومة هائلة، وحال الظلام دون الطراد، فتوقف الجيش وعسكر في الموقع المحتل.

ومني الفرنسيون بخسائر، فقتل الملازم (دي لاتورين) وغيره وجرح ٢٠ جندياً، منهم رئيس الكوكبة (فان)،.

إن المعارك التي دارت في منطقة الفرات وخاصة في موحسن والعنازة، وما أبداه المجاهدون في البطولة الخارقة أمام القوات الفرنسية المجهزة بأحدث وأكمل المعدات الحربية تثير الإعجاب، فقدوا صمدوا بياس وبسالة، ولكن لما كانت النتائج أن لا تستطيع العشائر الصمود أكثر من ذلك، فقد خضع واستسلم كثير من أفراد العشائر، ولجأ المقاتلون منهم إلى ناحية (الصور) فحلت الطائرات على مواقعهم تقذفهم بمتفجراتها فبددتهم، وفي ٢٩ تشرين الأول سنة ١٩٢١ وصل الجنرال (دي لاموت) قائد الفرقة الثالثة على متن طائرة إلى (البصيرة) فمكث فيها ٢٤ ساعة واستسلم له قوم كثيرون، وقد استمرت الأعمال الحربية إلى أواسط شهر تشرين الثاني سنة ١٩٢١ فاحتلت قطعة من الفرسان (الميادين) بقيادة القومندان (لات) وعاد الجيش بأجمعه إلى دير الزور في ٣٠ تشرين الثاني، ثم زحف إلى الرقة فدخلها في الثاني عشر من كانون الأول سنة ١٩٢١ عملاً باتفاقية انقرة فيما خص بالجزيرة.

ب- الكفاح السياسي ضد الاحتلال الفرنسي في منطقة الفرات والجزيرة :

جاء الأستاذ الشاعر محمد الفراتي إلى دير الزور وذلك في أواخر سنة ١٩١٩م، وأنضم إلى عناصر من اللّمة الوطنية منهم الشيخ سعيد العرفي، وثابت الحاج رشيد العزاوي، وتحسين الجوهرى مديرية المعارف وتسلم الفراتي التقشيش وتسلم الشيخ العرفي النواحي الدينية مع الشباب الباقيين فأسسوا مدرستين ابتدائيتين، وأسسوا كتلة خفية انضم إليها بعض الشباب البارزين أمثال السادة ثابت العزاوي، وأمين العليوي وجلال السيد وغيرهم، وعندما عين رمضان الشلاش من الشام حاكماً إلى الرقة، اتصل هؤلاء السادة به سراً وهيئوا له كل إمكانيات الثورة.

وسرعان ما جرت الأحداث كما ذكرنا ذلك في ثورة رمضان الشلاش حتى احتلت الجيوش الفرنسية دير الزور، وتشكلت حكومة حلب، وتلتها دير الزور وبقي الأهليون يناضلون حتى انفكت دير الزور عن حلب رغماً عن الفرنسيين وارتبطت بدمشق بعد نضال طويل، ويعود الفضل في ذلك لزعماء دير الزور، وفي الفترة نفسها نفي الزعيم المجاهد المرحوم عياش الحاج حسين الجاسم إلى جبلة كما نفي المرحوم الشيخ محمد سعيد العرفي إلى أنطاكية كما أن كثيرين من شباب الدير قد لاقوا التشريد والتكيل من قبل المحتلين وهم السادة: ثابت بن حاج رشيد العزاوي، توفيق قنبر، نوري بن السيد ملا خلق السيد راغب بن علي صائب، عبد القادر بن عياش الحاج حسين، حسن الأحمد بك العبد العزيز، عبد الصمد بن محمد نورثي الفتيح، طاهر بن سعد الدين المفتي، عبد الحميد بن خلوف الصباغ، عبد الكريم الفرخان الفياض، شفيق بشار بن عمر بك عبد العزيز، توفيق بن إبراهيم خلف.

وقد ظهر تكتل سياسي يدعى قادة الحرس الحديدي أو (القمصان الحديدية) كما ظهر السادة: محمد أمين العليوي، جلال السيد وشقيقه سعيد السيد، بدري بن مخلف الصباغ، إسماعيل العاني.

أما بالنسبة لأوضاع البلاد السورية فقد كانت الحوادث التي مرت بها البلاد السوري أنشأت الإدارة الفرنسية نظام المحافظات في دمشق وحمص وحملة وحلب والفرات واللاذقية وحوران والسويداء وإلى جانب كل محافظة يقيم مندوب للمفوض السامي ومستشار، وكان المندوب المفوض يقطن في دار الحكومة في غرفة ملاصقة لغرفة المحافظ، وكان المحافظ لا يستطيع تعيين أحد ولولا صغر الوظائف كحارس أو مراقب للتنقيفات إلا بعد موافقة المستشار، وقد مرت فترة على البلاد كانت فيها فرنسا تخذع لجمعية الأمم وتوهمها أنها تطبق صك الانتداب على ما فيه من ظلم وجور. وتخذع الرأي العام العالمي بأن في سورية حكماً ديمقراطياً لا يختلف عن الحكم في فرنسا.

المظاهرات تعم المدن السورية الكبيرة، أعلنت السلطات المنتدبة إجراء انتخابات لتشكيل المجلس التمثيلي وأسندت رئاسة الحكومة إلى السيد صبحي بركات. وكانت الأغلبية المطلق بجانب الفرنسيين، وفي ٣٠ آب سنة ١٩٢٣م أصدر المفوض السامي الجنرال ويغان قراراً بإنشاء مجالس تمثيلية لكل من الدول الواقعة تحت الانتداب، على أن يكون محدود الصلاحية، فعمت المظاهرات في أرجاء المدن

السورية وكانت في دير الزور شديدة الوطأة، وجرت اشتباكات عنيفة بين المتظاهرين وقوات الشرطة والدرك والقوات الفرنسية، لذلك تعطلت المرافق، وأهمل استثمار الموارد وشلت الناحية الزراعية، وعمت البطالة، وتوقفت الأعمال، وانتشرت المذاهب الأجنبية في بعض الطبقات، وقد اشتدت الأزمات، وبات العمال بدون عمل يتضورون جوعاً، وكان أمهر عامل لا يستطيع كسب ستة قروش سورية في اليوم، وكانت الحالة تزداد سوءاً في كل يوم، والمظاهرات لا تتقطع في أكثر الأيام، ورغم أن الإضراب للاحتجاج على الانتخابات المزورة في المجلس التمثيلي، والمظاهرات كانت تعبر عن سخط الشعب، فإن الضباط الفرنسيين في المدن السورية قد تعرضوا للمتظاهرين تعرضاً مثيراً، ووقعت بعض الحوادث.

ج- الكفاح المسلح (الثورات) ضد الاحتلال الفرنسي في منطقة الفرات والجزيرة (١٩٢٠م-١٩٤٦م/١٣٣٩-١٣٦٦هـ)

لم يتعرض أحد على الإطلاق لمعارك البطولة التي قاومت الاحتلال الفرنسي عام ١٩٢١ في مدينة دير الزور وضواحيها، فلم يقدم كاتب على تقصي الحقائق وتدوينها تاريخياً كما وقعت، إن الأثر البطولي في المعارك التي خاضها أبناء عشيرة البوخابور فهي تعبير بعميق عن أصالة العرب وعشقهم للحرية وجرأة هؤلاء في المعركة أعطت قوات الاحتلال الفرنسي الدرس الكافي وأجبرتهم على تحقيق رغبات الثوار ومطالبهم، وبعد احتلال القوات الفرنسية لمدينة دير الزور أخذت تتدخل في كل صغيرة وكبيرة، كما تدخلت في شؤون القبائل فأزعج ذلك القبائل وكانت تعتبر أن ذلك ليس من حقها التدخل في شؤونها فاحتجت القبائل وحدثت المناوشات بين الطرفين، فقررت القوات الفرنسية ضرب هذه القبائل بقوة عسكرية هائلة مستعملة الطائرات والمدافع من عيار (٧٥) مم وكتيبة خيالة وبطارية رشاشات عيار (٦٥) مم وكتيبة من الرماة السنغاليين بأمر الكومندان (بلاسيث) وكوكبة من كتيبة السباهين الحادية والعشيرة بأمر (ده لمار)، وأسندت قيادة الحملة إلى الكولونيل (ديبوفر) ومساعدة الكابتن (ريشان) فتسرب خبر هذه الحملة عن طريق أحد الجنود السوريين إلى السيد عبد الصمد الشافي أمين صندوق مالية دير الزور، فأخبر الشافي صديقاً له من عشيرة (البوخابور) يدعى كبلان، فأخبر كبلان أهل القرية المجاورة بما تتوييه السلطات الفرنسية ضدهم وسرعان ما تم الاتصال مع باقي القرى الأخرى وهي قرية العبد، موحسن، المريعية، خشام.

وتم عقد اجتماع بنفس اليوم بقيادة الشيخ عيبان الجنيد، وكان الاجتماع يضم زعماء القرى وهو: ثويني الجنيد، محمد العكاب، حمادي العبد الله، خزام العساف، كبلان المشهور، سالم الدرويش، عبد الله الأهلص، وقائد جريني عظيم وهو الشيخ حمود الحمادي الذي أتعب الجيش الفرنسي، خضر العجيل، عبود الصياح الذين قاموا بتنظيم الثوار، وقام قسم منهم بعملية استطلاع لمعرفة تحركات العدو لكنهم اصطدموا مع فرقة استطلاع فرنسية أثناء سيرهم، وأخبر الثوار القادة بالأمر، وفي صباح ٢٨ أيلول عام ١٩٢١ قامت حملة فرنسية بقيادة الكابتن ريشان بمهاجمة قرية البوعمر تدعمها الطائرات، وكانت هذه الحملة مؤلفة من القوات السابق ذكرها وعند وصول القوات الفرنسية إلى مشارف قرية (المريعية)، أرسل قائدها إلى الثوار وفداً للمفاوضة.

فأرسل الثوار كبلان مندوباً عنهم لمعرفة المطالبين، وتم اللقاء مع القائد الفرنسي وعندما سأل كبلان القائد إلى جهة تقصدون، أجابه ريشان ننوي الذهاب إلى جهة (البصيرة)، علماً أن هذه القرية تقع في الضفة الثانية لنهر الفرات، بزعمامة الشيخ حمود الحمادي ابن عم هذه العشيرة النائرة والذي يشترك معهم بالثورة، فقال له كبلان أن طريق البصيرة من الجهة الثانية للنهر أي من الجزيرة، فأدرك كبلان أنها خدمة لا أكثر وتبين له ذلك من بعد ما قام به القائد الفرنسي من محاولات دنيئة، حيث قدم له المال كرشوة لكن كبلان رفض كل العروض وأبدى حبه وولاءه للوطن وعندما رأى ريشان هذا الإصرار وأنه لا مجال للتعاون قرر العودة وفي أثناء ذلك أطلق أحد الثوار رصاصة يدعى اللطيف الصياح فهاجم الثوار قوات الاحتلال وجرت معركة ضارية، هرب الفرنسيون، وقتل القائد ريشان وغنم الثوار بالأسلحة وعتاد ومدفعين من العيار الثقيل وعربات محملة بالذخائر، ومقابل ذلك فقد خسر الثوار شهيدين هما عبد الله السмир واللطيف الصياح، ثم تمركزوا بعد ذلك بمكان يدعى (طعس كغطان الشروفية) وهو تل يساعد على القتال، فشن الفرنسيون هجوماً معاكساً لاسترجاع المدافع وما فقدوه من عتاد لكن الثوار ردوهم على أعقابهم بالمدافع التي غنموها منهم وكان يقوم بالضرب على المدافع الرقيب السابق في الجيش العثماني المدعو محمد الفلاح وسقط من جنود السنغال (٢٥٠) جندياً في مكان يسمى (الحصوة)، فعجز الفرنسيون عن التقدم فتقدمت خمس طائرات من حلب وأخذت تقصف القرى والثوار وتدرس مع الثوار وضع الطيران وتطالب بوضع حد له، فقرروا مهاجمة مطار دير الزور ليلاً وخرق الطائرات، فتسلل الثوار ليلاً من ناحية الجبل إلى جهة المطار متوخين من ذلك عدم

الاصطدام بالقوات الفرنسية المراقبة على الطريق العام وبعد دخولهم للمطار اصطدموا مع الحرس وقتل الشهيد حمد الخلف العساف، وتوجهت مفرزة بقيادة حمود العبد الغني ومعه علي الحسين الحمد الذي كان يحمل سيفاً وبندقية إلى إحدى الطائرات الرابطة في أرض المطار، وضرب مستودع البنزين بسيفه واندلع من الطائرة وأشعله فشب الحريق بالطائرة وانتقل إلى الأربعة عشرة الأخرى وتم حرقها جميعاً وتحولت إلى رماد. أصبح الثوار بمنطقة مكشوفة لنار الطائرات، فقتل الشهيد حمود عبد الله التايه وعاد الثوار إلى مراكزهم بعد ذهاب العملية البطولية وهم يحملون أسلحة الجنود الفرنسيين القتلى.

أذهل القوات الفرنسية هذا العمل البطولي، فاتخذوا بدلاً من مطار دير الزور مطار حلب كمر عام للهجوم الذي أصبح عرضة لهجمات الثوار ونتيجة لهذه المقاومة الشديدة طلب الفرنسيون الصلح ووقف القتال، وتم ذلك عن طريق وجهاد دير الزور، شرط ألا تتقدم القوات الفرنسية إلى منطقة الثوار، لكن الشيخ حمود الحمادي رفض ذلك وانسحب بعشيرته إلى قرية خشام، قتل للعدو في هذه المعركة أربعة ضباط هم (أوريشا، كما سماه الثوار أي "الكلب" والليوتان لياس، الليوتان لوسيان، الليوتان ميكال، و ٣٠٠ جندي وضابط صف.

أسماء شهداء معركة البوعمر - البوخابور:

حامد الزكي العبد الله، عبد المحمد الحسين، هلال الكميص، محيّد العبد الله الهزاع، حمود عبد الله التايه، حمد الخلف العساف، بالإضافة إلى مشاركة المرأة العربية في هذه المعركة وكن يقدم للثوار الماء والطعام ونذكر أسماء الجرحى منهم: جعفره المطلق، سوده النجم، هدله الدرويش، وغيرهن..

أما الجرحى من الثوار فهم: خليفة البدر المصطفى، خشان المحمد الصالح، علي الساري الهزاع، حمد الشيخ فارس، صالح الشاجي.

- ثورة خشام أو الغبازة:

بعدما جرى من اتفاق بين ثوار البوعمر، وبعد هدنة قصيرة قام الشيخ حمود الحمادي شيخ عشيرة الغبازة بثورة على الفرنسيين مستكراً الشروط التي عقدها ثوار البوعمر، أبناء عمومته والذي وقف معهم جنباً إلى جنب للقضاء على جميع القوات الفرنسية في دير الزور، وفي ٢٠ تشرين الأول ١٩٢١م، أمر حمود الحمادي جميع أبناء عشيرته بحفر الخنادق بين حقول الذرة وتعبئة كل ما لديهم من أكياس بالرمل، لجعلها

بمثابة متاريس قتلا، وفي ٢٤ تشرين الأول تقدمت قوة فرنسية معظم جنودها من السنغال بأمر الكومندان لاتورين، وعقب وصول القوة الفرنسية إلى منطقة (السن) اعتقلت السيدين حميد السليمان السهو، وجاسم السمين مختاري قرية الطابية ظناً منهم وجود الخوف والهلع في نفوس القرى الثائرة، إلا أن أهالي القرى الثائرة عمدوا العزم على متابعة النضال ضد العدو الغازي، وعندما فشلت الحرب النفسية التي اتبعتها العدو حاولت بمساعدة بعض الخونة بسلب ونهب المواشي والجمال وبلغ عدد حوالي ألف بين شاة وبعير، ومن ثم اتجهت الحملة الفرنسية إلى قرية جديد عكيدات وقتل أربعة جنود من السنغال وبعدها أمدت القوات الفرنسيين الجنود بالتوجه إلى محاربة الثوار في منطقة خشام وكانت القوة الفرنسية تتألف من خمسة أفواج مشاة سنغاليين، سبع كواكب خيالة سريعة، أربع بطاريات ٦٥ مم، فصيلة عربات وشاشة، فصيلة هندسية، نصف كتيبة خيالة سباهية، فوج من الفرقة الأجنبية (ليجون ترانجي) وأعطيت قيادة هذه الحملة إلى (الكومندان فان) واتخذ الفرنسيون (تلة السن) مراكز لها، ووزعت بطاريات مدفعيتها فوق هذا التل، ويعتبر موقعاً استراتيجياً من الوجهة العسكرية كونه يطل على قريتي مرط وخشام، وبدأت المدفعية و الرشاشات الثقيلة تصب حممها ونيرانها على الفصائل الثائرة تساندها الطائرات، تمهيداً لشن هجوم مدعم بالخيالة السريعة والمشاة، غير أن الثوار أبطلوا مفعول الهجوم، واستعملوا الخدع الحربية حيث اتفقوا على عدم إطلاق أي طلقة إلا وتكون القوة الفرنسية تحت المرمى المجدي.

تقدمت الحملة معتقدة بأن الثوار هربوا من شدة القصف وبناء على الخطة التي وضعها السيد حمود الحمادي والسيد عريبيد الشحيتز وأركانهم قاموا بوضع كمائن فدمروا استطلاع مهمتها مشاغلة العدو وكشف مرامييه.

هنا تقدمت سرية وتوغلت في أراض زراعية بقيادة الملازم (وينان) وجميع أفرادها من السنغال وأعطت الإشارات (الاسمافورية) أي الإشارات الحربية التي كانت تستعمل في الحرب الكونية الأولى، والتي حلّ محلها الهاتف واللاسلكي أنه لا توجد أية مقاومة ولا يوجد أي اثر، فأعطيت إشارة التقدم السريع إلى كافة أفواج المشاة، هنا أخذ ثوار خشام يرصدون تحركات العدو والأيادي تشدها قوة العزيمة والرجولة وكل ثائر وضع أصبعه على الزناد ينتظر إشارة إطلاق النار، ثم أخذت القوة الفرنسية تتقدم ببطيء وحذر، وما أن وصلت إلى خط التماس بخطوط الثورة حتى صدها النيران عن بكرة أبيها ووقع الهلع في صفوف الفرنسيين وعمت الفوضى، فأخذ الثوار يصبون

بنيران بنادقهم بإصابات محكمة وهوجمت القوات الفرنسية من صوب ودق حامل النفير دقات منقطعة مفادها أنه يطلب كتائب الخيالة والمحمولة بالعربات، لإنقاذ الكتائب التي وقعت في المصيدة، وطبقاً للخطة الموضوعة من قبل الثوار فقد قامت مجموعة منهم يرأسها عرييد الشحيتير وطايس بن حمود الحمادي لجريها نحو الموت المحتم، وفعلاً تم ذلك فقد اتجه قلب الحملة بأكمله نحو الزمرة وتظاهرت هذه المجموعة أنها قد ولت الأدبار واتجهت نحو الطرة، تقدم الفرنسيون يتبعون عرييد وجماعته، إلا أنهم وقعوا في الفخ المرسوم وغاصت خيولهم ومشاتهم في الطرة وهنا انصبت النيران عليها بغزارة ويروي الشهيد الحاج عرييد الشحيتير قبل وفاته القصة فيقول: (كنا لا نسمع إلا الصراخ الشديد بلهجة لا نفهمها وكلما زاد الصراخ، كلما زاد إطلاق الرصاص، ووقع الكثير من الجنود في الأسر وتم أخذ سلاحهم، وقد شاهدنا أن قسماً كبيراً منهم من تونس والجزائر والمغرب، ولما علمنا أنهم أخوة لنا وأنهم عرب أطلقنا سراحهم وأما لهم حياة حرة، أما الجنود السنغال فقد تم إعدامهم)، ويقول طايس الحمود الحمادي: بعد هذه الكارثة التي ألّمت بالقوة الغاشمة زج قائد الحملة بالاحتياطي من الجنود وكان الوقت ظهراً والحر شديداً ومن شدة إطلاق الرصاص وشدة الحر كنا نشعر أننا نحمل أنابيب ملتهبة، لا بنادق حربية، فكنا نضع على البطانات الأقمشة المبللة بالماء البارد وكنا ننتقل من نصر إلى نصر.

ظلت المعارك مستمرة حوالي شهر قتل من جنود السنغال حوالي (٤٠٠٠) سنغالي وضابط، ولكي تحسم القوة الفرنسية هذه المعركة زجت طيرانها بكميات كبيرة وانقضت على القرى القريبة ودمرها وقتل قائد المعركة، وبقتله انتهت المعركة فدخلوا القرية وحرقوا جميع المحاصيل الزراعية وهدموا البيوت وأتلفوا كل ما هو مفيد، وقبل مقتل حمود الحمادي الذي قتل هو وعرييد وطايس حوالي ثلاثمائة مستعمر صدرت الأوامر إلى القوة الفرنسية بمحاصرة قائد الحملة واسره مهما كلف الثمن وأعطت الأوامر الشديدة بعدم التعرض له، وفعلاً هاجمته قوة كبيرة وأخذ يمتطرها ببارودة عثمانية الصنع إلى أن قتل برصاصة طائشة أصابته في جبينه، هنا هجم عليه رقيب أول سنغالي وجز رأسه وقطعه وحمله على رأس حربته إيذاناً بانتهاء المعركة وفعلاً انتهت. ويقول طايس نجل حمود أنني قد دفنت والدي بدون رأس وتقول الروايات أن رأسه موجود الآن في متحف بباريس، وهكذا سطر أهالي قرية خشام جهادهم بأحرف التضحية والفداء وأن التاريخ سيظل يذكر هؤلاء الاشواس.

أسماء شهداء معركة خشام:

الشهيد حمود الحمادي، عبد الله العلي، عرسان الشخيتتر، حمادي الهايس، رمضان العبد الله، عزاري العجيل، جاسم الخليف الكريم، حسين البوسيف.

الأسلحة التي غنمها الثوار:

٢١ رشاشاً ثقيلًا وخفيفاً ماركة FM هوشكيز، ٣٢ حصاناً، ٢٨ بلغ، ١٥ فرساً، عدد قتلى العدو (٤٠٠٠) من بينهم قاد الحملة الكومندان فان والكابتن لاتورين.

ثورة الرقة قبل فصلها عن دير الزور:

في ١١ آب ١٩٢١ وبعد مضي ستة عشر يوماً على استشهاد يوسف العظمة في ميسلون بدأت حركة وطنية في الرقة واستلمت هذه الحركة الحكم في ١١ آب ١٩٢١ حتى ١٧ كانون الأول عام ١٩٢١ وكان (الأمير) حاجم بن مهيد يترأس هذه الحركة الوطنية وينتمي هذا الشيخ إلى قبيلة (عنزة) وكان يتمتع بذكاء حاد وعقلية مدركة مؤمنة بقيم سياسية سامية.

وقد عمل على تنظيم الحركة وأحسن تنظيمها حتى أن أعداءها الفرنسيين كانوا أكثر الناس دهشة غز وجدوه يرد عليهم شروطهم لاستسلامه وهي مرضية كزعيم عشائري (ولمصلحته كمستغل نفعي حسب تعبيرهم)، حيث كان جوابه لرسول الجنرال (دولاموت)، الذي أرسل يعرض عليه الدخول في الطاعة لقاء تعهد الجيش الفرنسي بالاستمرار في دفع رواتب جيشه الثائر وبتكليف الأمير بحماية حدود سورية الشمالية، وبمئة ألف ليرة عثمانية ذهباً دفعة أولى لشخصه، فكان جوابه إنه لم يقم بهذه الحركة ابتغاء مال أو منفعة زائلة وأنه إنما يدافع عن فكرة أمن بها وهي الدفاع عن دينه ووطنه.

وكان ينعتهم في كل المراسلات بأنهم أعداء الوطن والدين، بينما كان الأمير حاجم في هذه المراسلات يبين الدافع القومي الكامن وراء حركته الوطنية ففي أيلول (سبتمبر) ١٩٢٠ أرسل القائد التركي محمد نهاد باشا لمنطقة ماردين ما بين النهرين كتاباً إلى الأمير حاجم يرجوه فيه بعدم مناصرة رؤساء العشائر وعدم قبول دخالته/ لانضمام هذه العشائر للفرنسيين فأجابه الأمير برسالة يقول فيها: (إن أهالي الجزيرة بجملتهم وما حولهم من سكان وعشائر لما شاهدوا خيانة الفرنسيين وتجاوزهم على الممالك العربية وأشغالها غلت برؤوسهم الحمية واتحدوا ضد الفرنسيين وأعلنوا لهم الخصومة، كما أنهم

أعلنوا استقلالهم وفك الفرنسي، وأن هذه العشائر بضعتها نصبنتي ارتباطهم بالحكومة العربية الخاضعة للحكم رئيساً لهذه الحركة الوطنية.

فكان الدافع الأول لقيام هذه الثورة هي الحماية العربية فأخذت بالتنظيم الدقيق وتكتسب القوة بعد القوة، أرادت أن تقضي عليها بالمادة، فأرسل الجنرال (دولا موت) رسولا ليغري زعيم الثورة وبالإضافة إلى ما ذكرنا من العرض جاء مني العرض أن قيادة الجيش الفرنسي تتعهد بأن تستخدم جيش الحركة برواتب أفراد الحاضرة موكله إليه تحت قيادة الأمير حاجم كما تتعهد بأن تدفع لرئيس الثورة منحة مستعجلة قدرها ألف ليرة عثمانية، فإذا قبل الأمير هذه الشروط فإن عليه أن يرسل من قبله ثلاث مطاوحنين معتمدين ليقابلوا مفاوضي الجنرال دولا موت الثلاثة وهم الدكتور فرج الله، والسيد ازدشير، وضابط فرنسي برتبة (كابتن).

إلا أن رد الأمير كان حاسماً واستمرت الثورة في تنظيمها وقد منعت دخول أي جندي فرنسي على الرقة، فوجه الجنرال دولا موت حملة عسكرية لاحتلال الجزء الذي لم يستسلم للحكم الفرنسي.

القوات الفرنسية تزحف على الرقة:

توجهت حملة بقيادة الكولونيل (ترنكه أو ترانله) مؤلفة من القوات الفرنسية وقد انضمت إليها قوة من البادية برئاسة شيخ من شيوخ البدو ومن أسرة الأمير حاجم نفسه لإخضاع هذه المنطقة من حلب إلى دير الزور وذلك في أيلول من عام ١٩٢١، وعند وصولها الرقة عسكرت على الضفة الجنوبية من الفرات المقابلة لموقع الرقة على الضفة الشمالية، يقول الكولونيل ترانكه:

(بأن فرنسا جاءت لهذه البلاد لتقوم بواجب وهو تمدين الشعب وتأهيله إلى الاستقلال، لذا فعلى أهل المنطقة أن لا يأتروا بأمر هؤلاء المفسدين وأن يطردوهم من صفوفهم استعداداً لدخول قوات فرنسية، أما إذا لقيت، هذه القوة أية مقاومة عندما دخولها وإذا أطلقت طلقة واحدة فإن هؤلاء الستة الذين وجهت إليهم الرسائل يعتبرون عصاة مجرمين وسيقع أهل البلدة تحت طائلة العقاب الشديد، فكان هذا أول اصطدام جدي يقع بين الحركة وعدوها الرئيسي كما كان أول امتحان، فقام رجال الثورة في آخر الليل ولئلا يسمع الثوار وتنهار عزائمهم إلى تهينة رسالتين متضاربتين وجهت كل منهما عند الفجر إلى وجهتها، الأولى أرسلت إلى الكولونيل ترنكه ومعاونيه (الزعيم البدوي)، وفيها يعلنون أهل البلدة نزولهم على إرادة قيادة الحملة ولكن بلدتهم مليئة بالعصاة وأنصار

الأتراك فهم يطلبون ثمانية أيام تبقى الحملة أثناءها في معسكراتها في الضفة الجنوبية من الفرات ريثما يتمكن أهل البلدة من جمع السلاح من المنطقة والخلال من كل مشتببه به، والغاية من ذلك خداع العدو لوصول نجدات للثوار لأن عدوهم كان قليل وهو ألف جندي بدائي المعرفة وكان عدد رجال الدرك خمسة وسبعين، أما الرسالة الثانية فقد أرسلت إلى كنعان بك قائد الفرقة الخامسة للجيش التركي في مقره في أورفه وفيها أُنذِر (ترانله) من جواب اللجنة عليه وطلب بإمداد سريع بقوة من الجيش النظامي لتمكين البلدة من مقاومة العدو...

إن الغاية الأساسية من المعونة هو إرسال رجال أتراك مدربين ليقوموا بتدريب القوة الثائرة، كما أن قيادة الثورة هي المكلفة بتأمين السلاح لهم متعهدين بتأمين رواتب هؤلاء الأفراد طوال مدة بقائهم في خدمة الثورة، على أن تقدم الثورة مقابل هذه المعونة خدمة ليست يسيرة بأن تفتح جبهة أمام عدوها المشترك تخفف ضغط قواته على القوات التركية المحاربة في عينتاب، وقد حققت الرسالتان الغاية المنشودة، فقد لزمّت قوات الحملة الفرنسية معسكرها ستة أيام في انتظار إشارة تأتيها بأن الطريق إلى الرقة وسائر الجزيرة مأمونة^(٦٢٠)، بل إن بعض قواتها قد تحرك نحو دير الزور اعتقاداً بأن سرية رمزية كافية لدخول البلدة الصغيرة، وعندما عبر أحد الخونة الفرات من إحدى مخاضاته قاصداً قائد البدو المرافقين للحملة الفرنسية أبلغه أن الثوار قد طلبوا نجدة، فجنّ القائد الفرنسي وركّز مدافعه في موقع الشيخ أسعد على شاطئ الفرات وقصف المدينة بإحدى وثمانين قنبلة متوالية، وكان في حسابه أنها هدمت أرجاءها وحطّمت مقاومة الثوار فيها، وكان لدى الثوار مدفعان منصوبان على برج من أبراج السور التاريخي للمدينة ينتظران حتى يكشف العدو بنار مدافعه عن مكانه، حتى إذا استطاع الضابط الموكل بهما من حسابه أصلى الفرنسيين حمماً من قنابله كان موقعها من الدفة، بحيث عطلت مدافعهم عن العمل وقتلت سدنتها، فما كان من الحملة إلا أن تولّى الأدبار تاركة بعض مدافعها في أرض المعركة.

كان لهذا الانتصار الجزئي فعله الحاسم والسريع في العدو، كمثّل أثره الطيب عند الصديق، فالحملة الفرنسية تأثرت معنوياً بسلوك الخدعة الحربية على قياداتها، وآثرت ألا تدخل في امتحان آخر مع قوة هذه الثورة، وأكملت طريقها إلى دير الزور لاحتلالها

تاركة أربع من طائرات الجيش الفرنسي مهمتها إثبات وجود فرنسا في هذه المنطقة، ففي كل يوم كانت هذه الطائرات الأربع تأتي لتلقي على بلدة الرقة قنابلها، وكان الناس في البلدة يلجأون إلى مخابئهم، وكانت نية قائد الثورة متجهة لملاحقة الفرنسيين إلى دير الزور لكنه فكر في أن يتجه بقواته إلى حلب^(٦٢١)، فيقطع خطوط تمويل الفرنسيين في بلدة مسكنة ويحتل ضواحي حلب لاحتلال المدينة نفسها، حينئذ لن يكون أمر الحملة الفرنسية في دير الزور إلا كأمر طائر في قفص، وهكذا بدأ زحفه الكبير إلى حلب، بلغ عدد الجيش الزاحف نحو خمسة آلاف محارب كلهم فرسان بقيادة الأمير حاجم فعبر الفرات من مسكنة واحتلها متمكناً من النقطة الرئيسية لتموين القوات الفرنسية في دير الزور ثم احتل منبج والباب وسفيرة في انتظار معونة الأتراك التي وعدوا بها، ولكن يبدو أن القيادة التركية قد اتخذت آراء جديدة في موضوع الزحف إلى حلب^(٦٢٢)، ربما كان سبب ذلك النجاح السريع الذي حققته قوات الحركة الوطنية وربما كان اسبب تباين في الآراء بين قيادة العثمانيين العليا وقيادة مابين النهرين إذ تبين للأولى أن فتح حلب الذي يتولاه جيش يرفع الراية العربية لن يكون إلا فتحاً عربياً لدولة عربية، فقد انتظر حاجم بن مهيد أن تصله معونة آلاف جندي تركي، وكان يعتمد عليهم في مقارعة الجيش الفرنسي، انتظر تلك المعونة طويلاً دون جدوى، ومع ذلك فإنه تقدم إلى حلب فوصلت قواته إلى بساتين المدينة، وهناك بدأت الاشتباكات بينه وبين الفرنسيين، وكان أفسى مآثر في محاربيه المتطوعة غير المجبرين في حرب حديثة هجمات الطائرات المتتالية التي أوقعت الذعر في قلوب الخيل وفرسانها، فقرر حينئذ أن ينسحب بجيشه بانتظام وقد قاربت المدينة أن تسقط من يديه، وإذا كان الأمير حاجم أميراً بدوياً فقد كان في ركبه شاعره البدوي كعادة (الأمراء) الفرسان في عهود العرب الأولى، لقد عبر هذا الشاعر بتبين عن ذعره من هذا السلاح الذي لم يره أن يعهد فتكه قبل (سلاح الطائرات) فقال بلهجته البدوية: طيارة فوقنا حامت ذبت ببتمبات والبارحة العين مانامت ماتدري الصبح وشياتي!!

عاد القائد إلى الرقة بعد انهيار عزائم ثواره وبعد أن كشفت تركيا جناحهم أمام الفرنسيين، ولم يكتف الأتراك على هذه الخيانة بل أخذوا يفاوضون للصالح مع الفرنسيين والانسحاب عما بقي في أيديهم من الأراضي السورية دون أن يحسبوا حساباً لهذه الثورة

621 - الدخيرة، محمود: أهل الرقة، ص ٢٢٧-٢٢٨.

622 - شوحان، أحمد: تاريخ دير الزور، ص ٨٧-٨٩.

التي أعطتهم حليفاً صغره فعلاً، وفي مطلع كانون الأول عام ١٩٢١ عسكرت في منطقة العدو الجنوبية للفرات أمام الرقة قوة فرنسية تحمل أعلامها وأخذت تراسل، دون الالتفات إلى قادة الثورة الوطنية، القوة التركية الصغيرة التي كانت قد قدمت للمعونة الفنية للحركة الوطنية قبل انتهاء الثورة بيومين، طالبة تسليم البلدة إليها بناء على الاتفاقات المبرمة بين القيادتين الحربيتين التركية والفرنسية واتفاق أنقرة، وكان اتفاق العدوين ضربة قاصمة لهذا المناضل الذي أصبح وحيداً، ولما لم تفد كل محاولات الأمير حاجم وخططه في محاولة تثبيت كيان حركة أرسل في مساء ١٦ كانون الأول إلى رؤساء جيشه وأمرهم بتسريح أفرادهم بعد جمع أسلحتهم وقرر أن يغادر المدينة في الصباح، وكان جانبه مستشاروه الثلاث الذين تولوا في خلال خمسة عشر شهراً إدارة شؤون حركته الداخلية والخارجية وهم السادة: وهبي العجيلي وأحمد الحاج عبد الله وإبراهيم الملحم، كانوا إلى جانبه يصرفون أمور الساعات الأخيرة وفي أنفسهم لوعة الأسى، وفي السابع عشر من كانون الأول ١٩٢١ كانت الموسيقى العسكرية الفرنسية تدق بقوة لنزول الراية العربية وارتفاع الراية الفرنسية. (٦٢٣)

– انتفاضة الميادين أو حركة العبيد ١٩٤١:

عندما كانت حامية الميادين المؤلفة من نقيب فرنسي وجنود من السنغال تتوقع هجوم الثوار تواردت الأخبار عن قدوم سيارة تقل عدداً من الضباط الفرنسيين من أبو كمال فنضب الثوار لها كميناً قرب الميادين وكانت تتوقع حامية الميادين هجوم الثوار على السارة فأرسلت أربعة عشر جندياً لحمايتها وهنا دارت المعركة الرهيبة التي استعمل فيها المحتلون أسلحتهم الأوتوماتيكية والمدافع الرشاشة وعندها وجد الثوار أن عدم تكافؤ السلاح بين الطرفين سيؤدي في النهاية إلى القضاء عليهم بدؤوا بهجوم انتحاري وبدأت المعركة بالسلاح الأبيض وعندها حاول بعض جنود الاحتلال الهرب وبالفعل استطاع بعضهم ذلك ولكن ليقعوا بين أيدي الثوار في المدينة ويقتلوا بالخناجر والهرارات وقد غنم الثوار جميع أسلحة المشتركين بالمعركة.

– نضال أهل الرقة في زمن الاحتلال الفرنسي ١٩٢١:

في أواخر العام ١٩٢١ وقبل دخول الفرنسيين إلى الرقة، لم تستسلم الرقة لما يسمى بالانتداب الفرنسي ونتيجة ذلك حصلت معركة مابين الطرفين استعملت فيها

المدافع عبر نهر الفرات، وهدد الكولونيل (تراكنا) بسحق المدينة، إلا أنه لم يستطع احتلالها فسحب قواته إلى دير الزور عن طريق منطقة الشامية، ويذكر بأن المجاهد: جاسم الشعيبي من عشيرة المجامدة أسقط طائرة فرنسية وهي من البطولات الفردية آنذاك، وفي أواخر عام ١٩٢١ استسلمت القوات المدافعة عن الرقة للقوات الفرنسية التي جاءت من حلب واستعملت الطائرات لقصف الجيش الوطني إلا أنه هناك سلبات في هذا الشأن، ومنها أن مجحك بن مهيد شيخ الفدعان العنزة كان إلى جانب الفرنسيين يقاتل معهم برجاله، وحاجم بن مهيد مع الكتلة الوطنية التي اعتمدت على مساعدة الأتراك وعرفت هذا الفترة باسم (الدولة المجهولة) كما كتب عنها بعضهم، ويذكر الأديب الكبير: عبدالسلام العجيلي في كتابه (أحاديث العشيات عن وطنية حاجم بن مهيد) عشيرة العفادلة تشكل القسم الأكبر من محافظة الرقة باشتراك مع عشيرة الولدة التي ترجع نصفها الإداري إلى منطقة حلب، والنصف الآخر إلى منطقة الرقة، فالعبء الأكبر في ومضات النضال عند أهل الرقة تتحمله عشيرة العفادلة لأنها تحيط بالمدينة من جهاتها الأربع، ووجودها مجتمعة في منطقة الرقة منذ هجرة القبائل الزبيدية إلى المنطقة، وما هو معروف أن العرب شارع وخيمة، فشيخ العشيرة بحربها وسلامها، وعند دخول الفرنسيين الرقة ورفعهم العلم الفرنسي على دار الحكومة، وبعد بسط نفوذهم على المنطقة، فأول عمل قام به الحاكم الفرنسي هو أنه استدعى الشيخ أبا درويش أبا حبال، وهويدي الشلاش شيخ العفادلة آنذاك إلى مقره^(٦٢٤)، بحجة أخذ إحصاءات سكانية للعشيرة، وعندما قابله الشيخ، مدّ الحاكم الفرنسي يده للمصافحة، إلا أن شيخ العفادلة لفّ كفّه بردن ثوبه، ومدّها للحاكم كي لا يمس يده، وعندما سأل المترجم عن هذا التصرف قال له الشيخ هذا أجني خنزير بخس غاصب محتل، وأنا عربي مسلم نظيف القلب والجسد، فلا أريده أن ينجّسني بقذارته، فغضب الحاكم الفرنسي وأخذ في كل الأمور ينكّل بالعفادلة ويحرّض عليهم الفدعان، فكانت الورقة الفرنسية ضد أهل الرقة (أهل الريف طبعاً) وعلى رأسهم العفادلة هي الفدعان، وكان الفرنسيون يستخدمونها للضغط على القبائل المستقرة، لأن هذه القبائل لا تساوم على القضية الوطنية، وهذا ما كان يدركه الشيخ محمد الهويدي أيضاً الرجل الوطني المعروف، وجميع مشيخة عشائر البو شعبان أينما وجدوا، من المشلب والولده والبو

عبان وسواهم. ولا ننسى المجاهد محمد الجربوع القناص، والذي لا تخطئ له طلاقة، إذ إن الفرنسيين يحرضون الفدعان على العفالة، والعفالة على الفدعان كنوع من سياستهم البشعة، سياسة (فرق تسد)، والشيخ محمد الهويدي هو الذي قاد الحملة العشائرية التي استعان فيها برمضان الشلاش لنجدة دير الزور، والواقع أن هذه الحملة كانت آنذاك من كافة الفئات، لكن أغليبتهم من العفالة، لذا اختير محمد الهويدي لقيادتها، وقد اجتمعت مع من كان من رجال هذه الحملة وتحدثت مع أحدهم، إذ روى أن فرنسا قتلت المعركة من نيران الرشاشات التي ركزت فوق الثكنة "فشاهد العيان أكثر مصداقية" وهناك من يقول: "لو تكلم الموتى لكان التاريخ أسطورة سخيفة". وفي ٤/ تموز عام ١٩٤١م، وعندما دبّ الخلاف مابين الديغوليين والفيشييين، هجم العفالة على بلدة الرقة وعلى الثكنات العسكرية وأحرقوا وحصلوا على السلاح والعتاد بثورة غاضبة. (٦٢٥)

وقد استطاع الفرنسيون إخمادها، واعتقلوا بشير الهويدي شيخ العفالة ونقلوه إلى تل أبيب ورموه بالرصاص، لكنه نجا بأعجوبة، إذ مزق الرصاص ثيابه وربطوه إلى شجرة في بستان، إلا أن ثلاثة من رجال عشيرة البوعساف الشعبانية الزبيدية خلّصوه وجأؤوا به إلى مضافة (البيجات)، وكان التعب والإعياء قد أنهكه، فطلب منهم أن ينقلوه إلى أهلهم في قرية المشلب قرب مدينة الرقة، والتي أصبحت من أحياء المدينة اليوم، وفعلاً جاؤوا به على عربة تجرّها الخيول، وفي طريقهم من تل أبيب إلى الرقة صادفهم (عبيد بن غبين) العنزي يركب سيارة فحملة إلى بيته. وقبل ٤/ تموز ١٩٤١، وتحديداً عام ١٩٣٩م^(٦٢٦)، حرّض الفرنسيون الفدعان على العفالة، لإدراكهم أن هذه القبيلة هي القوة التي تقف ضدهم فلا يضاهيها في القوة غير الفدعان، وحصلت موقعة بين الطرفين، واستطاع العفالة أن يهزموا الفدعان على الرغم من وجود المصفحات الفرنسية، وذهب نتیجتها عدد من القتلى والجرحى، وتسمّى هذه الموقعة في تراث الرقة (يوم الخفية)، وقد اعتقل الفرنسيون جاسم الهويدي شقيق الشيخين محمد وبشير الهويدي، لأنه عقيد العفالة أثناء المعركة، وقتل أثناء هذه الواقعة، وعقيد الفدعان (ابن خبيب) كان ذلك بتحريض فرنسا للطرفين، وعند اعتقال جاسم الهويدي حصل شجار عنيف بين (دنجليه) الحاكم العسكري، والشيخ محمد الهويدي، إذ رفع محمد الهويدي

625 - المسلط؛ صالح: صفحات من نضال الجزيرة السورية، ص ١٤٥.

626 - الدخيرة؛ محمود: أهل الرقة، ص ٢.

إصبعيه إلى عيني (دنجلييه) وقال له: ألق عينيك بإصبع هذه إن لم تكفّ عن فتنتك وتحريضك للقدعان علينا، نحن أخوة، وأنت كافر أجنبي تحتل بلادنا طامعاً بخيراتنا، وفوق ذلك تحرّض أهل النفوس المريضة الذين لا يدركون مقاصدك للأسف همهم المال فقط، ويعني بعض الفئات الموالية لفرنسا، واقتيد جاسم الهويدي إلى معتقل (سجن) في دير الزور.^(٦٢٧) وقد بلغ عدد الجنود الذين اشتركوا في هذه المعركة قرابة /٢٥٠/ جندياً، قتل منهم /٣٥/ بين جندي وضابط.

انتفاضة القورية^(٦٢٨)

قرية القورية تبعد /٥٠/ كم عن دير الزور، وينتمي أهل هذه القرية إلى عشيرة العكيدات، وهم أولاد عم العنابزة، البوعمر. وقد عزّ على أهل هذه القرية العربية أن تشاهد الغازي يقتل وينهب ويسلب ممتلكات أولاد أعمامهم في قرية (خشام)، فعقدوا العزم على مهاجمة سرية فرنسية كانت تعسكر بالقرب من قرتهم، وكان القتال قوياً، تلاصقت فيه أجسام المحاربين وقتل الثوار عدداً لا يستهان به من السرية، وكان ذلك في نيسان عام ١٩٢٤م.

انتفاضة بياندر:

بدأت القوات الفرنسية بعد احتلال الجزيرة العليا في عام ١٩٢٢م تضغط على عشائر شمّر وحليّ، وتتدخل في شؤونهم العشائرية، لكن هذه العشائر أبت عليها تقاليدها العربية أن تخضع لأحكام غير أحكامها، وعندما كانت إحدى فصائل الهجانة الفرنسية تقوم بدورية على الحدود التركية السورية، اعترضت جماعة من العشيرتين بغاية الإزعاج، فما كان من بقية العشيرتين إلا الانقضاض على الفصيلة بتاريخ ١٩٢٢/٥/٧م، وقتلوا قائدها (برتوري)، فقدمت قوات فرنسية لنجدة القوات المطوقة، لكن بعض العشائر أبناء عمومة هاتين العشيرتين أوقعوا القوات المنجدة بكمين، وهنا قامت جماعة من الثوار بمهاجمة موقع (بهندور أو بياندر) الذي يضم سريتين من قوات الاحتلال، وقضوا على أكثرها، وقتل جميع ضباط الموقع، وبلغ عدد القتلى حسب ما جاء بكتاب (كفاح الشعب السوري-إحسان هندي) ستون قتيلًا.

ثورة البوكمال ١٩٣٢م:

627 - شوحان؛ أحمد: تاريخ دير الزور، ص ١١١-١١٢.

628 - شاهين؛ مازن: تاريخ محافظة دير الزور، ص ١٧٤.

بعد احتلال منطقة الميادين في عام ١٩٢١م، دخلت القوات الفرنسية مدينة البوكمال واستلم الفرنسيون الحكم بهدوء، ولعلّ السبب في ذلك يعود إلى النوع الفريد من ضباط الاستخبارات، الذين أرسلتهم القوات الفرنسية إلى هذه المنطقة الحساسة، واتصفوا بالحكمة وضبط الأعصاب بعد ثماني سنوات على الاحتلال، حينما أخذت توفد ضباطاً من نوع آخر يتمتع بعقلية القرون الوسطى، وكانت بداية التحويل في سياسة الفرنسيين عام ١٩٢٩م في المنطقة من تعقل ولين إلى حماقة وطيش فعيّنت القيادة الفرنسية ضابطاً برتبة كابتن يدعى (تاكيه)، ولهذا الضابط طباع شرسة لا يستقبل الناس إلاّ وببده خنجر لإرهابهم، وأخذ هذا الضابط يسخر من زعماء المدينة بسبب أو لغير سبب، فعرضوا أمره علر رؤسائه، ولكن دون جدوى، بل على العكس أيدّ الرؤساء القساوة، عندئذ ظهرت الخطوط العريضة لسياسة الشدة التي سوف يستعملها الفرنسيون، ولهذا وضعت الخطط المعاكسة لتلك السياسة، وكان علمها يتصل بالكابتن تاكيه، وأخذ الموقف ينتقل من سيء إلى أسوأ، وفي عام ١٩٣٢م وقع خلاف بسيط بين بعض أفراد عشيرة الحسون، وبين نفر من جند الحرس السيار (الكاردموبيل)، ففرضت السلطات الفرنسية على العشيرة جزية، وهي عبارة عن بضعة عشر بندقية حربية، وكان هذا الإجراء التعسفي ضربة للتتكيل بالعشائر إذا ما بدت منها بوادر التمرد، ولكن الشيخ مشرف الدندل أصدر قراراً بإعلان الثورة على الحكومة الفرنسية، وعندما علمت السلطات بهذا طلبت نجدة عسكرية من دير الزور قامت بتطويق مدينة أبوكمال، فتصدّى لها الثوار، ونصبوا الكمائن، وقتل في هذه المعركة عشرة جنود وضابط برتبة كابتن يدعى (شوفليه) في موقع (أبي سيباط)، واستخدمت السلطات الفرنسية المدفعية الثقيلة بضرب المدينة لمدة ثمان وأربعين ساعة، اضطر المجاهدون بعدها للانسحاب إلى العراق، ولم تكن خسائرهم تزيد على ثائرين، وانتقاماً لذلك اعتقلت السلطات الفرنسية السيد عبدالله الدندل ومحمد الهامه من زعماء الثورة^(٦٢٩)، وزجّت بالأول في سجن بيروت، والثاني بسجن دير الزور، ومالبت عبدالله أن فرّ من السجن، على حين توفي الهامه، وأصدر المجلس العسكري في باريس حكماً بإعدام الشيخ مشرف الدندل وأخيه الشيخ رجا، وبالسجن لمدة عشرين عاماً، وبالنفي على كل من سطات المنوخ،

ومحمد النزاع، ورجا السطم. وبقي الشيخ مشرف في العراق إلى أن تمّ جلاء القوات الفرنسية عن أرض الوطن.

سجلت بدءاً من عام ١٩٣٣م حركة وطنية ناشطة في دير الزور، ولاقت هذه الحركة صدى في صفوف الشعب، وأخذت تتصاعد بشكل كبير، ولاسيما في مدينة دير الزور، إذ بدأ دور الطلبة الكبير في تصعيد العمليات الثورية، وفي الريف ترافق الجانبان الوطني والطلاي فهيت الثورات في كل مكان، وأصبح الشعب يعلن دون خوف مطالبه بالاستقلال وطرد المستعمر الفرنسي، ولم تهدأ الأمور إلا بعد أن استخدم الفرنسيون قواتهم المدعومة بالهجانة فهدأت الأمور على ضفتي الفرات.^(٦٣٠)

ثورة عام ١٩٣٠-١٩٣٦م:

كانت دير الزور في هذه الأعوام قد قاومت الاحتلال الفرنسي أشد مقاومة، ومن خلال الحوادث التي وقعت من عام ١٩٣٠ إلى ١٩٣٦م نستنتج الكثير مما عانى منه أهالي دير الزور، إذ تحولت المدينة من الإيجابية إلى السلبية المنظمة، فنظم قسم من الشباب الخلايا السرية، والغاية منها تهيئة الشعب ثورياً وقومياً، وهذا ناتج عن روح عربية أصيلة.

وإن لهذه المدينة تاريخ عريق، فقد عرفت دير الزور أول خلية سرية عام ١٩١٩م، قام بتنظيمها المرحوم تحسين الجوهرى، والسيد ثابت العزاوي، والمرحوم الشيخ محمد سعيد العرفي، والسيد أمين عليوي، والأستاذ محمد الفراتي، وقامت هذه الخلية بأعمال مجيدة، كان لها الفضل الأكبر في بثّ الروح الوطنية للمستقبل البعيد.

وكان لها اجتماعات دورية لاترتبط بأي جماعة خارج دير الزور، وعندما قويت بدأت توجه الجماهير بالصحف اليومية حينذاك، فقد كتب الأستاذ ثابت عزاوي مقالاً هاجم فيه السلطات الفرنسية، فكان للمقال أثر كبير في نفس الحاكم الفرنسي، فألقى القبض على الشيخ سعيد العرفي متهماً إياه بأنه هو كاتب المقال، وقررت السلطات الفرنسية نفيه خارج مدينة دير الزور، ونفي فعلاً إلى أنطاكية ومصر من عام ١٩٢٢م إلى عام ١٩٣١م، لكن هذا العمل زاد المقاومين شدة وتصميماً، وكي تكون الأعمال الوطنية منظمة، قام شباب من أهالي دير الزور بتنظيم النوادي الرياضية والأدبية والجمعيات السياسية ذات المغزى القومي، فعن طريق الخطابة والتمثيل والرياضة كانت

تهيئ الجماهير وطنياً. فأنشئ نادي الفرات الأدبي بتاريخ ١٩٢٩-١٩٣٠م برئاسة الأستاذ ثابت عزاوي^(٦٣١)، ومن أعضائه السادة نجم مدلجي. ثم نادي الجراح الرياضي برئاسة السيد عبدالقادر فرحان الفياض في عام ١٩٣٠م، ولهذا النادي أهمية تاريخية كبرى سنتحدث عنها لاحقاً. ثم نادي جمعية الألعاب الرياضية، ومن أعضائه السيد قاسم هنيدي، وحسن أحمد بك، وبشير الحاج فاضل، وعبد الصمد فتوح، وتوفيق الشيخ عطية.

أحداث عام ١٩٣٠م:

جرت مباراة ملاكمة في عام ١٩٣٠م بين أحد الفرنسيين من سلاح الطيران والسيد فريد عليوي، وكان حكم المباراة فرنسياً، والسيد توفيق قنبر، فانحاز الحكم الفرنسي لبني جلدته، فأثار ذلك التحيز نقمة الجماهير، فألقى السيد توفيق قنبر كلمة في المشاهدين وهي الشرارة الأولى للمعركة، فاصطدمت الجماهير بالقوات الفرنسية التي كانت تشاهد تلك المباراة وجرت معركة بين الطرفين وقع ضحيتها عدد كبير من الجرحى.

ولأول مرة تشترك المرأة الديرية بالمعركة، فقد أدت السيدة (فاطمة بنت جاسم الجذمور) دوراً بطولياً في هذا الحادث، فقد رأت ثلاثة من جنود السنغال يركضون وراء شاب لضربه فاعترضت طريقهم كي تسهل له الهرب، وألقت في وجوهم (فليفلة حمرة) فأنفذت الشاب. وفي اليوم الثاني اعتقلت السيدة فاطمة ومعها /٥٧/ مواطناً سيقوا جميعاً إلى حلب وسجنوا في خان استتبول لمدة /٢٢/ يوماً لقوا فيها أقسى أنواع العذاب، ومنهم من سجن في سجن المنارة في بيروت، أما السيدة (فاطمة) فقد حكم عليها لمدة شهر قضت منه /١٩/ يوماً يوماً في دير الزور، والباقي في سجن المنارة في بيروت. ونذكر من الذين سجنوا السادة: قدور الشلاش الملقب ابن بدوية، وموسى العلي التركي، جميل جمعة اليوسف، ومحمد الأحمد الحاج حسن، ثابت علوان الحاج حسن، وإبراهيم الجدعان الفرج العبود، وحمادي الياسين الرداوي، وسنون سليمان الهزاع، وعمر البربوري، وصدوق الحاج محمد.^(٦٣٢)

عصبة العمل القومي:

كانت هذه العصبة أول تنظيم سياسي قومي في دير الزور، وقد قام شباب هذه العصبة بأعمال بطولية كان لها الأثر الكبير بتوسيع النشاط الوطني في المدينة، فقد

631 - رويلي؛ محمد رشيد: الحياة الناقفية، ١/١١٧.

632 - الجندي؛ أدهم: صفحات منسية، ص ٨٦.

اجتمعت في قرية (قرنايل) النواة المركزية لهذه العصابة في لبنان، ووضعت لها منهجاً سياسياً، ومن مبادئه الوحدة العربية الشاملة من المحيط إلى الخليج، والأمة العربية وحدة لا تتجزأ، ومن أهدافها أنها لا تقبل بين أعضائها إلا من كان عربياً أصيلاً، وكان أمين سرّها العام الأستاذ المحامي عبد الرزاق الدندشي، أمّا من دير الزور فقد انضم إليها جميع الشباب الوطني. (٦٣٣)

وكان لهم الفضل الأكبر في مقارعة الاستعمار الفرنسي، وبثّ الروح الوطنية في نفوس أهالي دير الزور، وتألفت لجنة إدارية لهذه العصابة في دير الزور، أسندت أمانة السر للسيد عبد الكريم الفرحان الفياض، ومن أعضائها السادة: جلال السيد، توفيق الشيخ عطية، ثابت عزاوي، عبد الحميد الصباغ، طاهر المفتي، حسين جاهد، ذاكر عواد، بشير الحاج فاضل، عبد المجيد الصباغ، راغب صائب، راتب عزاوي، جمعة الساعي، سنان الشيخ عطية، إبراهيم مدلجي، ضياء صائب، عبد الحميد الخلوف. وكانوا ينظّمون المظاهرات وإلقاء الخطب، ويقومون بتوزيع المناشير التي تدعو الشعب إلى الثورة، وقد بقيت هذه العصابة تعمل إلى أن جمدت عام ١٩٣٧م.

معركة عامودة عام ١٩٣٧م:

كانت معركة عامودة ومحيطها مركزاً لثورة وطنية عارمة بزعامة سعيد آغا الدقوري، ومعه الوجيه يونس عدي، وقد اتخذت هذه الثورة بزعامة سعيد آغا منذ دخول الفرنسيين موقفاً وطنياً، وبدأت بالنضال والنشاط الوطني، وبالتنسيق والتعاون مع القوى الوطنية الأخرى بالمحافظة، وبالدرجة الأولى مع الوطنيين في القامشلي وقراها، أمثال: محمود وحسين أسعد ومع آل نظام الدين وزكي جلي وغيرهم، ومع الشيخ دهام الهادي، ومع الزعماء الوطنيين أمثال: حسن سليمان محمد غنام وآل السلومي وبقية القادة الوطنيين بالمحافظة، أمثال: زهدي بيك الملحم، وجميل المسلط، وعزت سليم بيك وعبد الكريم العيسى وآل العليوي وفرحان عيسى، وعيسى قطنة، وسعيد إسحق، وكانوا على صلة مع الثائر إبراهيم هنانو وغيره من القادة الوطنيين. (٦٣٤)

وخاضت هذه المجموعة معارك وطنية، ونظّمت أعمالاً جماهيرية ضد الاحتلال الفرنسي وضد عملائه بالمحافظة، مؤكّدة ضرورة النضال حتى إجلاء آخر جندي من أرض الوطن، ومستتكرة محاولات فصل الجزيرة. وقد شكّل سعيد آغا وفداً سافر إلى

633 - قرقوط؛ ذوقان: تطور الحركة الوطنية في سورية، ١٩٢٠-١٩٣٠م، دمشق، دار طلاس، ط/١، عام ١٩٨٩م، ص ١٧٨.

634 - المسلط؛ صالح هوش، صفحات منسية من نضال الجزيرة، ص ٧٠.

دمشق يحمل عريضة عليها توقيع عدد كبير من الوطنيين يعلنون فيها إصرارهم على الاستقلال التام، وإدانتهم لمحاولات فصل الجزيرة، وكان الوفد مشكلاً من سعيد آغا وعيسى عبد الكريم وشيخموس هسو ويونس عدي، والشيخ جميل المسلط، والشيخ محمد الطائي، والشيخ دهام الهادي. وقد قابلوا القادة الوطنيين وسلّموا العريضة للجهات المعنية. وصلت الأخبار والمعلومات للفرنسيين وبدؤوا بوضع خطة للانتقام فحرّكوا عملاءهم لاستفزاز الأهالي، وفي تموز عام ١٩٣٧م، قامت الطائرات الفرنسية بقصف عامودة، وألقت القنابل بالمئات على البلدة الآمنة، دمرت أحياءً وحرقت أخرى، ثم بدأت قوة من المشاة الفرنسية وعمالهم بنهب ممتلكات المواطنين، واستشهد العديد منهم ووقع العديد من الجرحى بينهم حسين حمدون وملا فخر المدلجي وسلطانة سفر وصالح حسو وشريفة بكى وآخرون. (٦٣٥)

كما قامت الطائرات بقصف قرى الوطنيين، فقصفت قرية تل حبش، ودمرت العديد من بيوتها، واستشهد أربعة من سكان القرية، وقضي على قطعان من الجمال بالكامل، وقصفت قرية قره قوب، واستشهد مختارها هدو، وقصفت قرية تل خنزير أيضاً بالقنابل، واستشهد على أثر ذلك أحد المواطنين، كما حرق الفرنسيون ودمروا دار طاهر محمود بقرية هيمو.

فاضطر سعيد آغا وإخوانه للخروج من بلدة عامودة ولاحقهم الطائرات الفرنسية باتجاه تركيا فرفض الأتراك إدخالهم فاضطروا العودة والاتجاه نحو العراق، وكانت القوات الفرنسية تلاحقهم حتى دخولهم الأراضي العراقية، وأصدرت الحكومة الفرنسية آنذاك أحكاماً جائرة بحقهم وصلت إلى الإعدام، وبقوا هناك فترة من الزمن نهبت خلالها ممتلكاتهم. (٦٣٦)

معركة السفح:

كان الفرنسيون يمارسون أبشع أنواع الاضطهاد والاستغلال في هذه الفترة، إذ لم يسلم أحد من شرورهم، بما فيها منطقة رأس العين وبعض قراها، وكان لعزت سليم بيك وصالح الأتبي موقف وطني مشرف، إذ تلاحموا ونصبوا كميناً لمفرزة فرنسية عند قرية السفح رداً على تصرفاتهم الهمجية، ونشبت معركة دامت ساعات طويلة جرى

635 - المسلط؛ صالح هوش، صفحات منسية من نضال الجزيرة، ص ٧٠-٧١.

636 - علوان؛ إبراهيم: النضال القومي، ص ٨٦.

فيها القضاء على المفزة الفرنسية والكابتن (جريناس) واستبسلوا فيها كعاداتهم، ونصب الفرنسيون تمثالاً للكابتن جريناس.

تشكيل الكتلة الوطنية في الجزيرة:

في عام ١٩٣٣م قدم إلى الحسكة من دير الزور محمد الفتيح الذي كان يدعو إلى الكتلة الوطنية، وأخذ يتصل سرّاً ببعض الشخصيات من أجل تنظيمهم في الكتلة، وعندما قامت الثورة السورية الكبرى عام (١٩٢٥-١٩٢٧م) بنفي قسم كبير من رجال الثورة أمثال شكري القوتلي وسعد الله الجابري وفوزي الغزي وفارس الخوري والدكتور الشهبندر وجميل مردم إلى مدينة الحسكة حيث تسيطر القوات الفرنسية على المدينة، وفرضت عليهم الإقامة الجبرية، وخلال إقامتهم في الحسكة اتصل بهم الشيخ جميل المسلط شيخ قبائل الجبور، ودهام الهادي شيخ قبائل شمّر، وسعيد الدقوري من زعماء الأكراد، وحمادي السلطان، سرّاً، ونفر من المواطنين وشيوخ القبائل، وتمّ تشكيل الحزب الوطني في الجزيرة ثم تحولّ هذا التنظيم إلى ما عرف بجماعة القمصان الحديدية والذي ضم عدداً كبيراً من المواطنين ثم تحولت جماعة القمصان الحديدية إلى الحزب الوطني المعروف، إثر قدوم نبيه العظمة، وأنشأ الحزب الوطني فيها، وردت القوات الفرنسية على هذا التنظيم بتنظيم معاكس ضم بعض الفئات الموالية للسلطة الفرنسية، فتشكل في الجزيرة ما عرف باسم الإشارة البيضاء، إلا أن هذا التنظيم لم تكتب له الحياة بسبب اكتشاف أمره من قبل المواطنين وارتباط أعضائه بالسلطة الفرنسية. (٦٣٧)

ثورة ١٩٣٥-١٩٣٦م:

جميع المحافظات السورية اتصف إضرابها الخمسيني بالهدوء، إلا محافظة دير الزور فقد حدثت فيها اضطرابات دموية وقع فيها شهيدان وجرح عدد كبير، وترتبط أسباب هذه الثورة بحدث سياسي هام، إذ أرادت السلطات الحاكمة تنفيذه في عام ١٩٣٥م، لكن الوعي القومي الذي اكتسبته المدينة من التنظيمات السياسية قد نبّه الأهلين إلى اللعبة المراد تنفيذها، وقامت السلطات الفرنسية في عام ١٩٣٥م بالعمل على فصل الفرات والجزيرة عن سورية وجعلها مستعمرة فرنسية تتجمع فيها كافة الأقليات، وفي شهر شباط من عام ١٩٣٦م جمعت السلطات الفرنسية رؤساء العشائر لتوقيع عريضة

الانفصال بتحريض من الجنرال (جاكو) المندوب السامي بدير الزور، ولكن أهل دير الزور اتخذوا الإجراءات الكفيلة بقتل هذا المشروع، وأهانوا المجتمعين بعد انتهاء الاجتماع في (ساحة الحدادة) وهرب منهم من هرب وفشل الاجتماع الذي هيأت له السلطات الفرنسية كل أسباب النجاح، فأضربت المدينة إضرابها المشهور تضامناً مع المحافظات السورية.

وكانت المدينة في ذلك الوقت قد قسمت إلى قسمين، قسم يؤيد الكتلة الوطنية الحاكمة، وجلّه من الرجال والشيوخ، والقسم الثاني من الشباب، وسمي بالشباب الوطني أو (الوطنية)، ويتألف القسم الأول من السادة: تركي النجرس، تركي المحمود، محمد الفتيح، ياسين الطبال، محمد الهندي، محمد العايش،...، والقسم الثاني يتألف من السادة: عبد القادر فرحان الفياض، عبد القادر علوني، عبد الصمد فتيح، إسماعيل العاني، جلال السيد، بدري الصباغ، وبقية أعضاء عصابة العمل القومي. وقام هؤلاء بإلقاء الخطب في الجامع الكبير، وعلى إثر هذه الخطب نظمت المظاهرات الحماسية التي تتدد بالحكم الفرنسي وتطلب الجلاء عن أرض الوطن، وفي صباح ١٠/ شباط ١٩٣٦م جرت مقاومة بين السلطات الفرنسية والمتظاهرين وعلى إثرها هاجم الثوار دار المندوب السامي الجنرال (جاكو) وكسروا النوافذ وجميع أثاث بيته، وقتل في هذه المعركة المرحوم (رشيد الياسين العبوش) الملقب (رشود الديمة) وحمود الصكر وأحمد الشاوي، وبعد أن تمّ احتلال دار الجنرال (جاكو) وإنزال العلم الفرنسي ورفع العلم السوري نزلت قوات فرنسية كبيرة واحتلت مفارق الطرق ومنعت التجوال، وفي مساء ١١/ شباط ١٩٣٦م سمعت طلقات نارية من دار الجنرال، فسرها السيد سنان الشيخ عطية مراسل جريدة الأيام حينذاك بمقالة أرسلها للجريدة (أن الجنرال جاكو قد انهارت أعصابه من جرّاء المقاومة الشديدة وأخذ يحلم في المنام بأن الثوار هاجموا وأخذ يخاف حتى من خياله، لهذا أطلق الرصاص، وما هذا إلا من قبيل الجبن والخوف) وفي اليوم الثاني ألقت السلطات الفرنسية القبض على جميع زعماء المدينة، والغاية من ذلك قتل الروح الوطنية، وعدّ هؤلاء كرهائن حتى تهدأ الحالة.

كما قامت باعتقال السادة: بشير الحاج فاضل، وسنان الشيخ عطية، والمدعو عبّار المصطفى الذي عرقل تقدم زمرة فرنسية كانت تود إلقاء القبض على أحد الثوار، وهو محمد الحسن، إذ أمطرها برصاص مسدسه الذي استحصل عليه من مرافق الجنرال جاكو الخاص بعد أسره، وقد جرح في هذه المعركة، لكن المدينة هددت بأسرها بالثوار

إذا لم تخرج السلطات جميع المعتقلين، وذهب وفد لذلك مؤلف من السادة: راتب عزاوي، حسن عياش، عبد الكريم علوني، سعاد صائب، وفعلاً أفرجت السلطات عن جميع المعتقلين ما عدا السادة: بشير الحاج فاضل، سنان الشيخ عطية، عمار المصطفى، فقد بقي هؤلاء رهن الاعتقال، فأرسل الجنرال جاكو في طلبهم واقتيدوا إلى دار للتحقيق معهم، وكان الجنرال يرتدي كافة الأوسمة العسكرية التي حصل عليها، وكان مضطرباً جداً، وعند مثول الثلاثة أمامه فأول عمل قام به سأل عن اسم كل واحد منهم، فتقدم السيد سنان الشيخ عطية وقال له: أنت الذي تقول إن الجنرال جاكو جبان، أنا لست بجبان... أنا أحمل أرفع وسام عسكري من موقعة فيردان وأرفع وساماً عسكرياً في موقعة ميسلون، وأنا لا أخاف... كما وجه كلامه للسيد بشير الحاج فاضل وللسيد عمار المصطفى، ثم أخرج الجميع من داره بعد الإهانة، وأطلق سراحهم. (٦٣٨)

دير الزور وثورة رشيد علي الكيلاني:

شارك أهالي دير الزور بهذه الثورة بالمال والسلاح والرجال، فقد كانت هنالك لجنة لنصر ثورة الكيلاني مؤلفة من السادة: عبد اللطيف الفرحان الفياض، عبد الكريم الفرحان الفياض، عبد القادر الفرحان الفياض، جلال السيد، سعيد السيد، حسين جاهد، وغيرهم من الشباب الوطني، حتى أن بعض الشباب سافر إلى العراق مشياً على الأقدام.

وكانت مهمة اللجنة جمع المال لشراء السلاح وتهريبه إلى العراق عن طريق البادية، وعندما فشلت الثورة وجاء ثوار فوزي القاوقجي إلى دير الزور استضافتهم المدينة وقدمت لهم كل ما يحتاجونه من طعام وسلاح، وعندما دخلت القوات البريطانية إلى دير الزور قادمة من العراق قامت باعتقال السادة: عبد الكريم الفياض، سعيد السيد الذي كان مديراً لناحية البصرة، ونقلوا إلى حلب وسجنوا في خان (الشربجي)، ثم نقلوا فيما بعد إلى بيروت، إذ أودعوا سجن (المية وقية) ومكثوا فيه حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، واستشهد أثناء المظاهرات الواقعة سنة ١٩٣٦م الشهيد جمعة عبد الله، من أهالي دير الزور، والشهيد ريم الريم الباقر. (٦٣٩)

محاولة فصل الجزيرة والفرات عن سورية عام ١٩٣٧م:

638 - شوحان؛ أحمد: تاريخ دير الزور، ص ١٠٤-١٠٦.

639 - الجندي؛ أدهم: صفحات منسية، ص ٨٨.

قام الفرنسيون تحقيقاً لهدف الاستعمار تجزئة البلاد بمحاولة فصل الجزيرة والفرات كلياً عن سورية، وقد اجتمع شيوخ القبائل في الجزيرة ونواب الجزيرة ودير الزور في مدينة دير الزور، وطرح مندوب المفوض السامي الفرنسي هذه الفكرة، فلاقى معارضة شديدة من قبل شيوخ العشائر: الشيخ حماد السلطان، والشيخ دهم الهادي، وممثلين آخرين عن دير الزور، ولما علم الشعب بهذا الاجتماع داهم مقر الاجتماع، وتعرض بعض الأعضاء الذين أبدوا تأييدهم لهذه الفكرة للإهانة من قبل الجماهير، كما أن جماهير الشعب العربي في الجزيرة استطاعت تزويد الوفد المفاوض في باريس بالعرائض الموقعة من الجماهير مستكرة محاولة فصل الجزيرة عن سورية، فظهرت الروح القومية والوطنية في الجزيرة وتجلت في المواقف الوطنية العديدة في كل شبر من الجزيرة، فاضطرت السلطة الفرنسية إلى إرسال ممثلين عنها من أجل تهدئة الأحوال والسيطرة على الأمن.^(٦٤٠)

واحتدم الصراع بين القبائل بتحريض من الفرنسيين، وناضلت القبائل الشعبانية الزبيدية بالرقعة ضد الاحتلال بأساليبه المتعددة، وفي واقع الأمر كان يدير سياسة القبائل الوطنية هذه الشيخ محمد الهويدي، لأنه كان يدرك معنى الأرض والوطن، إلا أن الفرنسيين لم يتوقفوا عن مؤامراتهم الدنيئة، وقاموا بأبشع جريمة في تاريخ الرقعة الحديث، إذ إنهم حرّضوا بعض القبائل العربية على عشيرة الولدة في آب عام ١٩٤١م، وحدثت مجزرة استعملت فيها الرشاشات الفيشية الحديثة ضد الولدة آنذاك، وذهب ضحيتها الكثير من القتلى من الطرفين، وهذا مايسمى في تراث الرقعة (ذبحة الولدة)، وعلى الرغم من أن القتلى من الطرف المعتدي كان الأكثر، إلا أن المفاجأة كانت أثقل على الولدة، فهب البوشعبان للوقوف إلى جانب الولدة غير أن الفرنسيين أخذوا جاهدين بتهدة الأوضاع، لكن العفادلة لم يسكتوا فقاطعوا الفرنسيين وسجن الكثير منهم في السجون، وأرادوا الانتقام من القبائل العربية، وحصلن مناوشات عديدة دائماً كان العفادلة هم المسيطرين، وحاول الفرنسيون جاهدين كسر شوكة العفادلة لكنهم لم يفلحوا، فقد ظل هاجسهم الوحيد الانسحاب والاستقلال، ويذكر الشغيبي من المجاهدين، إذ أسقط طائرة فرنسية.^(٦٤١)

640 - شاهين؛ مازن: تاريخ محافظة دير الزور، ص ١٩١.

641 - المسلط؛ صالح: صفحات منسية من نضال الجزيرة، ص ١٤٩.

ففي عام ١٩٤٥م مهد الفرنسيون لضرب العفادلة وكسروهم عن طريق تلك القبائل، وحشدوا الحشود لمعركة فاصلة فاجتمعت جموع العفادلة، مما أرعب الفرنسيين فوقفوا بمصفحاتهم بين الطرفين، والواقع أنهم أدركوا أن العقابة وخيمة، وكان الشيخ بشير الهويدي شيخ العفادلة آنذاك، لكنه كان طاعناً بالسن، فكانت القيادة للعشرة يتشاطرها أبناءؤه مجحم وعلي وان أخيه فيصل بن محمد الهويدي، وهؤلاء جميعاً تخرجوا من مدرسة محمد الهويدي الذي كان أعداؤه يسمونه بـ(داهية البوشعبان) وقد توفي في نيسان عام ١٩٣٤م.

أدرك شيوخ العفادلة لعبة الفرنسيين فحشدوا أكبر عدد من رجالهم، وانضم إليهم من عشيرة الولدة قسم كبير يقوده الشيخ شواخ الأحمد البورسان لمواجهة الوضع، عندها أدرك الفرنسيون الهزيمة، وحاولوا جاهدين فك الاشتباك المنتظر، وعملوا بالمثل القائل: "يقتل القتل ويمشي في جنازته" فقد حرضوا الفدعان على القتال ثم حذروهم بعد فترة قصيرة من مواجهة العفادلة لأنه لاقدرة لهم على مواجهة هذه الجموع، وهذه صيغة استفزاز لمعرفتهم أن تلك القبائل كان لديها نوع من الغطرسة والتعالي، وهذا ما يهتمهم أو ما يريدون أن يصلوا إليه لتحقيق سياستهم بالقضاء على الفئتين المتصارعتين (العفادلة والفدعان) معاً، فهم يظهرون المودة والمساندة للفدعان ظاهرياً، أما باطنياً فخطّتهم القضاء عليهم وعلى العفادلة بتحريضهم بعضهم على بعض، إذ قالوا للفدعان أخيراً سنسحب قواتنا ونترككم لوحدهم في الميدان، فهل تستطيعون الصمود، وهذا تحريض نهائي مبطن، وبالفعل سحبوا اثنتي عشرة مصفحة وتركوا الجمعيين المتقابلين للأقدار، وفي النهاية تدخلت العناية الإلهية وانسحب الفدعان فتواروا بعيداً إلى منطقة البقارة، ثم عبروا الفرات إلى طرف الشامية، وهذه الحشود التي اجتمعت للمعركة الفاصلة في منطقة الدشاقية، ودامت المواجهة حوالي /٥٧/ يوماً، وهي السياسة الفرنسية في المنطقة، لكن بعد ذلك حدث الاستقلال الوطني^(٦٤٢)، وأصبحوا جميعاً أخواناً.

ومن الجدير ذكره أنه تشكلت حكومة في الرقة من أبناءها دُعِين بحكومة (غُفان) وهو من العفادلة إلا أنها لم تدم طويلاً.

ولابد أن نذكر أيضاً أن العياف من البوعساف هم الذين أنقذوا بشير الهويدي من الفرنسيين وأوصله عبيد بن غبين بسيارته إلى أهله. أما حادثة الرجال الذين عقلوا أنفسهم فكانوا ثلاثين رجلاً ضد الفرنسيين، وكانوا من: العبد الحي والعلوش والعساف والعلوان، يضاف إلى أسماء الرجال الوطنيين والمناضلين في الرقة: محمد إبراهيم الشيخ من البريج، والحاج بليخ، وحسن المحمد الحسن، وهلال إبراهيم الشيخ ويوسف الذيب والهطليس من البريج، وعبد الهادي الغريب من البريج. كذلك فإن البنات اللواتي تعرضن لهن الفرنسيون بسجن أهلهن فقام محمد الفرج الدندن وأنقذهن من السجن الفرنسي، وأقسمت إحادهن ألا تقصّ شعرها لكي لا تحنث بيمينها مع ذلك لأنه لبّى النخوة من الفتيات، فكان بحق بطلاً من الأبطال المناضلين ضد الفرنسيين

ولابد أن نذكر أنه بتاريخ ٤/٤ تموز ١٩٤١م عندما شبّ الحريق الهائل في دار الحكومة بالرقة، غُذِبَ لإطفاء الحريق وإحضار المناضلين الأشداء لإخماد النيران أثناء حرقها من قبل الفرنسيين، وكان المناضل الوطني الجسور أحمد الحمود المهنا ومصطفى العيدو وجبر الشواخ ومصطفى الحمود العلي الظاهر، إذ كان لهم الدور البطولي والجريء في إخماد الحريق وتهدئة الأحوال، إذ حضرت على أثر ذلك السلطات الأجنبية من حلب ووقفوا عن كثب على ملابسات الحادث.

مقتل الكابتن جريناس على يد البطل عبد المحسن حاسة من الشاشان عام ١٩٣٣م:

في شهر رمضان المبارك الموافق لشهر كانون الأول عام ١٩٣٣م، إذ ذهب عبد العزيز حاسة وابن شقيقه: عبد المحسن برسه، وهما من الشاشان وكانت أرضهما قرب تل تمر بقرية العريشة من أعمال السفح بمنطقة رأس العين على مقربة من ناعور على نهر الخابور، وعندما كانا على ظهري فرسيهما، وبينما هما على الطريق تعرضت لهما سيارة الكابتن جريناس، وهو قادم من السفح باتجاه منطقة رأس العين، وكان بحوزتهما بندقية حربية فاستوقفهما الكابتن جريناس وكان من طبقة النبلاء في فرنسا، إذ طلبن منهما الكابتن جريناس تسليم السلاح الذي بحوزتهما فأخبراه بأن البندقية مرخصة وموثقة باسمه، فحاول الكابتن تخليصه البندقية لكنه لم يستطع، فقام الكابتن بتعذيبه تعذيباً وحشياً، ركلاً بقدميه ولطماً بيديه، حتى كاد أن يرديه قتيلاً، فصاح عبد العزيز بابن شقيقه عبد المحسن: "قتلني ابن الحرم" فما كان من ابن شقيقه إلا أن ابتعد قليلاً وصوب ببندقيته صوب الكابتن جريناس فأطلق عليه ثلاث عيارات نارية، أردت الكابتن جريناس قتيلاً، على حين لاذ سائقه ومرافقه بالفرار، فتجمهر الفلاحون من القرى

المجاورة إثر سماع صوت إطلاق النار، وما كان من عبد العزيز وابن شقيقه عبد المحسن إلا أن لاذا بالفرار شمالاً باتجاه تركيا، وهكذا وصلت الأخبار للقوات الفرنسية، وبعد ساعات حضرت بقيادة الجنرال جاكو فطوكت المكان بالمدرعات والجنود من دير الزور^(٦٤٣)، إذ ساقوا الأهالي من قرى الشاشان من السفح تجاه رأس العين، وقاموا بحرق القرى والمزارع، وحين وصول الأهالي إلى رأس العين انضم إليهم آل البزرة، وعلى الفور قاموا بأعمال وحشية بالأهالي من التعذيب والتكيل، وإضافة إلى كل هذه الأعمال والفضائح تقدمت السلطات الفرنسية بطلب غرامة مالية من الأهالي تقدّر بخمسمائة بندقية حربية وألف مشط معبأة بالرصاص، وكل ما بحوزتهم من الليرات الذهبية، فقامت قبيلة الجاجان بتجميع هذه الغرامات من القبائل المجاورة، وحين وصولهم إلى مضارب قبيلة الجبور قام أحد المواطنين الشرفاء والذين يمتازون بالنخوة والشهامة، بإعطاء كل بنت من بناته مقابل بندقية تعطى للشاشان، أمّا عن الفدية فكانت تركيا ترفض تسليم كل رجل منهم إلا بعشرة رجال، وحين أصبحوا بحوزة السلطات الفرنسية قامت بزجهم في سجن الرملة ببيروت، وجرت لهما محاكمة في سياق المحاكم المختلطة، إذ استنطقه المحامي بأن يعطي إفادته بقوله إن الذي قتله هو عمي، وكان صغيراً في السن، بمعنى أنه حدث، ليكون بحكم جنايات الأحداث فيخفف عنه الحكم، وفعلاً تم ذلك، وأودع بسجن في حلب، يسمى سجن اسطنبول، وهو سجن عسكري، ومكثا في السجن سبعة أعوام، وبعدها تم إرسالهم إلى سجن دير الزور، وحين جلاء القوات الفرنسية عن دير الزور بحكم كونها من الأراضي الواقعة تحت الانتداب البريطاني أعفت عنهما السلطات الفرنسية، ثم عادا إلى قريتهم السفح برأس العين.^(٦٤٤)

انتفاضة عامودا وضربها بالطائرات عام ١٩٣٧م:

هي بلدة صغيرة تقع على الحدود السورية التركية، في الغرب من مدينة القامشلي التي تبعد عنها حوالي ٣٠/كم، تشتهر عامودا بزراعة الحبوب لخصوبة سهولها، ويمتاز أهلها بأن لهم الدور الأمتل في المناسبات القومية، إذ قدمت هذه البلدة لثورة الجزائر قرابة ٢٥٠/ طفلاً احترقوا في السينما التي كانت تعرض شريطاً سينمائياً خصّ ريعه لصالح الثورة الجزائرية.

643 - الجندي؛ أدهم: صفحات منسية، ١٠٧.

644 - المسلط؛ صالح هواش: صفحات منسية من نضال الجزيرة السورية، ص ٢٢٤.

جاء الفرنسيون إلى سورية لتطبيق صك الانتداب ولحماية المسيحيين من المسلمين على حدّ تعبيرهم الاستعماري المزعوم، ولكن المصالح الاستعمارية كانت غايتها القضاء على الروح الوطنية، والعمل على بث الانحلال القومي، وأكبر تكذيب لهذه المزاعم مشاركة الكثير من أخواننا المسيحيين في النضال ضد الاستعمار الفرنسي^(٦٤٥) في كل أنحاء سورية عامة، وفي الجزيرة خاصة، وها هو المرحوم سعيد إسحق أحد كبار الشخصيات المسيحية أبرز شاهد على ذلك، فقد وقف وقفة مشرفة ضد الاستعمار، فأين الاستعمار الفرنسي من هذا الادعاء؟. وكذلك المطران قرياقس، فمن حسنات التاريخ أنه يفصح ما خفي من السيئات مهما طال أمدها، ويميط اللثام عن أسرارها الحقيقية. هدأت الأحداث في الجزيرة بعض الشيء، إلا أنه بقي تحت الرماد نار تمكّن المستعمر الفرنسي إيقادها متى شاء، وعندها استلم المستشار الفرنسي بلونديل زمام السلطة الفرنسية في القطر السوري، فأخذ يقرب من حوله فئة قليلة من أبناء الجزيرة المنبوذين أصلاً من الشعب ومن كافة الطوائف، وشاعت الصدف أن يعين السيد بهجت الشهاب محافظاً للجزيرة، فأخذت السلطة الفرنسية تحرك الاضطرابات، هنا تذكر المفوض الفرنسي الخزي والعار الذي لحق بجنوده في بيان دور بالجزيرة، وأخذ يتحرش بالمواطنين ويضغط عليهم، ولاسيما في منطقة عامودا لقتل الجذوة الوطنية فيها، وأخذ الخلاف يتوسع بين الحكومة الوطنية التي تمثل الجماهير في الجزيرة من جهة والحكام الفرنسيين من جهة أخرى، إذ تعمّد هؤلاء إهانة الجماهير والقائمقام ورجال الدرك الذين أنيط بهم حفظ الأمن والنظام الوطني، وإزاء ذلك بدأت تظهر بوادر مزعجة من بعض الضباط الفرنسيين وجنودهم، فشكّلت لجنة في عامودا لمناهضة الاستعمار مؤلفة من السادة: سعيد آغا الدقوري، وحاج شيخموس هسو، وحسين آغا الأسعد، وسعيد إسحق العبد الكريم، وعيسى آغا.

قام هؤلاء بالاتصال بالمرحوم دهام الهادي وجميل المسلط ومحمد عبد الرحمن الطائي الذين قدموا لهم الدعم والمشورة الكفيلة بمواصلة النضال ضد الاستعمار الفرنسي، كما شارك إلى جانب المرحوم دهام الهادي السيدان: عبد الباقي نظام الدين وعبد الرزاق الحسو، وقام الجميع بالتنسيق مع رجال الحركة الوطنية بدير الزور الذين كانوا يرسمون الطريق الأمثل للصمود والتصدي للحكم الفرنسي^(٦٤٦)، وكل ما هو

645 - علوان؛ إبراهيم: النضال القومي، ص ٨٧.

646 - المسلط؛ صالح هوش: صفحات منسية من نضال الجزيرة السورية، ص ٦٣-٦٤.

مفيد لرص الصفوف ونبذ الأحقاد وقتل الشعوبية والطائفية وعلى قاعدة هذا البناء قام رجال وجماهير عامودا بالوقوف صفاً واحداً دون أن يكون بينهم أي خلاف يذكر، هدفهم الأول والأخير عدم السماح للاستعمار الفرنسي أن يستغل أية ثغرة ينفذ منها إلى مآربه الاستعمارية.^(٦٤٧)

اعتقال الشيخ دهام الهادي عام ١٩٤١م:

في عام ١٩٤١م تمّ إلقاء القبض على شيخ شمر دهام الهادي من قبل السلطات الفرنسية وسلّموه لحلفائهم البريطانيين، ونفي على إثرها لمدة أربع سنوات إلى جزيرة قمران في البحر الأحمر قرب مدينة الحديدة باليمن، وكان بسبب عدم طاعته وقبوله لشروط الفرنسيين ورفضه لفكرة تجزئة سورية واقتطاع الجزيرة منها.

وفي العام نفسه ١٩٤١م من شهر شباط تمّ اعتقال أبناء عمومته: المرحوم الشيخ مدلول العواصي والشيخ المرحوم باشا متعب العواصي، ومعهم مجموعة من رجال شمر، إذ لجأ المستعمر الفرنسي نهم إلى أساليب الترغيب والترهيب في محاولة لفرض الشروط التالية:

- ١- الاعتراف بالوجود الشرعي للحكومة الفرنسية في منطقة الجزيرة.
- ٢- التعهّد بعدم اعترافهم بالشيخ دهام الهادي شيخاً جديداً لهم شرط أن يحظى بموافقة السلطات الفرنسية.
- ٣- أن يتعهد الموقوفون بأن يقدموا العديد من شباب شمر لتطويعهم في الجيش الفرنسي الموجود هناك بفرقة الهجانة (حرس البادية).
- ٤- أن يقدموا إعاشات من قطعان شمر ومزارعهم، وذلك لتموين الجيش الفرنسي.^(٦٤٨)

ووفود إلى المدينة لتتصل بشيوخ القبائل، وطور آخر باستخدام القومة من أجل ذلك، ففي عام ١٩٣٥م، اضطرت السلطات الفرنسية إلى إيفاد مندوب عن المفوض الفرنسي، وهو الكونت مع محافظ الجزيرة نسيب الأيوبي إلى منطقة عين ديوار من أجل تهدئة الأحوال والاتصال بشيوخ القبائل.

ثورة المسلخة ١٩٤٢م:

647 - قرقوط؛ ذوقان: تطور الحركة الوطنية، ص ١٧٥.

648 - المسلط؛ صالح هوش: صفحات منسية من نضال الجزيرة السورية، ص ٢٢٢.

فرضت السلطات الفرنسية ضرائب باهضة على عشير الدميم القاطنة قرية المسلخة، نقل جنود بقيادة (الليوتان أسران)، وأحاطت القوة بالقرية وأخذ جنودها يعتدون وينهبون حلي النساء ويضربونهم، فأثار ذلك العمل الحمية العربية في نفوس السكان، فأعلنوها ثورة عارمة، وكان يقود هذه الثورة السيدان فارس الصياح، وجوير الهويدي، وحدث بين الطرفين اشتباك مسلح، كانت حصيلة اندحار المعتدين الذين تركوا في أرض المعركة (٥) رشاشات من نوع (اف-ام) وخمسين بندقية، وقتل في هذه المعركة خمسة عشر تائراً بينهم حمد الفارس الصياح الذي مثل بجثته أشد التمثيل وجرح الكابتن (غوركي) وقتل أسيران.

وبعد هذه المعركة تألف وفد من ستة عشر خيلاً بينهم الشيخ كسار الصياح، والشيخ جوبر الهويدي، والشيخ عبود الفارس الصياح، لمقابلة القائمقام، ولشرح أسباب ثورتهم، وقبل وصولهم المدينة تصدّت لهم دورية من الفرنسيين كانت متجهة نحو المسلخة، وزعم رئيس الدورية أن الكابتن (سلفي) ضابط الاستخبارات أمره بإحضار الشيخ كسار الصياح، والشيخ جوبر الهويدي فأبلغوه أنهم في طريقهم إليه، عندما وصلوا المدينة اعتقل الشيخ كسار.^(٦٤٩) وهناك حدثت ملاسنة بينه وبين ضابط الاستخبارات، فبدلاً من أن يطلق سراحه قام بزجه في السجن، وأطلق عليه النار من بندقية حارسه فأرداه قتيلاً.

دير الزور والحرب الفلسطينية:

لم تبخل دير الزور لإنقاذ الأرض المقدسة، فقد تألفت في المدينة هيئات وجمعيات غايتها جمع المال والسلاح لمساعدة رجال الثورة، وكان الجود قد بلغ ذروته، وكانت تلقى الخطب الحماسية في الميادين: الجوامع، المقاهي، وقد تبرعت النسوة بحليتهن، والأطفال بما يملكون من نقود وصيغة ذهبية، وقد ضربت هذه المدينة الرقم القياس بذلك. ولم تكتف بالمال والسلاح فقد تطوع الشباب والرجال للذود عن الأرض المقدسة، وأول كتيبة أرسلت إلى أرض المعركة كانت مؤلفة من طلاب ثانوية الفرات، على أثر رسالة تلقاها طلاب هذه الثانوية من أستاذهم السيد عبد الكريم زهور، الذي كان مديراً لها، وانخرط في هذه الكتيبة الطلابية كل من: إسماعيل عكلة، صالح مربد، بهاء طبال، مصلح سالم، والتحق بهم الطالب الجامعي السيد عبد الله الشيخ عطية، الذي ترك كلية

الحقوق من أجل هذه الغاية المقدسة، وبلغ مجموع الشباب الذي تطوع للدفاع عن أرض فلسطين المقدسة (١٠٣) من المقاتلين، منهم: جميل عبد الجواد، تقي السيد، سعيد الرباح، حسين

أحمد بيك، إسماعيل الكبيسي، عبد القادر الكاطع، طه العمير، رئيس الفرسان الفياض، خلف الحاج حسين، عبد القادر حاتم زادة، وكان يقود هذه المجموعة الملازم خالد مطرجي، وقد قامت هذه المجموعة بأعمال بطولية وتشهد عليها منطقة جنين.^(٦٥٠)

وهناك جندي مجهول ضحّى بكل ما يملك من مال وكل نفيس في سبيل فلسطين، وهو: المجاهد المرحوم محمود الطبال، وهو ثائر رضع لبن الثورة وتغذى به، إذ كان رحمه الله رجل الثورة، جندياً فرض عليه الواجب الوطني أن يقاتل أعداءه بكل ماعنده من تفانٍ ووطنية صادقة، وتوفي هذا المجاهد الكبير ونعته قلوب كل من عرفه بدموع الحزن والأسى، حتى أن الشيخ أمين الحسيني قد أرسل من ينوب عنه لتشييع جنازته، وكل هذا تقدير كبير من أجل فلسطين إلى ابن دير الزور البار، وبقي المرحوم محمود الطبال، وبقي أبناء دير الزور في أرض المعركة إلى أن دخلت الجيوش العربية أرض المعركة، وقتل من أبناء دير الزور في أرض فلسطين الكثير من الشباب دفاعاً عن قوميتها وإحياء رايته.^(٦٥١)

ثورة دير الزور عام ١٩٤٥م:

عمّ المدن السورية الإضراب، وكانت دير الزور بطليعتها، وقامت المظاهرات الشعبية تطوف شوارع المدينة والحماص يعقدها، وأمّت الوفود الشعبية دار المحافظة للمطالبة بالأسلحة استعداداً للجهاد.

بدء الثورة:

في ليلة ٢٨/٢٩ أيار ١٩٤٥م انفجرت بدار الاستخبارات الفرنسية أول قنبلة، وقد ألقاها أحد المواطنين، وفي صباح اليوم الثاني كانت تمر سيارة (الكلونيل شريتلت) بالشارع العام فأحرقها الأهلون، وجرحوا سائقها الفرنسي، فنظم الثوار مظاهرة حماسية أمام دائرة الدرك الفرنسي (البروفوتي) وأطلق الدرك الفرنسي النار، فقتل الشهيد حسن المشهور الحمد، فعلم الثوار بذلك الغدر، فقطعوا كافة طرقات المدينة بالحجارة، كما قطعوا أسلاك الهاتف، فتوقفت المخابرات بين القوات الفرنسية، واجتمع رجالات المدينة

650 - شاهين، مازن: تاريخ محافظة دير الزور، ٢٢٠-٢٢٧.

651 - نخبة من الباحثين، دير الزور ماض عريق، ٣٦٨-٣٦٩.

كافة، وزعماء العشائر بدار المحافظ السيد غالب منيرو، وأخذوا يتداولون بالأشياء السريعة والكفيلة بالقضاء على القوات الفرنسية، وفي هذه الأثناء مرّت مظاهرة قوية كانت تطوف الشوارع لبث روح الثورة الوطنية في نفوس المواطنين، وتحثهم على الجهاد حتى النهاية، فأطلق عليهم الأستاذ حسين السراج من شرفة المحافظة وألهبهم بخطبته الحماسية، وعلى الضفة اليسرى لنهر الفرات كانت تقع دار الكولونيل (شوتيل) وقوة فرنسية كانت ترابط على مدخل الجسر الكبير، وبعد تبادل إطلاق النار برهة من الزمن استسلمت الحامية الفرنسية وقتل الثوار خمسة ضباط وعشرة ضباط صف ذبحوهم ذبح النعاج على قناطر الجسر الصغير، وقتل الشيخ فاضل البدر في هذه المعركة، وهو أحد رؤساء عشائر (البقارة) برصاصة طائشة. (٦٥٢)

المصفحات الفرنسية تتأثر لضباطها:

قامت بعد ذلك المصفحات الفرنسية بمحاولات يائسة بهدف اختراق الشوارع وإضعاف الروح المعنوية، لكنها كانت تلاقي المقاومة الشديدة فأعطب الثوار مصفحتين من نوع (بلاندي) فاشتدت المعركة في صباح (٣٠) أيار فهاجم الثوار قيادة الموقع، ومكتب الاستخبارات ودائرة الأركان (المندوبية) ودائرة الأمن العام مهاجمة عنيفة ودامت المعركة مدة تسع ساعات بدون انقطاع، استعملت فيها الرشاشات والمدفعية الثقيلة من نوع (٧٥) مم، وقتل في هذه المعركة الشهيد علاوي الدواس الرداوي، الذي كان يرمي الاستخبارات العسكرية من فوق أحد الأسطحة، وانسحب العدو من جميع الثكنات العسكرية التي تقع خارج المدينة. وما هي إلا لحظات حتى رفرفت الأعلام السورية فوقها فحيّتها الألوف النائرة بدموع الفرح، وبدأ المحاصرون بإطلاق المدافع من الثكنات البعيدة وركزوا الضرب على المدينة القديمة (دير العتيق).

الثوار يحاصرون الشرطة العسكرية:

منذ أول يوم من أيام الحوادث والشرطة العسكرية دافع الثائرون دفاعاً مستميتاً، وقتل من جراء ذلك الشهيد الحاج قاسم السمعه الذي كان يصب البنزين على باب دارها، وبعد عصر يوم /٣٠/ أيار تمكن الأهليون من فتح ثغرة في جدار الدائرة المحاصرة فتمكنوا من إلقاء القبض على كافة الأفراد الذين قتلوا جميعاً وألقوا بأجسادهم من الشرفة معلنين تطهير كافة الجيوب في هذه المنطقة.

قصف المدينة بالطائرات:

إن المدافع التي قذفت المدينة بمئات من قنابلها الثقيلة لم تشبع غرائزها فأرسلوا طائراتهم الحربية بقتالها تنسف البيوت الآمنة، وقد قرر الفرنسيون تدمير دير الزور عن بكرة أبيها، وكانت تلك الطائرات محملة بأثقل القنابل المحرقة، وكانت تأتي من مطار الحسكة، وقرر الفرنسيون أن يقوم الطيران بدعمه المدفعية بالضرب بأن واحد، فعلم الثوار بذلك، فأخرجوا الأطفال والنساء والشيخوخ إلى البساتين، وكان أحد الجنود العرب يعملون في الجيش الفرنسي وهو من أهالي دير الزور، فعزّت عليه وطنيته بأن يقوم غزاة بتدمير بلدته وأهله، وكان الجندي مكلفاً بتغذية الطائرات المغيرة بالبنزين، ويدعى (شريف العزاوي) ومعروف ببلدته باسم (أخو نصره)، إذ عزّ عليه أن تهدم مدينته فقام بإملاء أحد الخزانات بالماء بدلاً من البنزين لكي لاتكمل الطائرات المغيرة رحلة الدمار، وبالفعل لم تستطع تلك الطائرات إكمال رحلة الدمار وقبض عليه الفرنسيون وعذبه أنكل تعذيب. (٦٥٣)

الثوار يطلبون الهدنة:

طلب المحافظ من الفرنسيين في أثناء ضرب المدينة هدنة لدفن القتلى الشهداء، وتمّ ذلك فعلاً، وشيّعت دير الزور الشهداء بأكاليل الورد والزهور، وعقد اجتماع في دار المحافظة حضرة السادة: الشيخ عبود الجدعان، الشيخ مشرف الدندل، السيد محمد الفرج، الشيخ تركي النجرس، الشيخ أسعد البشير، الشيخ أحمد الفياض، وكلهم شيوخ عشائر دير الزور، وحضر كذلك رجالات المدينة، وهم: عبد اللطيف الفرحان الفياض، عمر عبد العزيز، الحاج محمد العايش، الحاج محمد الفتّيح، وتحدثوا عن الحالة الحاضرة، واتفقوا على إرسال برقية إلى جميع وزراء وقناصل الدول الأجنبية، كما أرسلت برقية إلى رئيس الجمهورية السورية تؤيد الحكومة التأييد المطلق.

عدول الفرنسيين عن المدة المحددة:

عندما علم الفرنسيون أن الدول المتحدة أسندت زمام الأمر في سورية ولبنان للجيش البريطاني (التاسع)، أرسلوا كتاباً إلى محافظ دير الزور يعلموه أنهم عدلوا عن تمديد الهدنة مدة ثمانية وأربعين ساعة، ناسبين ذلك لخطأ كتابي، واكتفوا بتحديد المدة إلى أربعة وعشرين ساعة تنتهي بظهر اليوم نفسه الذي أرسلوا فيه الكتاب، ويقصدون

من وراء ذلك اغتنام الفرحة لتنفيذ مآربهم، وقد طلبوا غرامة قدرها أربعة آلاف بندقية، وخمسون مدفعاً رشاشاً، دية عن كل جندي قتل من الفرنسيين، وألف ليرة ذهب، غير أن السادة: الحاج محمد العايش، والحاج محمد نوري الفتيح، والشيخ الكبير سعيد العرفي، والسيد عبد اللطيف الفرخان، والأستاذ الشاعر الوطني محمد الفراتي الذي ذهب بنفسه وهو يحمل الراية البيضاء.^(٦٥٤)

فاتصلوا بالفرنسيين لأخذ نتيجة حاسمة عن المدة المقررة لهم لنقل القتلى والجرحى، فذهب الفراتي يرافقه السيد خلوف المهلهل، فعرضوا المفاوضة بهذا الصدد فتشكّل وفد مؤلف من السادة المذكورين أعلاه في ١/ حزيران لمفاوضة الكولونيل (هوكنه)، وعلى أثر ذلك اجتمع ضابط الارتباط البريطاني (الميجر منيرن) بالمحافظ وأعلمه أن الأمم المتحدة أسندت إلى البريطانيين استلام الأمن بسورية، وأنه قد أعلم الفرنسيين بذلك، وبعد أن علم الفرنسيون قاموا بعمل انتقامي فنهبوا مدرسة التجهيز وأتلفوا مخبرها، ووجهت رابطة الثورة نداء إلى الجنود والضباط العرب تحثهم فيه على الالتحاق بالحكومة الوطنية، وهذا نصّه: (أيها الضباط وصف الجنود في القطع الخاصة، إن الحكومة السورية الوطنية كانت وما زالت تحرص على التعاون معكم وهي ترحب بكم للعمل في جيشها لإنهاضه بما أوتيتم من خبرة ودراية. كما وجهت لجنة طلاب دير الزور نداء مماثلاً إلى الضباط والجنود، والتحق بالحكومة السورية كل من النقيبين: توفيق نظام الدين، وموفق القدسي، والملازم أول جمال فيصل، والملازم طارق كيلاني بسيارة من الجيش الفرنسي، كان يقودها العريف عبد اللطيف الأحمد العاني/ والتحقوا جميعاً بالقوات التي استسلمت تحت قيادة الملازمين: سليم أصيل وصبحي بنود، وكذلك التحق النقيب أديب الشيشكلي من حامية الرقة^(٦٥٥)، وعلى أثر ذلك بدأ الجنود يلتقون بالحكومة السورية أفواجاً وسراباً، ووجه الضباط الوطنيون النداء تلو النداء إلى المعسكرات كافة، وأثرت هذه النداءات بالجنود وضباط الصف، وأخذت الفرق تلتحق بالقيادة الجديدة، عندما رأت السلطة الفرنسية أن الجنود قدروا الالتحاق عمدت إلى اتخاذ بعض التدابير، كأخذ الأسلحة من الجنود ووضعها في المستودعات تحت رقابة شديدة. لكن ذلك لم يؤثر، فصار الجندي الذي لم يستطع الفرار بسلاحه، يجلب معه شيئاً آخر يستفيد منه الجيش السوري.

654 - الرويلي؛ محمد رشيد: الحركة الثقافية، ص ١٢٧.

655 - الدخيرة؛ محمود: أهل الرقة، ص ٢٤٠-٢٤٨.

وصول القوات البريطانية:

قدمت المدينة بتاريخ ١٩٤٥/٦/٦ م طلائع الجيش البريطاني الذي جاء لاستلام الأمن، وبتاريخ ١٩٤٥/٦/١٤ م قدمت المدينة لجنة تحقيق بريطانية مؤلفة من ثلاثة ضباط، وطافت على الأماكن والدور المهدومة من قبل الطائرات والمدافع الفرنسية، وكانت نتيجة عدد القتلى /٨٩/ قتي و/٢٠٠/ جريحاً من الثوار وهُدم /٣٥/ داراً بكاملها.

احتجاج الأهليين على بقاء قوات فرنسية بسورية:

احتج أهالي دير الزور على بقاء قوات فرنسية بسورية عندما علموا أن محطات الإذاعة قالت إن الجنرال (باجيت) قائد قوات الحلفاء في الشرق الأوسط قد اتفق مع الجنرال (بنيه الفرنسي) على استبقاء بعض القوات الفرنسية في سورية.

استشهد المواطن أحمد خضير السليمان من أهالي دير الزور أثناء العدوان الفرنسي سنة ١٩٤٥ م، والشهيد عبد الجبار حامد السلامة، والشهيد فاضل بن بدر الصالح من قرية الكبر (ناحية الكره)، والشهيد حاج قاسم الشمعة، والشهيد مخلف الجاسم العاشور، والشهيد جرو الحياوي، والشهيد بشير الأحمد الحريب، والشهيد حديد الجميدي الرديني، والشهيد حسين العلي الناصر، والشهيد حسن المشهور الملقب جعليه، والشهيد حزينه الفرخان، والشهيد حبوش البرجس الحسن من قرية سفيرة فوقاني (دير الزور)، والشهيد خنجر بن جبر الحياوي، والشهيد خلف كريم الرمان، من قرية موحسن (دير الزور) أثناء المظاهرات، والشهيد داود سليمان الشكال.^(٦٥٦) والشهيد رضوان الجاسم العاشور، والشهيد زكريا حامد السلامة، والشهيد سليمان حاج جميان، والشهيد شفوك المحيمد، والشهيد عمر فرخان السليمان.

ثورة الرقة عام ١٩٤٥ م:

بدأت القوات الفرنسية تصب قذائفها على مدينة الرقة مستهدفة دار الحكومة ومخفر الدرك ودار مدير المنطقة، وجرى ذلك بدون سابق إنذار وقُتل من الأهليين أربعة أشخاص، والسبب الرئيسي لضرب المدينة كان المظاهرات التي قام بها أهل الرقة مما أفقد الضباط الفرنسيين صوابهم، فعندما أمر الكابتن (مالكرا) ضابط العشائر، والملازم (رينو) قائد الموقع، والكابتن جرمانوس سوري لجنسية بضرب المدينة، وعلى

أثر ذلك خرج النقيب أديب الشيشكلي ومعه مفرزة من الجند والتحقوا جميعاً بالقوات الوطنية بدير الزور، وكان لهذا العمل الوطني أثره الكبير في نفوس الجنود والرقباء العرب، فأخذوا يلتحقون بالثورة، والتحق كذلك قائد موقع تل أبيض الملازم بشور، وعند تأخر التحاق بقية عناصر الرقة بتأثير قائدها الكابتن جرمانوس وجهت القيادة الوطنية نداء إلى بقية الضباط والجنود، وما كاد النداء يصل أفراد الحامية حتى ثاروا على قائدها والتحقوا بالقوة الوطنية.^(٦٥٧)

ثورة أبو كمال عام ١٩٤٥م:

شعر الفرنسيون أن شرارة الثورة ستكون انطلاقتها من هذا البلد العربي الأصيل، لذلك أخذت تقطع الوعود لجنود وضباط هذه الحامية بزيادة الرواتب وحسن المعاملة، وأرسلت القيادة العامة الفرنسية الكولونيل (فيرمولان) لإلقاء المحاضرات على الضباط، وبث روح الدعاية الفرنسية التي تقصد توحيد الصفوف للمؤامرة والقضاء على كل حركة وطنية.

فانتهت جولة هذا القائد الكبير في بيروت حتى أبو كمال، فوصلها ليلاً وفهم ضباطها أنه حضر لتفقد الجنود، بل للسهر مع الضباط الفرنسيين، وأفهمهم أن المستقبل مضمون لهم، وأن فرنسا لن تخرج من هذه البلاد. وكان قائد السرية الملازم أحمد العظم، يعاونه الملازم صبحي بنود الذي كان يجتمع مع كبار البلدة ويخبرهم عن نوايا العدو، وتقابل هذا الضابط سراً مع الشيخ مشرف الدندل رئيس عشائر الحرسون، وتعهدا أن يقوموا للجهاد عند أول فرصة، ونقل الملازم أحمد العظم، وجاء بدلاً عنه الملازم الأول سليم الأصيل، فعرض الملازم بنود قضية على الملازم الجديد فكان الجواب ملؤه الوطنية الصادقة، فأخذ الأهليون ينظمون المظاهرات القومية، عندها شعرت القيادة الفرنسية بوجود ضابطين وطنيين في أبو كمال، فأرسلت قائداً فرنسياً ليستلم القيادة من الملازم الأصيل، وحضر الضابط الفرنسي فنظم الشعب مظاهراته العدائية لقدام هذا الضابط، وكانت خطب الشيخ عمر النقشبندي مفتي أبو كمال لها الأثر الكبير في إثارة الشعب وحثه على متابعة النضال، وطلبت الجماهير إبعاد هذا الضابط، وكان لها ما طلبت، وفي ٢٩/ أيار ١٩٤٥م^(٦٥٨) اجتمع سراً الملازمان سليم وبنود والشيخ النقشبندي في البساتين، ثم تمت لقاءات أخرى ساهم فيها مدير الميرة السيد

657 - الدخيرة؛ محمود: أهل الرقة، ص ٢٣٧.

658 - جريدة الفرات، العدد ٣١، ١٦-٤-١٩٤٨م.

شكيب، ومدير مال أبو كمال وقائد الدرك، فوصلت الأخبار بأن دمشق ضربت بالقنابل، فتحقق لجميع أن لا استقلال إلا بالقوة، وعلى حين كان كل الجنود يقومون بالتدريب اليومي، انطلقت إشارة، فظن الجنود أنها إشارة الخطر المعتاد عليها كل يوم للوقاية من المظاهرات، فاجتمعوا بسلاحهم، وانقسموا إلى قسمين، كل قسم بإمرة ضابط، ولما كانت الساعة التاسعة صباحاً فاجأ الضابطان جنودهم برفع العلم السوري مع فتح النار تحية للعلم، وإعلان أول ثورة عسكرية في القطر السوري.

فخلع الجنود الشعار الفرنسي ولبسوا (الحطة والعقال) وأسروا الفرنسيين الموجودين، وعندما علمت القيادة الفرنسية أرسلت طائرات لضربهم، لكن الثوار ردوها بنيران رشاشاتهم، وانضمت إلى هذه الثورة جميع الفئات الشعبية، وعلى رأسها عشيرة الحسون التي يتزعمها الشيخ مشرف الدندل، وهكذا تم استلام كافة المراكز العسكرية في دير الزور والرقعة وأبو كمال، وقام ضباط الثورة الذين تمركزوا بدير الزور بوضع خطة لتطهير كافة الجيوب الفرنسية بالجزيرة، وفعلاً تم ذلك بنجاح، وبعد القضاء على كافة جيوب المقاومة في دير الزور وجهت قيادة حامية دير الزور النداء التاريخي التالي: إلى ضباط حامية الرقة، إلى قواد جيوش حامية الرقة البواسل.^(٦٥٩) أبناءنا وأخواننا الأعزاء: لا بد وأن يكون بلغ مسامعكم ما قام به أخوانكم في الحاميات والتكنات العسكرية من البطولة والشجاعة والتضحية لإنقاذ وطنهم المقدس وإحياء تراث ومجد آبائهم، لقد غادر إخوانكم مراكزهم والتحقوا بالجيش الوطني السوري أفراداً وجماعات بأسلحتهم ورشاشاتهم وكامل معداتهم فاستقبلتهم الأمة والشعب بالترحيب والإعزاز والتكريم أينما ساروا وحيثما حلّوا، وأنه لمن المؤلم أن تكونوا أنتم يا أخواننا الأبرار بمعزل عنا لا تشاركونا في هذا الجهاد المقدس والفخر الأجدد، وأنتم الغر الميامين والشجعان الأبية لكن نعلم مؤكداً أن الذي حال بيننا هو قائدكم الخائن (جرمانوس) المسيطر المغرور الخائن لوطنه وبلاده، ولاعجب في ذلك، فأنتم تعلمون أن لا صلة بينه وبين وطنكم العربي السوري، إنه مجنس بالجنسية الفرنسية الخادعة الماكرة، ويعلم هو يقيناً أنه ليس في هذا الوطن العربي السوري مرتبط عنز أو حبل بغير إذا غادر بسيادة البلاد. وهذا مما لاشك فيه وهو بديهي ووشيك الساعة أذنت بالنصر النهائي، وسترون بأعينكم كيف يغادر هذا الوطن جاراً أذيال الخزي والعار. يا أخواننا الأوفياء:

إننا لا نريد أن تكونوا آلة صماء أو لعبة بيد طفل، بيد هذا الخائن الذي يجعل منكم سلعاً لبلوغ قاربه الدنيئة القدرة، وقرباناً ليقدمكم على مذبح شهواته الخبيثة، وهذا مما لا نرضاه لكم، ولا يمكننا السكوت عنه مهما يكلفنا من تضحية، على هذا جننا ندعوكم إلى العودة إلى أحضان وطنكم الأم قبل فوات الفرصة، بادروا وسارعوا أخواننا إلى الجهاد المقدس، فلمثل هذا اليوم خلقتكم، وعلى التفاني فس سبيل الوطن أقسمتم، فروا بأنفسكم وارجعوا إلى الوطن الأم، فعين الله ترعاكم، وعين الوطن ترقبكم، والأعناق مشرئبة إليكم، هيا إلى الوطن أيها البواسل. (٦٦٠)

قائد حامية أبو كمال

أصيل

قائد حامية دير الزور

نظام الدين

قائد الفرقة الآلية

فيصل

قائد حامية الميدين

قدسي

بعد أن تم جلاء آخر جندي عن أرض الوطن وسارت الحياة الوطنية التي كانت قاتلت من أجلها الجماهير، سارت هذه الجماهير بالركب الوطني الجديد، وهي تراقب رواسب الماضي بحذر شديد، كما كانت تراقب عن كثب أعداء الشعب الذين تتلمذوا على يد المستعمر وغرسهم في أرض الوطن للعبث بمقدرات الشعب، ولقد نمت الحركة الوطنية وكانت تقودها منظمات لها طابع تجمع يضم القوى الوطنية من مختلف الطبقات، إلا أن الغالبية القيادية إقطاعية برجوازية، ونمت الطبقة البرجوازية واتسعت بسرعة بسبب ظروف المجتمع الجديد بعد الحرب العالمية الثانية، إذ كانت الطبقة البرجوازية الحاكمة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالإقطاع الكبير المسيطر سيطرة كاملة على الحياة الاقتصادية والزراعية، وبدأ الصراع يظهر بين الأجيال الجديدة التي انتظمت في أحزاب عقائدية، وبين الزعامة التقليدية التي اعتمدت على مصالحها ومركزها الشخصي، ولقد تمسك البرجوازيون والإقطاعيون بالنظام البرلماني تمسكاً شديداً، فعن طريق هذا النظام يستطيعون أن يسيطروا ويحكموا البلاد. وبدأ الصراع الطبقي يتضح رويداً رويداً في المجتمع الديري نتيجة لوعي الجماهير على حقيقة تكوينهم الطبقي وعلى الظلم الذي يعانونه من الطبقات البرجوازية، إذ كانت حرية الفرد العادي مكتوبة، كما كانت عرضة لأساليب القسر والإكراه من قبل زعماء الإقطاع ورؤساء العشائر،

وقد عانى المجتمع الديري من ويلات هذا الواقع الفاسد، فظهرت منه جماهير كادحة تؤمن بالاشتراكية عقيدة ونظماً ودستوراً، وأخذت هذه الجماهير على عاتقها النضال المستمر على كافة الأصعدة والمستويات، لقلب وتبديل ذلك الواقع الفاسد بواقع صحيح متقدم مزدهر، ومن خلال نضالها هذا بثت قدرتها على العطاء وعلى الصمود والثبوت لحماية كل مكتسباتها الاشتراكية التي هي جزء لا يتجزأ من كيانها.^(٦٦)

خاتمة:

١- لقد عبّر أبناء الفرات والجزيرة عن نمو الحس القومي لديهم، فظهرت جمعية سياسية، أطلق عليها (جمعية العهد الفراتي)، وقد كانت تضم مجموعة كبيرة من وجهاء وشيوخ المدينة والريف من مختلف مناطق ومدن الفرات الأوسط والجزيرة، وقد كان لها أهداف سياسية، أهمها تشكيل قوة سياسية تضم الزعامات العسكرية في المنطقة كافة لتسهم في توعية أبناء المنطقة وتجهيزهم لمقاومة العثمانيين عندما تقتضي المصلحة العامة لأبنائها ذلك. وقد أطلق عناصر هذه الجمعية على أنفسهم اسم الفراتيين، وقد جعلوا لهم قادة سريين تحفظوا على أسمائهم خشية كشفها من قبل قوات الاحتلال العثماني

٢- بعد انسحاب الأتراك من منطقة الفرات والجزيرة في ٦/ تشرين الثاني عام (١٩١٨م/١٣٣٦هـ) كانت بريطانيا تنظر إلى منطقة الفرات والجزيرة بعين الاهتمام، وذلك بغية الاستيلاء عليها والسيطرة على مقدراتها، ولما لها من أهمية استراتيجية، وقد ظهرت نواياها جلية بعد فترة بسيطة من توقيع الهدنة الدولية (معاهدة الصلح)، وظهر ذلك بما اتخذته بريطانيا من وسائل عسكرية لاحتلال منطقة الفرات والجزيرة وضمها إلى العراق التي كانت تسيطر عليها ضمن منطقة نفوذها في الوقت الذي كان البريطانيون يقطعون الوعود باسم الحلفاء إلى الشريف حسين ويمنونه بالمواثيق والعهود باستقلال المناطق التي يتفقون عليها من البلاد العربية، وكانوا في الوقت نفسه يتفقون سرّاً على اقتسام هذه البلاد مع فرنسا في معاهدة سايكس-بيكو التي فضحت غاياتهم وخدعهم السياسية، فعاشت المنطقة بمرحلة تقلب سياسية خطيرة.

٣- البداية كانت مع تعيين رمضان الشلاش حاكماً عسكرياً لمنطقة الفرات والجزيرة قضاء الرقة والخابور والفرات، وقد أعقبها فوراً وصول الشريف علي ناصر إلى المنطقة على رأس قوة كبيرة من الهجانة موفداً من قبل ابن عمه الأمير فيصل الحسين لمراقبة الأوضاع في المنطقة.

٤- قامت ثورات كثيرة على إثر الاحتلال البريطاني للمنطقة كان أبرزها ثورة رمضان الشلاش، وبعض الثورات والمعارك الأخرى، مثل معركة الضبيعة والنسورية والمجروود....

٥- لقد امتدت الثورة السورية إلى مناطق عدة من البلاد، وثار أهل الفرات والجزيرة على الفرنسيين، وأشعلوا الثورة في منطقة جرابلس، وعلى طول سكة الحديد الممتدة من حلب حتى الحدود التركية.

٦- وقامت ثورات ومعارك كثيرة ضد الاحتلال الفرنسي في منطقة الفرات والجزيرة السورية، أبرزها ثورة البوعمر (الخابور)، ومعركة خشام أو الغبازة، وقامت ثورات في الرقة وانتفاضات في الميادين وأبوكمال والقورية وبياندور... ومعارك في عامودا والسفح.

٧- قامت بعض الحركات الوطنية من مثل: عصابة العمل القومي، والكتلة الوطنية في الجزيرة...

٨- لم تبخل دير الزور لإنقاذ الأرض المقدسة (فلسطين) على الرغم من الويلات التي كانت تعيشها، فقد تألفت في المدينة هيئات وجمعيات غايتها جمع المال والسلاح لمساعدة رجال الثورة، وكان الجود قد بلغ ذروته، وكانت تلقى الخطب الحماسية في الميادين: الجوامع، المقاهي، وقد تبرعت النسوة بحليتهن، والأطفال بما يملكون من نقود وصيغة ذهبية، وقد ضربت هذه المدينة الرقم القياسي بذلك. ولم تكتف بالمال والسلاح فقد تطوع الشباب والرجال للذود عن الأرض المقدسة، وأول كتيبة أرسلت إلى أرض المعركة كانت مؤلفة من طلاب ثانوية الفرات.

المستندات والوثائق
السالنامات
سالنامات الدولة العثمانية العلية

- ١ سالنامة الدولة العثمانية العلية عام ١٣١١هـ / ١٨٩٣م
- ٢ سالنامة الدولة العثمانية العلية عام ١٣٠٨هـ / ١٨٩٠م
- ٣ سالنامة الدولة العثمانية العلية عام ١٣٠٤هـ / ١٨٨٦م
- ٤ سالنامة الدولة العثمانية العلية عام ١٣١٦هـ / ١٨٩٧م
- ٥ سالنامة الدولة العثمانية العلية عام ١٣١٢هـ / ١٨٩٤م
- ٦ سالنامة الدولة العثمانية العلية عام ١٣١٤هـ / ١٨٩٦م
- ٧ سالنامة الدولة العثمانية العلية عام ١٣١٣هـ / ١٨٩٥م
- ٨ سالنامة الدولة العثمانية العلية عام ١٣١٩هـ / ١٩٠٠م
- ٩ سالنامة الدولة العثمانية العلية عام ١٣٢٠هـ / ١٩٠١م
- ١٠ سالنامة الدولة العثمانية العلية عام ١٣٢١هـ / ١٩٠٢م
- ١١ سالنامة الدولة العثمانية العلية عام ١٣١٧هـ / ١٨٩٨م
- ١٢ سالنامة الدولة العثمانية العلية عام ١٣٢٣هـ / ١٩٠٤م
- ١٣ سالنامة الدولة العثمانية العلية عام ١٣٢٤هـ / ١٩٠٥م
- ١٤ سالنامة الدولة العثمانية العلية عام ١٣٢٦هـ / ١٩٠٧م
- ١٥ سالنامة الدولة العثمانية العلية عام ١٣٢٨هـ / ١٩٠٩م
- ١٦ سالنامة الدولة العثمانية العلية عام ١٣٢٥هـ / ١٩٠٦م

سالنامات ولاية حلب

- ١ سالنامة ولاية حلب ١٢٨٥هـ / ١٨٦٦م
- ٢ سالنامة ولاية حلب ١٢٨٤هـ / ١٨٦٥م
- ٣ سالنامة ولاية حلب ١٢٨٧هـ / ١٨٦٨م
- ٤ سالنامة ولاية حلب ١٢٨٩هـ / ١٨٦٩م

- ٥ سالنامه ولاية حلب ١٢٩٥هـ / ١٨٧٦م
- ٦ سالنامه ولاية حلب ١٢٨٦هـ / ١٨٦٧م
- ٧ سالنامه ولاية حلب ١٣١٠هـ / ١٨٩٢م
- ٨ سالنامه ولاية حلب ١٢٩٩هـ / ١٨٨١م

وثائق المحاكم الشرعية

- ١ وثائق المحكمة الشرعية بدير الزور ، سجل رقم (٢) عام ١٣٤٤هـ / ١٩٢٦م
- ٢ وثائق المحكمة الشرعية بدير الزور ، سجل رقم (١) عام ١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م
- ٣ وثائق المحكمة الشرعية بحلب ، سجل رقم (٣١٣)
- ٤ وثائق المحكمة الشرعية بحلب ، سجل رقم (٣٠٩)
- ٥ وثائق المحكمة الشرعية بدير الزور ، سجل رقم (٣) عام ١٣٤٧هـ / ١٩٢٩م
- ٦ وثائق المحكمة الشرعية بدير الزور ، سجل رقم (٤) ، سجل زواج عام ١٣٤٧هـ / ١٣٤٩هـ - ١٩٢٩م / ١٩٣١م

وثائق الأوامر السلطانية

- ١ وثائق الأوامر السلطانية بحلب سجل رقم (٦٢)
- ٢ وثائق الأوامر السلطانية بحلب سجل رقم (٦٠)
- ٣ وثائق الأوامر السلطانية بحلب سجل رقم (٥٧)
- ٤ وثائق الأوامر السلطانية بحلب سجل رقم (٦٧)
- ٥ وثائق الأوامر السلطانية بحلب سجل رقم (٦٤)

وثائق سجلات الدفتر الخاقاني بمتصرفية دير الزور

- ١ وثائق الدفتر الخاقاني بمتصرفية دير الزور سجل رقم (٢) عام ١٣٢١ - ١٣٢٤ هـ
- ٢ وثائق الدفتر الخاقاني بمتصرفية دير الزور سجل رقم (١) عام ١٣١٨ - ١٣٢١ هـ

وثائق مجالس البلديات بمتصرفية دير الزور

- ١ وثائق المجلس البلدي بقضاء البوكمال
- ٢ وثائق المجلس البلدي بقضاء العشارة
- ٣ وثائق المجلس البلدي بمتصرفية دير الزور

وثائق إدارات الدولة العثمانية بمتصرفية دير الزور

- ١ وثائق إدارة الأمن " جهاز الضابطة " بمتصرفية دير الزور
- ٢ وثائق إدارة البوستان والتلغراف بمتصرفية دير الزور
- ٣ وثائق إدارة التحريات بمتصرفية دير الزور
- ٤ وثائق إدارة المحاسبية بمتصرفية دير الزور
- ٥ وثائق إدارة المعارف " مكاتب الابتدائية " بمتصرفية دير الزور
- ٦ وثائق إدارة النفوس بمتصرفية دير الزور
- ٧ وثائق إدارة الأوقاف بمتصرفية دير الزور
- ٨ وثائق إدارة المعارف " مكاتب الإعدادي " بمتصرفية دير الزور
- ٩ وثائق إدارة البنك الزراعي وشعبة الزراعة والتجارة بمتصرفية دير الزور
- ١٠ وثائق إدارة المعارف " مكاتب الرشدية " بمتصرفية دير الزور

الوثائق الشخصية

- ١ الوثائق الشخصية للمرحوم الشيخ فارس بن صفوك شيخ عشيرة شمر الجربا
- ٢ الوثائق الشخصية لآل عصمان بك
- ٣ الوثائق الشخصية للمرحوم الشيخ صفوك بن فارس الصفوك شيخ عشيرة شمر الجربا
- ٤ الوثائق الشخصية للمرحوم القاضي محمد توفيق الفنوش
- ٥ الوثائق الشخصية للسيد إبراهيم العبد الله
- ٦ الوثائق الشخصية لآل ويس النقشبندي